طبيعة الأحزاب السياسية العربية

المحامي احمد حسين يعقوب

الاحزاب العلمانية

معالم فكر اهل بيت النبوة

حزاب
ينية

الدار الإسلامية
بيروت - لبنان

طبيعة الأحزاب السياسية
العربيــة

طبعة جديدة مصححة ومنقحة
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

الدار الإسلامية
حارة حريك - شارع دكاش
هاتف :٨٣٥٦٧٠ ص.ب ١٤/٥٦٨٠

المحامي
أحمد حسين يعقوب

طبيعة الأحزاب السياسية العربية

١ ـ الأحزاب العلمانية ٢ ـ الأحزاب الدينية
٣ ـ معالم فكر أهل بيت النبوة

مجموعة مقالات متكاملة نشرت
بأغلبها في جريدة اللواء الأردنية

الدار الاسلامية
بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وأصلي وأسلّم على رسوله الأمين محمد، وعلى آله الطيبين، أئمة التقى، ونجوم الهدى، وسفن النجاة، التفّوا حول الرسول ودعوته يوم انفضّ من حوله كل الناس، ومضى به ومعه فأجمعت العرب على محاصرة الهاشميين ومقاطعتهم ثلاث سنين في شعاب أبي طالب حتى اضطرّ الهاشميون والمطّلبيون أن يأكلوا ورق الشجر من الجوع وأن يمصّوا الرمال من العطش، ولم يهنوا، ولم يحزنوا ولم يستسلموا أو يسلموا رسول الله ﷺ بل صمدوا معه حتى تجمعت كتائب الإيمان فترأسوا أركانها حتى دانت بأسيافهم العرب لرسول الله ﷺ. فتوحّد العرب بجهدهم وجهادهم لأول مرة في التاريخ وبكلفة بشرية لا تكاد تذكر فأحبهم رسول الله، وأحبهم الله الذي اصطفاهم، وجعل القرآن الثقل الأكبر وجعلهم الثقل الأصغر وأكّد أن الهداية لا تدرك إلاّ بالثقلين معاً وأن الضلالة لا يمكن تجنبها إلاّ بالتمسك بالثقلين معاً، فالآل الكرام هم أهل الفخر والشرف والرئاسة، وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وبانتقال النبي إلى جوار ربه قلب الناس لهم ظهر المجن فأخّروهم وهم المتقدمون، وأجبروهم على الإتباع وهم المتبوعون، وفرض عليهم الصمت والعزلة وهم الناطقون بلسان الهدى، وطوردوا وقتلوا تقتيلاً فاحتسبوا وضاعت الأمة من بعدهم، وتفرّقت شيعاً وأحزاباً، ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾، وزعم كل حزب من هذه الأحزاب أنه يملك الخطة المثلى لإنقاذ الأمة، وأن العناية الإلهية قد ساقت مؤسس هذا الحزب لإنقاذ العالمين العربي والإسلامي خاصة والعالم الإنساني

عامة، وأجمعت الأحزاب على تعطيل دور أهل بيت النبوة أو تهميش هذا الدور، ولاح لهذه الأحزاب أن مؤسسيها وقادتها قادرون على القيام بالدور الشرعي لأهل بيت النبوة. واستخفت الأحزاب العربية بشقيها العلماني والديني الناس بشعاراتها وأحلامها، وركض الناس من خلفها، فإذا الذي ظنّه الناس ماء سراباً. فأسقط بأيديهم ومات حسهم الاجتماعي، وقلّ اهتمامهم بالأمور العامة، وانطوى كل فرد على نفسه ومصالحه الخاصة. والأحزاب ماضية بطرح شعاراتها، سادرة بأحلامها ومطامعها الخاصة، والله يشهد أن غاية كل حزب هو الوصول إلى السلطة والتفرّد بها وحده، وما الشعارات البرّاقة بمختلف صورها وأشكالها إلاّ حبال تتسلق عليها الفرق للوصول إلى غاياتها، وعندما اكتشفت هذه الأحزاب استحالة تحقيق هذه الغاية في الأردن، استغلت مناخ الحرية والديمقراطية والانفتاح السائد والمكرّس في المملكة الأردنية الهاشمية وقبلت بالمشاركة كبديل مؤقت للتفرد.

وقد تناولت بهذه الدراسة طبيعة الأحزاب السياسية العربية بشقيها العلماني والديني من خلال مقالات مترابطة ومتكاملة نشرتها في أغلبها جريدة اللواء الأردنية، وسيكتشف القارىء الكريم أن هذه الدراسة تاريخ تكويني دقيق وفريد لطبيعة الأحزاب السياسية العربية ومواقفها، ومن خلال هذه الدراسة لوحت بالبديل الفرد، وهم أهل بيت النبوة الكرام. وغني عن البيان أنني لم أقصد الزراية أو الاستهانة بالمنظومة الحزبية السياسية العربية إنما قصدت النصح، وعبّرت عن الرغبة بالمشاركة باستكشاف طرق خلاص وفلاح هذه الأمة الماجدة.

إلهي ومولاي إجعل عملي خالصاً لوجهك لا اشتباه فيه ولا ادعاء، وصدقة تطفىء بها خطاياي، واجعله هدية خالصة لمحمد ولآل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، تقربني منك زلفى، إلهي إن أصبت فمنك إنك أنت الودود الرحيم، وإن أخطأت فمن نفسي. إن النفس لأمّارة بالسوء إلاّ من رحمت.

وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

المحامي

أحمد حسين يعقوب

الأردن ـ جرش ص. ب ٣٦٣

الباب الأول

حقيقة الأحزاب العلمانية العربية

الفصل الأول

فرسا الرهان
القوميون والإسلاميون العرب

١ ـ لعبة شدّ الحبل والتسلق:

مع أن هذه الأمة قد ثقلت في موازين الأرض والسماء، إلاّ أن القوميين والإسلاميين العرب قد حولوها إلى حبل من مسد وحولوا أرضها الطيبة المباركة إلى مجرّد ملعب، وشكّلوا فريقين فحيناً يشدون هذا الحبل وحيناً يتسلقونه. وبالرغم من مرور ٧٠ عاماً ونيف وبالرغم من أن الحبل المبارك قد ترتر، وتقطع إلى ٧٣ قطعة، إلاّ أن القوميين والإسلاميين العرب ماضون بلعبتهم هذه، يبتسمون، ويقهقهون حتى بين الجماجم والأشلاء، ويرقصون وهم في بيوت العزاء، ولا تفارق الفريقين روح الدعابة والمرح، ومع علمهم أنهم قد قطعوا الحبل إرباً إرباً بأيديهم وأرجلهم، وأنه لا يوجد في العالم أي نسّاج قادر على إعادته لحالته الطبيعية، وإن لزمناه إصلاحه سيكسر النول والمغزل وسيعلن إفلاسه، وبالرغم من ذلك فإنّ القوميين والإسلاميين العرب يتظاهرون دعاية بالإشفاق، ويزعمون الرفق حباً لهذه الأمة.

٢ ـ ملكية الحقيقة واحتكارها:

القوميون العرب، لأنّهم علمانيون، يقسمون بشرفهم أنه لن تقوم لهذه الأمة

قائمة حتى تدين بالعقيدة القومية لأنّ العقيدة القومية إكسير الحياة، فإذا دانت الأمة لهذه العقيدة وجعلتها منهج حياتها، عندئذ تعلو فوق مرج المجد والإخاء والرخاء وبالتالي تكون قد عثرت على الحقيقة المجرّدة بأيسر الطرق وأقلّ التكاليف والبحث عن الخلاص بغير العقيدة القومية عبث لا طائل تحته.

والإسلاميون يقسمون بالله ٧٠ مرة أنه لن تقوم لهذه الأمة قائمة حتى تعيد نظام الخلافة بالصورة والكيفية التي طبقت في التاريخ بدءاً من وفاة النبي ﷺ وحتى سقوط آخر الخلفاء العثمانيين، ولن يعود نظام الخلافة حتى يخرج من عالم الغيب الفارس البطل الذي لا يقهر، فيغلب كل الغالبين، ويصبح سيدهم الأوحد ويوحّد الأمة بالقوة وسحر الانبهار بغلبته فإذا اقتنعت الأمة بذلك فقد عثرت على الحقيقة المجرّدة واهتدت إلى طريق الخلاص.

٣ ـ تجميل الحقائق:

القوميون العرب استوردوا القومية واستوردوا معها كل أدوات تشغيلها وكل أنواع الزينة وملحقاتها من أصباغ ومساحيق وعطور ومن كل بلاد الإفرنج وطلوا وجه الحقيقة القومية التي يتغنون بها ولم يجدوا غضاضة ولا حرجاً من أن يستعينوا بالطيب الإسلامي وبما تيسّر من الذكر كأن يضعوا على جبين الحقيقة القومية، ومن شرّ حاسد إذا حسد، فنجوا من لوم العامة وأصحاب صناعات الحقائق الوطنية. ثم بعد ذلك قدموا حقيقتهم القومية كما خرجت من أرقى صالونات الزينة في العالم، فبدت الحقيقة القومية بهجة للناظرين، واستخفت بأصباغها وعطورها الكثير من عباد الله وشغفتهم حبّاً فسبحوا بحمدها بالعشي والإبكار.

وكردٍّ عليهم اعتنق الإسلاميون العرب عقيدة الخلافة التاريخية شكلاً ومضموناً وقدموها على أنها الإسلام السياسي مع علمهم بأن الخلافة تعني خلافة النبي، وأن الإسلام السياسي سابق لنظام الخلافة، وبعد ذلك سطوا على وقائع التاريخ وعلى المنظومة الحقوقية الإلهية حذفاً وتبديلاً وتحريفاً وتأويلاً وتقييماً وتجميلاً، بحيث تتفق الخلافة مع ما تهوى أنفس الإسلاميين، ثم أظهروها بمظهر الجنة وملكها الذي لا يبلى وعابوا على الأمة خروجها من هذه الجنة وعدم اعتبارها

بما فعله الشيطان عندما استزلّ أبوينا وأخرجهما من الجنة ولم يجد الإسلاميون العرب حرجاً إن استفادوا من عطور الإفرنج كما استفاد القوميون العرب من الطيب الإسلامي وقدم الإسلاميون العرب الخلافة كحقيقة مجرّدة تماماً كما استخرجوها من التاريخ المحمّل بروح العصر حبّاً وتصورّاً أن العمل على إعادتها يقرّبهم من الله زلفى، كيف لا، وهي الإسلام السياسي كما يتصورون.

٤ ـ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى:

عندما حصرنا التيارات العربية بتيارين: التيار القومي، والتيار الإسلامي، وذلك لغايات التبسيط والتوضيح، أما في الحق والحقيقة فالأمر مختلف جداً، فالتيار القومي يتألف من عشرات الفرق القومية لا يجمعها جامع سوى أنها تشدّ الحبل لجهة الفريق القومي، والتيار الإسلامي يتكون من بضع وسبعين فرقة كل فرقة تدعي أنها الناجية، وأنها المالكة للحقيقة وكلها تضرب على دف الخلافة. **﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾**.

٥ ـ الستار الحديدي:

لا مفرّ أمام الإنسان إذا ما أراد أن يتمتع بإنسانيته أو ببعض حقوقه التي اختصه الله تعالى بها دون منغصّات من أن يسلك أحد الطريقين أو يتبع إحدى الحقيقتين، أو أن يتشيع لأحد الفريقين، فإن فعل ذلك فقد احتل موقعه في إحدى الشركتين، ونال نصيباً من الغنم، وإن كان له فكر نشر فكره، وقدمه للأمة كأنه أحد الأعلام بغضّ النظر عن غثاثة فكره أو سمانته، عن سطحيته أو عمقه، ومن لا يشاطرهم اعتبر نسياً منسياً حتى ولو كان عند الله ولياً، وإن عاند أحد الفريقين معاند أو قدم تصوّراً للحقائق المجردة كما هي، ولكن بصورة لا تتفق مع الصورة التي بسطها أحد الفريقين حملوا عليه بخيلهم ورجلهم وشاركوه بالأموال والأنفس والثمرات، وطاردوه برّاً وبحراً وجواً، ولولا وجود السلطة لأخرجوه من أرضه بحجة أنه من أناس يتطهرون أو أنه شاق لعصا الطاعة أو مفرق للجمعة والجماعة... الخ.

٦ ـ دور الأمة:

أما بقية أفراد الأمة فهم يتفرجون على المباراة بتذاكر شرف مجانية، لأنّ

القوميين والإسلاميين العرب رجال مبادىء لا تهمهم النقود وغايتهم الوحيدة هي هداية الأمة وإمتاعها. . الخ.

٧ ـ سلطان الفرق:

وهكذا فرضت الفرق القومية والإسلامية العربية وجودها على الساحة وألقت أجرانها في الأرض، وتبرعت مشكورة لتمثيل دور الناطق الرسمي باسم الأمة، ولولا وجود السلطة المحايدة بحجم قربهم أو بعدهم منها لأكلوا لحوم بعضهم بعضاً أمواتاً وأحياء. فإذا وصلت إحدى فرق التيارين إلى السلطة، رددت هذه الفرقة مقولات فرعون وحاولت أن تستخف الناس كأن تقول: بأن هدف الأعداء أن يذهبوا بطريقتكم المثلى، وأن يسلبوكم ما آتاكم الله على علم، وإن هداهم هاد قالوا إن هذا لساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم، ويفرق جمعكم. . الخ، لله أبوهم ما أكثر تأويلاتهم.

٨ ـ السلطة معشوقة الفريقين:

قد يتصور متصوّر أن القوميين اتبعوا القومية لاقتناعهم بأنها الطريق المثلى لإنقاذ الأمة، وأن الإسلاميين العرب قد نادوا بالخلافة لاقتناعهم أنها الطريق إلى الله تبارك وتعالى، ولكن بقليل من البحث يتبين أن القومية مركب القوميين للوصول إلى السلطة والتفرّد بها أو المشاركة فيها على الأقل، وأن الخلافة هي مركب الإسلاميين العرب للوصول إلى السلطة والتفرّد بها أو المشاركة على أقل تقدير، فالهدف ليس القومية، وليست الخلافة، إنما السلطة معشوقة الفريقين، ولكن من باب الكياسة لا تعلن الأهداف الحقيقية وتبقى سرية، «وإذا بليتم بالمعاصي فاستتروا».

٩ ـ لو شاء الفريقان:

في حلقتين متتاليتين أثبت بالدليل القاطع أن الإسلام السياسي الذي أنزله الله على عبده ليس هو الإسلام الذي تدعو إليه الفرق الإسلامية، وإن الفرق الإسلامية تضرب حصاراً رهيباً حتى لا يعرف المسلمون الإسلام وحتى لا يتعرفوا على فكر

ووجهة نظر أهل البيت الكرام وبني هاشم، وعرضت على كل الفرق الإسلامية وعلماء الأردن أن ينفوا ذلك ولو بكلمة واحدة فسكتوا جميعاً بإذن الله، ولو شاء الإسلاميون العرب بينّا لهم الإسلام السياسي الذي أنزله الله على عبده، وأوضحنا لهم فكر آل البيت وبني هاشم فنفعوا أنفسهم وانتفعوا وأتاحوا الفرصة للناس لينتفعوا. والقومية هي بضاعة غربية بدمها ولحمها وأهدافها، والقوميون العرب أعقل من أن ينفوا ذلك بكلمة واحدة وإن فعلوا فسأبيّن لهم من هو أول المنادين بالقومية في العالم كله ومتى نشأت ومن هم دعاتها، وبأي سفارة غربية تكوّنت أول خلية قومية في العالم العربي، وأعتقد أن إخواننا القوميين الأكارم أعقل من أن ينفوا ذلك وإن عدتم عدنا. وللحديث بقية والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثاني

حول الأحزاب السياسية ودواعي التحزب

دواعي التحزّب السياسي:

حـ إن وجود الأحزاب يبرره وجود خلل في نظام سياسي معين ضمن عقيدة سياسية معينة فتنشأ الأحزاب بدعوى إصلاح هذا الخلل ولكن بوسائل العقيدة السياسية السائدة وضمن أطرها كما هو الحال في الأنظمة التحررية الرأسمالية، وغاية هذه الأحزاب هو إصلاح الخلل الحادث المزعوم بوسائل العقيدة السائدة مع الإبقاء على العقيدة وعلى النظام، وهذه الأحزاب إصلاحية فتقوم بدعوى المعارضة حتى تصل للسلطة فتتحول سلطة الأمس إلى معارضة، وهكذا ضمن إطار العقيدة نفسها، وقد تزعم الأحزاب أن الخلل يكمن في العقيدة نفسها، وأن هذا الخلل لا يزول ولا يتحقق الخير العام إلاّ بتبديل العقيدة السياسية نفسها، وإلغاء النظام السياسي، واستبداله بنظام جديد منبثق من عقيدة جديدة تماماً كحال الأحزاب الشيوعية فهي كافرة بالعقيدة الرأسمالية أو أي عقيدة أخرى، وترى أن الحل يتمثّل بنسف كل العقائد واستبدالها بالعقيدة الشيوعية والنظام الشيوعي السياسي المنبثق عن هذه العقيدة، ومن هذه الناحية فإن الأحزاب الشيوعية هي أحزاب ثورية تؤمن بهدم العقيدة السياسية السائدة والنظام السياسي السائد واستبداله استبدالاً كاملاً بعقيدة جديدة ونظام سياسي جديد.

كذلك الأحزاب الإسلامية الراهنة مع الفارق تهدف إلى استبدال الإيديولوجية الوضعيّة السائدة والنظام الوضعي السائد بنظام جديد منبثق عن عقيدة الإسلام.

أنواع الأحزاب السياسية:

وقد يكون الحزب إصلاحياً يهدف إلى سدّ الخلل المزعوم بوسائل العقيدة السياسية التي تحكم المجتمع.

وقد يكون الحزب ثورياً يهدف إلى استبدال العقيدة والنظام المنبثق عنها، وقد يكون الحزب علمانياً فلا يعطي للدين أي دور في الحياة العامة إلاّ بعض النزاعات المتعلقة بالأحوال الشخصية كإختصاصات القاضي الشرعي ومحاكم الطوائف، ولا دور للدين بتكوين السلطة ولا بشكلها ولا مضمونها ولا بالقوانين السائدة فيها، والأدوار التي تعطيها تلك الأحزاب للدين هي أدوار شكلية لا تقدم ولا تؤخر كالقول بأن دين الدولة هو الإسلام، ومعنى هذه القاعدة أن غالبية شعب الدولة يدين بدين الإسلام، فهي قاعدة وصفية لا إنشائية، وأبرز الأمثلة على هذه الأحزاب الحزب الشيوعي، الأحزاب القومية كحزب البعث، وقد وصل حزب البعث إلى السلطة في سوريا وفي العراق، ووصل الحزب الشيوعي إلى السلطة في اليمن الجنوبي. وباختصار شديد: إن هذه الأحزاب تؤمن بفصل الدين عن الدولة، وتؤمن بفصل الدين عن العقل، وبفصل القانون عن الأخلاق بنسب متفاوتة حسب درجة إيمان كل منها بالعقيدة الرأسمالية التحررية أو الماركسية الشيوعية أو بكيفية إجراء التزاوج بين هاتين العقيدتين وأثر كل منهما على الوليد الحزبي المنتظر.

والنوع الثاني من الأحزاب في الوطن العربي الأحزاب الدينية أي تلك التي تعطي الدين كعقيدة سياسية كل الدور في كل الأمور العامة، فهي تدعو لتبني الإسلام كله كعقيدة سياسية للأمة كلها وللمجتمع الذي تعيش فيه هذه الأحزاب، وتدعو إلى تبني نظامه السياسي ليسود المجتمع الإقليمي ومجتمع الأمة كلها، وأن تكون له الكلمة العليا بتكوين السلطة وشكلها ومضمونها والقوانين السائدة فيها بحيث لا يكون في المجتمع أمر من الأمور إلاّ متطابقاً مع الإسلام كعقيدة وشريعة.

نقول هذا على التعميم، لأنّ ثورة إيران ليست وليدة حزب معين إنما هي وليدة تحرّك شعبي عام أو بأكثرية ساحقة بقيادة علماء الدين في إيران، هذا التحرّك الشعبي الشمولي أثمر دولة تبنّت نظام الإسلام، وأبرز مثال على الأحزاب الدينية

في الوطن العربي: الإخوان المسلمين، وحزب التحرير والتبليغ والتكفير والهجرة وحزب الله والمشايخ ومن تابعهم.

مصادر العقائد السياسية التي تتبناها الأحزاب العربية:

الأحزاب العلمانية:

الأحزاب العلمانية العربية أخذت عقيدتها السياسية من عدة مصادر:

١ ـ **المصدر القبلي**: فكرة القبيلة ضاربة الجذور في النفس العربية وقديمة ومع هذا فإن لها حضوراً في الأحزاب العلمانية يتسلل ولو بطريقة عفوية غير مقصودة، والفكرة القومية ما هي إلاّ ثمرة مطورة لفكرة القبيلة.

٢ ـ **المصدر التحرري الرأسمالي**: جميع مؤسسي الأحزاب العلمانية درسوا في الغرب وبهروا بعقيدته وبنظامه السياسي واعتبروه مثالاً لهم في أكثر من ناحية من نواحي السياسة، فالكل يتغنى بالديمقراطية والحرية، وهما بمفهومهما المعاصر وليدان غربيان.

٣ ـ **المصادر القومية**: تحفل الأحزاب العلمانية بفكرة القومية بل وتقيم حكمها على هذا الأساس وتفكر بأن دولة الحزب هي دولة قومية وأن القومية خط ثابت لا يمكن الرجوع عنه، وهم يعرفون أن القومية عبارة عن إطار عام لا مضمون له، وهذا يتيح لهم فرصة صبّ المضامين التي يرونها مناسبة في هذا الإطار، وقد عالجت هذا الموضوع في مقالي السابق.

أما الأحزاب الدينية، فتقول: إنه لا عقيدة لها إلاّ عقيدة الإسلام، ولا نظام لها إلاّ نظام الإسلام وحده، ومع هذا فهي لا تهمل النافع من التجربة الإنسانية في كل المجالات.

ما هو المثل الأعلى للأحزاب العربية:

١ ـ **الأحزاب الدينية باستثناء حزب الله ـ الذي يعمل في لبنان بصورة علنية ـ**: فغاية ما تتمناه الأحزاب الدينية هو تكوين دولة تكون على شاكلة دولة الخلافة التي

حكمت المسلمين من تاريخ وفاة النبي إلى اليوم الذي سقط فيه آخر سلاطين الدولة العثمانية، أما حزب الله فهو أكثر وضوحاً وتحديداً.

٢ ـ **الأحزاب العلمانية**: عندما كانت دولة جمال عبد الناصر كان المثل الأعلى لأحزاب القومية تتنازعه ثلاث دول مثلى هي: دولة جمال عبد الناصر في مصر، ودولة البعث في سوريا، ودولة البعث في العراق، وبوفاة المرحوم جمال عبد الناصر وانهيار الحكم الناصري انحصر المثل الأعلى في دولتي البعث سوريا والعراق، فالمطمع الأول لكل حزب قومي أن تكون له دولة على شاكلة إحدى الدولتين المثال، وهما حقاً تؤمنان بالاشتراكية كمنهج اقتصادي وتؤمنان بالديمقراطية كمنهج سياسي.

الشعب يتابع دورة الحياة في شغل شاغل عن أحزابه، طرقت مسامعه شعارات الفريقين وأصغى قليلاً ثم سأل ـ على غير عادته ـ كم قومية للعرب قهرت كل الأحزاب؟ وأجابت بلسان واحد أنه لا يوجد للعرب إلاّ قومية واحدة، ثم يسأل ثانية: فعلام تختلفون إذاً ولما تتفرقون؟ فأطرق القوميون مليّاً بعد أن فاجأهم السؤال.

واغتنم الشعب الفرصة والتفت إلى الأحزاب الدينية متسائلاً: كم دين لكم؟ فيجيبون بوقار: لنا دين واحد أيها الشعب الكريم، ويتابع سؤاله الآخرَ: فعلام تختلفون إذاً ولم تتفرقون؟.

الأحزاب الدينية تطرق ملياً وقد فاجأهم السؤال.

واستفاقت الأحزاب من إطراقها وقالت بصوت واحد: إنها التعددية في نطاق الديمقراطية. نظر الشعب من طرف عينه وقال للجميع: هنالك فرق هائل بين التعددية والاختلاف وبين الحزب وبين الشركة فالتعددية هي اختلاف وجهات نظر ضمن فريق واحد والاختلاف فرق متنافرة والشركة هدفها الربح والمغانم والحزب هدفه انتصار المبدأ.

الأحزاب في الإسلام:

الأحزاب في الإسلام رمز للباطل وعنوان للاختلاف، وقد وردت كلمة

الأحزاب عشر مرات في القرآن الكريم كتعبير عن فئات من الناس ضلّت سبيلها وجانبت الصواب، ولم تأت كلمة الأحزاب ولو مرة واحدة في القرآن كدلالة على الفلاح، تلك حقيقة الذي يجادلنا بها لم يخلق بعد، ويمكن لأي متشكك بقولنا هذا أن يتلو الآيتين: ٢٠ و٢٢ من سورة الأحزاب، والآية ١٧ من سورة هود، والآية ٣٦ من سورة الرعد، والآية ١١ من سورة ص، والآيتين ٥ و٣٠ من سورة غافر، والآية ٦٥ من سورة الزخرف، وهذا على صعيد القرآن الكريم.

كذلك فإن الرسول الكريم نبهنا إلى أن اليهود والنصارى اختلفوا بضعاً وسبعين فرقة، وأن المسلمين سيفترقون إلى بضع وسبعين فرقة كل الفرق على خطأ إلّا واحدة.

والسبب بسيط هو أنه لا يوجد إلّا حق واحد وباطل واحد وحقيقة مجرّدة واحدة، وفي غياب الحقيقة المجرّدة الواحدة وعدم وضوح السبيل المؤدي إلى هذه الحقيقة يقع الخلاف والاختلاف، فإذا اتضحت الحقيقة المجردة وبانت، وبان الملك الذي يؤدي لهذه الحقيقة يزول سبب الخلاف والاختلاف.

فالإسلام وضح الحقائق المجردة وربطها بحقيقة كلية واحدة هي الإسلام ورسم السبل التي تؤدي للوقوف على هذه الحقائق وربطها بسبيل كلي واحد هو الإسلام، فالذين وقفوا على الحقيقة الكلية الواحدة المجرّدة وقفة دقيقة وصحيحة وسلكوا السبيل الكلي الواحد لا خلاف بينهم ولا اختلاف ولا حاجة لهم إلّا بحزب واحد وهو الحزب الذي يملك الحقيقة، وسبب تكاثر الأحزاب الإسلامية هي أنه قد عجزت وقعدت بها الهمة عن فهم الحقائق المجردة في الإسلام وربطها بالحقيقة وهي الإسلام، ومن جهة ثانية فإنها قد عجزت عن فهم الوسيلة التي تؤدي للحقيقة الفرعية المجردة وعجزت عن ربط هذه الوسائل الفرعية بالسبيل الكلي المجرّد.

والخلاصة:

١ ـ إن الإسلام يعرف ظاهرة تعدد الأحزاب، وقد رصد هذه الظاهرة عبر التاريخ البشري ونقل لنا حقيقة هذه الظاهرة واعتبرها حالة مرضية السرّ فيها يكمن بالجهل المطبق بالحقيقة المجرّدة، والجهل المطبق بالأسلوب أو الوسيلة التي

تقود لهذه الحقيقة المجرّدة. الحقيقة ووسيلة بلوغها عند الأحزاب تلك هي ثمرة جهد ذاتي مشترك بين الهوى والعقل، والغرض والشهوة، على حدّ تعبير ابن خلدون، فالإسلام يعرف ظاهرة تعدد الأحزاب معرفة يقينية ولكنه لا يجيزها.

٢ ـ الإسلام أيضاً يعرف ظاهرة وجود حزبين أحدهما على الحق والآخر على الباطل، الأول هو حزب الله وهو يملك الحقيقة المجرّدة ووسيلة بلوغ هذه الحقيقة وقد تلقّى الحقيقة والوسيلة من الله تعالى.

أما الحزب الآخر، فهو حزب الشيطان، يجهل الحقيقة المجرّدة ويجهل الوسيلة التي تؤدي لتلك الحقيقة ويحاول أن يعرف الحقيقة عن طريق العقل والهوى والغرض.

وحزب الله حقيقة ثابتة في القرآن الكريم ووردت مرتين في الآيتين ٥٤ و٥٥ من سورة المائدة، والآية ٢٢ من سورة المجادلة، والآيتين ١٩ ـ ٢٠، كذلك فإن حزب الشيطان هو حقيقة ثابتة في القرآن الكريم ويمكن تلاوة سورة المجادلة، وأحياناً تتحد كل الأحزاب التي تجهل الحقيقة المجرّدة وتجهل الوسيلة اليقينية لبلوغ تلك الحقيقة مع بعضها فتكون فرقاً متمايزة تندمج في إطار واحد هو حزب الشيطان.

ما هو بديل التعددية في الإسلام:

الحقائق الموضوعية المجرّدة محددة في الإسلام، ووسائل بلوغ تلك الحقائق مرسومة لا من قبل فرد ولا من قبل جماعة إنما من قبل الله تعالى في كل أمور الحياة وعلى كل الأصعدة، وإذا لم تَكشف حقيقة مجرّدَةَ معينة نظراً لطبيعتها وإذا لم يرسم سبيل لبلوغ هذه الحقيقة فإنّ الإسلام بيّن طريقة كشفها وأسلوب الوقوف عليها إذا كان الهدف الحقيقة ووسيلة بلوغها، فالاختلاف مستبعد ولكن الإنسان بطبعه جانح للجدل **﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾** (الكهف الآية: ٥٤). ومن هنا وجدت قاعدة حق الإنسان بأن يقول رأيه وبمواجهة أيّ كان حتى ولو كان النبي دون أن يتعرض لأي عقوبة نتيجة هذا الرأي لأنّ من حقّه أن

يحصل على قناعة بما يسمع أو يمارس في المجتمع بوصفه عضواً فيه وأن الإنسان ليس آلة إنما هو كائن مفكّر من حقّه أن يجتهد ليحصل على الأجر حتى ولو أخطأ.

فلا ذنب على المجتهد إن حسنت نيته ـ والأصل أنها حسنة ـ ولا يملك أحد أن يزعم بأنه مطّلع على النوايا.

والقرآن الكريم عامر بسعته بالرأي المخالف فقد تعجب بعض الناس من كلمة التوحيد ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً**﴾ (ص الآية: ٥). ﴿**وقالوا اتّخذ الله ولداً**﴾ (البقرة الآية: ١١٦). ونقل وجهة نظر الكفر وأجاب على سؤالهم: من يعيدنا إذا كنّا تراباً؟ وسمع وجهة نظر الشرك بوجود شريك له في الملك ثم ردّ على كل هؤلاء ردّاً مقنعاً، لم يبعث الأنبياء إلى الناس إلاّ ليسمع منهم الأنبياء ويردون عليهم ويجيبونهم بالحقيقة التي تسكن معها النفوس. والسنّة بفروعها الثلاثة، القول، والفعل، والتقرير، عامرة بمشاهد للصحابة الكرام وهم يعلنون آراء لا تتفق مع حكم النبي ويدافعون بحرارة عن رأيهم المخالف لرأي النبي الحاكم، ولم يذكر لنا التاريخ أن رجلاً تعرّض لعقوبة بسبب تصريحه برأي مخالف لحكم النبي حتى بلغت الجرأة بأحدهم أن قال للنبي نفسه: والله ما أردت بهذه القسمة وجه الله إعدل يا محمد ولم يزد النبي على القول: من يعدل إن لم أعدل أنا، بل إن النبي نفسه كان يشجع مواطنيه ليدلي كل واحد منهم برأيه في الحالات الخاصة والعامة على السواء وتلك أمور أشهر من أن تحتاج إلى دليل.

تعدد وجهات النظر وتنفيذ واحدة:

الإسلام يفتح قلبه لرأي كل واحد من معتنقيه ولا يضيق بهم، يسمع النبي أو الإمام العالم من بعده كل الآراء باهتمام بالغ وينفذ رأياً واحداً وهو الذي يحقق الغاية الشرعية لأنه يتعذّر عقلاً تنفيذ رأيين بالمسألة الواحدة وإذا كان الهدف ينحصر فقط بطرح الرأي دون تنفيذ فالعملية جدلية لا غنى عنها.

الفصل الثالث

سباحة في مواجهة.. تيار الأحزاب العلمانية والدينية!!
«الرأي والرأي المخالف»

سلطان الأحزاب:

الأحزاب بشقيها العلماني منها والديني هي صاحبة الكلمة العليا، في إطار الحرية وعلى صعيد الرأي العام، فهي التي تخلفه، وهي التي توجهه وتتمادى بالثقة فتزعم أن رأيها هو رأي الشعب، وأن وجهاتها هي توجهات الشعب، وأن الحقيقة المجرّدة مملوكة بالكامل بين الأحزاب على الشيوع مع اختلاف مقدار الحصص فيما بينها، وأنها ضمير الشعب والناطق الرسمي باسمه، بدليل المؤتمرات الشعبية ما هي في الحقيقة إلاّ مجموع اللجان المركزية للأحزاب، أو مجموع مندوبي هذه الأحزاب، وبالنتيجة فإنّ الأحزاب شكلت تياراً غلاباً يوجّه سفينة الشعب كما يريد ويوجّه الحقيقة المجرّدة كما يشاء، فلو شاءت الأحزاب ووسائل إعلامها أن تجعل الحق باطلاً كان بمقدورها، فتشوه وجه الحق، وتجري له العمليات الجراحية فيتحول إلى عجوز شمطاء «مكروهة للثم والتقبيل» وإن شاءت جعلت الباطل حقّاً، وصبغته بآلاف الألوان، وطيّنت وجهه بمختلف المساحيق، حتى يتحول إلى سحر عظيم يخيل للمشاهد أنه الحق المبين، وما إضفاء الشرعية القانونية على وجود الأحزاب إلاّ اعترافاً صريحاً من الدولة ـ أي دولة تتبع المنهج التحرري بقوة هذه الأحزاب وفاعليتها وسلطانها على الرأي العام ـ وما يزيد الأمر تعقيداً أن مجموع الأحزاب يملك الحقيقة كلها، وأن أي زعم بوجود الحقيقة عند غير الأحزاب هو لون من ألوان الخرافة يستحق الضحك حتى القهقهة ولو تصنعاً، ويمزق نياط

القلوب أسى عندما يتحول الظن كله إلى حق بقدرة الأحزاب، ويتحول الحق إلى ضلالة وتجري سفينة الشعب مرغمة في هذا التيار، وبوقت يطول أو يقصر تكتشف الأحزاب أن الوهم شيء والحقيقة شيء آخر، وأن السراب سيبقى سراباً وإن طالت ملاحقته. عندئذ تبدأ عملية الهدم أو الترميم وتبدأ عملية المكابرة، لأنّ المذنب بطبع الإنسان، يَفرّ من اللوم، وينحي باللائمة على غيره فتذهب عشرات السنين، أو القرون من حياة الشعب سدى، فلا هو نجا من الوهم والإصباغ، ولا هو استفاد من تجربته المرة بسبب المكابرة، لأنّ الهوى لا دواء له.

التاريخ يعيد نفسه:

لقد أجمع قوم نوح، وقوم هود، وقوم لوط، وقوم إبراهيم، وقوم شعيب، وقوم موسى، وقوم فرعون، وقوم محمد، أجمعت هذه الأقوام بأنها على الحق وأن هؤلاء الأنبياء على باطل، وما آمن مع هؤلاء الأنبياء إلاّ قليل، فكثرة المجمعين على الباطل لا تجعل باطلهم حقاً أو قلة المتبعين للحق لا تجعل الحق باطلاً.

لقد سبح الأنبياء بمواجهة تيار الأحزاب، بلا خوف ولا وجل لأنّ الحق حق وإن قلّ ناصروه والباطل باطل وإن كثر ناصروه، صحيح أن أكثرية الأنبياء أخفقوا بإقناع أقوامهم، وما آمن بهم إلاّ قليل ولكنهم انتصروا لأنهم أقاموا الحجة، وبلّغوا رسالات ربهم، ولكن الأحزاب والشعوب التي اتبعتها لم تنتصر، بل على العكس هزمت تلك الشعوب بالإجماع هزيمة ساحقة وقطع دابر الذين لا يعقلون.

فسباحتنا هذه بمواجهة تيار الأحزاب، ليست نسيج وحدها، ولا بنت دهرها، إنما سبح من قبلنا كل الأنبياء (عليهم السلام).

حقيقة إن هذا النوع من السباحة مكلف، ويستدعي الضحك حتى القهقهة لكن تلك طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه، الكلمة العليا للأكثرية حق لا رجعة فيه ولا يقبل المناقشة، ومن حق الأقلية أن تعارض بغض النظر عن جدوى أو عدم جدوى تلك المعارضة، وهذا حق ثابت أيضاً وفق نواميس المجتمع الذي يضم الأكثرية والأقلية معاً.

السمة البارزة:

إعطاء الكلمة العليا للأكثرية، وإعطاء الأقلية حق المعارضة هي السمة البارزة التي تميز المجتمع الحر المتحضر عن المجتمع المستعبد المتخلف، في المجتمعات الجاهلية المتخلفة كانت الكلمة العليا للأكثرية، ويمثلها على الأعم الغالب، فالغالب والأكثرية معهم الحق دائماً وفق تلك المعايير، ومن يعارضهم هو عدوّ للحق، عدوّ للماضي والحاضر، ويجب أن يخنق صوته لأنه مفسد، وهو عدوّ الوطن، وعدوّ المجتمع ولا علاج له إلاّ القتل، لأنّ صدر المجتمع الجاهلي ضيق حرج كأنما يصعد في السماء فهو لا يطيق المعارضة ألم تر ـ يا رعاك الله ـ أن فرعون قد حاول أن يستخف شعبه فزعم أن نبي الله موسى عليه السلام مفسد في الأرض، وأن هدف موسى هو تغيير الطريقة المثلى التي كان يسير عليها المجتمع الفرعوني ﴿... **إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد...**﴾ (غافر الآية:٢٦). ثم أنظر إلى قادة الأحزاب يشدون أزره ويقوون عزيمته ﴿... **أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض...**﴾ (الأعراف الآية:١٢٧). ﴿**قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما...**﴾ (طه الآية:٦٣) فضاق بالأقلية ذرعاً، فقتل أبناءهم واستحيا نساءهم، وصلبهم في جذوع النخل، وسعى جاهداً ليقطع رأس موسى وهارون على اعتبار أنهما مصدر الفساد، وعندما أدركت الأقلية استحالة بقائها قررت الرحيل وترك مصر لحاكمها الوليد بن مصعب، لم يكتف فرعون بذلك إنما جهز جيوشه ليقتل ويبيد نهائياً أولئك الذين تجرأوا على التوجع وجهروا بالرأي المخالف.

ولم يكن المجتمع العربي الجاهلي بأسعد حالاً من مجتمع فرعون إلاّ بحجم قوة القائمين عليه، فالنبي الصادق الأمين، هو بعرف ذلك المجتمع حاشا له، كاذب، وساحر، وكاهن، وشاعر، ومهين، وجاء بأساطير الأولين والقرآن الذي أوحي إليه من عند ربه، هو مجرّد أساطير ومفترى على الله، وقول كاهن، وقول شاعر.

فلوحق النبي محمد وطورد، ونكّل به وبمن معه وحاصرت كل قبائل العرب

بني هاشم عشيرة النبي، ثلاث سنوات في شعاب أبي طالب، وعندما صمد النبي، وصمد الهاشميون، استقرّ رأي مجتمع الشرك على قتل محمد بأيدي مندوبين عن كل قبائل مكة حتى يضيع دمه بين القبائل ولا يقوى الهاشميون على المطالبة بدمه، وهكذا يعود الأمن للمجتمع ويعود مالكاً وحده للحقيقة.

كل هذه الأهوال التي صبها مجتمع الشرك على محمد وعلى الهاشميين وعلى الذين اتبعوهم هي بسبب رأيهم المخالف، لأنهم أقلية وسط محيط هائل من الأكثرية.

اختلاف الأمور:

بقيام دولة النبي وانتصار الأقلية على الأكثرية، اختلفت الصورة تماماً، كان بإمكان اليهودي أن يقول رأيه، وبإمكان المنافق أن يقول رأيه، وبإمكان المسيحي أن يقول رأيه، وبإمكان المسلم أن يقول رأيه، ولا يقع على صاحب الرأي المخالف لوم ولا عقوبة، لأنّ الحرية حق إلهي تتلازم معه المسؤولية، ولا يملك أحد مصادرتها حتى ولو كان نبياً لكنها حرية راشدة، ومرشدة، تتوخى الخير، وتسعى إليه، وتنفر من الشر وتتجنبه ويوم تمكن النبي الكريم من الأكثرية، الظالمة يوم فتح مكة، وأحيط بهم وظنوا الظنون التفت النبي إليها سائلاً ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ فتجيبه الأكثرية بصوت واحد: أخ كريم وابن أخ كريم، فيقول لهم النبي: إذهبوا فأنتم الطلقاء، ويعيش الطلقاء أحراراً في مجتمع الحرية، يتوخون الخير ويسعون إليه، دون أن يتوغل النبي في نواياهم لأنّ الظاهر له، ولله الباطن والظاهر، ومُورس الرأي المخالف على أوسع نطاق فلم يضق صدر النبي، ولم يتكدر خاطره، ويوم وجع وجعه الذي مات منه قال لمن حوله من الصحابة: «قرّبوا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً فاختلف الحاضرون منهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله، وقسم يقول: عندنا كتاب الله لا حاجة لنا بكتابه إن المرض قد اشتدّ برسول الله، فلم يزد النبي على القول: «قوموا ما أنا فيه خير مما أنتم فيه» تلك حقيقة رواها البخاري في صحيحه، ونقلها أصحاب الصحاح بكل ارتياح.

إنه نبي ويملك الحقيقة كاملةً، ومع هذا لا يضيق صدراً بالرأي المخالف،

وهذا هو الفارق بين المجتمع الجاهلي والمجتمع المتحضر.

حديثاً استوعب جزء من العالم هذه الحقيقة، في بداية القرن التاسع عشر وعندما تحولت الرأسمالية التحررية إلى بنى ومبادىء دستورية.

عود على بدء:

سقنا ما سقناه لنبرر سباحتنا بمواجهة تيار الأحزاب العلمانية منها والدينية ولنقل لها مشفقين ناصحين، لا لائمين ولا حاسدين ولا شامتين: مبادؤكم صدى للمبادىء وليست مبادىء... وهنالك فارق بين الصدى والصوت... الصوت نغم ما ينساب من الحنجرة والفم مباشرة ويستقر في الأذن، والصدى فاصل موسيقي ومرحلة تحجز الأذن عن الصوت الحقيقي، الصوت نغم ينبعث من مخلوق أمامك تشاهده على الطبيعة، وتعاني وتحس معه وتتابع حركاته وترصدها بدقة، ثم ينساب الصوت في أعماقك مع نشوة خاصة، الصوت زهرة حقيقية تشمها وتنتشي بها. والصدى، صورة زهرة، أو زهرة بلاستيكية بلا طعم ولا رائحة.

فالأحزاب العلمانية، استوردت مبادءها من الغرب أو من الشرق أو منهما معاً ووصلتها هذه المبادىء معلبة، وبصورتها النهائية، وبآخر مرحلة من مراحل الإنتاج، لا تدري الأحزاب العلمانية كيف نشأت هذه المبادىء ولا ما هي الظروف التي نشأت فيها تلك المبادىء، ولا تدري على وجه الدقة من هم بناة تلك المبادىء، ولا كيف تألفت العقائد من مجموعة تلك المبادىء، ولا تدري كيف تحولت هذه المبادىء إلى بنى دستورية وقانونية، ولتكون الصورة واضحة، فإنها استوردتها كصدى لا كصوت، وزرعتها بأرض غريبة عنها، أخذت شجرة من أشجار الأغوار وزرعتها بالمنطقة الجبلية، أو بالعكس، فتعاملت مع الفروع، وأهملت الأصول، وأخذت الأثر وتركت المؤثر، فجنحت وضلت دربها، وساهمت بتخدير أمتها في الوقت الذي يفتح العالم المسعور أشداقه ليلتهم هذه الأمة.

أما الأحزاب الدينية فسقطت بنفس الحفر التي سقطت فيها الأحزاب العلمانية، فأصبح مثلها الأعلى دولة كدولة الخلافة بدءاً من الخلافة الراشدة وانتهاء

بالخلافة العثمانية، تأخذ الأمر بمجمله وبدون تفصيل وتتصور هذه الأحزاب أنها الثابت الوحيد وأن العالم كله يدور من حولها.

ما تعرفه هذه الأحزاب حقيقة غير قابلة للمناقشة لأنها الدين، وما لا تعرفه هذه الأحزاب ضلالة لا ينبغي أن تسمع لأنها ضد الدين.

ولئن سألتهم ما هو الدين الحقيقي وما أصله؟ يقولون: إن الدين كله هو القرآن الكريم والسنّة المطهرة بفروعها الثلاث، القول، والفعل، والتقرير، وهذا حق لا شبه فيه.. وهم يصرون ـ وهم على حق بإصرارهم ـ بأن الإسلام دين ودولة، فطالما أن الإسلام دين ودولة، فإن دولة النبي هي أول دولة إيمانية نشأت في التاريخ دولة حقيقية قادها النبي قرابة عشر سنوات، وعصر النبي هو عصر التشريع، طالما أن الإسلام دين ودولة وطالما أن الإسلام هو القرآن والسنّة النبوية بفروعها الثلاثة، لماذا لا يكون مثلكم الأعلى دولة كدولة النبي؟ لماذا تصرّ الأحزاب الدينية أن تتعامل مع الفروع وتترك الأصل، مع الأثر وتترك المؤثر؟ سيقولون: إن نظام الخلافة نظام ديني إسلامي ونقول لهم: نعم، لكن نقطة الارتكاز هي دولة النبي لا دولة الخلافة، وأن قدوة المؤمنين هو النبي نفسه المدعوم من ربه المعصوم بعنايته لا الخلفاء، وأن شرعية نظام الخلافة تنبع من دولة النبي ومن الإسلام.

الإثبات:

زعمنا أن الأحزاب بشقيها العلماني منها والديني أخذت الأثر وتركت المؤثر، واستغنت بالفرع عن الأصل، وبالصدى عن الصوت هذا مجرد زعم ولكن ما هو الدليل عليه؟.

الفصل الرابع

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب
«الانفراد بالإِحزاب العلمانية»

١ ـ ربط الموضوع:

إدّعيت في مقالي السابق بأن الأحزاب العربية بشقيها العلماني والديني لم تستند عند تأسيسها على مبادىء سياسية معروفة تماماً لديها، إنما قامت هذه الأحزاب أصلاً على صدى المبادىء السياسية، فحفلت بالأثر وتجاهلت المؤثر، وأخذت بالفرع وتركت الأصل، وشداها صدى الصوت وهي عن الصوت نفسه لاهية، أو إن شئت فقل بأن المبادىء التي تستند عليها هذه الأحزاب وصلتها بآخر رحلة من مراحل الإنتاج، وتلقتها بالواسطة ولم تتمكن من الوقوف على حقيقة هذه المبادىء السياسية وكيفية نشوئها، وكيف تحولت من دعوات إلى دول، وبالتالي فإن الأحزاب العربية تجهل كل المراحل السابقة للمرحلة النهائية «سيارة مستوردة وصلت إلى ميناء العقبة، كان المشتري بانتظارها فملأها بالوقود وركبها فوراً، لا يدري كيف صنعت ولا ما هي المراحل التي مرّت بها، ولا حقيقة المادة المكوّنة لأجزائها، لأنّ السائق بعجلة من أمره لا هم له إلاّ الوصول».

أقول: إن هذا مجرّد ادعاء وتعهدت بإثبات هذا الادعاء، فإن ثبت فقد بررت بوعدي وساعدت إخوتي الحزبيين على مراجعة مواقفهم، وإن عجزت عن ذلك فلكل حادثة حديث.

٢ ـ الانفراد بالأحزاب ضرورة منهجية:

قلنا إن الأحزاب العربية انقسمت إلى قسمين:

١ ـ أحزاب علمانية لا تعطي للدين أي دور، وإن أعطته دوراً فهو دور شكلي لا يقدم ولا يؤخر وهو مجرّد روج يخفي تجاعيد الوجه.

٢ ـ الأحزاب الدينية والتي تقول إنها تعطي الدين كل الأدوار وفي جميع مناحي الحياة، لأنه دين ودولة، وعسير على أن أتناول القسمين معاً لإثبات دعواي الآنفة الذكر، مما يتحتم علينا منهجياً أن ننفرد بكل قسم من هذين القسمين.

الانفراد بالأحزاب العلمانية:

لم تكن فكرة العلمانية التي تتبناها الأحزاب العربية العلمانية بشقيها القومي أو الشيوعي الأممي من بنات أذهانها ولا من ابتكار مؤسسيها، إنما كانت فكرة مستوردة من أخمص قدميها حتى منابت الشعر في رأسها... فالعلمانية السياسية بمفهومها المعاصر هي فكرة غريبة تماماً نشأت في الغرب الرأسمالي، ثم استوردتها الماركسية الشيوعية وأعادت تجميعها وحاولت أن تطبعها بطابعها وأن تدعي السبق باكتشافها، وعلى الرغم من أن كارل ماركس وإنجلز وسائر منظري الفكر الشيوعي كانوا يتبنون مواقف معاكسة تماماً لموقف العقيدة التحررية الرأسمالية إلاّ أنهم اتفقوا ولأول مرة ـ على حدّ علمي ـ من حيث فهمهم للعلمانية السياسية بإطارها العام.

مضمون العلمانية السياسية:

تقوم العلمانية السياسية بإطارها العام على أساس أن العقل مصدر كل خير وتقوم على أساس فصل العقل عن الدين، لأنّ الدين ـ في عرفهم ـ بعيد عن العقل، والدين أمر غير عقلاني ولا ينبغي أن يسأل عنه أحد، ومن هنا كانت القاعدة الأساسية في العقيدة التحررية الرأسمالية هي فصل الدين عن الدولة وفصل الدين عن العقل، وفصل الأخلاق عن القانون، على اعتبار أن الأخلاق إنما هي أثر من آثار الدين وحصر نطاقه بدائرة العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه، ومن هنا كانت نظرة العقيدة الرأسمالية للدين نظرة حيادية.

وجاءت الشيوعية لتعلن إيمانها بعمليات فك الاشتباك تلك بين الدين

والدولة، وبين الدين والعقل وبين الأخلاق والقانون، بل وبين الحياة وبين الدين، ثم تضيف على ذلك معللة «أن الدين مجرّد وهم، وأن الله مجرد قوة خفية، لا يسلم العقل ولا العلم بوجوده» على حدّ تعبير إمام الشيوعيين في العالم كارل ماركس. ومن هنا كانت نظرة العقيدة الشيوعية للدين نظرة عدائية ولا يغير من هذه الحقيقة محاولة بعض الأحزاب الشيوعية العربية الإعلان عن اعترافها بالدين وعن احترامها للأديان كما فعل الحزب الشيوعي اللبناني، وهنا نفهم قول ستالين عند تعريفه للماركسية بأنها التعبير العلمي عن مصالح الطبقة العاملة.

وعليه فإن العلمانية السياسية في العقيدتين الرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية تقوم على أساس إقصاء الدين عن مسرح الحياة بكل نواحيها وقصر دوره على العلاقة الشخصية بين الإنسان وربه، وبتحقق ذلك تكون العملية السياسية قد تهيأت موضوعياً لدخول المختبر العلمي المجرد.

ما هي النتائج التي أسفر عنها هذا المفهوم للعلمانية؟:

نتيجة التحالف الذي تكون بين الرأسمالية البرجوازية من جهة وبين الفلاسفة والمفكرين في الغرب من جهة أخرى ولظروف موضوعية أخرى انهارت عقيدة الحكم المطلق في الغرب ونشأت على أنقاضها ما سمي بالعقيدة التحررية أو الرأسمالية الغربية، أو الليبرالية الغربية «الديمقراطية» ولإفراط هذه العقيدة بالتجريد، ولانفراد الطبقة البرجوازية عملياً بالحكم بحيث إنها أصبحت هي الطبقة الحاكمة وهي بنفس الوقت الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج والمتحكمة عملياً بالحياة الاقتصادية نتيجة هذا كله عمّ البلاء وازدادت الهوة بين الأغنياء والفقراء مما خلق المناخ الملائم لدعوة جديدة هي الماركسية الشيوعية لتكشف زيف النظام الديمقراطي الغربي وفشله ولتعمل على تقويضه والحلول محله، وتحولت الدعوة الشيوعية إلى دولة في روسيا «الاتحاد السوفياتي، ودول أوروبا الشرقية، والصين».

وباختصار فإن من نتائج العلمانية بالمفهوم الغربي هو قيام عقيدة هي الرأسمالية التحررية حكمت دول أوروبا الغربية وأمريكا، وكردة فعل لهذه العقيدة قامت عقيدة جديدة هي الماركسية الشيوعية حكمت دولة الاتحاد السوفياتي ودول

أوروبا الشرقية، أما بقية الدول في العالم فهي مقلدة لهذين النمطين أو مجمعة لهما.

ملاحظة مستعجلة على العقيدتين:

قامت العقيدة التحررية للخلاص من حكم الفرد المطلق وحكم الفئة التي تلتف حوله وتتقاسم معه الغنائم، وبعد أن حازت مقاليد الأمور، وتمكنت من الحكم وقعت بنفس الغلطة حيث آلت الأمور لقلة من الناس هم الطبقة البرجوازية.

وقامت الشيوعية لتثبت فساد النظام الديمقراطي الغربي ولكن على أساس طبقي إذ الغاية أن تحل الطبقة العاملة محل الطبقة البرجوازية، فالعقائد الثلاثة عقائد طبقية في الأصل، وخدمة للحقيقة سأطرح في مقال قادم مضامين العقائد الثلاثة...

استيراد المبادىء:

قامت الأحزاب العلمانية العربية باستيراد قاعدة العلمانية بمفهومها الآنف الذكر برمتها ودون تعديل وحاولت زراعتها في الأرض العربية بالرغم من اختلاف التربة واختلاف المناخ ودون أن تسأل ما هو الباعث على هذا المفهوم للعلمانية وما هي أسباب نشوئه، وما هو السرّ بإجماع العقيدتين المتناقضتين الرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية على النفور من الدين وعلى ابتعاد الدين عن الحياة السياسية، فما هو سرّ استبعاد التجربة الدينية بالكامل مع أن العلمانية الحقيقية تقتضي أن نحكم المختبر وأن نأخذ بنتائجه حتى ولو كانت ديناً؟.

تلك أسئلة ـ مع عميق الاحترام ـ لا يملك مؤسسو ولا أعضاء الأحزاب العلمانية العربية أجوبتها مع أنها ضرورية للوقوف على الحقيقة المجردة.

ما هو سر نفور العقيدة التحررية والماركسية الشيوعية من الدين؟:

موقف العقيدتين من الدين عموماً في غاية الوضوح لأنه بأخف أقوالهم أمر غير عقلاني، ولا ينبغي أن يسأل عنه أحد، ولكن تخصيصاً فإنهم عنوا الديانة المسيحية، وعنوا علماء الكنيسة، لأنه كان هنالك نوع من التحالف أو المشاركة

بين علماء الكنيسة من جهة وبين ملوك أوروبا من جهة أخرى.

هذا التحالف أثمر ما يعرف بالحكم المطلق أو الاستبدادي، لم تقصد العقيدتان تخصيصاً ديناً غير الدين المسيحي حيث إنه قد كان في أتون المعركة السياسية التي جرت في العالم الغربي، لم يقصدوا الإسلام بالتخصيص، لأنّ الإسلام لم يحكم أوروبا ولم يكن علماؤه بحالة مشاركة بالحكم مع ملوك أوروبا وتلك أول مفارقة بين القياس والمقيس والمقاس عليه، ولا بد من التنويه أنهم يكرهون الإسلام لأنه دين، ومع هذا هم لم يدرسوه، ولا يعرفونه.

المسيحية المفترى عليها:

المسيح ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ قاد دعوة في المجتمع اليهودي الذي أرسل إليه، ولم تتمخض الدعوة عن دولة، وبالتالي هو لم يقد دولة، ومن هنا فإن المسيحية لم تقدم نظاماً للدولة، ولا قواعد لإدارة مجتمع الدولة، وتنظيم العلاقات بين أفراده، وبينهم وبين الدولة، وبالتالي فهي لا تحتوي على عقيدة سياسية ولم تقدم مذهباً سياسياً، وفاقد الشيء لا يعطيه...

لكن الديانة المسيحية منصبة بجوهرها على محاولة إصلاح الفرد من الداخل ولديها خطة لهذا الإصلاح، فإذا أصلحت الفرد من الداخل واستشعر رقابة الله يتحول إلى لبنة سليمة وعضو صالح في المجتمع يكون نواة لمجتمع يسوده السلام وتسوده المحبة دون إكراه أو على الأقل يكف هذا العضو الصالح أذاه عن الناس فلا يؤذي أحداً إنما يدفع بالتي هي أحسن ليضمن الخلاص لنفسه خلال هذه الدنيا الفانية، وليسأل رضى الله في الحياة الأخرى، والمسيحية تقدم سيرة راشدة للسيد المسيح، ووصايا فردية للذين اتبعوه، وهدفاً سامياً لحوارييه وهو محاولة إصلاح أبناء الجنس البشري فراداً ومن الداخل، ودون إكراه، وقدمت المسيحية بشرى بدعوة لاحقة هي دعوة الإسلام بإطارها النهائي، ودولة النبي محمد.

وقد لوحق المسيح وأتباعه، وتمكن منه مجتمع الكفر وصلبوه حسب اعتقاد المسيحيين، وشبّه لهم ورفعه الله تعالى إليه حسب اعتقاد المسلمين تلك هي المسيحية بمفهومها الحقيقي.

مرحلة جديدة:

صحبه الأبرار «تلاميذه وحواريوه» لم يستسلموا، إنما تابعوا نشر الديانة المسيحية واستوردتها أوروبا كجزء من غنائم الحرب المعنوية، واعتبرها الملوك هدية لشعوبهم واعتنقوا الديانة المسيحية فصارت المسيحية هي دين الملك، ودين الدولة، ودين الشعب، ومع هذا فالامبراطور لا يتدخل بالبابا ولا البابا يتدخل بالامبراطور إقراراً لقول المسيح عليه السلام: «وما لقيصر لقيصر وما لله لله» الامبراطور يحكم بصورة مطلقة لا معقب لحكمه مقابل وعد بأن لا يكون هذا الحكم مخالف لقوانين الله تعالى، ولكن لنفترض أن الامبراطور خالف قوانين الله، فليس لدى البابا ولا علماء الكنيسة سلطة لإيقاف هذه المخالفة، ومعاقبة المخالف، وهذه هي السمة على علاقة الأباطرة بالكنيسة خلال الخمسة قرون التي تلت ميلاد المسيح، ومن الطبيعي أن الامبراطور كان يكرم البابا وعلماء الكنيسة ويتزلف إليهم ويتودد لهم ليضمن الأمن والسلام الداخلي لدولته، لكن من الناحية العملية الحاكم هو الامبراطور.

في القرن السادس الميلادي بدأ الصراع بين من يملك السلطة الزمنية وهو الامبراطور ومن يملك السلطة الدينية ـ التي تثبت ـ وهو البابا ومن هو الأحق بالسلطة، وساعد على هذا الصراع نشوء نظام الإقطاع الذي فتتت السلطة المركزية.

لكن العلاقة بين الامبراطور وبين رجال الدين كانت دائماً تنتهي بالمشاركة، فلا يبخل رجل الدين على الامبراطور بالنصيحة، ولا بالرأي الصائب، لكن القرار النهائي هو للامبراطور، والامبراطور رجل يحكم وفق هواه ويزعم أنه يتلقى سلطانه من الله، وأنه لا فضل لأحد عليه، وأنه هو حامي حمى المسيحية والصادع بأمرها ووجود علماء الدين في بلاطه لأكبر دليل على رضى الله عنه، ومباركة الدين لأفعاله التي لا يمكن التنبؤ بها، مع أن الحقيقة أن علماء الدين المسيحي، لم يباركوا ظلمه، بل نصحوه وأنكروا أفعاله وكان هدفهم من البقاء إلى جانبه التخفيف على الناس لأنه أهون الشرين، ولكن تكون رأي عام ـ أن مصدر البلاء هو الدين فالدين هو الذي أوجد الحكم المطلق مع أن الحكم المطلق عميق، ومتأصل، وموجود

قبل انتشار المسيحية هذا هو السر بالعلمانية التحررية والشيوعية.

هذا هو السر بمعاداة هاتين العقيدتين لفكرة الدين، وأنت ترى أن المسيحية مفترى عليها، وأنها قد عوديت دون جريرة ولا ذنب.

وأنه لم تنشأ عندنا ظروف ومبررات لهذا العداء كما نشأت في الغرب، وأنه من الخطأ الواضح أن لا نراجع مواقفنا من العلمانية تلك بعد أن عرفنا السرّ.

الفصل الخامس

سباحة بمواجهة تيار الإحزاب

«العلمانية الحزبية»

خدمة للحقيقة العلمية المجرّدة، وتعبيراً عن حرصنا على الأحزاب العربية فقد بدأنا سباحة بمواجهة تيار الأحزاب العربية بشقّيها العلماني والديني وكضرورة منهجية تحتّم علينا أن ننفرد بالأحزاب العربية العلمانية لنسبح بمواجهتها حتى نكمل الدورة، ثم نتبع الأحزاب الدينية العلمانية فنكمل الدورة معها أيضاً، لا حسداً للفريقين، ولا زراية بهما، أو تطاولاً عليهما، ولكن لإكمال الدراية ووضع الأمور في نصابها الصحيح حتى لا تجري هذه الأحزاب وراء السراب بوصفها طليعة أمتنا فتركض هذه الأمة وراءها، ثم يكتشف الجميع بوقف يطول أو يقصر: أن السراب سراب وأن الماء ماء، وأن الأحلام والمنى والنوايا الطيبة عاجزة تماماً عن تحويل السراب إلى ماء أو العكس.

مفخرة الأحزاب العربية:

تفخر الأحزاب العربية العلمانية القومية منها والشيوعية، بأنها أحزاب «علمانية» تلك الكلمة الرنانة المتوافقة مع الهوى العربي الراهن ومع اللغة العربية «كل زيادة في المبنى زيادة في المعنى»، وقد توقفت في مقالي السابق عند هذا الاصطلاح «العلمانية» ووضحت مفهومه ومضمونه وآثاره، وظروف نشأته، ومن الذي أنشأه، وتبين لنا أن هذه «العلمانية» بضاعة غربية مادة وشكلاً ومضموناً، وهي باختصار: «فصل الدين عن الدولة، وفصل العقل عن الدين، وفصل الأخلاق عن

القانون، وفصل الحياة عن الدين، وقصر دور الدين على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه»، ذلك مفهوم أجمعت واتفقت عليه العقيدتان المتناقضتان: التحررية الديمقراطية والماركسية الشيوعية.

وبرأيي المتواضع أن فخر الأحزاب العربية العلمانية بمصطلح «العلمانية هذا» ليس له ما يبرره، فهي لم تخترع فكرة العلمانية، إنما اخترع هذه الفكرة الغرب، والفخر مباح بما هو لك لا بما هو لغيرك، والفخر ميدانه الإبداع لا التقليد.

لتتفضل الأحزاب العربية العلمانية مجتمعة ومنفردة فتقول للناس مشكورة متى قامت باختراع الفكرة العلمانية، فإن لم تفعل ـ ولن تفعل ـ فإن من حق الأمة ـ التي تتغنون بحبها ـ أن تقولوا لها: لقد استوردنا الإطار العام لتفكيرنا العلماني من الغرب وتحركنا ضمنه وغايتنا نبيلة وهي «نفعك» أيتها المغلوب على أمرها.

إخفاق الأحزاب العربية العلمانية:

العلمانية مجرّد إطار ودائرة يتم التحرّك في داخلها الغرب الذي ابتكر هذا الإطار وتحرك فيه تحت ضغط الفراغ الذي حدث بعد انهيار الحكم المطلق وتمخضت حركة الغرب الفكرية ضمن هذا الإطار عن استنبات أو ابتكار أو تجميع عقيدتين انبثق منهما مذهبان سياسيان:

١ ـ العقيدة التحررية (الديمقراطية) أو الليبرالية الرأسمالية.

٢ ـ العقيدة الماركسية الشيوعية.

هاتان العقيدتان نهلتا من معين واحد هو العلمانية وشكلتا قاعدة تحتية يبنى فوقها وينطلق منها، بغض النظر عن صلاح أو فساد هذه القاعدة.

أين عقيدة الأحزاب العربية السياسية؟:

من خلال تحرّك الغرب الفكري ضمن دائرة العلمانية أوجد عقيدتين سياسيتين وضعيتين، وقد طال تحرّك الأحزاب العربية ضمن دائرة العلمانية فهل استطاعت هذه الأحزاب أن تكوّن لنفسها قاعدة تحتية تقف عليها أو أن تجمع لنفسها عقيدة سياسية خاصة بها؟.

وعلى حدّ علمي، فإن أي عالم منصف لم يقل أبداً إن الأحزاب العلمانية العربية على الإطلاق ـ سواء ما وصل منها إلى الحكم كالناصريين والبعثيين والشيوعيين أو تلك التي مازالت تسعى للوصول إليه ـ قد كونت لنفسها عقيدة خاصة بها أو قاعدة فكرية تقف عليها، والسبب أن هذه الأحزاب استوردت الصندوق وهو العلمانية واستوردت محتوياته وهي التحررية الغربية والماركسية الشيوعية، استوردت المرض، واستوردت العلاج، استوردت الهدف معرباً واستوردت وسيلة بلوغ هذا الهدف معربة أيضاً.

فضل الأحزاب العربية العلمانية:

النظام العالمي الراهن يقوم على الاستيراد والتصدير بطبيعته، والعقيدتان السياسيتان «الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية» في تنافس مستمر لنشر مبادئهما في العالم الثالث ومنه العرب لأن العالم الثالث مصدر المواد الخام وبنفس الوقت هو سوق الاستهلاك وهو المجال الحيوي لهاتين العقيدتين. الأحزاب العربية العلمانية في عجلة من أمرها وهي تريد الوصول سريعاً لإنقاذ العرب «بأية وسيلة» وهذه الأحزاب ذكية وتفهم موازين اللعبة الدولية، ولمصلحة العرب تريد أن تكون على علاقة حسنة بالعالمين الرأسمالي التحرري والماركسي الشيوعي. وانطلاقاً من هذه الحيثيات قامت الأحزاب العربية العلمانية باستيراد مبادىء وشعارات العالمين الآنفي الذكر.

وبعد أن استوردت كميات هائلة من المبادىء والشعارات من هذين المصدرين تم عقد القران بين المبادىء والشعارات التحررية كذكر وبين المبادىء والشعارات الشيوعية كأنثى على الأرض العربية بمباركة وإشراف الأحزاب العلمانية العربية.

الوليد المهجن:

طال الترقب، وحملت الأنثى حملاً خفيفاً ثم أثقلت فأجاءها المخاض، وأخيراً رزق العرب بمولود أنثى، عقيدة قوية لها عشرات الأيدي والأرجل ومئات العيون وآلاف الألسنة وملايين الوجوه.

يا للوليدة المباركة، لا هي عربية، ولا هي شيوعية، ولا هي تحررية، ولا

هي دكتاتورية، ولا هي تقدمية، ولا هي رجعية، إنما هي ثمرة استبضاع «والاستبضاع عرف جاهلي لا يخفى على ذي بصيرة».

وتحوّلت هذه العقيدة إلى أم للعرب، تعرض «ثدييها» على العرب جميعاً ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم.

وأصبح بإمكان الإنسان العربي أن يقول دفعة واحدة ولا حرج: أنا مسلم عربي، وقومي، شيوعي، تحرري، دكتاتوري، تقدمي، رجعي، وطني أممي ولا فخر.

أنا فوق، أنا تحت، أنا شرقي، أنا غرَبي، أنا شمالي، أنا جنوبي بنفس الوقت ولا فخر. خليط يثير الحيرة والاستغراب ﴿إن هذا لشيء عجاب﴾ (ص الآية: ٥) دعاة الأحزاب العلمانية يحيطون هذا المولود بهالة من التقديس، ويصورونه للأمة على أنه إكسير الحياة والعلاج السحري لكل أمراضها، والأمة تحاول جاهدة أن تفهم ما يدور حولها، وفي جانب قصي من هذا الزحام يتعجب شاعر عربي من خلق النعامة التي تترك بيضها، وتنام على بيض غيرها.

كتاركة بيضها في العراء وملبسة بيض أخرى جناحا

وسبحان الله في كل وقت وحين يقول: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ (إبراهيم الآية: ٢٨).

والخلاصة أن الأمة تمضي في طريقها، وتترك أحزابها العلمانية لتكمل مشوارها.

﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ (يوسف الآية: ٧٧)، عملية صف الحروف وتجميع المبادىء والشعارات بعد استيرادها من مصادر ليست حصراً على الأحزاب العربية العلمانية، فالتحررية الديمقراطية هي أيضاً ثمرة «تلزيق» وإلصاق بعض الأفكار ببعض حتى تحولت إلى باقة من الزهور قطعت من كل وردة، وكل وردة من بلاد فافتقرت كل وردة إلى أمها واستغنى كل فرع عن أصله، وادعت «التحررية الديمقراطية» أن كل وردة نبتت في أذهانها وأن مركز كافة الأصول يستقر في أفكارها. فأينما وجدت التحررية الديمقراطية أن مفكراً طرح فكرة مناسبة مع

هوى مؤسسيها ألصقته بها، فقد أخذت أفكار: جون لوك، وروسو، ومنتسكيو، وهيجل، وفولتير، ونوماسيوس، وآدم سميث، وريكاردو، ومالتوس، وجان باست ساي، وفردريك باسيا، وبننام، وعشرات المفكرين غيرهم.

هذه الأفكار المقطوعة من جذورها، المتعددة المراجع والمصادر، شكلت ما يسمى بالعقيدة التحررية الديمقراطية.

والأنكى من ذلك أن كل مفكر نقلوا عنه، أنه سطا على ما ليس له، وداعي السبق بعد مزاوجة وتلصيق، فالحقوق الطبيعية التي يعتبرها بناة التحررية الديمقراطية قيداً على السلطة، ليست من صنع الطبيعة ولا وجدت حديثاً وعبثاً إنما مضمونها مكرس بكل الأديان السماوية وخاصة الإسلام، ومع هذا اعتبروا أنفسهم هم وحدهم الذين كشفوا هذه الحقوق فقد أخذوا الفكرة من الدين، ثم تنكروا للدين نفسه.

وما فعلوه بفكرة الحقوق الطبيعية فعلوه أيضاً بمبدأ الحكم المقيد، فادعوا السبق باكتشافه، مع أن حكم الأباطرة كان مقيداً بما يراه علماء الكنيسة أنه مخالف للتعاليم الإلهية. كذلك مبدأ فصل السلطات الذي اعتبره الغرب حدثاً جذرياً، وادعى السبق باكتشافه ليس من صنع الغرب إنما هو قديم قدم التاريخ البشري، فأصحاب الديانات السماوية خاصة اليهودية والإسلام لديهم تشريعات إلهية، وهم مقتنعون أن الله تعالى هو المتفرد بالتشريع، فهو الذي حدد القيم العليا ووضح المصالح والمفاسد، وأما التنفيذ فهو قدر مشترك بين الفرد والجماعة والسلطة.

كذلك فإن مثل أفلاطون وأرسطو قد نادوا بالفصل بين السلطات لنفس الغايات التي تنادي بها التحررية الديمقراطية، بل وأزيد بأن المشركين العرب قد طبقوا فصل السلطات بالمعنى الذي يفهمه الغرب بحيث لم تجتمع السلطة بيد قبيلة واحدة من قبائلهم فالقيادة بيد بني أمية، واللواء كان لبني عبد الدار، والسقاية والرفادة لبني هاشم والسفارة لبني تيم.. الخ.

كذلك كانت فكرة الحرية مؤصلة ومجذرة تماماً بكافة الأديان السماوية، لأنّ الحرية ملازمة للمسؤولية، فحيث تنعدم الحرية تنعدم المسؤولية وينعدم الثواب

والعقاب، ومع هذا يصور لنا الغرب أنه وحده الذي اكتشف الحرية وسبق إلى التغني بأهميتها.

كذلك الديمقراطية سواء بمعناها الأول القائم على عدم تدخل الدولة بحريات وحقوق الأفراد أو بمعناها الثاني القائم على حماية حقوق وحريات الأفراد أو بمعناها الثالث القائم على تمليك السلطة للمواطنين عن طريق الانتخاب أو بمعناها الرابع الاجتماعي القائم على السعي لتحويل النصوص إلى واقع وإعطائها مضموناً اقتصادياً، هذه الديمقراطية بمعانيها كلها كانت معروفة تماماً قبل أن تنشأ الديمقراطية الغربية.

وهكذا بقية مبادئها وأصولها وأهدافها اجتثت من أصولها وجذورها ووجودها التاريخي بطريقة اعتباطية، وادعى أرباب الديمقراطية التحررية اكتشافها.

والماركسية الشيوعية أيضاً لها باع طويل بعملية تقطيع واقتطاع المبادىء من جذورها وقطع أية صلة لها بما فيها ثم تجميع هذه القطع على شكل عقيدة والادعاء بصناعتها واكتشافها.

فكارل ماركس وإنجلز أخذا فكرة الجدلية من هيجل الألماني فقط بدلا الروح بالمادة، وأخذا فكرة أن المادة هي الأصل من «فيورماخ وسافيني» فهما أول من قال بأن المادة تحرك التاريخ، وفكرة تفسير الماضي بواسطة الحار قال بها سافيني. وفكرة الاشتراكية ليست من صنع كارل ماركس وإنجلز فقد قال بها قبلهما الفرنسيون: «سان سيمون، وفروريسيه وبرودون»، وأخذا فكرة الصراع الطبقي من جيزو، وأخذا فكرة السيادة الجماعية من جاك روسو، وفكرة حتمية انتصار الطبقة العاملة «بقاء الأنسب» من داروين، كذلك أخذا فكرة تقسيم العمل وقيمة العمل من آدم سميث وريكاورد. . . الخ.

وهكذا تبين لنا بأن الماركسية تماماً كالتحررية هي عبارة عن صناعة مادية بحتة قامت على أساس جمع أجزاء من أفكار شتى تتلاءم مع هوى بناتهما، وبعد إتمام عملية صف الأحرف والتجميع «أطلق عليه لفظ عقيدة» وتم التبشير بها على أنها البلسم، والحقيقة أن العقيدة المركبة من هذه الأجزاء منقطعة الصلة بجذورها

ووقعها التاريخي، وهي بحكم الميتة، تماماً كما تقتطع أغصاناً من أشجار شتى وفي وقت يطول أو يقصر ستذبل الأوراق النضرة، وتجف وتيبس. وهكذا كل العقائد الوضعية.

مفارقـــة:

قامت التحررية الديمقراطية لتكون بديلاً للحكم المطلق، وجاءت الماركسية الشيوعية لتكون بديلاً للديمقراطية التحررية، وجاءت عقيدة الأحزاب العربية العلمانية من ثمرة التزاوج غير الشرعي بين الديمقراطية التحررية وبين الماركسية الشيوعية!!!.

فك الاشتباك:

عقيدة الأحزاب العربية العلمانية أدّت إلى خلط الأوراق وخلط المبادىء وخلط الشعارات، خلط المستورد بالمحلي، خلط الداء بالدواء، خلط الحق بالباطل، وخلط الألم بالأمل، بل خلط التحررية بالشيوعية بأيد عربية، مما يستدعي فك الاشتباك ـ على حد تعبير عزيز مصر السيد كيسنجر ـ وفك الاشتباك المطلوب هو عربي لأن فك الاشتباك حاصل بين الشيوعية والتحررية خارج العالم العربي. لكن الاشتباك مازال موجوداً في العالم العربي، لأنّ الأحزاب العربية العلمانية هي التي عقدت النكاح بالإكراه بين التحررية والشيوعية تحت إشراف الهوى العربي وعذرها هو رغبتها الجامحة باستكثار «الموالي».

ولا تعنيني الأحزاب العربية العلمانية، فكل الشرائع لا تعترف بزواج الإكراه، ما يعنيني هو الحقيقة العلمية المجردة، وهي تتحقق بفك الاشتباك وهذا الفك يتحقق بتوضيح مرتكزات النظامين الرأسمالي التحرري والماركسي الشيوعي، ثم بالوقوف على وثائق الأنظمة التأسيسية للأحزاب العربية العلمانية، ومعرفة الدوافع الحقيقة التي أدت لقيام هذه الأحزاب، وهذه هي خطة الحلقات المقبلة وبانتهائها تنتهي سباحتنا بمواجهة الأحزاب العربية العلمانية، لنبدأ سباحة جديدة بمواجهة الأحزاب الدينية العربية.

الفصل السادس

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«طبيعة الرأسمالية والشيوعية»

قلنا إن النظام التحرري الديمقراطي الغربي والنظام الماركسي الشيوعي الشرقي قد اتفقنا على أن الحكم الإمبراطوري المطلق الذي أسقطاه هو أسوأ أنواع الحكم التي عرفها التاريخ البشري، وبرأي هذين النظامين ـ ظلماً ـ إن ذلك الحكم الإمبراطوري المستبد كان ثمرة تحالف بين رجال الدين المسيحي ـ علماء الكنيسة ـ وبين الأباطرة لذلك نفروا من الأباطرة، ونفروا من علماء الدين ونفروا من الدين نفسه، ووضعوا لأنفسهم إطاراً يتحركون ضمنه هو إطار «العلمانية» القائم على فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن العقل وفصل الأخلاق عن القانون، وفصل الدين عن الحياة.

ونتيجة تحركهم هذا ضمن إطار «العلمانية» بمفهومها الآنف الذكر، وتحت ضغط الفراغ والاختلال الذي أحدثه انهيار الحكم المطلق، تم تجميع أو استنبات ما يسمى الديمقراطية الغربية، وما يسمى بالماركسية الشيوعية. فقامت الأحزاب العلمانية العربية باستيراد مبادىء وشعارات هذين النظامين وعربتها وزاوجت بينها، وادعت أن المبادىء والشعارات المستوردة والوليدة والناتجة عن هذا التزاوج هي مبادىء غربية خالصة، وأن عمالقة الفكر الغربي العلماني هم الذين أوجدوا هذه المبادىء.

وقد أثبت في مقالي السابق عدم صحة هذه المقولات، وحتى لا يكون في

نفس الباحث عن الحقيقة المجردة حرج رأينا أنه لا بد من الكشف عن طبيعة هذين النظامين ومرتكزاتهما الأساسية كخطوة لا بد منها لإثبات الاستيراد، والاستيلاء، والتعريب الذي قامت به الأحزاب العربية العلمانية، ثم نسبت لنفسها فضيلة الخلق والإبداع بوحي من فرط حبها لهذه الأمة.

طبيعة النظامين الرأسمالي التحرري والماركسي الشيوعي:

هذان النظامان يفتقران للمثل الأعلى، بمعنى أنه لا يوجد في تاريخ الغرب الليبرالي السياسي السابق أو تاريخ الشرق الماركسي الشيوعي السابق ما يدلّ على أن ثمة دولة تاريخية مثالية قد قامت على أساس أي من هذين النظامين، لذلك فإن تطبيقهما لهذين النظامين كان «تهجئة» بمعنى أن الشعوب كانت بمثابة حقل تجارب لهذين النظامين، ومع اختلاف هذين النظامين اختلافاً يرقى إلى مستوى التناقض والمواجهة إلاّ أن طبيعتهما واحدة.

فكلاهما نظام طبقي:

تلك حقيقة، صحيح أن بناة التحررية ودعاتها قد نعوا على الأمبراطورية وعلماء الكنيسة ورهطهما استحواذهم على السلطة وحدهم وحرمانهم لبقية فئات الشعب من حقوقهم وحرياتهم، وخلصوا إلى القول بأن حكم الإمبراطور وعلماء الكنيسة حكم طبقي بغيض يجب أن يزول ليحل محله حكم الشعب نفسه بنفسه بدلاً من حكم الطبقة إلا أن هؤلاء البناة والدعاة وقعوا بنفس الخطيئة التي وقع فيها الإمبراطور وحاشيته.

فما إن سقط الحكم المطلق حتى استحوذت الطبقة البرجوازية المالكة على مقاليد الحكم فأصبحت هي الطبقة الحاكمة وبنفس الوقت هي الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج ووسائل توزيعه وهي وحدها المتمتعة بكافة المزايا والحقوق والحريات، وبقية الطبقات تأكل خبزها اليابس على رائحة الشواء وليس لها من الحقوق إلا ملك الرقبة وآية ذلك نظرية سيادة الأمة التي اخترعتها البرجوازية فقد قسّمت الشعب إلى قسمين:

١ ـ شعب عامل له السلطة والسيادة وهو ذلك الجزء من الشعب الذي يحوز الملكية والثروة «الطبقة البرجوازية»، فهذا الجزء كان وحده المؤهل لممارسة الحقوق والحريات ـ فعلاً ـ في النظام السياسي الليبرالي.

٢ ـ أما الذين لا يحوزون الملكية والثروة فهم شعب غير عامل أو سلبي ليس له شيء سوى الحقوق الطبيعية، بمعنى أنه لا يملك حق المشاركة الفعلية في النظام السياسي الليبرالي.

وتأكيداً لذلك ظهر نظام الاقتراع المفيد لكي يتيح الفرصة للبرجوازية بالتحكم بتعيين وتحديد الجسم الانتخابي، ومن هنا نشأ النظام النيابي ليكون هو المعبر عن هذا الكيان المعنوي «الأمة»، ودور الجسم الانتخابي هو انتخاب النواب ـ فإذا فعل ذلك خرج تماماً عن الخط ـ فالنواب هم الذين يعبرون عن وجدان الأمة خلال مدة ولايتهم ولا يجوز لأفراد الشعب مباشرة أي اختصاص أو إبداء أي رأي في الأمور السياسية، وظل هذا المبدأ سائداً بصرامة ثم تلطف منذ الجمهورية الخامسة في فرنسا حيث أجيز للشعب أن يعمل مع البرلمان عن طريق الاستفتاء.

ومن هذا المفهوم جاء نظام المجلسين بمجلس الشيوخ الذي يمثل عقل الشعب وحكمته ومجلس النواب الذي يمثل خيال الشعب.

وعملياً فإن الطبقة البرجوازية كانت هي صاحبة الكلمة العليا في المجتمع الرأسمالي «الديمقراطي التحرري» ومازالت حتى الآن، وعلمياً فإنه لن يصل حاكم إلى سدة الحكم، ولن يجلس نائب في قاعة مجلس النواب إلاّ إذا كان برجوازياً أو أعطته البرجوازية جواز مروره إلى السلطة، تلك حقيقة واضحة لكل من تعمق بدراسة النظام التحرري الديمقراطي الغربي.

والماركسية الشيوعية طبقية أيضاً:

بهذه الأجواء نشأ كارل ماركس وإنجلز، وكشفا حقيقة النظام الرأسمالي التحرري الديمقراطي، وأثبتا أن التحررية والديمقراطية والحرية مجرّد شعارات براقة ترفعها البرجوازية للتجميل والاستهلاك المحلي والعالمي، وأن أفراد الشعب

لا يعيشون هذه الحقوق واقعاً عملياً، وأن الغنم كله للطبقة البرجوازية في ظل النظام الطبقي الرأسمالي، وأن الغرم كله على طبقة العمال والفلاحين.

وإن الحل الوحيد هو تمليك السلطة لطبقة «البروليتاريا» العمال والفلاحين بوصفها هي الطبقة الأقوى والأكثر عدداً، ومهمة البروليتاريا هي الاستيلاء على السلطة وإقامة «ديكتاتورية ديمقراطية للبروليتاريا» على حدّ تعبير كارل ماركس، وسحق الطبقات الأخرى ونقل ملكية وسائل الإنتاج ووسائل توزيعه من الطبقة البرجوازية إلى ملكية دولة العمال والفلاحين وإلغاء الملكية الخاصة وقصرها على المجال الاستهلاكي، وبتحقيق ذلك تتحقق الاشتراكية «أو الشيوعية الدنيا» كما يسميها كارل ماركس.

وقد تحققت هذه الطبقية وتجسّدت دستورياً في الاتحاد السوفياتي فالسيادة في دستور عام ١٩٣٦ السوفياتي كانت رسمياً للبروليتاريا «العمال والفلاحين» والدولة كانت دولتهم، في دستور عام ١٩٧٧ تم الاعتراف رسمياً بوجود طبقات أخرى، وأعطاها نظرياً حق المشاركة، أما من الناحية العملية فالسلطة بيد الحزب الشيوعي فهو صاحب الكلمة العليا، وهو المالك لكل الحقيقة الشيوعية.

الخلاصة:

وكما ترون فإن الحكم المطلق كان حكماً طبقياً، وجاءت التحررية على أنقاضه فتحوّلت إلى حكم طبقي، ثم جاءت الماركسية الشيوعية لترفع شعاراً طبقياً أيضاً تلك هي طبيعة هذه الأنظمة الوضعية.

وكلاهما نظام مادي مصلحي:

فالمصالح المادية الخاصة هي القيم العليا في المجتمع الديمقراطي التحرري، حتى أن النظام نفسه يسمى بالنظام الرأسمالي لأن رأس المال عنصر من عناصر الإنتاج، بل وعنصر في كل أمر من أمور الحياة في ذلك المجتمع وهذا النظام يعطي الأفراد الحق بامتلاك وسائل التوزيع. وباختصار فإن النظام التحرري الديمقراطي برمته يدور في جوهره وحقيقته حول المادة، الدولة بكل سلطاتها

ومؤسساتها ما وجدت إلاّ لترعى مسيرة التحرك المادي للأفراد.

والماركسية الشيوعية مادية أيضاً:

لأنها تعطي المادة أهمية خاصة، فهي المصلحة العليا، وهي الأصل، وهي القيمة المطلقة، وكل ما عداها مجرّد انعكاس لها كما يقول كارل ماركس، والهدف المرحلي الرئيسي للشيوعية هو إقامة سلطة البروليتاريا لا حباً بطبقة البروليتاريا، ولكن لأنها أقدر على انتزاع ملكية وسائل الإنتاج ووسائل التوزيع من يد الطبقة البرجوازية، ولأنها الأقدر على إلغاء الملكية الخاصة أصلاً، وقصرها على المجال الاستهلاكي فقط.

والخلاصة:

إن النظامين الديمقراطي التحرري والماركسي الشيوعي يركزان بالدرجة الأولى والأخيرة على المادة، على الإنتاج ووسائله، وعلى إشباع الحاجات المادية للفرد أو للمجتمع، ففي النظام التحرري الرأسمالي، الملكية الفردية قيمة عليا لا تسير عليها ومهمة الدولة حمايتها وفي النظام الماركسي، أن الملكية الفردية هي سبب كل بلاء وأن نزعها وتمليكها للدولة «البروليتاريا» هي الحل.

الجانب الروحي:

الجانب الروحي للفرد والمجتمع غير وارد في النظامين، ولا قيمة له فيهما. فالدين هو الذي يغذي الجانب الروحي للفرد وللمجتمع ومن المبادىء المتفق عليها في النظامين التحرري الديمقراطي والماركسي الشيوعي هو استبعاد الدين من الحياة استبعاداً تاماً، فلا علاقة للدين بالعقل، ولا علاقة له بالدولة، ولا علاقة للأخلاق ـ باعتبارها أحد معطيات الدين ـ بالقانون، فالدين علاقة شخصية جداً بين الفرد وبين ربه.

ولا ترى الديمقراطية التحررية حرجاً من هذه العلاقة الشخصية بين الفرد وخالقه مادامت بينهما وشخصية. عندئذ تنظر إلى الأمر نظرة حيادية، والدولة الغربية الديمقراطية، كانت وفية لهذا المَوقف طوال تاريخها الحديث خاصة في

عهودها الاستعمارية، فكان بإمكان المؤذن أن يؤذن خمس مرات في اليوم وبإمكان المسلمين أن يذهبوا للمساجد، وأن يتمتعوا بأعيادهم ويمارسوا عباداتهم، لكن المحظور وفق نواميس الديمقراطية الغربية هو مزج الدين بالسياسة.

أما الماركسية الشيوعية فهي تتعامل مع الجانب الروحي للفرد وللمجتمع بصرامة متناهية فعلاوة على أن الماركسية الشيوعية تستبعد الدين عن الحياة وعن العقل وتفصل الأخلاق عن القانون تماماً كالديمقراطية التحررية إلاّ أنها لا تسمح بالعلاقة الشخصية بين العبد وخالقه، لأنها تعتبر الدين وهماً يأخذ من الإنسان أحسن ما لديه، ويقودها إلى عالم غامض بل والأعظم من ذلك، أنها لا تقر بوجود الله تبارك وتعالى لأنه وبتعبير كارل ماركس نفسه: «لا يقرّ العقل ولا العلم بوجوده... وهو مجرد وهم».

والخلاصة:

إن الديمقراطية التحررية تعتقد أن الجانب الروحي للفرد ثانوي جداً ولا يحتاج إلى إشباع، وانطلاقاً من مناخ الحرية، تسمح بإقامة علاقة شخصية جداً بين العبد وربه، أما الشيوعية فتنكر الجانب الروحي في الإنسان، وتعتبره وهماً، وغني عن البيان «أن إشباع الوهم هدر لمصالح الطبقة العاملة».

أي أن كل واحد من هذين النظامين مني بنصف الإنسان وهو النصف المادي فقط، ومطلوب من الإنسان ـ على ضوء أحكام هذين النظامين ـ أن ينكر نصفه الآخر حتى يتحول إلى إنسان «سوي» أو إن شئت فقل إنها تجربة ليتعود الإنسان «الحجل» السير على رجل واحدة.

وكلاهما نظام نفعي وصولي:

فبناة ودعاة النظام التحرري الديمقراطي الغربي، أغرقوا الدنيا بشعاراتهم البراقة، واستخفوا الشعوب، ووعدوها بجنة الخلد والملك الذي لا يبلى إذا قامت هذه الشعوب بإسقاط الأباطرة وقوضت الحكم المطلق طمعاً «بجنة الخلد التحررية وملكها الذي لا يبلى» وبعد أن تحقق ذلك، قبضت البرجوازية «الدعاة والبناة» على

زمام الأمور وحازت السلطة والثروة معاً، فأكلت الوليمة وحدها، وسمحت للشعوب أن تأكل الفتات أو أن تأكل خبزها «مغمساً» برائحة الشواء، فانقسمت البرجوازية إلى حزبين، حكم ومعارضة، أكثرية تحكم وأقلية تعارض، لعبة معروفة البداية والنهاية وتحت السيطرة أدق تفاصيلها لأنّ اللعبة تتحرك على قاعدة تحتية واحدة «وهي التحررية الديمقراطية» فهي الحُكم والحَكم.

وعانت الشعوب الويل والثبور والحرمان وأصبحت غايتها القصوى إشباع البطون والحاجات المادية، وانتهى أمرها إلى ضياع رهيب وكل ما فعله دعاة التحررية الديمقراطية الغربية وبناتها أنهم استبدلوا ما سمي بالحق الإلهي للملوك بالحق الإلهي للشعوب نظرياً، وبالحق الإلهي للطبقة البرجوازية عملياً.

أما الماركسية الشيوعية فلها باع طويل بهذا المجال، فقد أخذت على التحررية الديمقراطية الغربية، بأن شعاراتها مفاهيم وأفكار مجردة وعائمة ترمي لحرمان الكثرة «الطبقة العاملة» حتى تتمتع القلة «الطبقة البرجوازية»، وزعمت الشيوعية أنها وحدها القادرة على تمليك الحقوق والحريات للمواطنين تمليكاً فعلياً وواقعياً ويتحقق هذا بمجرد وصول الشيوعيين إلى الحكم وإلغاء الملكية الخاصة وانتزاع ملكية وسائل الإنتاج والتوزيع من يد القلة «البرجوازية» وتمليكها لدولة الكثرة «الطبقة العاملة».

وصلت الشيوعية إلى الحكم في الاتحاد السوفياتي، وتم إلغاء الملكية الخاصة وتمّ تجريد البرجوازية من كل شيء، وعلى مذبح الشيوعية قتل الملايين، وفي محراب خلاصها نكل بالملايين، وتصور العالم الضائع أن الشيوعية ـ بناء على شعاراتها ستضع حدّاً لعناء الجنس البشري، وانجلى الغبار فإذا بالحزب الشيوعي يقبض على مقاليد الأمور وينتقم وهو طبقة حاكمة من دون الناس، وإذا بالسواد الأعظم من الناس يشقون سقط القيصر وجاء الحزب الشيوعي ليكون القيصر الجديد، ذلك ملعون لأنه فرد والقيصر الجديد يحمل البركة لأنه حزب وليس فرداً والأنكى من ذلك أن الشيوعية اعتبرت الدين وهماً، وجاءت بدين جديد يقوم على عبادة الشخص، حيث إن الحزب الشيوعي خلع على بُناته ومؤسسيه من القداسة ما لم يخلعه أتباع الديانات على أنبيائهم.

وبدون مقدمات تسقط الشيوعية تماماً في كافة دول أوروبا الشرقية ونكتشف أن شعوب تلك الدول كانت جائعة وذليلة، وأن الشعب السوفياتي نفسه جائع.

وإذا بالجنة الشيوعية مجرد سراب، وإذا بالشعوب التي تبنت الشيوعية تكتشف أنها لم تكن أكثر من حقل تجارب لبناة الفكر الشيوعي وتندم «ولات حين مندم».

والخلاصة:

إن التحررية الديمقراطية والماركسية الشيوعية اكتشفتا أن الشعارات البراقة وسيلة ناجعة لاستخفاف الشعوب، وبالتالي عنصر مساعد للوصول إلى السلطة، لأن الوصول إلى السلطة بمفهوم هذين النظامين غاية، فإذا وصلوا إلى السلطة بدأت تجاربهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية... الخ، على الشعوب وسواء أفشلت تلك التجارب أم نجحت فهم الرابحون لأنهم الحكام. ومن هنا احتلت الشعارات البرّاقة مكاناً خاصة في هذين النظامين على اعتبار أنها وسيلة لتهييج المشاعر، بعد أن بيّنا طبيعة النظامين العالميين الديمقراطي التحرري والماركسي الشيوعي يسهل علينا أن نعالج مضامين هذين النظامين كخطوة أساسية لكشف بضاعة الأحزاب العربية العلمانية ولإثبات أن كافة أفكارها، وشعاراتها، ووسائلها مستوردة بالكامل ومترجمة إلى اللغة العربية، ولا تتغير هذه الحقيقة حتى ولو لبست ثوباً عربياً، أو اعتقدت جماهير الشعوب أنها عربية.

الفصل السابع

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«مضامين التحررية والشيوعية»

بعد أن وضحت في الحلقة السابقة طبيعة النظامين: التحرري الديمقراطي الغربي والماركسي الشيوعي الشرقي، سأبيّن في هذه الحلقة مضامين هذين النظامين ليسهل علينا بعد ذلك كشف عمليات استيراد وتسويق المبادىء والشعارات التي قامت بها الأحزاب العربية العلمانية، ثم ترجمتها إلى اللغة العربية، وأغفلت مصدرها، ثم ادعت الفضل باكتشافها، فألحقت تلك العمليات ضرراً بالغاً بالجهتين المصدرتين وبالبضاعة نفسها «المبادىء والشعارات» وبالمنتفع «الأمة» تلك الأمة التي شغفت تلك الأحزاب العلمانية حباً.

«مضامين النظامين الديمقراطي الغربي والماركسي الشرقي»:

١ ـ مضمون النظام الديمقراطي الغربي:

يتلخص مضمون النظام التحرري الديمقراطي الغربي:

ـ الحرية بمختلف أنواعها كحقوق طبيعية لصيقة بالإنسان «نظرية الحقوق الطبيعية» التي قال بها «جون لوك» والتي تقول بوجود حقوق طبيعية ملاصقة للإنسان وسابقة لوجود السلطة. وأن السلطة في حقيقتها ثمرة وحدة الإرادات الكلية للأفراد أقاموها طمعاً بحياة أكثر رقياً «نظرية العقد الاجتماعي» التي قال بها «روسو» وهذه أمور يكتشفها العقل السليم المستقل تماماً عن الدين، لأنّ العقل مصدر كل خير، «العقلانية» التي قال بها «هيجل» هذا على الصعيد الفلسفي.

أما من الناحية السياسية: فيقول هذا النظام بالتحررية وهي عبارة عن صيغة فكرية وفنية وقانونية تهدف للتوفيق بين الحق بالحريات وممارستها وضمانها من جهة وبين ضرورة وجود السلطة وتمكينها من القيام بدورها دون بغي ولا استبداد ـ على اعتبار ـ أن وجود السلطة شرّ لا بد منه على حدّ تعبير «فردريك باستيا» وجاءت الديمقراطية ـ بصورتها النهائية ـ لتخلق هذه المواءمة بين الحريات والحقوق من جهة وبين السلطة من جهة أخرى، وهي تلك الصيغة التي تقول: بتمليك السلطة للمواطنين عن طريق الانتخاب بحيث يكون المواطن حاكماً ومحكوماً بنفس الوقت. مع التركيز على الحقوق الفردية على اعتبار أن المصالح الفردية قيم عليا للمجتمع وحقوق طبيعية وهي قيد مطلق على الشعب والدولة معاً «الفردية» فليس بوسع الشعب، وليس بوسع الدولة سنّ قوانين تتعارض مع هذه الحقوق والحريات. ولأنه يتعذّر علينا حكم الشعب، فتمخّضت التطبيقات الديمقراطية عن أكثرية تحكم وأقلية تعارض، وبوقت يطول أو يقصر تتحول الأقلية إلى أكثرية والأكثرية إلى أقلية، ويتناوبون الحكم والمعارضة. أما على الصعيد الاقتصادي فيقول هذا النظام بالرأسمالية: أي بالملكية الخاصة على اعتبار أنها حق طبيعي مقدس، وبالتالي حق الأفراد بتملك وسائل الإنتاج ووسائل التوزيع واستثمار هذه الوسائل عن طريق التعاون بين رأس المال والعمل على اعتبار أن العمل سلعة يخضع لقانون العرض والطلب.

هذا هو مضمون النظام التحرري الديمقراطي الغربي باختصار، ومبدأ الحكم المقيد، ومبدأ فصل السلطات، ومبدأ سيادة القانون، ومبدأ التعددية «أكثرية تحكم وأقلية تعارض»، هذه المبادىء وأمثالها جاءت لتصبّ في محيط واحد ولتخدم غاية واحدة وهي كيفية التوفيق بين الحق بممارسة الحريات وضمان هذه الحريات من جهة وبين ضرورة وجود السلطة وتمكينها من القيام بدورها دون بغي ولا استبداد على اعتبار أنها شرّ لا بد من وجوده. وغني عن البيان أن هذا النظام يستبعد الدين تماماً عن مسرح الحياة السياسية ويؤكد أن الحقيقة المجردة كامنة فيه، وعلى المستوى العام موزعة بين الحكم والمعارضة.

٢ ـ مضمون النظام الماركسي الشيوعي الشرقي:

تقوم الماركسية الشيوعية في أساسها على قاعدة أن المادة هي جوهر كل شيء، وهي القاعدة التحتية لكل شيء، وأن كل شيء في العالم ما هو إلاّ مجرد انعكاس للمادة، وأن هذه المادة جدلية بمعنى أن كافة التغيرات التي تجري في العالم سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية. . .الخ تجري على أساس ما يقوم من تناقض بين القاعدة التحتية المادية وبين ما يجب أن يقوم عليه هذا الواقع في الجوهر وفي الحقيقة وأن المادة كانت دائماً وراء الصراعات الطبقية هذا من حيث الأساس.

أما على الصعيد السياسي فإنّ الماركسية الشيوعية تقول: إن السلطة في النظام الديمقراطي التحرري الغربي هي بيد الطبقة البرجوازية «الرأسمالية» وهي فئة قليلة وأن البرجوازية قد آلت إليها السلطة لأنها هي المالكة لوسائل الإنتاج ووسائل التوزيع.

ولأنّ البرجوازية قلّة ولأنّ البروليتاريا هي الطبقة الأكثر عدداً والأقوى يجب أن تنقض على البرجوازية وتأخذ منها السلطة لتقيم «دكتاتورية البروليتاريا» ومهمة هذه الدكتاتورية هي سحق الطبقات الأخرى ونقل ملكية وسائل الإنتاج ووسائل التوزيع من البرجوازية إلى ملكية دولة البروليتاريا وإلغاء الملكية الخاصة، فإذا فعلت البروليتاريا ذلك ستنتهي مهمة الديكتاتورية حيث تؤول السلطة إلى مجالس شعبية لتحلّ محل الدولة ومحل البرلمانات، مجالس الثرثرة، كما يقول كارل ماركس عنها، وينبثق عن هذه المجالس هيئة تشريعية وتنفيذية تحكم وتتداول تحت إشراف الشعب.

أما على الصعيد الاقتصادي فهي تقول بالاشتراكية، ومعنى الاشتراكية هو نقل ملكية وسائل الإنتاج إلى الدولة «دولة البروليتاريا» بوصفها ممثلة المجتمع، وتعني إلغاء الملكية الخاصة التي تشكل جذر البلاء. الشيوعية الدنيا تتمثل بالاشتراكية والشيوعية العليا تعني إدراك المجتمع لهذه المرحلة من التطور بفضل دكتاتورية البروليتاريا وبفضل الاشتراكية، هنالك تختفي الطبقة وتتحقق المساواة، وتزول

الدولة لأنّ الدولة هي أداة بيد الطبقة، وطالما أن الطبقة قد اختفت فتختفي الدولة كأداة لها. وهكذا يتحرر الإنسان من الطبقة ومن أداتها «الدولة» ويتحرر من الاقتصاد، ومن الدين، ومن الأسرة وتسود قاعدة «من كل حسب عقله ولكل حسب حاجته» بعكس قاعدة الرأسمالية «من كل حسب عمله ولكل حسب كفاءته» ولكل دولة ماركسية الحرية ضمن الماركسية» وسيادتها وحريتها مقيدة ضمن الماركسية «مبدأ بريجنيف».

ومن نافلة القول التذكير بأن هذا النظام ينظر للدين نظرة عدائية ويستبعده بقوة عن مسرح الحياة، ويعتقد أن الشيوعية وحدها هي التي تملك الحقيقة، وأن الحزب الشيوعي هو الناطق الرسمي باسم هذه الحقيقة، وتؤمن الشيوعية بالفكرة الأممية الطبقة العالمية الواحدة التي تعتمد البروليتاريا كما جاء في البيان الشيوعي، وسارت هكذا حتى جاء «ستالين» فأوجد مذهب «اشتراكية البلد الواحد».

الديمقراطية زينة مشتركة للنظامين:

النظام التحرري يزعم أنه نظام ديمقراطي وأن حكمه تحرري ديمقراطي، والنظام الماركسي الشيوعي يؤكد أن نظامه ديمقراطي وأن دولته «ديكتاتورية ديمقراطية» ويزول العجب إذا علمنا أن الذي صاغ هذا الشعار هو كارل ماركس نفسه.

وهكذا نرى من حيث المبدأ أن الديمقراطية علبة زينة مشتركة يستعملها النظامان أو صنم يسجدان له، ولكن طقوس الزلفى لهذا الصنم مختلفة.

سبب اختلاف الطقوس ما بين التحررية والشيوعية:

١ ـ إن فكرة الديمقراطية اختلطت في الغرب مع فكرة الحرية ودارت معها وجوداً وعدماً، والحريات إجمالاً وعموماً في الغرب جاءت من نظرية الحقوق الطبيعية لإثبات وإعلان هذه الحقوق الفردية لتقف سداً أمام الدولة... وأمام الشعب نفسه وهذه الحريات مجرد مفاهيم وأفكار مجردة، متروك

لأصحابها مهمة إشباعها بالطريقة التي يرون بعد أن تأكدت وتم الكشف والإعلان عنها.

الشيوعية التي شهدت ميلاد الحكم التحرري الغربي، وشاهدت الناس يكتوون بناره، كفرت بالأفكار والمفاهيم المجردة التي يتغنى بها الحكم التحرري، واقتنعت أن الحريات ليس منبعها الطبيعة إنما هي في قلب المجتمع، وأنها ليست حقوقاً مجردة إنما هي حاجات تلبى. وأن الحكم البرجوازي هو الخطر الوحيد على الحريات فإذا سقطت سلطة البرجوازية وتمكنت البروليتاريا من إقامة دكتاتوريتها الديمقراطية، عندئذ يعمل الأفراد والسلطة معاً لأنّ هدف الاثنان واحد وهو إشباع الحاجات فلا خطر من أحدهما على الآخر حيث يشتركان معاً بنوعين من الصراعات:

- صراع يهدف لإقصاء البرجوازية عن السلطة وتمليك السلطة للبروليتاريا.

- صراع يخوضه الأفراد والسلطة معاً لتحديد الحاجات وقهر الطبيعة لتلبية هذه الحاجات.

٢ - والسبب الثاني أن مفهوم الديمقراطية لم يستقر على حال واحدة طوال التاريخ السياسي العربي، فكما هو معلوم أن الديمقراطية كلمة يونانية تعني حكم الشعب ولكنها في الحق والحقيقة لم تكن حكم الشعب بالشعب، إنما تعني في اليونان حكم «أغلبية الذكور الأحرار من الأشراف والنبلاء» أما المرأة، أما الرقيق، أما بقية أفراد الشعب فهم مجرد متاع، فهي بأصلها وفصلها دعاية.

٣ - ونتيجة اختلاط فكرة الحرية مع فكرة الديمقراطية تولّدت عدة مفاهيم:

أ - كانت الحرية تعني استقلال الفرد بنفسه وماله ومصيره فجاءت الديمقراطية لتكون درعاً لهذا الاستقلال «فنشأ مبدأ الدولة الحارسة».

ب - ثم تبين أن الفرد غير قادر على حماية حريته واستقلاله ومصيره فجاءت الديمقراطية لتعني أن الحرية والاستقلال يجب أن يضمنا من قبل الدولة «الدولة الحامية».

ج ـ ثم أصبحت تعني أسلوب التوفيق بين الحرية وبين السلطة.

د ـ ثم ربطت الحرية مع المساواة فظهرت الديمقراطية الاجتماعية.

ثم أخيراً أصبحت الديمقراطية عنوان نظام يقول بتمليك السلطة للمواطنين عن طريق الانتخاب، ويعني بحقوق وحريات الأفراد وباختصار تتمخض اللعبة الديمقراطية عن:

١ ـ في النظام الغربي: أكثرية تحكم وأقلية تعارض وبوقت يطول أو يقصر تتحول الأقلية إلى أكثرية والأكثرية إلى أقلية ويتناوبون الحكم والمعارضة.

٢ ـ في النظام الشيوعي: أكثرية تحكم وليست هنالك معارضة ولا تعددية لأنّ الشيوعية تملك الحقيقة وأن الهدف هو دولة البروليتاريا التي تمثل الأغلبية[١].

اللعبة الديمقراطية في النظامين:

الديمقراطية بمفاهيمها القديمة والراهنة لعبة حقيقية ولكنها لعبة كبار، والمجتمع الذي تطبق فيه هذه المفاهيم هو مجرد ملعب بلدي مصمم لهذه اللعبة خصيصاً وآية ذلك: أنه عندما تمكنت البرجوازية من إسقاط نظام الحكم المطلق وإقامة النظام الديمقراطي مكانه، وضعت البنية الأساسية التحتية للدولة التحررية، وصاغت هذه البنية على شكل قواعد قانونية غطت بالكامل مسرح الحدث السياسي، ووضعت القواعد السياسية للعملية السياسية كاملة، وبالتالي شكلت هذه البنى الدستورية والسياسية والاقتصادية. . .الخ ما يسمى بالمثل الأعلى للدولة الديمقراطية، أي أن الدولة تكون ديمقراطية إذا أخذت بتلك البنى فقط، وبالنتيجة اقتصر دور القادمين إلى السلطة على التحرك فوق ملعب جاهز للعب، ولعبة كرة القدم لا تكن صحيحة إلاّ إذا جرت فوق الملعب المحدد، ووفق القواعد المسلّم بها سلفاً.

يأتي رئيس الولايات المتحدة إلى السلطة وتنتهي مدة ولايته والقوانين والبنى

---

(١) راجع البنى الدستورية ـ الدكتور حسن الجلبي.

التحتية على حالها، وإن عدلت فبقدر. ويأتي مجلس النواب ـ في النظام البرلماني ـ إلى السلطة وتنتهي مدة ولايته والبنى السياسية على حالها لأنه أقسم أصلاً أن يتحرك ضمنها وأن يعمل بها.

كذلك في النظام الماركسي الشيوعي وعند قيام الدولة الشيوعية الأولى، وضعت البنى التحتية للدولة الشيوعية، وصيغت على شكل قواعد قانونية غطت قواعد العمل السياسي بالكامل وتحولت هذه البنى إلى مثال... يحاكي وينسج على شاكلته، والساسة القادمون يتحركون ضمن هذا الإطار.

مظاهر الديمقراطية في النظامين:

في النظام الديمقراطي الغربي: تتكرّس الحقوق الفردية بنصوص قانونية على شكل مفاهيم مجردة بغض النظر هل يعيشها الأفراد فعلاً أم لهم منها ملك الرقبة فقط دون الانتفاع؟ وعلى أي حال فللدولة حدود لا تتجاوزها من ناحية الحريات.

أما النظام الماركسي الشيوعي: فهو يؤمن أن الحقوق والحريات ليست مفاهيم مجردة إنما هي حاجات تلبى، وغاية الفرد وغاية الدولة واحدة وهي تلبية هذه الحاجات، ومن هنا فلا تجد حدوداً لتدخل الدولة الشيوعية فكل شيء هو مجال وميدان للدولة.

أما على صعيد اللعبة السياسية: فالنظامان يؤمنان:

بفكرة الانتخابات: ففي النظام الرئاسي الغربي كالولايات المتحدة وفرنسا يصل رئيس الجمهورية لمنصبه عن طريق الانتخابات.

وفي النظام الرئاسي والنيابي: يتم انتخاب أعضاء الهيئات التشريعية: مجلس النوّاب ليمثل خيال الشعب، ومجلس الشيوخ ليمثل عقل الشعب الراشد. وهذه الهيئات التشريعية تختص بسنّ القوانين ومراقبة السلطة التنفيذية.

والسلطات في النظام الغربي الرأسمالي متوازية يراقب بعضها بعضاً منعاً للاستبداد، وكل سلطة تملك سلاحاً دستورياً تستعمله عند الاقتضاء لمواجهة الأخرى.

أما في النظام الماركسي الشيوعي: فيقول إنه يأخذ بالديمقراطية المباشرة، والحياة السياسية أيضاً تقوم على الانتخاب، الشعب ينتخب السوفيات، والسوفيات تنتخب هيئة الرئاسة وهيئة الرئاسة تنتخب الوزارة. وتخضع السلطات الدنيا للعليا، جميع السلطات متحدة ولا يوجد فصل بين السلطات ولأنّ حكم البروليتاريا هو حكم الأغلبية ودور الأقلية هو الخضوع للأغلبية.

حقوق الشعب في النظامين:

رأينا في الحلقة السابقة أن الشعب الحقيقي في النظام الرأسمالي هو ذلك القسم من الشعب الذي يحوز الثروة فهو وحده المؤهل لممارسة العمل السياسي، أما الذين لا يحوزون المال فليس لهم من الحقوق إلاّ ملك الرقبة، حيث يتعذر عليهم ممارستها فعلاً. وباختصار فإنّ النظام الرأسمالي نظام طبقي من هذه الناحية.

كذلك فإن النظام الماركسي الشيوعي يعتبر أن الشعب هم البروليتاريا وأن الدولة هي دولة البروليتاريا تلك حقيقة مكرسة بدستور ١٩٣٦ السوفياتي، وبعد دستور ١٩٧٧ تمّ الاعتراف نظرياً بوجود طبقات أخرى، فالنظام الماركسي من هذه الناحية نظام طبقي أيضاً.

«معنى حكم الشعب الديمقراطي ومعنى الشعب»:

يرفع شعار أن الديمقراطية حكم الشعب بالشعب وللشعب أيضاً فأي شعب هذا الذي يحكم نفسه بنفسه ولنفسه؟.

ما يقصده النظام الرأسمالي التحرري والماركسي الشيوعي بالشعب هو «الجسم الانتخابي» أي مجموع الأشخاص المسجلين بالجداول الانتخابية فقط فهم وحدهم الذين يملكون حق الانتخاب ويمارسونه.

معنى الأقلية والأكثرية:

الأكثرية: الناجح أو الناجحون في الانتخابات، والذين اقترعوا لصالحهم هم الأكثرية وهي التي تحكم النظام الرأسمالي.

الأقلية: من لم يحالفه أو يحالفهم الحظ في الانتخابات، والذين اقترعوا لصالحهم هم الأقلية وهي التي تملك حق المعارضة. ويتكرر هذان الاصطلاحان بالتصويت وفي المواقف.

وبهذه العجالة أعتقد أنني قد وضحت الخطوط العريضة لمضامين النظامين بما يفي بالغاية من التعرض لهذا الموضوع، ويسعدني أن أفصّل أي أمر يرغب بعض الأخوة بتفصيله، أو أوضح ما يبدو غامضاً، ولو اتسع بنا المجال لبيّنا بالأرقام كيف يحدد الشعب «الجسم الانتخابي» وكيف يتم الاقتراع وكيف تنتخب الهيئات التشريعية بشقيها وكيف ينتخب الرئيس وما هي نسبة الأكثرية الحاكمة من مجموع الشعب «الجسم الانتخابي».

الفصل الثامن

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب
«طبيعة الفكر العلماني»

«رواد الفكر العلماني العربي»:

قلنا إن «العلمانية» مصطلح غربي وهو مستورد بكافة أجزائه، وقد تحدد معنى هذا المصطلح، وأخذ صورته النهائية، وتعلق بمعناه تماماً كما يتعلق الاسم بالمسمى، وهنالك إجماع بين منظّري الفكر العلماني بشقيه التحرري الديمقراطي والماركسي الشيوعي بأنّ العلمانية تعني «فصل الدين عن الدولة، وفصل العقل عن الدين، وفصل الأخلاق عن القانون» على اعتبار أن الأخلاق أثر من آثار الدين، وبالتالي إقصاء الدين عن مسرح الحياة السياسية وقصر دوره على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه. وقد تحوّلت العلمانية إلى ميدان وإطار تحرّك فوقه وضمنه روّاد الفكرين الديمقراطي الغربي والماركسي الشيوعي الشرقي، ونتيجة هذا التحرّك تم استنبات أو تجميع عقيدتين وضيعتين هما: التحررية الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية الشرقية بكل ما حوتا من مبادىء وشعارات، وقد أوضحنا هذه المبادىء والشعارات من خلال تناولنا لطبيعة هاتين العقيدتين وإبرازنا لمضامينهما.

معنى الرواد العلمانيين العرب وأهميتهم:

نعني بالرواد العلمانيين العرب: تلك النخبة التي كانت أول من آمن بالعلمانية الغربية بمفهومها الآنف الذكر، وآمنت بكل المبادىء والأسس التي تمخّضت عن تلك العلمانية، ثم قامت باستيرادها وتعريبها والترويج لها ضمن خطة طويلة النفس

ومحكمة، حتى استقطبت الجزء الفاعل من هذه الأمة وهذا إنجاز، وحيدت ما عجزت عن استقطابه وهذا إنجاز آخر مهم.

ومع الأيام تحولت إلى تيار غلّاب يفرض سيطرة فعلية كاملة على الشارع العربي ويحسب له النظام العربي كل حساب فيجاريه رغبة أو رهبة لأنّ شواهد التاريخ السياسي العالمي ماثلة في ذهن النظام العربي، فقد طال الصراع بين الإمبراطورية الدينية المسيحية وبين دولة الخلافة العثمانية، وبالرغم من حدة هذا الصراع وضراوته وطول فترته إلاّ أن كل واحدة من هاتين الإمبراطوريتين عجزت عن القضاء على الأخرى. وهنالك تدخل التيار العلماني بوسائله وشعاراته فاستخف الشعوب، وتمكن من القضاء على هاتين الدولتين، بأقل التكاليف وحولهما إلى مجرد صفحات في أسفار التاريخ وكون من أشلائهما عشرات بل ومئات الدول والحكومات.

ونتيجة لكل هذا يمكنك القول بكل ارتياح إن المبادىء والأسس العلمانية في الوطن العربي أصبحت قدراً مشتركاً بين الشعوب العربية وبين النظم وغدت هي المرجعية العظمى للطرفين، فخلافهما منحصر بالتفسير، وقناعتهما تتولد بصحة السند المرجعي لهذه المبادىء.

منابع مبادىء العلمانيين العرب:

لم يبتكر العلمانيون العرب أية مبادىء وبالتالي لا توجد لهم مبادىء أو عقيدة خاصة بهم وكل ما فعلوه هو أنهم استوردوا العلمانية الأوروبية كإطار ومعها بنفس الصندوق كافة المبادىء الناشئة عنها، ثم عربوها، وزاوجوا بينها وأغفلوا المصدر فبدت كأنها ابتكار عربي أو هكذا خيّل للعرب.

والاختلاف الظاهر هو اختلاف باللغة فقط وبالترجمة، على سبيل المثال فإن العلمانيين العرب استوردوا النظرية الألمانية المتعلقة باللغة كعنصر من عناصر القومية وبالحرف تقريباً ومن جملة هذه النظرية شعار «ألمانيا فوق الجميع» فقام العلمانيون العرب وطرحوا شعار «العروبة فوق الجميع» وأنت ترى أن الاختلاف يسير فقد حذفوا كلمة «ألمانيا» ووضعوا بدلاً منها كلمة «العروبة» وللتأكد من هذا يمكن مراجعة ص١٩ و٦٤ ـ ٦٧ من أبحاث مختارة في القومية للسيد ساطع

الحصري وهو موضع ثقة العلمانيين قاطبة وإمام القوميين خاصة وهكذا فعلوا بكافة المبادىء التي استوردوها. والعلمانيون العرب وأحزابهم أعقل من أن ينفوا ذلك أو أن يردوا على كلمة واحدة مما نشرت في جريدة اللواء الغراء.

أركان الفكر العلماني العربي:

بني الفكر العلماني العربي على خمسة أركان:

١ ـ الركن الأول:

وهو العلمانية: القائم على فصل الدين عن الدولة، وفصل العقل عن الدين وفصل الأخلاق عن القانون وقصر علاقة الدين بين العبد وربه، وقد وضحنا أن الغرب هو الذي اخترع هذا الركن لأسباب خاصة به وقد وضحناها في معرض سباحتنا بمواجهة تيار الأحزاب. لكن العلمانيين العرب استوردوه وتبنوه وأصبح هو الأساس الأول في تكوين اعتقادهم. يقول الأستاذ علي ناصر في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه قضية العرب بالحرف: «ويجب أن نفصل الدين عن السياسة ونحرّم على رجال الدين الاشتغال بها» «راجع كتاب العرب والإسلام لأبي الحسن الندوي ص ٣ وص ٧١ من كتاب فكرة القومية للأستاذ صالح عبود». وعلى الصفحة ١١ ـ ١٧ ينقل الدكتور نبيه فارس عن الكواكبي قوله: «دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم بالآخرة فقط» (راجع ص ١٧ من كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس). ويقول ألبرت حوراني في كتابه الفكر العربي في عصر النهضة: «ولقد نادى بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتّاب السوريين». ونقل ألبرت عن شبلي الشميل أن الأمم تقوى بمقدار ما يضعف الدين (ص ٢٩٩) وينقل ألبرت حوراني عن فرح أنطون قوله في معرض إهداء كتابه: العقلاء هم الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين، فصاروا يضعون دينهم جانباً في مكان مقدس ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً، لأنّ العالم تغير فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين بل على أمرين الوحدة الوطنية والتقنية العلمية والوحدة تتم بخلق الولاء القومي والفصل بين السلطة الدينية والمدنية (ص ٣٠٤).

الهوى لا دواء له ودين بدلاً من دين:

يلاحظ أن العلمانيين العرب تبنوا العلمانية الغربية باستبعادها الكامل لفكرة

الدين، وبنوا تفكيرهم ونظرتهم على هذا الأساس، لكنهم قد سقطوا في حفرة خطر جديد بدعوتهم لدين جديد وهكذا تحرروا من دين واستعبدهم دين آخر بدليل: يقول الأستاذ علي ناصر في كتابه قضية العرب ص ٣ وص ٧١ «فكرة القومية»: «العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب لأنها وجدت قبل الإسلام».

ويقول الأستاذ الفاخوري في كتابه كيف ينهض العرب: «لا ينهض العرب إلاّ إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم والمسيحيون والكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم. . .» (راجع كتاب الأمة العربية في معركة تحقيق الذات للأستاذ محمد مبارك). ويقول الأستاذ ساطع الحصري في كتابه أبحاث مختارة في القومية ص ١٠٦ وص ٣٩ من كتاب فكرة القومية لصالح عبود ما يلي: «ولذلك أقول بلا تردد أن أول الواجبات التي تتحتم علينا لتقوية الإيمان القومي هو كتابة تاريخنا على نمط جديد بعقلية غربية ونزعة قومية».

ويقول الأمير مصطفى الشهابي في كتابه «القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها» ص ١٧ وص ١٨ ما يلي: «ومن الأجرام الفظيعة أن يتخلى أفراد الأمة الضعيفة عن عقيدة القومية وأن يتجاوزها إلى الإيمان الأعمى بعقيدة العالمية» وهكذا يرى الشهابي أن التجاوز إلى عقيدة عالمية كالإسلام هو من الذنوب الفظيعة، ويقول في الصفحة ٣٥٩ من كتابه: القومية العربية لا ترتكز على الدين وإن يكن معظم السكان مسلمين ففي القومية العربية «العربي من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربياً مهما يكن دينه ومهما تكن السلالة البشرية التي ينتمي إليها».

ويقول الأستاذ محمد معروف الدواليبي في كتابه دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضارتهم الإنسانية ما يلي: إنه شهد في هذه المحاضرة عدم الاتفاق على مفهوم واحد لمعنى القومية العربية لدى المؤمنين بها فضلاً عن الكافرين «الجاحدين» ص ٩٢ و٩٣. ويقول الكاتب الكبير محمود تيمور في مجلة العالم العربي عدد ١٧١ تحت عنوان: النثر والقومية العربية ما يلي: «لئن كان لكل عصر نبوة مقدسة فإن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر. . الخ».

والخلاصة:

إن العلمانيين العرب قد استوردوا المبادىء الغربية كاملة بما فيها أدق

التفاصيل، وقد فتحوا الصناديق المستوردة واكتشفوا أن دورهم مقصور علىٰ تعريف المصطلحات، عندئذ وطمعاً بأن يكون لهم دور أضافوا عنصراً جديداً وهو عنصر الهوى العربي، فاعتبَروا هذه المبادىء ديناً فهاموا بها بنفس الوقت الذي يحرمون فيه مزج الدين بالسياسة وآخر نماذج هذا التحريم مشروع الأحزاب السياسية المقترح بالعراق إذ حيث جاء فيه: «لا مكان في الحياة السياسية لأولئك الذين يمزجون الدين بالسياسة».

الركن الثاني للاعتقاد العلماني العربي:

القومية: هي فكرة نشأت في أوائل القرن التاسع عشر وأول من نادى بها الكونت الفرنسي مونتيلر في كتابه الملكية الفرنسية الصادر عام ١٨١٥ ثم تبعه هنري جابينو فأصدر كتاباً بذات الموضوع بعنوان «محاولة لدراسة التفاوت بين الأجناس البشرية» نشر في عام ١٨٥٥ ثم اتضحت صورة القومية نظرياً بكتاب فيشر لوبيجو المسمى «الانتقاء الاجتماعي» والصادر عام ١٨٩٦، وانتشرت الفكرة في أوروبا والعالم الغربي وكان لها رجع خاص في ألمانيا حيث أقيمت القومية الألمانية ثم جاء البيان الشيوعي الصادر عام ١٨٤٨ فالتقى مع النظرية القومية بالقدر الذي تقول فيه بأن القومية من صنع عوامل مادية لا روحية. وهبت رياح الفكرة القومية على العالم الإسلامي فتبنتها جمعية تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ومن خلال هاتين الجمعيتين ومن خلال البعثات التبشيرية والمدارس والكليات التبشيرية انتشرت الفكرة في لبنان وسوريا ثم فاضت على العالم العربي، وساعد على انتشارها تفتت العالم الإسلامي واستعماره من قبل الدول التي صدرت الفكرة القومية، ولا يجادل أحد بأن القومية فكرة غربية ومستوردة.

الركن الثالث الديمقراطية:

العلمانيون العرب أعقل من أن يدعوا ابتكار الديمقراطية فهي يونانية المنشأ وقد طبّقها الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي بصيغ ومفاهيم مختلفة حتى حولاها إلى لعبة حقيقية كلعبة كرة القدم، وقد وضحت في مقالي السابق ذلك كله. وهذا الركن أيضاً بضاعة غربية خالصة.

الركن الرابع الاشتراكية:

نشأت الاشتراكية في فرنسا تماماً كما نشأت الفكرة القومية وقد قال بها سان سيمون، ونورييه وبردون وتلقفها كارل ماركس وأنجلز وأصبحت بصيغتها النهائية تعني: إلغاء الملكية الخاصة وقصرها على المجال الاستهلاكي، ونقل ملكية وسائل الإنتاج ووسائل التوزيع إلى الدولة ويسميها كارل ماركس بالشيوعية الدنيا ويذكر ألبرت حوراني في كتابه «الفكر العربي في عصر النهضة» أن شبلي الشميل أحد خرّيجي المعهد الطبي التابع للكلية البروتستانتية والمسيحي السوري كان أول من نشر بالعربية فكرة الاشتراكية وعلى أي حال فمن غير المعقول أن يدّعي أي علماني عربي بأنه قد اخترع الفكرة الاشتراكية فالكل يعرف أنها بضاعة أجنبية.

الركن الخامس الرأسمالية:

أي تقديس الملكية الخاصة وتمليك الأفراد لوسائل الإنتاج ووسائل التوزيع وهذا الركن هو عنوان الأنظمة الغربية إذ يطلق عليها «التحررية الديمقراطية الرأسمالية» ومن نافلة القول التذكير بأنها بضاعة أجنبية حافزها الربح وللرأسمالية طقوسها ونظامها الاقتصادي الخاص، وقد انتعشت الفكرة بالعالم العربي بعد تعثر ما سمي بالاشتراكية العربية.

والخلاصة:

فإن العلمانيين العرب لم يضعوا أي مبدأ سياسي على الإطلاق وإن كافة المبادىء التي يتبنونها ويروّجون لها استوردتها مع الأسف من جلادي أمتهم فرحلت الجيوش التي غزت أرض هذه الأمة واستعمرتها ولكن الفكر العربي العلماني مازال تابعاً تبعية كاملة للغزاة.

وبعد أن بيّنا طبيعة الفكر العلماني العربي يسهل علينا أن نعالج موضوع رواده وكيف أصلوه في العالم العربي وحولوه إلى بنى حزبية وتنظيمية.

الفصل التاسع

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«تحديد رواد العلمانية»

بيَّنا في الحلقة السابقة معنى العلمانية العربية ومعنى الريادة الفكرية العربية ووضحنا الأركان الخمسة التي بني عليها الفكر العلماني العربي، ومن نافلة القول أن نذكر أنه ليس للعلمانيين العرب فكر خاص بهم والفكر الذي يتبنونه ويدعون الفضل بابتكاره نشأ في أوروبا أصلاً وترعرع فيها وأخذ صورته النهائية هناك وتحول إلى بنى دستورية وقانونية وبعد أن تبنته دول الغرب ثم بدأت رياح هذا الفكر تهب على العالم الإسلامي وتعصف بمواطني الدولة الإسلامية هنالك فقط (شم) العلمانيون العرب رائحة هذا الفكر العلماني فهاموا به وشغفهم حباً كما هامت به من قبل «جمعية تركيا الفتاة والاتحاد والترقي» والفرق أن هذه الأخيرة علا شأنها وقبضت على ناصية الأمور في دولة الخلافة العثمانية ومن أجل هوى هذا الفكر ووفاء للذين أسسوها روعت هذه الجمعية بجنونها المسلمين وقوّضت دولة الإسلام وفككت وحدة المسلمين وقطعت نهائياً الخيط الذي كان يربط حبات السبحة الإسلامية.

ما هي غايات الغرب من نشر علمانيته؟:

لم يروج الغرب لفكره العلماني ويركب كل صعب لنشره في العالم الإسلامي حباً بالإسلام ولا حرصاً على المسلمين ولا إشفاقاً على العرب أو إنسانية منه لكن الهدف الحقيقي للغرب هو تفكيك وحدة الأمة الإسلامية من الداخل والقضاء على الإسلام كرابطة سياسية بين المسلمين وتلك خطوة لازمة لإسقاط دولة المسلمين

تلك الدولة التي شكلت خطراً ماحقاً على العالم المسيحي طوال تاريخه، وعجز هذا العالم عن إسقاطها مواجهة. تلك حقيقة تؤيدها شواهد التاريخ ومن هذه الشواهد رسالة شارل الخامس ملك فرنسا الموجهة إلى ملك إنكلترا بتاريخ ١٦ نيسان ١٥١٣ الداعية إلى نبذ الخلافات في العالم المسيحي للوقوف في وجه دولة الإسلام (راجع على سبيل المثال نشوء القومية العربية ص ١٤ زين نور الدين زين وكتاب فكرة القومية العربية ص ١٤٣ للأستاذ صالح عبود) هذا هو الهدف المرحلي للغرب. أما الهدف الكلي والنهائي بعد ذلك فقد صرّح به القس (زويمر) رئيس جمعيات التبشير حيث جاء في خطابه الناري الذي ألقاه في مؤتمر جمعيات التبشير المنعقد بالقدس عام ١٩٣٥ ما يلي وبالحرف:

«لقد أديتم الرسالة، وإن كان يخيل إليّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية.. مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، لقد قبضنا في هذه الحقبة من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع البرامج التعليمية في الممالك الإسلامية المستقلة والتي تخضع للنفوذ المسيحي، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد» (راجع جذور البلاء للأستاذ عبد الله التل ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ وراجع التبشير والاستعمار للدكتور مصطفى الخالدي وعمر فروخ ص ١٧٥ وراجع فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام للأستاذ صالح عبود وراجع نشوء القومية العربية للدكتور زين نور الدين زين ص ١٢٥ ـ ١٢٧ و٢٢٥).

نقطة انطلاق الفكر العلماني العربي:

لم يكتف الغرب بخلاياه السرطانية التي أنشأها في العالم الإسلامي لبثّ الفكرة العلمانية إنما حرك الأحداث واستغل حركتها لإقامة مركز ينطلق منه الفكر العلماني، وقد تمّ اختيار لبنان وهو جزء من أرض الإسلام ليكون نقطة الانطلاق تلك. وقد تحقق له ذلك عندما رفع سفراء خمس دول أوروبية بروتوكولاً إلى الباب

العالي العثماني وهي دول بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا وتحت ضغط هذه الدول تم فصل لبنان عن حكم المسلمين وأصبح (سنجقاً) مستقلاً ذاتياً يحكمه متصرف مسيحي، عندئذ اتخذ الغرب من لبنان قاعدة له يفرغ فيها حمولته ويعد فيها رسل العلمانية ويوجه رسالته العلمانية ورسلها إلى العالم العربي ومازالت تلك الرسالة تستشري حتى كتبت لها الغلبة.

وسائل الغرب لنشر العلمانية العربية:

يقول الباحث جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب ص ٩٧ بالحرف: «بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية»، ويقول في ص ٩٩ من كتابه وبالحرف: «فتقاطر المبشرون على بيروت ومنها انطلقوا إلى جميع بلاد الشام وكانت سنة ١٨٣٤ سنة تحوّل ففيها عاد اليسوعيون ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا إلى الفئة القليلة التي سبقتهم وبدأ التنافس على النفوذ والغلبة».
ويقول عن المبشرين الأمريكان: وكان لجهودهم أينع الثمرات وأدركوا أن البلاد بحاجة إلى نظام تعليمي يلائم تراثها فألّفوا الكتب المدرسية واستوردوا المطبعة الأمريكية وفي الوقت نفسه كان المبشرون جادين في افتتاح المدارس في أنحاء متعددة من بلاد الشام وكانت أولى منشآتهم في بيروت والقدس وجبل لبنان وبعد أن حلّوا مشكلة الكتب المدرسية اعترضتهم مشكلة أخرى هي تخريج المعلمين، فحوّلوا المدرسة العالية في بلدة عبية بجبل لبنان إلى كلية لإعداد المعلّمين وتدريبهم وما وافت سنة ١٨٦٠ حتى كانوا قد أسسوا ثلاثاً وثلاثين مدرسة وتوجوا أعمالهم في ميدان التربية والتعليم بإنشاء الكلية البروتستانتية السورية في بيروت عام ١٨٦٦ وبذلك كان لجهودهم أكبر الفضل فيما تميزت به الحركات الأولى للنهضة العربية من جيشان فكري. ويقول: ولم تكن البعثات التبشيرية الكاثوليكية أقل نشاطاً من منافستها البعثات المشيخية (راجع ص ١٠٥ ـ ١٠٧ من كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس). وعلى الصفحة ١٠٨ يقول جورج: «وكان اليسوعيون أكثر هذه البعثات التبشيرية الكاثوليكية الأجنبية الأخرى ففضلاً عن البلعازريين الذين أعادوا افتتاح كليتهم في عين طورة وأنشأوا مدرسة في دمشق أسست راهبات

المحبة والمنظمات الدينية الأخرى مدارس للبنات وصغار البنين في بيروت وبعلبك ودمشق وفي مناطق متعددة من جبل لبنان». وجاء في جريدة الديار ١٠ تموز ١٩٤٩ السنة الثامنة العدد ١٩١١ مقال افتتاحي بعنوان فضل الجامعة الأمريكية علينا ما نصه: «إن طلبة الجامعة يفتخرون بمعهد أيقظ فيهم روح العزة العربية وجمع أبناء البلاد العربية في حظيرة القومية».

ويقول الدكتور علي جريشة: يشير معرب كتاب لعبة الأمم إلى أن ٩٠٪ من قادة الحركة القومية العربية الأقحاح من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت. (راجع كتاب الأساليب التبشيرية في العصر الحديث وراجع ص ١٤٧ ـ ١٥٠ من كتاب فكرة القومية للأستاذ صالح.

رواد العلمانية العربية:

لا بد من التذكير أن العلمانيين العرب قد استوردوا النظرية الألمانية حرفياً كما يقرّ ويفخر بذلك كل العلمانيين العرب. والنظرية الألمانية تعطي اللغة والتاريخ المشترك كل الأهمية وهم يرون أن اللغة الواحدة والتاريخ الواحد ـ إذا أحسن تحريكهما ـ يؤديان بصورة حتمية إلى أمة واحدة متميزة عن غيرها. ومن هنا ننطلق فنقول بأن رواد العلمانية العربية هم أولئك الرعيل الذين تعاونوا مع البعثات التبشيرية، وقادوا الحركة التعليمية والتربوية مركزين على ثلاثة محاور محور اللغة ومحور التاريخ القومي ومحور المثل الأعلى وهو العلمانية الأوروبية وما نتج عنها من مبادىء وشعارات هذه المحاور الثلاثة إذا ما أحسن استغلالها كانت كافلة كل الكفالة بقطع الصلات ما بين العرب وما بين الأتراك وما بين العرب وما بين كل الأقوام الذين ربطتهم بالعرب رابطة الدين الإسلامي وبالمحصلة تتكون مجتمعات عربية تقوم العلاقات بين أفرادها على أساس القومية وتتحقق المساواة التامة بين المسيحيين العرب والمسلمين العرب بعد سيادة العلمانية واستبعاد الرابطة الدينية وهذا ما صرّح به فارس نمر باشا بإحدى الوثائق التي تركها.

من هم رواد العلمانية العربية:

حتى نبقى في إطار الموضوعية وحتى لا تساء الظنون بنا فإننا سنترك المجال

لاثنين من باحثي العلمانية العربية ومن المؤمنين بها وأعني بهما الأستاذ جورج أنطونيوس صاحب كتاب يقظة العرب والأستاذ ألبرت حوراني في بحث «الفكر العربي في عصر النهضة» ويؤيدهما فارس نمر باشا في تقديمه لكتاب جورج أنطونيوس.

ويتفق الثلاثة على أن رائدي الفكر العلماني العربي هما:

١ ـ ناصيف اليازجي.

٢ ـ بطرس البستاني.

حيث تعاونا مع البعثة التبشيرية الأمريكية وقاما بتزويد المدارس التي افتتحتها تلك البعثة بالكتب العربية التي ألّفاها لهذه الغاية وهما أول من نادى بإحياء الأدب القديم وذكّرا العرب بتراثهم المشترك بل ويؤكد هؤلاء الثلاثة أن إبراهيم بن ناصيف اليازجي هو أول من نادى بالتحرر العربي القومي، وهذان الرائدان هما أول من شكل جمعية علمانية عربية (جمعية الآداب العربية حيث كان اليازجي هو القيم عليها والبستاني هو سكرتيرها وكان الأمريكي إيلي سميث وكونيلوس من أعضائها وكذلك كان تشرشل المشهور. (راجع ص ١١٧ ـ ١٢١ من كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس وراجع مقدمة هذا الكتاب للدكتور نبيه فارس أستاذ الجامعة الأمريكية) إذ يقول بالحرف: «بداية اليقظة العربية الصحيحة التي جاءت إلى حدّ بغيد نتيجة الحركة الفكرية التي أعقبت أعمال الإرساليات التبشيرية في التربية والتعليم ولا سيما الإرساليات الإنجيلية الأمريكية ويؤكد على أن أساس النهضة أدبية ثقافية». (راجع ص ١٥٨ من فكرة القومية العربية لصالح عبود).

ويقول ألبرت حوراني: «وقد نادى بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتاب كان الشدياق والبستاني رائدي مدرسته» (راجع ص ١٦٦ من فكرة القومية).

ويقول ألبرت في ص ٣٣١ من كتابه: «تلقى جرجي زيدان علومه في الكلية البروتستانتية وكان أكثر الذين عملوا على إحياء وعي العرب لماضيهم سواء بتواريخه أو بسلسلة رواياته التاريخية التي نهج فيها نهج الكاتب الإنجليزي وولتر سكوت ورسم على غراره لوحة رومنطيقية عن الماضي».

ويذكر ألبرت مع الرواد شبلي الشميل العربي المسيحي الذي كان مثله الأعلى هكسلي وسبنسر في إنكلترا وهيجل وبوخنر في ألمانيا ويذكر أن الشميل قد قال: «إن دين العلم هو إعلان حرب الديانات القديمة وإن المسيحية قد نشأت عن الأنانية ونقل عنه قوله ليس الحكم الديني والاستبداد فاسدين فحسب بل هما غير طبيعيين وغير صحيحين».

ويقول ألبرت: إن شميل هذا كان أول من نشر بالعربية فكرة الاشتراكية وهو من أنصار تركيا الفتاة (راجع ص ٢٩٩ ـ ٣٠٢ من الفكر العربي في عصر النهضة ـ ألبرت حوراني وراجع ص ١٦٦ وما فوق من كتاب فكرة القومية العربية لصالح عبود).

ويشير ألبرت علماني برائد علماني عربي وهو فرح أنطون المنادي بفضل النزاع بين العلم والدين وبين الدين والدنيا وبين الدين والدولة (راجع ص ٣٠٤ ـ ٣٣٣ من كتاب الفكر العربي في عصر النهضة).

ومن الرواد العلمانيين أيضاً إلياس حبالين الماروني الذي انضم إلى محفل ماسوني والذي قرأ فولتير وأصبح تقدمياً، وكان حبالين وهو يعلم اللغة الفرنسية يصبّ كل جهوده لإرضاع طلاّبه لسان الحرية. (راجع كتاب نشوء القومية زين نور الدين زين ص ١٩٧ وص ١١٨ ـ ١٢١ من كتاب فكرة القومية العربية).

ومن الرواد العَلمانيين: أنطون سعادة الذي بسط عقيدة الحزب القومي السوري الذي أسسه فقال أنطون: «إن الأمة هي الوحدة الأساسية للتاريخ الإنساني وهي تنشأ عن المصلحة والإرادة لا عن اللغة أو الدين» (راجع ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ من الفكر العربي ألبرت حوراني).

ويذكر ألبرت حوراني في ص ٤٢٣ السيد قسطنطين زريق كواحد من أعلام العلمانيين العرب حيث وضع كتاباً عن «الوعي القومي» بعد نكسة ١٩٤٨ وأكّد أن السبب الأساسي لهزيمة العرب والخطر المحدق بهم أنما هو عدم وجود أمة عربية بالمعنى الصحيح ويمكن إيجادها بتغيير أساسي في حياة العرب وتفكيرهم بحيث يصبح العرب واقعياً وروحياً جزءاً من العالم. فيتبنون سياسته المدنية وعلمانيته

وطرق تفكيره وقيمه الخلقية. (راجع ص ٤٢٣ الفكر ألبرت حوراني وص ٢٠٩ من كتاب فكرة القومية).

ويذكر ألبرت حوراني: ميشيل عفلق وهو بحق سيد العلمانيين العرب ومؤسس حزب البعث العربي، هذا الحزب الذي تسلم السلطة في سوريا وتسلمها في العراق ويلعب دوراً بارزاً في قيادة الرأي العام في كل مجتمع عربي. وانتهت الأمور بميشيل بعد القطيعة بين جناحي البعث في سوريا والعراق أن أصبح الأمين العام لحزب البعث العراقي، وقد لعب دوراً بارزاً في الحرب العراقية الإيرانية وساعد على فتح خزائن أسلحة الغرب أمام العراق ثم مات بعد أن وضعت الحرب أوزارها وبعد أن ترك حزب البعث العراقي في أوج مجده فقد تجاوز عدد أعضائه المليوني عضو.

وبهذا ننهي الشوط الأخير من سباحتنا بمواجهة تيار الأحزاب العلمانية العربية لنبدأ بنفس الموضوعية سباحة بمواجهة تيار الأحزاب الدينية العربية وغايتنا هي وضع الحقيقة المجردة أمام شعبنا وأمام أمتنا.

الفصل العاشر

في الرد على أطروحات هيكل حول قضية الدين والدنيا.. والدولة الإسلامية.. وأشياء أخرى

أعلن الأستاذ محمد حسنين هيكل في حديثه إلى إذاعة مونت كارلو ما يلي:

الدين قضية متعلقة بأشياء أخرى، وهي أجل وأسمى من أشياء أخرى ومختلفة عن ضرورات التنمية والصراع الطبقي، وهو لا يستطيع أن يرى له مستقبلاً في بناء مجتمع مختلف، لأنّ ضرورات بناء المجتمع متعلقة بالعالم ولها قواعدها وقد فات عهد الدولة الدينية ومن الحرام إقحام الدين دون مبرر، لأنّ الدين له مجاله، ومكانه الجليل والسامي فوق كل هذه المساوىء، واستشهد بالحديث الشريف «أنتم أدرى بشؤون دنياكم» ويخلص إلى نتيجة بأن التيار الديني لا مستقبل له بدليل أن إيران وهي أهم التيارات الدينية قد لجأت إلى تصورات دنيوية لحلّ مشاكل المجتمع الإيراني، وكشف النقاب بأنه قد ذكر للإمام الخميني (رحمه الله) بأنه يسمع مدافعه، ولا يرى مشاته، وأن المشايخ ليسوا هم المشاة بل الصناعيين والفنيين والمهندسين والأطباء، وأخذ على هذا التيار أنه ينهى عن الفائدة بالوقت الذي تتعاطى فيه كل المؤسسات والدول الإسلامية بالفائدة ويأخذ عليه أيضاً بدعائه بأن الدين لا يقدم حلولاً لمشكلات المجتمع وعجز هذا التيار عن قول هذه الحلول وهو يجزم أنه ليس هنالك سياسة خارجية دينية أو سياسة دفاع دينية أو سياسة تخطيط دينية ولا ينبغي إقحام الدين في مثل هذا وقد نقل النص الحرفي على الصفحة ١٤ العدد ٧٦٩٣ من جريدة اللواء الأردنية.

هيكل متبع لا مبتدع:

ما أعلنه الأستاذ ليس جديداً كما حاول أن يوهم الإذاعة، إنما هو قديم وموجود حتى قبل أن يولد الأستاذ الفاضل، وما أعلنه أيضاً ليس من بنات ذهنه، ولا من ثمرات جهده، وهو منقول بكامله عن غيره، والأخ الكبير متيقن من ذلك ومدرك أنه متبع ولا مبتدع، وكواحد من الذين درسوا أكثرية كتب الأستاذ هيكل، وعلى مدى سنين طالعوا مقاله الأسبوعي بصراحة، وسمعوه مساء كل جمعة من إذاعة صوت العرب، ينتابني إحساس بالخجل والأسف لأنّ الأستاذ الفاضل، قد نسي، أن الأمانة العلمية تقتضي منه أن ينسب الرأي لصاحبه، وأن لا يذكره دون أن يشفعه بذكره.

مصادر ما أعلنه الأستاذ هيكل:

نقل الأستاذ ألبرت حوراني في كتابه الفكر العربي في عصر النهضة وعلى الصفحة ٣٠٤ مقدمة فرح أنطون المولود سنة ١٨٧٤ ـ ١٩٢٣ ما يلي وبالحرف: «أهدي كتابي لأولئك العقلاء من كل ملة الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانباً في مكان مقدس.. ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ومجاراة تيار التمدن الأوروبي»، وينقل ألبرت حوراني على الصفحة ٣٠٢ من كتابه الآنف الذكر أن شبلي الشميل ١٨٥٠ ـ ١٩١٧، قوله بالحرف: (الأمم تقوى بمقدار ما يضعف الدين، فهذه أوروبا لم تصبح قوية ومتحدة فعلاً إلاّ عندما حطم الإصلاح والثورة الفرنسية سلطة «الإكليروس» وهذا يصح على المجتمعات الإسلامية) وينسب إليه قوله: «إن العلوم الزائفة تؤدي إلى شرائع حكم وأنظمة زائفة وليس الحكم الديني والاستبدادي زائفين فحسب بل هما غير طبيعيين وغير محميين».

ونسب إليه قوله: «إن دين العلم هو إعلان الحرب على الديانات القديمة، وما نشأت المسيحية إلاّ عن الأنانية وعن حب السيطرة من قبل رؤساء الدين» (ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠) وينسب ألبرت إلى فرح أنطون قوله: «الوحدة تتم بخلق الولاء القومي والفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية» ونقل الأستاذ نبيه فارس في

مقدمته لكتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس وعلى الصفحة ١١ عن الكواكبي قوله: «فهذه أمم أمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهب، دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم الآخرة». ويقول الأستاذ علي ناصر في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه قضية العرب بالحرف: «يجب أن نفصل الدين عن السياسة ونحرم على رجاله الاشتغال بها» (ص ٣ من كتاب العرب والإسلام لأبي الحسن النروي وص ٧١ من كتاب فكرة القومية لصالح عبود) وآخر هذه النماذج ما كتبه الأستاذ أحمد زكي في العدد الأول من مجلة العربي إذ ذكر بالحرف: «بالدين نسعى لتأمين ما بعد الحياة، والتجربة الإنسانية عبر القرون دلّت على أن الدين ذهب بأمن الحياة نفسها».

والخلاصة:

إن ما أعلنه الأخ الفاضل تقليد واتباع لجيل العمالقة من رواة العلمانية العربية كاليازجي، والبستاني، والشدياق، وشبلي الشميل، وفرح أنطون، وإلياس حبالين، وجرجي زيدان، وأنطون سعادة، وقسطنطين زريق، وميشيل عفلق، وإن كنت في ريب مما ذكرنا فيمكنك أن تقرأ مشكوراً كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس، وكتاب الفكر العربي في عصر النهضة للأستاذ ألبرت حوراني.

الرواد المقلدون:

الرواد العلمانيون العرب الذين ذكرناهم لم يبتدعوا ما أعلنه الأستاذ هيكل لإذاعة مونت كارلو، إنما قاموا بترجمة هذه الأفكار من الغرب وبعد أن تمت ترجمتها هاموا بها وادعوا الفضل باكتشافها، تماماً كما ادعى الأستاذ هيكل، لست أدري إذا كان الأستاذ الكبير يدري بأن العقائد السياسية الغربية والفكر السياسي الغربي بشقيه الرأسمالي التحرري والماركسي الشيوعي ما هو إلاّ ثمرة من ثمرات العلمانية الغربية تلك العلمانية التي تقوم بجوهرها وأساسها على أساس فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن العقل، وفصل القانون عن الأخلاق واستبعاد الدين بالكامل عن مسرح الحياة السياسية وبأهون أقوال هذه العلمانية حصر دور الدين بالعلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه، وسبب هذا العداء الغربي للدين معروف

ومفاده أن بناة العلمانية اقتنعوا أن الكنيسة كانت شريكة بالحكم المطلق الاستبدادي فأعلنوا حربهم على الحكم المطلق وعلى الدين كمتهم بتبريره والاشتراك الجرمي معه، وتلك ظروف خاصة بالغرب، ولكن العلمانيين العرب عندما استوردوا الفكرة العلمانية استوردوها مع كافة آثارها وقلدوها تقليداً أعمى، فأرسى قواعدها الرواد، وآمن بها التابعون وأستاذنا الجليل أبرزهم، وإنني أتمنى على الأستاذ الكبير أن يقرأ سلسلة مقالاتي سباحة بمواجهة تيار الأحزاب المنشورة هذا العام في جريدة اللواء الغرّاء، فقد أثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن رواد العلمانية العربية وتابعيهم لا يملكون فكراً خاصاً بهم، وأن كل ما يرددونه هو مستورد بالكامل ومترجم إلى اللغة العربية والأستاذ الكبير ليس استثناء فهو تابعي.

البلبل الصداح:

بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو، ١٩٥٢ بقليل نجح الأستاذ هيكل بإقناع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر (رحمه الله) بتبني العلمانية الغربية بفروعها الثلاثة القومية والاشتراكية والديمقراطية، وأن يقوم بخلط التحررية الرأسمالية مع الماركسية الشيوعية ليحلب البقرتين، وبإقناع الرئيس الراحل تحول الأستاذ الكبير إلى مرجعية فكرية لهذه الأفكار، وانطلق كبلبل صداح يغني لها، ويسبح بحمدها، ويثني عليها بالعشي والإبكار، وتحولت هذه الأفكار إلى حلم عربي وإلى طريق فرد للوحدة العربية، فمن يعارضها يعارض الوحدة، ومن يعارض الوحدة فهو رجعي منبوذ، وسخرت كل وسائل الإعلام المصرية لإقناع العرب بذلك، ويموت الرئيس ويجلس السادات على كرسي الرئاسة ويقف الأستاذ معه في حرية ضد ما سمي آنذاك بمراكز القوى واستمر بالقيام بدور شاعر العلمانية العربية، ثم يكتشف السادات أن الأستاذ الكبير واحد من مراكز القوى ويشم الذكي ذلك فيترك وزارة الإرشاد القومي ويخرج من دائرة التأثير، وينزوي مع ذكريات الماضي، لا يقرّ له قرار ولا يدوم على حال بعد أن شاهد تهدّم الأركان، وتبخّر الأحلام.

قصة الأستاذ الكبير مع الإسلام:

الأستاذ الكبير رجل مسلم، من أبوين مسلمين، ومن عائلة تفخر بانتمائها

للإسلام، وبحكم عمله كصحفي، وبحكم وعيه المبكر بالحالة التي آلت إليها الأمة، فكّر كغيره بطريقة للعمل، واقتنع بأن الفكر الغربي هو الذي سيسود وأن معتنقيه هم الذين سيقودون المجتمعات العربية مستقبلاً، فآمن بهذا الفكر ولأنه ذكي وطموح سبق الذين سبقوه. أما من ناحية الثقافة الإسلامية فالأستاذ هيكل يجهل جهلاً تاماً النظام السياسي الإسلامي ويجهل تاريخ الدعوة الإسلامية وتاريخ الدولة الإسلامي، وإعلانه لإذاعة مونت كارلو بأنه لا توجد سياسة دفاعية دينية . الخ يؤكد ذلك، ولأنه تحول إلى شاعر للعلمانية الغربية المعرّبة، وأصبح هو لسان ثورة ٢٣ يوليو يكتب ويصرّح وينشر ويجادل، ونتيجة لذلك اصطدم مراراً وتكراراً مع الذين يتصدرون الدعوة الإسلامية في العالم العربي وعجزوا عن إقناعه بوجهة نظرهم، وعجزوا عن إبراز الإسلام له على حقيقته وغلبهم في الجدال وغلبوه في الاتهام، وتعقد منهم وتعقد من فكرة الدين بالوقت الذي كانت فيه الفكرة العلمانية الغربية تشقّ طريقها بسلام إلى قلبه المثقل بالآمال والآلام معاً، وأعتقد أن عهد الدين قد ولّى واستقرّ مفهوم الإسلام في قلبه على أساس أنه علاقة شخصية جداً بينه وبين الله ولا دور له في الحياة السياسية أو كدين على الطريقة الغربية.

وجمح به الظن حتى أنكر الواضحات فكل منظّري الفكر السياسي يعترفون أنه قد وجد في التاريخ نظام اسمه النظام الديني سواء أكان دينياً حقيقة كدولة طالوت وداود وسليمان ومحمد أو دينياً مزيفاً كدولة الوليد بن مصعب فرعون مصر، ويمكن للأستاذ الفاضل أن يجيب المذيع بأنه غير متخصص ولا مطّلع في هذه الناحية، ولا مؤهل للحكم، ولو فعل ذلك لسما ونجا من الحرج.

الرد بالتلقين:

يقول الأستاذ هيكل إنه لا يستطيع أن يرى للدين مستقبلاً في بناء مجتمع مختلف، لأنّ ضرورات بناء المجتمع متعلقة بالعالم ولها قواعدها ولغتها.

إن وقائع التاريخ السياسي لا تؤيده في ما ذهب إليه، فهو قد يعرف أن الدين قد تمكن من بناء مجتمع مختلف على تعبيره، وقد تحقق ذلك في عهد طالوت، وعهد داود، وعهد سليمان، وعهد محمد، وكلهم أنبياء ودعواتهم دينية، ودولهم دينية بما

للكلمة من معنى، ومجتمعاتهم دينية رغبة أو رهبة، وكانت لهذه الدول سياسات دينية بالدفاع والسياسة والاقتصاد، والتخطيط، والتنظيم. . .الخ نابعة من العقيدة الدينية التي آمنوا بها والتي قدمت لهم تصوراً يقيناً لمذهب سياسي، ونظام سياسي، والتحررية كعقيدة، والماركسية كعقيدة استطاعت أن تبني مجتمعات وأن تدعي بأنها مختلفة، فهل من العدالة أن يعطي الأستاذ هيكل للعقائد الوضعية التي صاغها بشر فرصة نجاح أكثر من العقيدة الإلهية التي أنزلها الله!! ويوم انطلقت مع المرحوم جمال عبد الناصر وأنت مسلّح بالعقيدة الغربية وبالفكر الغربي، ألم يستطع المرحوم أن يبني مجتمعاً مختلفاً، أليس بإمكان دين الله أن يفعل ما يفعله عبد من عبيد الله!!.

ويعرف الأستاذ هيكل أن ما اصطلح على تسميته بالخلافة الراشدة قد تمكنت من بناء المجتمع المختلف، وبالرغم من أن الأسر الأموية والعباسية والعثمانية لم تطبق الإسلام تطبيقاً دقيقاً، إلاّ أنها قد بنت المجتمع المختلف وحافظت على وحدته طول التاريخ السياسي الإسلامي، وكانت لها سياساتها الدينية التي ترى أنها نابعة من الدين.

«أنتم أعلم بشؤون دنياكم»:

أي مكانة لهذا الحديث الشريف في قلب الأستاذ هيكل حتى أصبح الإسلام كلّه العبادات والمعاملات والسياسة في كفة وهذا الحديث الشريف في كفة أخرى، ولعلّ الأستاذ الكبير قد سمع بقصة الليمونة التي رأت السيدة الجليلة أم خالد أنها تحتاج إلى تركيب، فطلبت من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أن يعمل على تركيبها، فضحك المرحوم وردد: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»، عبد الناصر الذي كان يملأ السمع والبصر لا يقوى على تركيب شجرة ليمون، وجورج بوش غير قادر على الحراثة على «بغلة» ومحمد وهو نبي لا يستطيع أن يقنب دالية وأي فلاح مختص هو الأعلم بهذا المجال، لماذا كان يقود الدعوة لماذا كان يرسل السرايا العسكرية، لماذا كان يوزع الغنائم لماذا كان يجمع الصدقات، لماذا كان يقيم الحدود، لماذا عيّن الولاة والقضاة أليست كل هذه الأمور من شؤون الدنيا؟ إن مناسبة الحديث كمناسبة ليمونة الرئيس الراحل، لكنها تتعلق بالنخل لا بالليمون، إنه ليحزنني أن يصل التمحك بالرجل الذي أحببناه إلى هذا المستوى.

لغة بناء المجتمع وقواعدها العالمية:

هذه اللغة التي حفظها الأستاذ الكبير، وتسلح بالعلمانية الغربية، وفهم الدين على نفس طريقة الغرب، وتسخرت له إمكانيات أكبر دولة عربية، سالمت حتى أكل الذئب مع الشاة، وحاربت حتى قتل المصري أخاه اليمني وخسرنا الآلاف من الأرواح، والمليارات من الدولارات ومع هذا عجزت عن بناء المجتمع المختلف ولم تحقق الوحدة، مع أنك رفيق الرئيس الراحل ومرجعيته وموضع سره وثقته ومع أنكما سعيتما معاً قرابة عشرين عاماً.

والإسلام الذي لا يعرف لغة بناء المجتمع وقواعدها العالمية كما يدعي الأستاذ الفاضل هذا الإسلام حوّل العرب من دين إلى دين ومن حال إلى حال ووحّدهم لأول مرة في التاريخ البشري، بمدة لا تتجاوز ٢٣ عاماً، وبخسائر بشرية لا تتجاوز الـ١٠٠٠ قتيل، وحقق المجتمع المختلف الذي يتساوى فيه الحاكم والمحكوم أمام القانون، وبمستوى المعيشة، وبالتكاليف والواجبات، المجتمع الذي يستطيع أن يقول كل واحد من أفراده رأيه وبمواجهة أي كان حتى ولو كان النبي نفسه.

يقول الأستاذ هيكل: يزعم التيار الديني بأن الدين يقدم حلولاً لمشكلات المجتمع ولكن هذا التيار لا يقولها.

إنه لا يخفى على أستاذنا الكبير أن كل عقيدة سياسية تحدد أهدافها وتحدد الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، والعقائد السياسية في العالم العربي لها وسائلها المحددة لبلوغ اهدافها، ولم يعلن أحد عجز عقيدته السائدة أو حاجته إلى الإسلام، وعلى المستوى الشخصي، فبذكائك وقدرتك على الاستنتاج وبطبيعتك يمكنك أن تنكب على دراسة الإسلام لتكتشف أن الإسلام يملك حلاً لمشاكل كل فرد، ومشاكل المجتمع الإسلامي، بل ومشاكل العلم كله، وإني أتوسل إلى الله أن يعز الإسلام بك وأن يهدينا وإياك سبل الرشاد.

حول الفائدة:

إذا كانت المؤسسات الإسلامية كلها والدول الإسلامية كلها والعالم معها

يتعاطى الفائدة، ما علاقتي أنا وما علاقة الإسلام بذلك، ثم إن الفائدة جزء من نظام اقتصادي عالمي يتعارض مع الإسلام، فلو ألغينا الفائدة لبقي التعارض قائماً ـ ثم إن للإسلام نظامه الاقتصادي الخاص به.

يقول الأستاذ هيكل: إن إيران وهي أهم التيارات الدينية قد لجأت إلى تصورات دنيوية لحل مشاكل المجتمع الإيراني.

ليس هذا هيكل العظيم الذي أعرفه؛؛ فأنت لم تقرأ الدستور الإيراني، ولم تعش المدة الكافية في المجتمع الإيراني المسلم فكيف تحكم على دولة دون أن تقرأ دستورها، أو تعيش حياتها على الطبيعة،أتمنى لو تقرأ هذا الدستور أو تقرأ المادة الثانية والرابعة والخامسة منه لتغير رأيك ولو أن إيران أرادت أن تلجأ إلى التصورات الدنيوية لحل مشاكل المجتمع للجأت إليها في أيام محنتها ـ في الحرب العراقية الإيرانية ـ يوم فتح الغرب والشرق معاً خزائن أسلحتهما أمام العراق وحاصروا إيران لا حباً بالعراق ولا بنظامه، ولكن ليقتل المسلم أخاه المسلم وليؤدب المسلم أخاه المسلم تحت إشراف دول الغرب التي تكره الطرفين معاً.

وكل ما أسلفت لا يؤثر على عمق مشاعري نحوكم، وتمنياتي بأن ينال دين الإسلام اهتمامكم بحثاً واستيعاباً، وأن لا تحمِّل الإسلام وزر الذين أساؤوا إليك ممن تصدوا للدعوة إليه.

الفصل الحادي عشر

على هامش المؤتمر القومي الثاني

تحت مظلة الفكر القومي عقد المؤتمر الثاني في عمان للبحث عن وسيلة قومية توحد العرب وتحل مشكلاتهم، وتتصدى لأطماع أعدائهم وإن تعذر ذلك تخفيف الألم العربي، وبعث الأمل، وتلك مهمة نبيلة، ولا عيب فيها إلا ضيق الإطار وعجزه الواضح عن الاستجابة لهذه المنى والأحلام الرائعة، لأن الإطار القومي حمل فوق طاقته، وكلف بأن يعطي شيئاً لا يملكه، لسبب بسيط هو أن القومية إطار وليست عقيدة، وهنالك فارق بين العقيدة والإطار، فالعقيدة تقدم تصوراً كاملاً للوجود لما هو كائن ولما ينبغي أن يكون، تصوراً للحال وللمآل، وينبثق عن هذه العقيدة برنامج متكامل لوضعها موضع التطبيق وهو ما يسمى بالمذهب السياسي.

بينما الإطار عبارة عن بعد مكاني أو زماني، أو فكري، أو بشري، تلك حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة السماء، فلم يقل أحد في الدنيا كلها ـ ما عدا العرب ـ أن القومية عقيدة أوإن القومية مذهب سياسي، ولا يغير من هذه الحقائق النوايا الطيبة للمؤتمرين ولا إشفاقهم الواضح على العرب الذين رماهم العالم بقوس واحدة.

ضرورة المراجعة:

بعد تشبث هائل ودفاع مرير استسلم عمالقة الحكم المطلق، وأفلس مفكروه وتلاشوا، وقامت على أنقاضه العقيدة التحررية الرأسمالية، وبعد إرهاصات هائلة

استقرت هذه العقيدة بعد أن تبين أنها غير كافية وغير قادرة على تلبية الاحتياجات الإنسانية المادية منها والروحية. . وبسبب نقصان الكفاية والقدرة قامت الماركسية الشيوعية لتخليص البشرية من الرأسمالية التحررية ثم انهارت دفعة واحدة وبدون مقدمات، ومازالت الرأسمالية التحررية تصارع وتتشبث بالبقاء، حبذا لو حدثت مراجعات لمسيرات تلك العقائد الثلاثة، لوفر بناتها على أنفسهم عناء الجري وراء السراب والمشقة النفسية والمعاناة الذاتية المضنية لبناء الأحلام وانهيارها وجر الجماهير البشرية الظامئة ثم تركها حائرة عطشى . .

المبادىء والسلع:

الغرب الرأسمالي، والشرق الشيوعي يعتبران المبدأ هو التجسيد العقلاني للواقع المادي، هذا التجسيد يتغير ويتبدل تبعاً بتغير الإنتاج وتغير وسائله، فقد يصلح المبدأ اليوم، ولكنه لا يصلح غداً، إن من الغفلة القول أن المبدأ الذي يصدره الغرب أو الشرق غير قابل للمناقشة، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

الفكرة القومية بصورتها النهائية:

كانت الدولة في الغرب عملياً للطبقة البرجوازية وبقية الطبقات ليس لها إلا الاسم «ملك الرقبة». قامت الشيوعية احتجاجاًعلى هذا الوضع الشاذ ونادت بحكم طبقة البروليتاريا «دولة العمال والفلاحين» كما نص على ذلك دستور عام ١٩٣٦ وجسدته حقيقة بهذا الدستور، ثم خفف الغرب الرأسمالي من غلوائه فأصبحت الدولة قومية بمعنى أن الدولة هي دولة كل الشعب ـ كل الأفراد والجماعات الخاضعة لها ـ فتحولت إلى مفهوم شامل وليس مفهوماً طبقياً، وسلكت الشيوعية هذا النهج بدستور الاتحاد السوفياتي ١٩٧٧ فغدت الدولة أوفكرة القومية هي صيغة مصالحة بين الطبقات، هذا ما استقر عليه الحال بالشرق والغرب معاً.

هذه هي القومية بصيغتها النهائية عند بناة الفكرة القومية .

متى نشأت الفكرة القومية، ومن الذي أنشأها:

نبتت الفكرة القومية لأول مرة في التاريخ في أذهان ثلاثة مفكرين فرنسيين على شكل ثلاثة مؤلفات:

١ ـ الكونت «مونتيلر» الذي أصدر كتابه «الملكية الفرنسية »علم ١٨١٥ .

٢ ـ الكونت «هنري جابينو» الذي أصدر كتاباً بعنوان «محاولة لدراسة التفاوت بين الأجناس البشرية» كان ذلك عام ١٨٥٥ .

٣ ـ وأخذت الفكرة صيغتها النهائية على يد «فيشر ليبيجو» عندما أصدر في عام ١٨٩٦ كتابه «الانتفاء الاجتماعي».

وشهد شاهد من أهلها:

يقال عن الأستاذ ساطع الحصري إنه أكبر وأقدم دعاة الفكرة القومية العربية وهو المرجع الأساسي بالنسبة لجميع العاملين في حقل القومية العربية كما ذكر ذلك إلياس مرقص في كتابه نقد الفكر القومي ص ١٢ .

يقول الحصري: نشأت القومية منذ أوائل القرن التاسع عشر وقد طرأ على أوضاع أوروبا السياسية منذ مؤتمر ڤيينا ١٩١٥ من التطورات ما لم يسجل له التاريخ مثيلاً والعامل الأساسي لهذه التحولات هو نشوء الفكرة القومية. . ولم تنشأ فكرة القومية عندنا قبل القرن ١٩ بسبب وجود الخلافة، حيث أنها تخدر فينا الروح القومية وتجعلنا لا نشعر بأننا أمة مغلوبة على أمرها. . كما ذكر ذلك في كتابه (أبحاث في القومية للحصري ص٣٤ و٣٥ و٣٦).

ما هي الغاية الأصلية من وجود فكرة القومية؟

يؤكد المفكرون الفرنسيون الثلاثة الذين أشرنا إليهم هذه الغاية حيث أن فكرتهم تدور على ما يلي: «إن الصراع الدائر بين الطبقات في فرنسا مرجعه إلى التباين العرقي، وإن كل التطورات مرجعها ومردها للصراع الدائر بين الطبقات المنتمية إلى أجناس مختلفة» يقول الأستاذ ساطع الحصري: إن الغاية من الدراسة في معهد الدراسات العربية هي تنشيط الوعي القومي في العالم العربي مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها كما ذكر ذلك في كتابه أبحاث مختارة في القومية العربية.

وعلى أي حال فقد أكد علماء الأجناس بأكثر من مؤتمر دولي أنه لا يوجد

شعب متحضر يستطيع أن يدعي بنقاء دمه. وعلى سبيل المثال مؤتمر علماء الأجناس المنعقد في لندن عام ١٩٣٤.

علاج واحد مع اختلاف التشخيص:

المفكرون الفرنسيون اخترعوا فكرة القومية لحل الصراع بين الطبقات ولم يكن لدى العرب صراع طبقي بالمعنى وبالواقع الذي كان سائداً في فرنسا كانت الفكرة القومية علاجاً لوجع المفاصل في فرنسا فاستعملناها علاجاً ضد التهاب الحلق، وضد الموت... إلخ. وتبع ذلك فصل الدين عن الدولة وحصره بالصلة بين الله وعبده وهذا الفصل كان تعبيراً عن الإصرار على تحرير الدولة الغربية من نفوذ الكنيسة وغني عن البيان أن العرب لم يشكوا ولا بأي يوم من نفوذ الكنيسة ولا من سطوة علمائها. إنما كانت ظروفاً خاصة بالغرب وتعبيراً عن الرفض للتحالف القائم بين ملوك أوروبا وعلماء الكنيسة، فاستوردنا علاجاً لم يصفه مختص ولا هو موافق لأمراضنا ولم تجر عملية تشخيص أو وصف علمي. وكل هذا وراء فصل الأخلاق عن القانون، وفصل العقل عن الدين... كما هو مكرس رسمياً في الدساتير الغربية الرأسمالية والشرقية الشيوعية.

قالب بغير مضمون:

وجدت فكرة القومية لحل الصراع الدائر بين الطبقات فهذا الصراع مرده وجود جماعات تنتمي إلى أعراق مختلفة والحل يكمن بأن يكون لكل عرق دولة خاصة به لكن الفكرة القومية لم تقدم تصوراً لطبيعة النظام أو العقيدة التي ستسود في دولة هذا العرق أو ذاك لأن الفكرة القومية لا تملك هذا النظام أو تلك العقيدة، إنما كانت الفكرة مجرد قالب أو وعاء ذهبي فارغ بدون مضمون فكري وعقائدي.

ومن هنا فإن الدول التي أخذت بالنظام الرأسمالي التحرري جعلت هذا النظام مضموناً للقومية.

والدول التي أخذت بالنظام الماركسي الشيوعي جعلت هذا النظام مضموناً للقومية.

بدليل أن من سمات التحررية أو الدولة الليبرالية أنها دولة قومية أي تحكم كل الخاضعين لها بغض النظر عن ألوانهم أو أعراقهم.

وكذلك الدولة الشيوعية فهي دولة كل الشعب كما جاء بدستور الاتحاد السوفياتي لعام ١٩٧٧ .

تفرد القوميين العرب بحل:

يبدو أن المفكرين القوميين العرب اكتشفوا هذه الحقيقة فنادوا بالديمقراطية كمضمون سياسي لقوميتهم ونادوا بالاشتراكية كمضمون اقتصادي. وهكذا زاوجوا بين العقيدتين الرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية وجمعوا بين النقيضين وأخذوا يرددون مقالات العلماء الألمان حول أهمية العرق واللغة بالدرجة الأولى والتاريخ والتقاليد إلى غير ذلك من العوامل والاعتبارات الذاتية. ثم مزجوا مع كل ذلك ما جاء في البيان الشيوعي الصادر سنة ١٨٤٨ القائل بأن نشأة القومية مرهون بوحدة الحياة الاقتصادية إنتاجاً وأسلوباً. ويلاحظ أنهم حرروا من التبعية أجسامهم، وارتبطوا فكرياً وثقافياً ودستورياً واقتصادياً وسياسياً بالغرب وبالشرق معاً، صحيح أن النوايا سليمة وأنهم لم يقصدوا ذلك لكن النتائج ثمرة المقدمات والبناء مرهون بالقاعدة التحتية.

القومية ردة فعل قومية:

تلقفت الفكرة القومية جمعية تركيا الفتاة وما زالت تعمل وتعمل وتلقى كل دعم وتشجيع من الغرب ومن اليهود بشكل خاص حتى استطاعت تلك الجمعية أن تفكك بنية الدولة العثمانية، وأن تنفر كل شعوب تلك الدولة وأن تصب جام غضبها على السلطان نفسه خاصة، وعلى العرب عامة فكان الإيمان بالقومية الطورانية عندهم هو قمة الشرف وهومفتاح كل فضيلة فتشكلت الجمعية العربية الفتاة لتنادي بالقومية العربية كرد على القومية الطورانية. وكل الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية تخرجوا من الكلية البروتستانتية التي أنشأتها القنصلية الأمريكية في بيروت في مطلع القرن التاسع عشر. تلك حقيقة لا يملك قومي واحد أن يجادل فيها.

دعوة للمراجعة:

حتى لا نبني ثم نهدم، حتى لا نصعد ثم نسقط ، حتى لا نجري وراء السراب ثم نجد الله فيوفينا حسابه، ما الذي يمنعنا من مراجعة مواقفنا خاصة وإننا نعيش نسائم الحرية خاصة وأن الفكرة هي القاعدة التحتية التي يبنى فوقها، لقد أفلست كل العقائد الوضعية لأن الذين وضعوها بشر عرضة للخطأ والصواب. ما الذي يمنعنا من أن نجرب عقيدة إلهية وهي الإسلام؟.

ليس المقصود من الإسلام هو مفهوم هذا الحزب الديني أو ذاك أو هذه الجماعة أو تلك إنما المقصود منه هو الشرع الذي أنزله الله تبارك وتعالى على نبيه فقاده دعوة، وقاده دولة ونقله من النص إلى التطبيق ومن الكلمة إلى الحركة ومن الفكرة إلى الواقع المادي المحسوس. الدين الذي حدد الأهداف الكلية والفرعية للفرد، والجماعة والدولة وبيّن أساليب بلوغ تلك الأهداف، الدين الذي يزيل الفوارق بين الطبقات والفوارق بين الحاكمين والمحكومين. والمطلوب منا أن نفهمه وهو يدعو كل المسلمين ويفتح بالمحبة قلبه لكل الناس ليمنحهم العدل بعد الظلم والحرية بعد العبودية والمساواة بعد التفرق، والعز بعد الهوان، فإذا ظلم حاكم مسلم أو حكومة مسلمة فليس من العدل أن نحمل الإسلام ظلم هذا الحاكم أو تلك الحكومة، لأن الإسلام شيء مستقل ومن يطبقه شيء آخر. ولا تعوز القوميين العرب الشجاعة ولا ينقصهم الإخلاص ، فما اعتنقوا الفكر القومي إلا لاعتقادهم أن القومية هي طريق الخلاص تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نبحث عن الحقيقة المجردة بالأسلوب العلمي للبحث وبعزلة تامة عن الغرض والهوى . تلك فرصة العمر أمامنا. فقد تهلك الأمة، وقد يتم استبدالها. ﴿**وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** . . .﴾ (سورة محمد: ٣٨).

الباب الثاني

الأحزاب الدينية العربية

الفصل الأول

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

« وجاء دور الأحزاب الدينية العربية»

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتّقون. . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (المؤمنون الآية: ٥٢ ـ ٥٣).

لقد سبحنا بمواجهة تيار الأحزاب العلمانية العربية، ووقفنا على حقيقة هذه الأحزاب، وأثبتنا بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الأحزاب تتبنى بالكامل المبادىء والشعارات الأوروبية جملة وتفصيلاً وإنها ـ مع الأسف ـ في حالة تبعية فكرية تامة للغرب. فأهدافها الخاصة والعامة كأهدافه، ووسائلها لبلوغ تلك الأهداف هي عين وسائله، لأنها استوردت «الصندوق العلماني» بكل ما فيه من مبادىء وشعارات ونظم، ثم تملكته بحكم «الحيازة ووضع اليد» وترجمت محتوياته إلى اللغة العربية وأضافت إليه عنصر الهوى والهيام العربي ، وأقنعت نفسها أن فكرها عربي، أو هكذا خيل إليها، وراحت تغزو الشعوب العربية محاولة بكل وسائل الإقناع أن تروج لهذا الفكر وأن تعممه.

والحق أقول بأن عقل الأحزاب العلمانية العربية مفتوح لكل عقيدة، ولكل نظام، ولكل مبدأ يحقق الخير العام للعرب باستثناء عقيدة الدين، أو نظام الدين، أو أي مبدأ ديني ـ أي دين على الإطلاق ـ لأن الأساس الذي بني عليه الفكر

العلماني العربي هو عين الأساس الذي بني عليه الفكر العلماني الأوروبي وهذا الأساس يقضي باستبعاد الدين عن مسرح الحياة السياسية وعودة الدين لمسرح الحياة السياسية ـ يعني بمفهومهم ـ الهدم الكامل لأساس العلمانية وانهيار كامل البنيان الذي شيد فوقها ومن جهة ثانية فإن رواد الفكر العلماني العربي ومترجميه يجهلون الإسلام ولا يعرفونه على حقيقته شأنهم تماماً كشأن الأحزاب الدينية العربية، وقد أكملناالشوط السابع من سباحتنا بمواجهة تيار الأحزاب العلمانية العربية بسلام، فلم ينفوا ما توصلنا إليه، ولم يكذبوه لأنهم أعقل وأثقل من أن يواجهوا البراهين القاطعة والأدلة الساطعة التي وضعناها ـ بكل الإحترام ـ تحت تصرفهم من خلال سباحتنا، ولأنهم من جهة ثانية طلاب حقيقة مجردة أظهروا لين الجانب، وعاتبوا برفق وحنان.

دور الأحزاب الدينية العربية:

وبنفس الموضوعية والتجرّد سنسبح بمواجهة تيار الأحزاب الدينية العربية لنفس الغاية، وهي الوقوف على الحقيقة العلمية المجردة، تلك الحقيقة التي أعاق ظهورها الحماس والازدحام ثم سقطت مترنحة تحت أقدام المتزاحمين، وفي غياب الحقيقة الشرعية المجردة، وغياب المرجعية الشرعية: اختلط الحابل بالنابل، والحق بالباطل، والدين بالهوى ، والخطأ بالصواب، والنظام الشرعي بوقائع التاريخ، وانقطع خيط السبحة الإسلامية، وتبعثرت حباتها، كل حبة في واد، وكل شاهد في بلاد، وزاد الطين بلة يوم ألقى الكفر حباله وعصيه وسحر المسلمين، ويوم أخرج السامري عجله الشهير وقال للناس: ﴿**هذا إلهكم وإله موسى**﴾ فعبدوا العجل وتركوا الله، ونبذوا موسى ووالوا السامري ﴿**بئس للظالمين بدلا**﴾.

بهذا المناخ ظهرت الأحزاب الدينية العربية، كل حزب ديني يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكل حزب يجمع المواد الأولية اللازمة للنساء في غياب المعلم وعدم مشورته، وكل حزب يريد أن يعيد بناء سفينة الإسلام على طريقته لينقذ الناس من هذا الطوفان، وبعد فترة تجمعت عشرات الأحزاب الدينية، وتم تجهيز عشرات السفن وكل أصحاب سفينة يدعون أن سفينتهم هي سفينة الإسلام!!.

وتكتشف الأحزاب الدينية أنه لا يوجد لدين الله إلا سفينة واحدة هي سفينة الإسلام الصالحة لإنقاذ المسلمين ولإنقاذ الجنس البشري من هذا الطوفان وليس للسفينة الواحدة إلا قبطان واحد، وعدد معلوم من البحارة وأن المسلمين هم رجالاتها وعمالها وحماتها، واكتشفت الأحزاب أن السفينة صالحة ومعاذ اللّه أن تخرب وأنِه لا ينقصها إلا القبطان والبحارة واقتناع الناس أنها طريق الخلاص.

ولكن الأحزاب الدينية العربية تكابر وتتلهى بأوهامها، وتتصور أنها الناطقة الرسمية باسم الإسلام، وأنها وحدها هي حامية حمى الإسلام ويتصور كل حزب ديني عربي أنه وحده المالك للحقيقة الشرعية الإسلامية، وأنه وحده القادر على إنقاذ المسلمين والإسلام، وهو على الحق دائماً، حتى بلغ الأمر بحزب التحرير الإسلامي حداً أن وضع قاعدته الشهيرة «الحزب على حق وغيره على باطل وعلى من يدعي العكس أن يثبته» في كل أمر من الأمور، الشمس في رابعة السماء، ومن ينكرها يقع عليه وحده عبء الإثبات، وغني عن البيان أن تصوَرات الأحزاب الدينية العربية تلك هي مجرد إدعاءات ينقصها الدليل والجدية، وهي من أنواع الدعايات الحزبية المعاصرة، والتي لا ينبغي أن تحمل على محمل الجد كما سنرى.

ظاهرة تعدد الأحزاب قديمة:

إن ظاهرة تعدد الأحزاب في المجتمع الواحد ظاهرة موغلة في القدم، ويؤكد ذلك قوله تعالى في الآيتين ١٢ و١٣ من سورة ص: ﴿**كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب**﴾.

وهذه الظاهرة كانت موجودة قبل البعثة النبوية المباركة وأثناءهاحيث كان مجتمع مكة هو الإطار العام الذي يضم كل ساكنيه، وكل قبيلة من هؤلاء السكان تشكل حزباً قائماً بذاته ومستقلاً ذاتياً عن الأحزاب الأخرى ورئاسة المجتمع «السلطة» في مناصب الشرف تم توزيعها بالاتفاق في ما بين الأحزاب ويمكن الاستدلال على ذلك بالآيتين ٢٠ و٢٢ من سورة الأحزاب: ﴿... **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا... ولما رأى المؤمنون الأحزاب**﴾. فالأحزاب المعنية بهاتين الآيتين هي كتائب جيش مكة المشرك الذي تجمع لحرب المسلمين في غزوة

الخندق، وقد أكد النبي الكريم محمد ﷺ وجود هذه الظاهرة عند اتباع الديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية، وبيّن لنا أن اليهود قد افترقت على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة...

ومن هنا نتبين خطأ الذين يزعمون أن ظاهرة تعدد الأحزاب إنما هي ثمرة من ثمرات الديمقراطية الغربية، وأثر من آثارها، وركن لا بد من وجوده لنجاحها، لأن ما فعلته الديمقراطية الغربية في هذا المجال هو أنها أوجدت صيغة فنية وقانونية لتعايش الأحزاب المتعددة معاً وبنفس الوقت وتتقاسم السلطة أو مناصب الشرف تماماً كما تعايشت الأحزاب في المجتمع العربي المكي قبل البعثة المباركة وكما تقاسمت مناصب الشرف فيه، وفق الصيغة التوفيقية الخاصة بها.

ما هي أسباب ظاهرة تعدد الأحزاب:

إن الخلاف والاختلاف هو السبب الرئيسي الكامن وراء ظاهرة تعدد الأحزاب في المجتمع، فتنشأ الأحزاب بدعوى إزالة الخلل الناتج عن الاختلاف وبنشوء الأحزاب يتكرس الخلاف والاختلاف وعلى أي حال فقد يكون مبعث الخلاف والاختلاف بسبب عدم وجود عقيدة كاملة تبين الأهداف العامة والخاصة، وتحدد السبل الواجب سلوكها لبلوغ هذه الأهداف، وقد تتواجد العقيدة الكاملة وتغيب المرجعية الثقة التي يسلم الجميع بدقة فهمها لقواعد تلك العقيدة، وقد تكون المصالح هي السبب بالاختلاف ولعل الرغبة ـ بالوصول إلى السلطة هي السبب الأول وراء وجود أحزاب متعددة لأن السلطة ـ معشوقة الجميع بالفطرة ـ والسلطة غاية لا تدرك بغير جماعة أو شلة ـ والحزب جماعة، قلّت أم كثرت، فالحزب صيغة فكرية لجمع الجماعة، وصيغة استقطاب، وصيغة تنظيم، ويمكنك القول بكل ارتياح أن الهدف الأول لكافة الأحزاب العربية العلمانية والدينية هو الوصول إلى السلطة، وأن الغاية النهائية لكل حزب عربي هو الاستحواذ على السلطة والانفراد بها، وإن تعذر ذلك فلا بأس بالمشاركة فيها ومن الطبيعي أن تزعم الأحزاب العربية بشقيها أن السلطة بذاتها ليست الهدف إنما الهدف الأسمى هو أن يتمكن الحزب عن طريق السلطة من أن يدخل العرب إلى «جنة الحزب وملكه الذي لا يبلى».

رواج سوق الأحزاب

ولقد لاقت سوق الأحزاب رواجاً بانتصار الديمقراطية الغربية وظهور مبدأ الاقتراع، فأعطيت الأحزاب الحق بالتواجد، والحق بالاستقطاب والحق بالوصول إلى السلطة والمشاركة فيها عن طريق الانتخاب، وأصبح الهدف المعلن لكل حزب في العالم هو الوصول إلى السلطة ـ ديمقراطياً ـ والاستئثار وحده بالسلطة إن أمكن، وآمنت الشيوعية بحقوق الأحزاب تلك، ونادت بها حتى إذا ما تمكن الحزب الشيوعي من الاستحواذ على السلطة تفرد بها وحده، وحرم فكرة تعدد الأحزاب، بدعوى أن الشيوعي وحده هو المالك للحقيقة، وقد طبق هذا المبدأ بصرامة متناهية في الاتحاد السوفياتي ، أما دول الديمقراطيات الشعبية والتي تبنت الماركسية الشيوعية فقد سمحت بوجود أحزاب ضمن الإطار الذي يحدده الحزب الشيوعي الحاكم وهذه الأحزاب تعمل تحت إشراف وتوجيه الحزب القائد.

الأحزاب الدينية استوردت الوسائل الغربية:

إن هذه الأحزاب تعلم علم اليقين أن الإسلام لا يسمح بأن يختلف مجتمع الأمة الإسلامية، وإذا اختلف فإنه لا يجيز أن يصل هذا الاختلاف إلى درجة التحزب، وبالتالي هو لا يجيز وجود أحزاب متعددة في المجتمع الإسلامي الواحد، وهم يعلمون علم اليقين أيضاً أن للإسلام نظريته الخاصة في التحزب والأحزاب، ومع هذا تؤمن بتعدد الأحزاب، وتتعدد هي بنفسها، وهي تعلم أن تعدد الأحزاب، ومنهاجها بالاستقطاب والتنظيم بهدف الوصول إلى السلطة أو المشاركة فيها هو بصيغته النهائية منهج علماني أوروبي غربي، وأن النهج هو جزء من فلسفة الغرب العلمانية ومن نظامه السياسي العلماني. ومع علمها بذلك ـ إلا أنها لا تجد غضاضة من أن تستورد الوسيلة الغربية لنصرة الإسلام بزعمها، وأهملت مع سبق الإصرار وسيلة الإسلام، لأن الإسلام بين الأهداف، وحدد الوسائل فإذا كانت أهداف الأحزاب إسلامية ووسائلها لبلوغ هذه الأهداف ليست إسلامية، فمعنى ذلك أنها آمنت ببعض الإسلام وتجاهلت البعض الآخر، ولا يخفى على إخواننا في الأحزاب الدينية قوله تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون**

بعض﴾. . . ولا حاجة لتذكيركم بأن وسائل الإسلام أنجح من الوسائل الغربية وأن نظرته لكل الأمور أدق وأسلم من نظرة الفكر العلماني الغربي، ومن جهة ثانية فإن الوسائل هي جزء من النظام أي نظام على الإطلاق وهي المسالك التي حددها النظام لبلوغ الأهداف المحددة، فلا تتوقعوا أن تحققوا أهداف الإسلام بوسائل الغرب وطرقه لأنها ملتوية ووضعية على عكس الإسلام وغير وارد أن يستعمل الغرب وسائل الإسلام لإدراك أهدافه العلمانية، فمن هذه الناحية مع الاحترام فأنتم لا تختلفون عن الأحزاب العلمانية العربية والفرق أن الأحزاب العلمانية العربية استوردت النظام والوسائل والأهداف وهم لا ينكرون ذلك، وأنتم استوردتم الوسائل فكلكم مستورد مع اختلاف الكمية والمقدار، إني لأعلم مقدار الحرج الذي تحسون به وحجم العتب، وألمي لذلك لا يقل عن ألمكم، لكن الدين كله النصيحة ونحن نعلم سعة حيلتكم وسرعة بديهتكم وقدرتكم الفائقة على صناعة الاجتهادات ومع هذا نقول هذا هو الإسلام بيننا وبينكم، وبعد ذلك فأنتم أحرار.

موقف الإسلام من تعدد الأحزاب:

إن علماء الأحزاب الدينية العربية يعرفون أسلوب القرآن الكريم. . ببيان المصالح والمفاسد، وبتمييز الخير من الشر، وكفاه فخراً وإعجازاً أنه أسلوب إلهي ينساب في أعماق النفس الإنسانية انسياب الماء النقي في مجراه المحدد، ويتوغل توغل العافية في الكائن الحي، وضمن هذه المعرفة لو رجعتم إلى القرآن الكريم لوجدتم أن كلمة الأحزاب قد تكررت فيه إحدى عشرة مرة وكلها ـ على الإطلاق ـ وردت في مجال ذم الأحزاب وتقبيحها، واستهجان سلوكها الشائن فجاءت كلمة الأحزاب، تعبيراً عن الاختلاف، وعن الكفر، وعن الرعب وعن الوقوف ضد الحق، والآيات آنفة الذكر أبرزت صفات مجموعات مشبوهة تجمعت على عجل. والرباط الوحيد المشترك في ما بينها هي أنها ضد الحق، ولم ترد كلمة الأحزاب ولو مرة واحدة في القرآن الكريم كدليل على خير أو إشارة لومضة فلاح، وهذا قمة التنفير من نظام تعددية الأحزاب، وعليه، فإن مبدأ تعدد الأحزاب في النظام السياسي الإسلامي غير وارد مطلقاً، وهذا على سبيل التحدي وان كنتم في شك مما ذكرنا فيمكنكم أن تتلو مشكورين ومأجورين إن شاء الله الآيات ١٧ من سورة هود،

و٣٦ الرعد، و٣٧ مريم، و٢٠ و٢١ من الأحزاب و١١ و١٣ ص و٥ غافر و٦٥ الزخرف، ولو تخلينا عن الهوى وتمعّنا بالآيتين الكريمتين ٥٢ و٥٣ المؤمنون لكفى بهما دليلاً **﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾** ولكنكم تعرفون أن الهوى لا دواء له.

وعلى صعيد السنّة بفروعها الثلاثة القول والفعل والتقرير فما جاءت إلا لتبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم ولتترجم لهم النص من النظر إلى التطبيق ومن الكلمة إلى الحركة، وقد أشارالنبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام إلى هذه الظاهرة وأخبرنا بتجارب الأمم السابقة التي بدلت نعمة الله كفراً وكيف أن اليهود قد افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، فرقة واحدة في الجنة وسبعون في النار، وأن النصارى قد افترقت على اثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وحذرنا بأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار، والفرقة هي حزب. والأحزاب الدينية أعقل من أن تكذب ذلك، أو تضعفه، أوتشكك فيه.

وهي تلاحظ أنه لا يوجد إلا حق واحد في كل دين من الديانات الثلاثة وأنه لا يوجد في كل منها إلا حزب واحد، وهو الحزب الذي يدعو بدعوة الإسلام الصحيحة، وهو حزب الله الذي يشكل الإطار العام لجميع المسلمين بلا استثناء، لأن كل المسلمين أخوة، وحزب الله هو خيمة الجميع وغايته هي غاية الله نفسه المتمثلة بالرحمة وإشاعة الهداية وتثبيتها، وتوجيه الخلق نحو صراط واحد صراط الله المستقيم، وصدهم عن السبل الذي تفرقهم عن هذا الصراط، ويؤكد ذلك قوله تعالى في الآيات ٥٤ ـ ٥٦ من المائدة و٩ و٢٢ من المجادلة و٦ من سورة غافر، وفي بيانها وتفسيرها إحراج لكم، وتضييق عليكم.

وأزيد الأحزاب الدينية بأنها لا تملك شرعاً بأن تتفرق تحت شعار نصرة الدين لأن الله أمر الأنبياء، أن يقيموا الدين ونهاهم من أن يتفرقوا فيه **﴿... أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾** . (الشورى الآية: ١٣).

ولا يملك كل المسلمين أن يجيزوا هذه التفرقة مهما كانت الأعذار لأن النص

الشرعي واضح ﴿..واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ونشوء عشرات الأحزاب الدينية ظاهرة مَرضية لا يقرّها الشرع الحنيف وينفر منها المسلم بفطرته، وهي عين التفرق الذي عناه الشرع.

البديل الإسلامي لتعددالأحزاب

الإسلام لا يجيز للأنبياء أن يتفرقوا في الدين، ولا يجيز ذلك لكافة المسلمين وقد أمرهم أن يكونوا حزباً واحداً هو حزب الله لا بالطريقة الليبرالية الغربية ولا بالطريقة الماركسية الشرقية إنما بطريقة الإسلام، وبمنهج الإسلام الذي جسده الرسول ﷺ في مرحلتي الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية. وفي عدد جريدة اللواء ٩٤٤ فصلت هذا الأمر، وقد وجدت قاعدة حق الإنسان بأن يقول رأيه وبمواجهة أي كان حتى ولو كان النبي ﷺ نفسه دون أن يتعرض لأي لوم أو عقوبة نتيجة إبداء هذا الرأي لأن من حق الإنسان أن يحصل على القناعة التامة بما يسمع أو يمارس في المجتمع بوصفه عضواً فيه، ولأن الإنسان ليس آلة إنما هو كائن حيّ مفكر من حقه أن يجتهد وأن يشارك في العبادة والمعاملة والسياسة ليحصل على الأجر حتى ولو أخطأ وأن حسنت نيته، ومن حقه أن يختلف مع إخوانه بالرأي، لكن الاختلاف لا ينبغي أن يصل إلى درجة التحزب، لأن التحزب فرقة وخلاف بحاله وماله والفرقة محظورة على الأنبياء بوصفهم قادة مجتمع الإيمان ومن باب أولى أن تكون محظورة على المسلمين بوصفهم أعضاء في حزب الله.

الفصل الثاني

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

خطة إلهيّة لنهضة المسلمين المرجعية أوالقبطان

أثبتنا في الفصل السابق أن مبدأ التحزب وتعدد الأحزاب في المجتمع الواحد هو مبدأ موغل في القدم. ومع وحدة تقاطعية، إلا أنه بصورته القديمة البائدة والديمقراطية السائدة هو عبارة عن أسلوب أو وسيلة أو صيغة «وضعية وغير إسلامية» تم إيجادها لغايات التنظيم والاستقطاب والمشاركة في السلطة. ولأن الأحزاب الدينية في عجلة من أمرها، وقد استخفها الحماس قررت أن تستورد مبدأ التحزب وتعدد الأحزاب كوسيلة عصرية للنهوض بالإسلام والمسلمين، لأنها تجهل أن للإسلام أهدافه وله وسائله الخاصة لبلوغ هذه الأهداف. وتجهل أن الوسائل هي جزء من نظام، إن تبنّي وسائل نظام معين، وتبنّي.أهداف نظام آخر يؤدي حتماً إلى الخلل والعقم وقد يتقوض إحداهما. والعلة في ما فعلته الأحزاب الدينية العربية هي أنها قد دخلت معترك السياسة باسم الإسلام وهي لا تعرف الإسلام على حقيقته. ولم تكن قد استوعبت تاريخ الإسلام السياسي، وأدى هذا كله إلى التقليد الأعمى المرتبط عفوياً مع الهوى، وخيل للأحزاب الدينية العربية أنها قد قطعت الطريق كله ولم يبق بينها وبين الوصول إلى أهدافها إلا باعاً أو ذراعاً فتشبثت بنهجها لعلها تفلح بتأخير انبلاج الحق ريثما تقطف ثمرة جهدها، ومن هنا كانت كل جهودها منصبة بالدرجة الأولى على إثبات شرعية نهجها، وعلى تطويع النصوص وما وافق هواها من الحادثات التاريخية لخدمة هذه الغاية وقد ذكرت في الحلقة السابقة أن الإسلام قد وضع خطة للنهوض بالمسلمين كلما سقطوا،

ولتوحيدهم كلما تفرقوا، لأن السقوط والتفرق من قوانين الحياة التي لا تتوقف، وقد لجأ الأنبياء جميعاً إلى هذه الخطة وطبقوها جميعاً على صعيد الدعوة، وطبقها كل الذين تحولت دعواتهم إلى دول على صعيد الدولة. وقد أتت هذه الخطة أُكُلُها في كل حين. لأنها وسيلة الإسلام الخاصة به وقد ذكرنا إن لهذه الخطة خمسة أركان أولها ركن المرجعية.

معنى المرجعية

تعني المرجعية تلك الجهة المختصة ببيان أحكام وقواعد عقيدة ما، لا على سبيل الافتراض والتخمين، إنما على سبيل الجزم واليقين، والتي يتقبل الإنسان المؤمن بهذه العقيدة بيان تلك المرجعية على أساس أنه حقيقة إيمانية أو عقلية تصلح كمنطلق فكري، أو كقاعدة يبنى فوقها.

تلازم المرجعية مع العقيدة:

فلا عقيدة بدون مرجعية، ولا مرجعية إلا في عقيدة. لأن مهمة المرجعية هي بيان العقيدة الإلهية التي حددت معاني الأقوال والأفعال وحددت الأهداف ووسائل بلوغها ونظمت العلاقات بين المؤمنين بها وعلى كل الأصعدة فيكون دور المرجع منحصراً ببيان العقيدة بياناً كاملاً فالمرجع هو المسؤول عن ترجمة نصوص وقواعد وغايات تلك العقيدة من النظر إلى التطبيق ومن الكلمة إلى الحركة على صعيدي الدعوة والدولة معاً.

المرجعية اختصاص:

فالعقيدة هي السفينة، والمرجع هو بمثابة القبطان لهذه السفينة، والعقيدة هي المخططات اللازمة لمشروع الإنقاذ الإلهي والمرجع هو المهندس الذي يتولى عملية توضيح وشرح المخططات وبيانها وترجمتها مرحلياً إلى واقع مادي محسوس فالمرجع هو معلم البناء، ومن الجنون تحضير المواد الأولية اللازمة للبناء والشروع فيه دون مشورة وعلم المهندس أو معلم البناء. وعلى صعيد العقيدة الإلهية يجب أن يكون المرجع أعلم أهل زمانه بهذه العقيدة، وأكثر أهل زمانه إخلاصاً لهذه

العقيدة، وأكثر أهل زمانه اعتصاماً بالله. لأن المرجع هو الحكم «بفتح الحاء والكاف» وهو الناطق بالحكم الإلهي وما تتبناه هذه المرجعية هو عين ما يريده الله في الحال أو المال. ولا يوجد في العقيدة الإلهية الواحدة إلا مرجعية واحدة، وتعدد العقائد يؤدي لتعدد المراجع. وتعدد المراجع في العقيدة الواحدة يؤدي لتفسخ العقيدة، وتفرق أتباعها، واستنبات عقائد جديدة من الناحية الواقعية. فالمرجعية في الإسلام هي اختصاص ومن أعظم ضرورات الدين ، فإذا انعدمت المرجعية الشرعية يركب كل مسلم رأسه أو تركب كل مجموعة من المسلمين رأسها وتعتقد لكثرة ممارسة الخطأ أن الحق معها، وتتفرق الكلمة ويتشتت شمل الأمة ولا يلمها ثانية إلا وجود مرجع تعتبر كلمته حقيقة عقلية يتقبلها المسلمون عن رضى خاطر. وهذه هي السبيل الوحيد لتوحيد المسلمين.

الفارق بين العقيدة والمرجعية

الأحزاب الدينية العربية لا تفرق بين العقيدة وبين المرجعية، فإذا سألتهم ما هو مرجعكم؟ سيبادرون على الفور بالإجابة ويقولون جملتهم التقليدية: إن مرجعهم القرآن الكريم والسنّة المطهرة بفروعها الثلاثة: القول والفعل والتقرير وتضيف هذه الأحزاب: مرجعنا باختصار هو الشرع الإلهي. هذا مبلغهم من العلم. ولكثرة ما رددوه أصبح في أذهانهم كطلوع الشمس من المشرق لا يحتاج إلى برهان ولا يقبلون مجرد المناقشة فيه. وقد آن الأوان لهذه الأحزاب الدينية أن تفرق بين العقيدة وبين المرجع البشري، أن تفرق بين السفينة وبين القبطان، أن تفرق بين المهندس وبين المخططات، أن تفرق بين الدعوة وبين الداعية، أن تفرق بين المعلم البناء وبين المواد اللازمة للبناء، أن تفرق بين التاريخ السياسي الإسلامي وبين النظام السياسي الإسلامي، أن تفرق بين الدولة كشخص اعتباري وبين الحكام كمعبرين عن هذا الشخص، ومن دون أن تصل الأحزاب الدينية إلى هذا المستوى يتعذر التوسع معهم فيه.

تأصيل الحكمة من وجود المرجعية

إذا أوحى الله تعالى لكل مخلوق، وجره إلى الخير جراً، وخصص له ملكاً

من السماء يرافقه فإن هذا المخلوق لا يستحق الأجر، لأنه مكره على الفعل أو الامتناع عنه. والأمر الذي يتناسب مع نظرية الابتلاء الإلهية هو أن يرزق الإنسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل، وأن يؤتى القدرة على فعل الحق وفعل الباطل. ثم يبين الله له الحق من الباطل، المباح والحرام والحلال ثم يعطى الإنسان بعد ذلك الحرية ليعمل الحق بإرادته وحريته ورضاه أو يأتي الباطل بإرادته وحريته ورضاه. هنا فقط يستحق الإنسان المكلف الثواب إذا أصاب، والعقاب إذا أخطأ.

تلك هي الأرضية التي انطلقت منها فكرة الرسالات الإلهية إلى بني البشر، وانطلقت منها فكرة المرجعية كضرورة من ضرورات بيان الرسالة الإلهية، فدارت فكرة الرسالة الإلهية حول محورين:

١ ـ رسول يبلغ الرسالة وهو مرجعها الأرضي.

٢ ـ رسالة لها مضمون يتعذر تبليغها بدون رسول أو مرجع. هذه الرسالة معدة من قبل الله وهي مشروع هداية إلهية، فالله تعالى هو المرجع الأعلى للرسول في كل ما يتعلق بالرسالة ومضمونها والرسول هو المرجع الأعلى في كل ما يتعلق ببيان مضمون هذه الرسالة. فالخطوة الأولى هي اختيار رسول أو مرجع والخطوة الثانية هي إفهام الرسول مضامين، هذه الرسالة الإلهية والخطوة الثالثة هي قيام الرسول بتبليغ هذه الرسالة لأصحابها وبيانها ورصد ردة فعلهم ليكون هو الشاهد. الناس يرجعون إلى الرسول بوصفه المرجع الذي يفهم الرسالة، وما أشكل على الرسول من أمور الرسالة يرجع به إلى الله. تلك حقيقة لا يجادل بها إلا جاهل كان الرسول ـ أي رسول ـ هو المرجع لمن اتبعه ليوضح وليبين للأتباع ومن بلّغ كيف تتحول التعاليم الإلهية من النصوص النظرية إلى التطبيق العملي، وكيف تنفذ على الوجه الذي يرضي الله تعالى. ومن ضرورات الرسالة وعملية الابتلاء أن يكون هنالك مرجع واحد ليقوم بقيادة مسيرة قافلة الإيمان سواء على مستوى الدعوة أو على مستوى الدولة إن نجح بتحويل الدعوة إلى دولة.

المرجعية أكبر من أن تُنكر:

الأحزاب الدينية العربية لا تجهل أن الرسالة الإلهية لبني البشر لم تتوقف طوال تاريخ الجنس البشري على الأرض. فهل تتفضل الأحزاب الدينية مشكورة

ومأجورة فتبين للمسلمين متى أرسل الله رسالة بدون رسول، ومتى خصهم بعقيدة من دون مرجع؟ معكم الدنيا طولاً وعرضاً فوقاً وتحتاً من لدن آدم حتى محمد ﷺ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا بإذن الله فقد آن الأوان لأن تتركوا التقليد الأعمى وأن تتوقفوا عن مزج الدين بالتاريخ وآن الأوان أن تتقوا الله في دينكم وأنفسكم وفي أمتكم وفي الجنس البشري الذي يعلق ضميره كبير الآمال على دينكم. فالأسرة لها مرجع، والدولة لها مرجع والنظام له مرجع وكل عقيدة إلهية أو وضعية لها مرجع. لأن المرجع عنصر أساسي لكل دعوة، ولكل تجمع بشري، ولكل عقيدة، ولكل دولة،

مرجعية المسلمين خلال حياة النبي:

طاعة الله تتمثل باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والذي عرف كنه الأوامر والنواهي هو رسول الله ﷺ فطاعة الرسول عملياً هي طاعة الله ومعصية الرسول عملياً هي معصية لله. وقد تأكدت هذه الحقيقة في القرآن الكريم تسع مرات. لأن الرسول هو القيم على هذا الدين، وهو العالم بأسراره المطلع على خفاياه والقادر على تخصيص العام من أحكامه وبيان المعنى المطلوب إن تعددت المعاني في النص الواحد. وبالتالي فإن المرجعية أثناء حياة الرسول محصورة به لأن الله عصمه وهداه واصطفاه لهذه الغاية، ولا يمكن لأحد من أتباعه أن يفهم أومر الله ونواهيه كما فهمها الرسول بالتمام لأن الرسول مميز ويجب أن يكون الأفهم والأعلم والأتقى ليرجع إليه أتباعه. فخلال حياته هو المرجع بالإجماع ولا أحد يخالف هذه الحقيقة لأنها إيمانية عقلية معاً.

المرجعية بعد وفاة النبي (ص):

حقيقة أنه قبل أن ينتقل إلى جوار ربه،اكتمل الدين، وتمت النعمة، وترسخت العقيدة، وطبقت الشريعة، وقام نظام الدولة وترأسها النبي ﷺ مدة عشر سنوات تقريباً.

لكن طبيعة الإسلام كآخر دين، وطبيعة أحكامه المتعمقة بالعموم والشمول، وطبيعة المهمة الملقاة على عاتق المسلمين والمتمثلة بتقليص رقعة الكفر، وهداية

الجنس البشري، تقتضي وجود مرجعية بعد وفاة الرسول ﷺ. وهذا أمر من البداهة بحيث إنه لا يحتاج إلى دليل لولا التقليد الأعمى، والتسليم بالواقع وفطرة الناس بإطاعة الغالب.

ستقول الأحزاب الدينية إن علماء المسلمين هم المرجع بالمعنى الذي تقصده ونحن نجيبهم إن قولكم غير عملي فماذا يكون الموقف لو أن علماء المسلمين ـ على فرض إمكانية جمعهم في مكان واحد ـ قد اختلفوا على فرقتين أو ثلاث فرق أو أكثر وكل مجموعة لها وجهة نظر مستندة إلى دليل شرعي عام، وكلهم عمالقة بفقههم وأصر كل فريق على رأيه فأي فريق نتبع؟ وأي رأي ننفذ؟ ستقول الأحزاب الدينية إن الحاكم يتبنى الرأي الذي يراه مناسباً من هذه الآراء خلال فترة حكمه. إذا هم يعترفون أن الحاكم هو المرجع أو الذي يقوم بدور المرجع بوصفه خليفة النبي. ولكنكم تعلمون أنه توالى على رئاسة دولة الخلافة ـ تحت شعار أنهم خلفاء النبي ـ أعداد لا حصر لها منهم التقي كعلي وأبي بكر وعمر(رضي الله عنهم)، ومنهم أيضاً مروان بن الحكم ويزيد بن معاوية.

وبالتدقيق وباستعراض كافة النصوص القرآنية والنبوية تبين لنا أن الله تبارك وتعالى لم يترك الأمر سدى: إنما رشح المرجعية للناس وخولها صلاحية البيان في ما اختلف فيه الناس، والجمع بين المرجعية والحكم. فإذا قبلت الأمة هذه المرجعية وبايعتها بالرضى يصبح المرجع هو الحاكم. وإذا لم تبايعه الأمة تحدث عملية انفكاك بين الحكم والمرجعية. فالحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام هو إمام بالنص ومرجع بالنص. لأن الإمام قدوة. ويزيد بن معاوية حاكم والأصل أن يكون الحسين بن علي هو الإمام والمرجع معاً. فحالة المسلمين تتوقف على توحيد المرجعية مع الحكم وقبول الناس بذلك.

الانتقال من التعميم إلى التخصيص:

ستقول الأحزاب الدينية العربية، لقد انتقل الحسين إلى جوار ربه ومات يزيد، وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ونحن نعيش الآن في القرن العشرين فكيف نعثر على المرجع الذي يقود الدعوة ثم تتحول الدعوة إلى دولة

وتتوحد المرجعية مع الحكم فتستقيم أمور المسلمين؟ بين لنا ذلك بالأدلة الشرعية لا بالرأي، بالدين لا بالهوى، لأنه بالرأي يقع الخلاف، وبالهوى تعم الضلالة.

ونحن نقول للأحزاب الدينية: إن كان هذا مطلبكم فقد استقامت قناتكم بعد اعوجاج، وعرفتم طريق الحق بعد طول لجاج، وقد أوتيتم سؤلكم وسنقيم الحجة عليكم إن شاء الله ونبين لكم كيف تعثرون على المرجع الإسلامي الذي سيقود سفينة الإسلام. وسنثبت لكم ذلك بالدليل القاطع الوارد في القرآن الكريم والسنّة المطهرة وهذا ما سأعالجه في الفصل القادم.

الفصل الثالث

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

من هو مرجع المسلمين بحكم الشرع الإسلامي؟

ذكرنا في الفصلين السابقين أن الأحزاب الدينية العربية قد استوردت من الغرب الرأسمالي مبدأ التحزب وتعدد الأحزاب ليكون وسيلة لها بالتنظيم والاستقطاب والمشاركة في السلطة أو التفرد بها، واعتبرته عملياً السبيل العصري للنهوض بالإسلام والمسلمين. فأهدافها المعلنة دينية شرعية ووسائلها لتحقيق هذه الأهداف وسائل وضعية غربية. والعلة في هذا التناقض هي أن هذه الأحزاب لم تفهم الدين على حقيقته وتجهل أن للإسلام وسائله الخاصة والتي يدرك بها أهدافه. وتجهل هذه الأحزاب أن أهداف الإسلام تختلف تماماً عن أهداف العقائد الوضعية الغربية.

وإن وسائل تلك العقائد لا توصل إلى الأهداف الإسلامية ومن جهة ثانية فإن الأحزاب الدينية العربية تجهل أن الإسلام بوصفه آخر الرسالات الإلهية لبني البشر قد وضع تحت تصرف معتنقيه خطة إلهية، لينهضوا كلما سقطوا، وليتوحدوا كلما تفوقوا، وليعودوا إلى الله كلما جمحت بهم الأهواء، وإن هذه الخطة الإلهية قد طبقها كل الأنبياء طوال تاريخ الجنس البشري، وطبقها خاتمهم محمد ﷺ. وقد ذكرنا أن الركن الأول في هذه الخطة الإلهية هو المرجع أي القبطان الذي يقود سفينة الإسلام عبر الأمواج العاتية، وقد وضحنا هذا الركن حتى بانت معالمه، وبرزت أهميته، ولأن الأحزاب الدينية العربية تجهل هذه الخطة الإلهية وعدناها أن

نبين لها من هو المرجع بعد وفاة النبي ﷺ ومن هو مرجعهم الشرعي الآن وفي كل زمان والذي سيقود الدعوة ثم يقود الدولة. أو يقود سفينة الإسلام بكل مافيها.

أين نجد المرجع الشرعي (القبطان)؟

قلنا إنه من ضرورات كل دين أن يكون له مرجع مثلما هو من ضرورات كل عقيدة إلهية أو وضعية. وإن هذا المرجع يجب أن يكون الأعلم في هذه العقيدة والأكثر فهماً لها والأكثر إخلاصاً وخير الموجودين وأفضلهم على سبيل الجزم واليقين، لا على سبيل الاعتراض والتخمين، وتلك أمور خفية لا يعلمها إلاّ الله العالم بالسر وأخفى. هذه الصفات مجتمعة أعلنت العناية الإلهية أنها متوفرة في كل الأنبياء الذين اختارهم عبر التاريخ البشري لتبليغ رسالات ربهم، ولم يحفل باعتراضات المعترضين ﴿**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾، ﴿**أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين**﴾ لأن هذه الاعتراضات على الحكم الإلهي تنبع من الافتراض والتخمين، بينما الحكم الإلهي باختيار هؤلاء الأنبياء مبني على الجزم واليقين، بأنهم الأعلم، والأفهم والأكثر إخلاصاً، والأخْيَر، والأفضل، والأقدر على قيادة سفينة الإسلام، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا المرجع ورشحه ليقود سفينة الإسلام بعد وفاة النبي وذلك رحمة بالمسلمين وحتى لا يضلوا ـ على حد تعبير الرسول ﷺ ـ إذاً فإن الله تعالى قد وصف العلاج لهذه الأمة وحثها على تناوله، فاجتهدت، وأبت الأكثرية منها تناول هذا العلاج. وحثها الله تعالى على أن تتطعم ضد مرض «الضلالة» القادم لا محالة فركبت أكثرية الأمة رأسها. فذاقت وبال أمرهاوكانت عاقبة أمرها خسرا. هذه معلومات لا تعرفها الأحزاب الدينية وما لا تعرفه هذه الأحزاب فهو خطأ وإن كان صواباً ومساعدة لهذه الأحزاب يمكنهاـ إن شاءت ـ أن تراجع صحيح بخاري ج ١ص ٢٢و١١٨ ج ٢ ص١٤ من صحيح مسلم وصحيح مسلم آخر كتاب الوصية ومسند الإمام أحمد ج١ ص٢٢٢ وص٣٥٥، وشرح النهج لعلامة المعتزلة ابن أبي الحديد ج ٢ص٢٠ وص١١٤ج٣سطر٢٧ وص ١٣٨ج٣ من الكنز للمتقي الهندي وج١وص٣٢٥ من مسند الإمام أحمد،(وراجع الطبراني وتاريخ بغداد وطبقات ابن سعد ج٢ ص ٢٤٢ـ ٢٤٥). وأعتقد أن الأحزاب الدينية العربية أعقل من أن تتوسع معي بهذا

الموضوع أو تشكك فيه بطريقة علنية، وما يعنينا منه هو الاستقراء والاستفادة من عبره. ثم نتابع بحثنا أين نجد المرجعية الشرعية؟.

القرابة الطاهرة هي المرجعية العامة للمسلمين:

المرجعية العامة للمسلمين بالنص الشرعي هي القرابة الطاهرة وهي تتكون من ثلاث دوائر: الدائرة الهاشمية وهي إطارها العام، ودائرة آل البيت وهم الذين حرموا من الصدقة، ودائرة أهل البيت. هم المرجعية العامة للمسلمين لأنهم خيرة الله من خلقه بعد الرسل ولأنهم صفوة المسلمين كما أنبأنا الله تبارك وتعالى على لسان نبيه ﷺ وكما روى ذلك عن رسول الله الحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه ودلائله والطبراني في الكبير وابن عساكروابن عدي في الكامل والديلمي وابن مردويه في سننه وابن سعد في طبقاته والترمذي في سننه والمتقي الهندي في كنزه والحلبي في سيرته... إلخ. والأحزاب الدينية أعقل من أن تشكك بذلك ويمكنها أن تتلو مشكورة ومأجورة الآية ٢٣ من سورة الشورى ﴿. **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾ فطالماأن القرابة الطاهرة هي أفضل خلق الله بعد الأنبياء بالنص الشرعي فلماذا تستهجن الأحزاب الدينية العربية بأن تكون هذه القرابة هي المرجعية العامة للمسلمين؟ وعلاوة على أن القرابة الطاهرة هم أفضل خلق الله بعد الأنبياء وصفوته من الخلق فهم الحرز المنيع الذي يحفظ الأمة من الضلالة ويرمز لوحدتها وتمسكها بدينها وتلك هي وظيفتها التي خصصها الله لهذه القرابة الطاهرة.
وهذا القول ليس بالاجتهاد إنما هو بالنص الشرعي. وها هو الرسول يبلغ المسلمين بهذا الحكم الإلهي وهذه الوصية الإلهية: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي» وقوله في حجة الوداع: «كأني دعيت فأجبت إني تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي..». وقوله: «في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين» وحتى نقيم الحجة على الأحزاب الدينية نبين لها أن هذه السنن وأمثالها أخرجها الترمذي والنسائي عن جابر ونقلها عنهما المتقي الهندي في كنزه، وأخرجها الترمذي عن زيد بن أرقم وأخرجها الإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت بطريقين صحيحين في أول الصفحة ١٨٢ وآخر الصفحة ١٨٩ في ج ٥من مسنده وأخرجها

الحاكم في مستدركه في ج٣ص١٤٨ ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على طريق الشيخين، وأخرجه الذهبي في تلخيصه معترفـابصحته على شرط الشيخين، وأخرجه ابن شيبة وأبو يعلى وابن سعد عن أبي سعيد وأخرجه الإمام أحمد من طريقين أحدهما في آخر الصفحة ١٧ والثاني في آخر ص ٢٦ من مسنده وأخرجه الحاكم في ص ٣٠٩ ج ٣ من مستدركه وص٥٣٣ ج٣ من هذا المستدرك وقال إنه صحيح على شرط الشيخين وأخرجه الطبراني والنبهاني في الأربعين والسيوطي في إحياء الميت وذكره ابن حجر الهيثمي في آخر الفصل٢ باب ٩ من الصواعق المحرقة.

والأحزاب الدينية أعقل من أن تشكك بذلك أو أن تنفي مرجعاً واحداً من المراجع التي ذكرتها. فالقرابة الطاهرة بمرجعيتها العامة تمنع الضلالة. والاختلاف، وتمنع الانفكاك بين الأمة وبين القرآن الكريم.

ثم إن القرابة الطاهرة وسيلة نجاة، ووسيلة هداية، وعنصر قيادة كما أخبرنا الله على لسان نبيه «النجوم أمان لأهل الأرض وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف فإذا خالفتها قبيلة من قبائل العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» أخرجه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ج٣ص١٤٩ من المستدرك. وأخرجه ابن هيثم في مجمع الزوائد ورواه الطبراني ونقله المتقي الهندي. وخطب النبي يوماً فقال: «يا أيها الناس إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله وذريته فلا تذهبن بكم الأباطيل» وقد أخرجه أبو الشيخ ونقله ابن حجر في آخر المقصد الرابع من المقاصد ص١٠٥ من الصواعق(آية المودة في القربى) وقال ﷺ: «واجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين» وقد ذكره جماعة من أصحاب السنن منهم الشيخ يوسف النبهاني في٣١ من الشرف المؤيد والإمام الصبان في كتابه إسعاف الراغبين. وقال ﷺ: «فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» (راجع باب دحية الكلبي ص١٣٥ من الصواعق المحرقة لابن حجر).

وقال أيضاً: «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن

تخلف عنها غرق» أخرجه الحاكم في ج٣ ص١٥١ من مستدركه والطبراني في الأوسط والنبهاني في ص ٢١٦ من الأربعين.

ثم إن القرابة الطاهرة لها فضل على الإسلام ليس لأي مجموعة بشرية مثله. فقد اشتركت كل قبائل العرب بحصارها ثلاث سنين في شعاب أبي طالب وأكلت هذه القرابة الطاهرة ورق الشجر من الجوع، ومص أطفالهم الرمال من الظماء. ما الذي أجبر اتحاد القبائل العربية أن تختار رجلاً من كل قبيلة ليضربوا محمداً ضربة رجل؟ حتى يضيع دمه بين القبائل ولا يقوى الهاشميون على المطالبة بدمه. فالقرابة الطاهرة هي التي حمت الداعية وحمت الدعوة وضحت بكل شيء ليسلم الداعية. ما لكم كيف تحكمون. إن لكم لما تخيرون ألكم الغنم ولغيركم الغرم.

أحكام نظام المرجعية العامة

وحتى لا ينسى المسلم هذه المرجعية العامة فإن الله تعالى قد فرض على كل مسلم أن يقرأ في صلاته(الصلاة الإبراهيمية) وجعلها ركناً من أركان الصلاة فلا تصح صلاة أي مسلم إن لم يذكرها« اللّهم صلِ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك علىَ محمد وعلى آل محمدكما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول:

يا أهل بيت نبي الله حبكم — فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفخر أنكم — من لم يصل عليكم لا صلاة له

من كلام الطاهرة بهذا المجال:

يقول الإمام علي عليه السلام: «أسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، أغصانها معتدلة وثمارها متهدلة». ويقول أيضاً: «نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير بابها سمي سارقاً، فيهم كرائم الإيمان، وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا. . .».

ويقول الإمام أبو محمد محمد بن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «من الموثوق به على إبلاغ الحجة، وتأويل الحكم، إلا أعدال الكتاب، وأبناء أئمة الهدى ومصابيح الدجى، الذين احتج بهم الله على عباده، ولم يدع الخلق سدى، من غيرهم حجة؟ هل تعرفونهم أو تجدونهم إلا من فروع الشجرة المباركة، وبقايا الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وبرأهم من الآفات وافترض مودتهم في الكتاب..».

سؤال عابر:

لقد رسم كل حزب ديني خطة وضعية «من بنات أذهان بناته» لإنقاذ الإسلام والمسلمين فهل استشارت هذه الأحزاب الدينية العربية عترة بيت نبيها عند وضعها لهذه الخطط؟ ومتى؟ أم أنكم تعتبرون عترة نبيكم خطراً على رئاسة دول الأحلام في أذهانكم؟ فإن كانت غايتكم من التحزب مصلحة الإسلام والمسلمين فكيف تتجاهلونهم بعد أن سقنا هذه النصوص فأخذتكم بالأعناق؟ أما إذا كان الوصول إلى السلطة هو الغاية وأن الإسلام مجرد مركب تركبونه لتصلوا إلى هذه الغاية، فالأمر مختلف.

المرجعية الخاصة للمسلمين:

المرجع الخاص للمسلمين وفي كل زمن من الأزمان هو رجل من هذه القرابة الطاهرة وسنعالج الموضوع عند الحاجة.

الفصل الرابع

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«العمل بدون فكر ولا خطة»

أثبتنا في الفصلين السابقين أن الأحزاب العربية بشقيها العلماني والديني لا تعرف الإسلام على حقيقته وتجهل أهدافه ووسائله المحددة لبلوغ هذه الأهداف وتجهل نظامه السياسي جهلاً يكاد أن يكون تاماً. وللتعويض عن ذلك اندفعت الأحزاب العلمانية واستوردت العقائد الوضعية الأجنبية بوسائلها وأهدافها ونظمهاوخلطتها معاً مع أنها متناقضة بطبيعتها وظنت هذه الأحزاب ـ وبعض الظن إثم ـ أنها قد عبدت أمام العرب الطريق إلى فردوس الحياة السياسية وقد بينا حقيقة هذه الأحزاب العلمانية بياناً علمياً ووضعناه تحت تصرف عشاق الحقيقة أما الأحزاب الدينية العربية فقد قامت باستيراد الوسائل الوضعية الأجنبية لغايات تحقيق أهداف الإسلام ونظامه الإلهي وخلطت بين عقيدة الإسلام وبين وسائل العقائد الوضعية ونحن بصدد بيان حقيقة هذه الأحزاب الدينية لغايات وضع الحقيقة المجردة تحت تصرف طلابها.

العمل بدون خطة:

عز على الأحزاب الدينية العربية أن تقف موقف المتفرج وقد أنفرط عقد الأمة وطمع بها أعداؤها(وتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها). (يتخذون عباد الله خولاً وأموالهم دولاً) ومن هنا فقد قررت هذه الأحزاب أن تعمل ولكن بدون فكرة أن تبني ولكن بدون خطة، إن تبحر وسط بحر هائج يعج بالظلمات

ولكن بدون سفينة ولا قبطان أو بسفينة متآكلة لا تقوى على مقارعة الأمواج العاتية يقودها قبطان ماعلا موج البحر قط.

الغلطة المهجية:

عندما قررت الأحزاب الدينية العربية أن تعمل دون فكرة وأن تبني دون خطة أو بخطة قائمة على الافتراض والتخمين وناتجة عن خلطها بين أهداف الإسلام الإلهية ووسائل الغرب الوضعية فإنها قد ارتكبت غلطة منهجية فادحة إذ جمعت بين المتناقضات وطلبت المستحيلات بالعقل والشرع معاً وخلطت ما لا يجوز خلطه لأن الخطة التي يضعها البشر قائمة بطبيعتها على التخمين والافتراض والخطة التي يضعها الله تعالى قائمة على الجزم واليقين فالإسلام بأهدافه ووسائله ونظامه بمثابة مخططات عامة وتفصيلية لواقع ومستقبل الجنس البشري خاصة معتنقيه ولا تملك الأحزاب الدينية العربية أن تجري تعديلات على هذه المخططات الإلهية لأنها بنية كاملة ومتكاملة ومعدة من الله تبارك وتعالى ولا تملك الأحزاب الدينية أن تخلط المخططات الإلهية مع مخططات وضعية سواء من إعدادها وصنعها أو من إعداد غيرها وصنعه ومن جهة ثانية فإن الخطة سابقة للعمل والفكرة يجب أن تسبق الحركة تلك حقيقة دينية ومنهجية بارزة في سمات كل شيء فعندما أعلن الله تبارك وتعالى لملائكته ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾ لم يكن آدم موجوداً بصورته المادية كان مخططاً كان نظراً كان فكراً ثم حول الله هذا المخطط إلى واقعه المادي المحسوس عبر سلسلة مثيرة من العمليات الخلقية المعقدة والمحددة سلفاً خطوة خطوة والمبرمجة والمنظمة تنظيماً دقيقاً. بهذا المخطط آنف الذكر والتي عبرت عنها الآيات (١١ ـ ١٦ المؤمنون) و(٣٠ من البقرة) و(٤ من النساء) فالعمل دون خطة يقينية مفصلة يؤدي حتماً إلى التهجئة والغموض وثمرته السراب والمعاناة والإحباط ومصيره التجمد ثم الانهيار عاجلاً أم آجلاً وحوادث التاريخ السياسي العالمي شاهدة على ذلك وآخرها انهيار الشيوعية.

الخلط والارتجال:

الإصرار على العمل دون خطة يقينية أو بخطة قائمة على الافتراض والتخمين

يؤدي بصورة حتمية إلى الخلط والارتجال وهذا عين ما وقعت به الأحزاب الدينية العربية حيث قامت في عنفوان حماسها بخلط كافة الأوراق خلطاً كاملاً ولكثرة ممارستها لهذا الخلط اعتقدت أن الخليط الناتج هو الحق المبين وأن أي محاولة لإعادة ترتيب الأوراق وتمييزها وتسمية الأمور بأسمائها كارثة وتعطيل للقافلة فقادت هذه الأحزاب بخلطها وارتجالها هذا جموع المسلمين إلى طريق مسدود وحجبت الأمل وتجمدت في موقفها وكل حزب ديني يعلن إلى الدنيا إن كل شيء سيبقى على حاله حتى يقتنع المسلمون أن هذا الحزب ـ كل حزب ـ هو وحده الذي يملك مفاتيح الخلاص وهذه المفاتيح السحرية لا تعمل إلا إذا سلَّم المسلمون لهذا الحزب تسليماً كاملاً والكارثة أن الأحزاب الدينية العربية بالعشرات وأنها كلها تدعي نفس الادعاءات وترفع نفس الشعارات.

بيان الخلط:

الأحزاب الدينية العربية تمارس عمليات الخلط علناً دون غضاضة ولا حرج فبنفس الوقت الذي تدعو فيه بدعوة الإسلام وتنادي بتحقيق أهدافه الإلهية تعتمد الوسائل الغربية الوضعية لتحقيق هذه الأهداف مع أن الإسلام عقيدة إلهية لها وسائلها الخاصة بها ومع أن الإسلام مستغن بطبيعته عن غيره لأن الله تعالى خصه بالكمال فهو دينه الخاص ونظامه الخاص وصراطه المستقيم ثم إن هذه الأحزاب تخلط بين الدين ووقائع التاريخ وتخلط بين النظام السياسي الإسلامي وبين التاريخ السياسي الإسلامي وهي متيقنة أن النظام السياسي الإسلامي الذي اختاره الله لعباده هو نفسه الذي طبق في التاريخ السياسي الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ واستمر حتى سقط آخر سلاطين الدولة العثمانية وإن هذه الأحزاب مقتنعة أنه لا يوجد للإسلام نظام سياسي غير هذا النظام وتسمي هذا النظام بنظام الخلافة إمعاناً منها بالخلط ـ ومن المسلَّم به أن الخلافة تعني خلافة النبي ﷺ ولم تكتف الأحزاب الدينية بذلك بل إنها تسعى جاهدة لتحول هذا الخلط إلى قناعات عامة لدى المسلمين، وتحول خلطها هذا إلى هوى، واقتصرت مهمتها على تعميق عملية الخلط والالتحام بين ما ساد وحدث في التاريخ السياسي الإسلامي بعد وفاة الرسول وحتى سقوط الدولة العثمانية، وبين النظام السياسي الإسلامي كنظام،

واقتنعت هذه الأحزاب بخلطها هذا وتبنت سلبيات التاريخ وإيجابياته وأطره وأحزابه وتقييمه ونظرته، وأضافت هذه الأحزاب بعداً جديداً وخطيراً لهذا الخلط يتمثل بالعمل على تطويع النصوص الشرعية لتجميل الواقع السياسي التاريخي وإضفاء صفة الكمال عليه فإن لم تجد النصوص اللازمة للتجميل والتي تخدم خلطها وهواها جملته بفكرة الإجماع وبلغ الأمر حداً أن بعض الأحزاب الدينية العربية قد صاغت وقائع التاريخ السياسي الإسلامي بمجموعة من المواد الدستورية والقانونية وسمت هذه المجموعة بالنظام السياسي الإسلامي. ثم حولت هذه المواد إلى أسئلة وتم وضع الجواب الأمثل لكل سؤال ولا يقبل الحزب في صفوفه إلا من عرف الأسئلة وحفظ الأجوبة المثلى وبرأي علماء هذا الحزب أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا إذا عرفوا الأسئلة واستوعبوا تلك الأجوبة.

كشف الخلط:

الأحزاب الدينية العربية بقناعاتها الخاطئة تلك تستثني بالكامل عصر النبوة ودولة النبوة استثناء كاملاً فهي تسمي النظام السياسي الإسلامي بنظام الخلافة ونظام الخلافة يعني النظام الذي طبق بعد موت النبي واستمر بصور مختلفة حتى سقوط الدولة العثمانية.

مع أن نظام السياسي الإسلامي قد وجد قبل نظام الخلافة وطبق قبل أن يطبق نظام الخلافة وأنت ترى بوضوح أن الأحزاب الدينية العربية قد أخذت بالفرع وتركت الأصل واقتدت بالمأموم ـ وهي دولة الخلافة ـ وتركت الإمام وهو النبي ودولته مع أن دولة النبي هي الأصل وهي المثل الأعلى وهي نقطة الارتكاز ومع أن الرسول ﷺ هو الأسوة وهو القدوة وليس غيره. والأحزاب الدينية العربية تجهل أن ما حدث بعد وفاة النبي هو محاولة لمحاكاة دولة النبي أو محاولة جادة لتطبيق نظام الإسلام السياسي الذي طبقه النبي خلال عهده الزاهر الأمجد ومحاولة تطبيق النظام ومحاكاته ليست هي النظام لأن النظام نقطة ارتكاز ومثل أعلى نحاول أن نكونه وهو بمثابة الميزان، فالميزان شيء وما يوزن به شيء آخر. ثم إن النظام أي نظام هو مجموعة من القواعد والبنى الدستورية النظرية المتكاملة. هذه القواعد

المتكاملة شيء وتطبيقها شيء آخر وهذه أمور مع الأسف تجهلها الأحزاب الدينية العربية.

خلط الأحزاب الدينية لم يقف عند حد:

لم تكتف الأحزاب الدينية العربية بخلطها آنف الذكر بل تمادت في خلطها فأصبح كل حزب ديني عربي هو حزب الله له مرجعيته الخاصة الملهمة ومن يعارض هذا الحزب فقد دخل بصورة أو بأخرى مع حزب الشيطان وأصبح رأي كل حزب ديني عربي بقدرة قادر هو عين المقصود الشرعي الذي عناه الله ورسوله ومن يختلف مع هذا الرأي أو يشكك فيه فقد اختار الضلالة على الهدى ودخل بحرب مكشوفة مع الله تعالى يضيق صدرهم بالرأي المخالف ولا يطيقون له احتمالاً إذا أجاد أحدهم يتحول بقدرة قادر إلى العالم المجاهد وينفخ وتسلط عليه الأضواء وإذا أجاد مسلم من غيرهم استكثروا ذلك عليه وأعاقوا حركته وهم يرون أن محبتهم واجبة لأنهم دعاة الله الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وأعضاء كل حزب ديني يقومون بدور المعلم في المجتمعات العربية فيضعون إشارة(الصح) أو إشارة(الغلط) على كل جملة يقولها محدثهم وقد يكون الخلاف بالصياغة سبباً من أسباب شطب الجملة كلها وأبوابهم موصدة أمام المسلمين لا تفتح إلا بمفاتيح خاصة ولا ينال شرف رفقتهم إلا من يؤتمن على المغانم تحت شعار لهم الغنم كله لأنهم السابقون والغرم على ما سواهم من المسلمين.

الفصل الخامس

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

سفينة الإسلام:

أوضحنا أن الله تبارك وتعالى قد وضع خطة محكمة لنهضة المسلمين كلما سقطوا، ولتوحيدهم كلما تفرقوا، ولردهم إلى جادة الصواب كلما جمحت بهم الأهواء. وبيّنّا أن الركن الأول في هذه الخطة هو المرجعية، وقد وضحنا معنى المرجعية، وضرورتها، وأهميتها في كل عقيدة إلهية أو وضعية، ثم حددنا المرجعية العامة للمسلمين وكما وردت بالنصوص الشرعية القاطعة وأشرنا إلى المرجع الشرعي الخاص للمسلمين وقلنا إنه بمثابة المهندس المختص لوضع مخططات الإسلام العامة والتفصيلية لعمارة الواقع والمستقبل الإسلامي موضع التطبيق. وقلنا توضيحاً إن الإسلام بمثابة السفينة القادرة على حمل كل الراغبين بالنجاة، وأن المرجع هو بمثابة القبطان الذي يقود هذه السفينة خلال مرحلتي الدعوة والدولة معاً.

الإسلام عقائدياً:

معنى العقيدة، ومعنى المذهب السياسي:

تعني العقيدة عموماً مجموعة الأفكار والقواعد والمباديء والقيم المترابطة والمتكاملة والتي تقدم تصوراً للوجود، لما هو كائن، ولما سيكون، ولما ينبغي أن يكون، أو تصوراً للحال والمآل بغض النظر عن صحة هذا التصور أو فساده، عن شموليته أو محدوديته، عن كماله أو قصوره، فتجتذب هذه العقيدة جماعة معينة تقتنع بهذا التصور فتحدد هذه الجماعة قناعاتها وأهدافها وطرق بلوغ تلك الأهداف

وفق مقاييس تلك العقيدة، فتكون العقيدة هي القائد وهي الموجهة وهي منبع الشرعية والمشروعية في حياة تلك الجماعة وهي نبع خيرها العام. ومن الطبيعي أن كل عقيدة بهذا المفهوم تدعي القدرة على سياسة حياة معتنقيها والقدرة على تقديم الحلول الناجعة لمشكلاتهم، وتزعم امتلاك الوسيلة لتحقيق الخير العام لهذه الجماعة، وما تزال تلك العقيدة تعتمل في نفوس معتنقيها وتحرك إراداتهم حتى يقدموها كمذهب سياسي له الجاهزية على إثبات دعوى القدرة تلك من خلال سلطة تسوس الجماعة وفق تصورات تلك العقيدة. لأن المذهب السياسي هو بمثابة البرنامج السياسي المتكامل الذي تقدمه تلك العقيدة وهي إعلان عن جاهزية فكر وفلسفة ومبادىء هذه العقيدة لتوضع كلها موضع التطبيق وهو يتناول الأهداف والوسائل اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، وكل ذلك مرتبط عملياًبوجود سلطة، دولة، حكم، تتميز إرادته عن إرادة المحكومين لينقل هذا البرنامج من عالم النظر القانوني إلى عالم الواقع القانوني. وبهذا المفهوم فإن الرأسمالية التحررية عقيدة، وإن الماركسية الشيوعية عقيدة.

نوعا العقائد:

عرفت االبشرية نوعين من العقائد:

١ ـ عقائد إلهية من صنع الله.

٢ ـ عقائد وضعية من صنع فرد أو مجموعة من الأفراد.

ومن يتعمق بالموضوع يكتشف أن بإمكان الإنسان أن يفهم عقيدة ـ أي عقيدة ـ صالحة أم طالحة، ولكن الإنسان عاجز عن صنع وإيجاد عقيدة صحيحة وهو غير مؤهل لإيجادها، بل ويمكنك القول بكل ارتياح إن الجنس البشري لو اجتمع لما استطاع أن يصنع عقيدة صحيحة ويقينية، مع أن اجتماع الجنس البشري كله على صعيد واحد وفي مكان واحد غير وارد وغير ممكن، لأن إيجاد العقيدة الصحيحة اليقينية أمر فوق مستوى البشر وفوق طاقته، لأن هذا يتطلب معرفة بماضي الجنس البشري وبتفاصيل تجاربه، وهذا ركن أساسي يبنى فوقه، ويتطلب معرفة يقينية بالفطرة الإنسانية وحاجات الإنسان ودوافعه وميوله، ويتطلب معرفة يقينية بواقع الإنسان والجماعة الإنسانية، ويتطلب معرفة بالمستقبل لأنه هو الذي سيشهد نجاح أو فشل العقيدة ويتطلب معرفة بالكون المحيط بالإنسان معرفة يقينية. وهذه

المعارف لا يدعيها فرد ولا تدعيها جماعة، ولا يدعيها الجنس البشري كله. فالعقيدة التي يضعها بشر ستنهار عاجلاً أم آجلاً لسبب بسيط هو أن الإنسان غير مؤهل لإيجاد عقيدة. والعقيدة اليقينية التي تصلح أن تكون أساساً دائماً للسلطة هي العقيدة التي وضعها الله الخالق. وهي عقيدة الإسلام التي كانت بالفعل هي أساس السلطة لدولة الرسول الأعظم محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

عقيدة الإسلام:

١ ـ **على الصعيد العملي**: الإسلام هو الانقياد التام لله جلّ وعلا في كل شأن من شؤون الحياتين الدنيا والآخرة، بحيث يكون عمل الإنسان، وعمل الجماعة، وعمل الدولة وعلى كافة الأصعدة خاضعاً لموازين الأوامر والنواهي الإلهية المحددة بالرسالة الإلهية النافذة المفعول وهي رسالة الإسلام ومتجهًا لتحقيق غاياتها الشرعية. ونعني بالعمل الحركة المضبوطة بالفكرة الشرعية والنية الشرعية.

٢ ـ **على الصعيد النظري**: نعني بالعقيدة الإسلامية مجموعة القواعد والأحكام والمبادىء والأوامر والنواهي والمعلومات العامة والتفصيلية والتي أنزلهاالله تبارك وتعالى على نبيه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وقام هذا النبي ببيانها للناس نظرياً، عبر دعوة، وعبر دولة، ثم وضعها موضع التطبيق من خلال دعوة قادها بنفسه، ومن خلال دولة ترأسها بنفسه. وهذه العقيدة بمجموعها تبين كيف وجدت الحياة؟ ولماذا؟ وكيف تنتهي؟ ومتى؟ وما هي مآلاتها؟ وتنظم العلاقات بين الأحياء على الإطلاق، علاقات الكائنات الحية مع الخالق، ومع بعضها، ومع الكون الضروري لوجودها، والمسخر لخدمتها، وتبين كيفية إنتهاء دورة الحياة كلها، وكيف تنتهي الدورة الحياتية لكل كائن حي مخلوق، وتكشف عن وجود حياة أخرى، هي بمثابة قاعة محاكمة لكل الذين مروا بدورة الحياة الدنيا على ما قدموه، وهي بمثابة نتيجة، فيأخذ المصيب أجره كاملاً، ويلقى المخطىء عقابه كاملاً، وهذه العقيدة سجل حافل لتاريخ الخلق عامة، والجنس البشري خاصة، حفظت تجاربهم بصدق وموضوعية تصل إلى درجة التصوير الفني المشاهد، صوتاً، وشكلاً، وحركةً ظاهراً، وباطناً. وهي نظام للفرد كفرد وللمجتمع كمجتمع، وللسلطة كسلطة، والجنس البشري كله، تنظم حياة كل واحد

منهم على انفراد، وتنظم علاقاتهم مع بعضها وعلاقاتهم مع خالقهم، وعلاقاتهم مع العالم المحيط بهم، وترفدهم جميعاً بدعوة وتعزز الدعوة بدولة، وتعزز الدولة بأهداف ومثل عليا، وهذه العقيدة نمائية، بمعنى أنها تحدد الأهداف، فلكل قاعدة من قواعدها هدف، وجدت من أجله، ورصدت عليه، وللفرد هدف، وللمجتمع هدف، وللسلطة العقائدية هدف، وللجنس البشري هدف، هذه الأهداف كلها تصب في مكان واحد هو نفس الهدف العام للإسلام، وهذه الأهداف محددة، «ومعيرة» بشكل تعكس طوعياً كامل الطاقة الكامنة في ذات الفرد، وذات الجماعة، وذات الجنس البشري وذات الكائنات المحيطة بهم والمسخرة لخدمتهم، كامل الطاقة لا زيادة ولا نقصان، لأن الشيء لا يملك إلا طاقته، ولم تكتف العقيدة الإسلامية بتحديد الأهداف، إنما حددت أيضاً السبل والطرق اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، وبينتها على وجه يزيل كل غموض.

التصور اليقيني:

بمعنى أن الإسلام كعقيدة يقدم تصوراً شاملاً وكاملاً ويقينياً يقوم على الجزم واليقين، لما هو كائن، ولما سيكون، ولما ينبغي أن يكون في الحال والمآل. وهذا التصور اليقيني يغطي بالكامل ساحة الأهداف والوسائل العامة والخاصة وعلى كافة الأصعدة الفردية والجماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية... إلخ. وهذا التصور اليقيني هو بمثابة مخططات عامة وتفصيلية دقيقة لواقع ما هو كائن ومستقبل هذا الكائن في دائرة الواقع، وما ينبغي أن يكون عليه في دائرة المنى الذي سيتحول إلى واقع... بحيث تقودك هذه المخططات، درجة درجة وخطوة خطوة حتى تصل إلى الغاية الشرعية من أقصر الطرق وبأقل التكاليف وفي كل أمر من الأمور. عندئذ تكون العقيدة هي القائدة والموجهة وهي منبع الشرعية والمشروعية وتستقر كبنية فكرية كاملة ويدعم هذه الاستقرار القناعة الذاتية والرضى بهذه العقيدة القائمة على الجزم واليقين بعكس العقائد الوضعية التي تقوم على الافتراض والتخمين وتنهار عاجلاً أم آجلاً عندما يصطدم الافتراض والتخمين بالواقع، وسنعالج في مقالنا القادم الإسلام سياسياً.

الفصل السادس

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«حيثيات المذهب الإسلامي»

بينّا أن كل نظام سياسي قام أو سيقوم يستند بصورة محتومة إلى مذهب سياسي «أو برنامج متكامل» ينبثق بالضرورة على عقيدة تمده بالشرعية والمشروعية، وتشخص له الواقع، وتستكشف له المستقبل بواسطة منظومة فكرية تصورية تستند إلى مبادىء وقواعد وقيم بالصورة المفصلة في الفصل السابق. وقلنا إن الإسلام كعقيدة يقدم مذهباً سياسياً أو برنامج عمل متكامل يقوم على الجزم واليقين بعكس المذاهب السياسية الوضعية القائمة بالضرورة على الافتراض والتخمين. والمذهب السياسي في الإسلام قائم على تسع حيثيات متكاملة وهي بمجموعها تعكس طبيعة المذهب السياسي الإسلامي.

جولة مع تسع حيثيات للمذهب السياسي الإسلامي:

١ ـ التوحيد والابتلاء:

لأن المذهب السياسي الإسلامي هو جزء من عقيدة الإسلام، تلك العقيدة التي بشر بها كل الأنبياء الكرام وأخذت صورتها النهائية والشمولية بنبوة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعقيدة الإسلام تقوم بجوهرها على أساس فكرة التوحيد ومفادها أن الله تعالى الذي خلق الإنسان وكافة المخلوقات إله واحد لا شريك له فرد صمد، وأنه قد خلق المخلوقات ليبتليها ويمتحنها خلال فترة الحياة الدنيا كما أكد ذلك المبين **﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾**

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ وأن أبرز أنواع المخلوقات الخاضعة لعملية الابتلاء هو الإنسان بمختلف ألوانه وأعراقه وأقطاره، وإنه سيأتي يوم تموت فيه كل المخلوقات وتنتهي فيه دورة الحياة الدنيا التي وجدت للأجر والثواب وتبدأ دورة الحياة العليا «الآخرة» عندما يحيى الله المخلوقات جميعاً بعد موتها ويبعثها للحساب عما فعلته في الحياة الدنيا فيثيب ويعاقب بالعدل والقسطاس المستقيم.

٢ ـ الإنسان محور الاهتمام:

وهذا الإنسان هو محور المذهب السياسي الإسلامي، والجنس البشري طوال التاريخ كان محور الاهتمام الإلهي والرحمة الإلهية، فإليه بعث كل الأنبياء ومن خلال هؤلاء الأنبياء ومن خلال الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها علم الإنسان ما لم يكن يعلم وسخر له ما في البر والبحر وما على الأرض وما فيها وسخر له السماء وما عليها، آيات للاعتبار، ومسخرات لخدمته، ثم وضع تحت تصرف الإنسان التجربة البشرية كاملة طوال التاريخ، ورسم له أهدافاً وبيّن له الوسائل المؤدية لتلك الأهداف، وبين له كيف يصل إلى الكمال بمعدله العام ومن جميع النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية... إلخ. ومكّنه من أن يكون الناطق بلسان المخلوقات، وسوده على كافة مظاهر الطبيعة، تعطيه ولا تأخذ منه، وتخدمه ولا تستخدمه.

٣ ـ الصراط المستقيم:

وحتى لا يضل الإنسان ولا ينسى. رسم له طريق الفلاح والخير المطلق وذلك عندما وضع تحت تصرفه الصراط المستقيم أو التعاليم الإلهية اللازمة لإدارة الحياتين الدنيا والعليا، ومعنى الصراط المستقيم لغة الطريق الواضح الذي لا عوج فيه، والخطة الإلهية التي لا تحتمل الخطأ، طريق رسمه الله وخطة وضعها بنفسه تضمنت الأهداف المثلى للجنس البشري، والأساليب المثلى لتحقيق هذه الأهداف وهي من تصميم المصور لأدق تفاصيل الخلق العالم بوظيفة كل مخلوق وكل عضو من أعضائه، العالم بالظاهر والباطن، بالماضي والحاضر والمستقبل وعلمه يقيني

وقوانينه كعلمه يقينية وليست افتراضية كقوانين البشر. هذه المجموعة من القوانين الإلهية«الصراط المستقيم» تتناول الإنسان كله من اللحظة التي يقذف فيها بالرحم كنطفة مروراً بكل أطوار الخلق والتكوين، إلى أن ينفصل عن أمه ويستقل بكينونته ثم يبلغ أشده ثم يبدأ بالنكس والتراجع ثم يموت. وتتناوله بكل جوانبه المادية والروحية والعقلية والجسدية والواقعية والمستقبلية، الشخصية والاجتماعية... إلخ. لا يفرط أي ناحية من نواحي حياته. وهذا الصراط المستقيم يتكون من مقطعين:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ والسنة النبوية بفروعها الثلاثة: القول والفعل والتقرير، ومن جملة مشتملاته أخبار الأمم السابقة وتجاربها طوال التاريخ. وهذا الصراط بمجمله مجموعة قواعد حقوقية أساسها الكلمة ومن حيث النتيجة لا تختلف عن القواعد الموضوعة موضع التطبيق بأي دولة من دول العالم. لكن فن الصياغة مختلف تماماً كاختلاف المضمون وهذه القواعد لم تبق قواعد نظرية إنما طبقت تطبيقاً كاملاً في مجتمع دولة الإيمان الذي قاده محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم جاءت ظروف وانتزعته من واقع الحياة بنداً بنداً وقاعدة قاعدة حتى لم يبق منه إلا الشكل والإطار العام. حيث تفكك نهائياً بسقوط الدولة العثمانية هذه القواعد وضعها الخالق لأن التشريع منحصر به أما التنفيذ فمن صلاحية المخلوق.

٤ ـ عالمية المذهب السياسي الإسلامي وكونيته:

الإسلام معني بالجنس البشري كله، لأن الناس جميعاًمن أب واحد هو آدم ومن أم واحدة هي حواء لا فرق بين عرق وعرق ولون ولون وقوم وقوم بدليل قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾** وقوله تعالى: **﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾** وتتجلى عالميته من حيث مدى دعوته فالإسلام لم يأت للعرب وحدهم إنما جاء للجنس البشري كله وهداية الجنس البشري وإقامة الحجة عليه هي محور دعوته وغاية هدفه. وتتجلى هذه العالمية بنظرته للديانات السماوية فهو يرى أنها بمعناها الحقيقي الأصيل جزء من عقيدته، ومرحلة في دعوته وفصل من شريعته، جاء ليصدقها كلها ويهيمن عليها كلها، وينسخها كلها على اعتبار أن الانقياد لله والتبعية له وحده هو محور كل الديانات السماوية، وأن الإسلام بهذا المعنى هو شرع

الجنس البشري وقانونه النافذ فطالما أن الشعب واحد وهو الجنس البشري فمن الطبيعي أن تكون الشريعة واحدة، ومع هذا فإن الإسلام لا يجبر أحداً على اتّباعه إلا برضاه لأن الإجبار ينفي الثواب وينفي العقاب وتتجلى عالمية الإسلام بعمومية الشريعة والأحكام لأن قواعده العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية... إلخ مصاغة بالأصل ومعدة لتكون عالمية وليحتكم إليها كل الناس على مختلف مشاربهم وأهوائهم ونزعاتهم، وتتجلى كونية الإسلام من حيث عنايته بكل ما له علاقة بالجنس البشري وما يؤثر على حياة هذا الجنس فكل مظاهر الخلق من سماء وأرض وتضاريس وحياة وموت هي آيات ربانية تحفز العقل البشري على التفكر والربط والإبداع وكلها خادمات مسخرة للإنسان فالمذهب السياسي الإسلامي معني بذلك كله لأنه برنامج كامل.

٥ ـ إقامة حكم في الأرض:

النبي سبيل الله والصراط المستقيم أو القواعد الحقوقية التي يتضمنها الإسلام هي شرع الله وبإقامة حكم الله في الأرض وتطبيق شرعه يتحرر الإنسان من حكم الطبقة التي تشرع ومن حكم الفرد الذي لا يلتزم إلا بهواه ويتمثل إقامة حكم الله بقيام دولة على أساسه ثم تطبيقها لشرعه وإقامة حكم الله في الأرض هو الذي يفرق بين مجتمع الإيمان وغيره فمجتمع الإيمان يحكم بما أنزل الله وغيره يحكم بالعقل أو بالهوى أو بهما معاً ويترتب على إقامة حكم الله في الأرض: تكوين دولة الإسلام المثلى لتكون بسلوكها دعوة عملية لتقليص رقعة الكفر والضلالة لأن الأرض لا تتسع إلا لدارين دار الكفر بكل مفاهيمه ونظمه ويحكمها العقل أو الهوى أو هما معاً. ودار الإسلام بمفهومه الواضح الوحيد ويحكمها شرع الله. فإذا طبقت الدولة الإسلامية شرع الله بدقة تحقق آلياً النتائج التالية:

١ ـ إقامة العدل.

٢ ـ تتحقق المساواة بالكرامة الإنسانية والمساواة أمام القانون والمساواة بمستوى المعيشة بين الحاكمين والمحكومين.

٣ ـ وتتحقق المشاركة بين الأمة والحكام عن طريق البيعة والشورى والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ ـ وتتحقق الحرية بكل أشكالها ومضامينها ويغدو بإمكان أي إنسان أن يقول رأيه بمواجهة أي كان حتى ولو كان النبي نفسه دون أن يترتب على قول هذا الرأي أي لوم أو عقوبة ويترتب على ذلك إنقاذ الجنس البشري عن طريق تخليص الناس من قبضة الطغاة وتحريرهم من أنظمة الهوى.

٥ ـ وتعم الرحمة كافة المخلوقات في هذا العالم وعلى رأسهم الجنس البشري كله.

٦ ـ المذهب السياسي الإسلامي يقوم على المشاركة:

يقوم المذهب السياسي الإسلامي على أساس المشاركة بين العقيدة والسلطة ومجتمع الإيمان فالله سبحانه وتعالى بحكم معرفته اليقينية بالماضي والحاضر والمستقبل وحاجات الإنسان وفطرته اختص بتشريع القواعد الأساسية التي تحكم حركة العقيدة، وحركة السلطة، وحركة المجتمع المؤمن، وحركة الأفراد فيه فأساس العملية التشريعية محصور بالله عز وجل.

لكن تنفيذ وتفعيل هذه القواعد التشريعية هو من اختصاص الفرد المؤمن بالدرجة الأولى، والجماعة المؤمنة بالدرجة الثانية، والسلطة المؤمنة بالدرجة الثالثة فأساس العملية التنفيذية محصور بالفرد، والمجتمع والسلطة كل ضمن الإطار المحدد له بالشريعة. وتتجلى حالة المشاركة بتكوين السلطة التي ستتولى تطبيق قواعد الشريعة فنقطة الارتكاز في المذهب السياسي الإسلامي بعد الشريعة هو الإمام. فإذا عين الإمام بطريقة صحيحة انعكست هذه الصحة على كافة أساسيات المذهب الإسلامي وإذا وقع خلل في تعيين الإمام انعكس هذا الخلل على المذهب السياسي والنظام السياسي وما يزال يعمل ويعمل حتى يتحول النظام إلى هيكل عظمي أو إلى شكل بغير مضمون، تلك أمور لم يفهمها للآن أولئك الذين يدعون بدعوة الإسلام، لأنه إذا حلت عقدة في الإسلام فبالضرورة ستحل العقدة التي بعدها وهكذا حتى تحل كل العقد الإسلامية ويرتفع من الحياة وتسود الأمة الإسلامية حالة من الضياع وفقدان الهوية. وأهم ما في سلطة الإسلام تنصيب الإمام لأنه هو الذي يعين ولاته ووزراءه ومساعديه. فالله سبحانه وتعالى هو الذي اختار

محمداً ليكون نبياً وبنفس الوقت رشحه ليكون للأمة ولياً أي إماماً أو رئيساً للدولة. لكن الترشيح الإلهي لمحمد لا يجعله إماماًأو رئيساً للدولة فقد يصبح محمد إماماً عندما تبايعه الجماعة المؤمنة فالإمام يتحقق وجوده الشرعي بتوافر ركنين إذا انتفى ركن منهما تهدمت الشرعية وتعذر عليه ممارسة مهام منصبه:

١ ـ ترشيح إلهي أواختيار إلهي.

٢ ـ مبايعة الجماعة المؤمنة له. وهذه المبايعة تعني موافقة الجماعة على هذا الاختيارالإلهي، ومشاركتها بتنصيب الإمام.

وهذا بالضبط ما حدث برئاسة دولة طالوت، ودولة داود، ودولة سليمان ودولة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) فقد رشح الله محمداً وبايعته الجماعة المؤمنة بالإجماع صغيراً وكبيراً، ذكراً وأنثى، وكلهم رضوا به حاكماً وأظهروا هذا الرضى دون إكراه بما فيهم القلة المنافقة. وهذا هو المقصود بالمشاركة بتعيين السلطة وتكوينها على اعتبار أن تنفيذ القاعدة الشرعية عمل تعبدي وقدر مشترك بين الله والسلطة والأمة والفرد، فالفرد ينفذ القاعدة الشرعية التي لا علاقة له بوضعها بصورة طوعية وبدون تدخل السلطة، فإذا لم ينفذ الفرد هذه القاعدة الشرعية المختص بتنفيذها يأتي دور السلطة لتحثه على تنفيذ القاعدة بالقدر اللازم لهذا التنفيذ وبحدوده وبأقل التكاليف تأخذ منه مقدار الزكاة مثلاً دون زيادة أو نقصان فقط. لكنها لا تستطيع أن تنزل به عقوبة. وباختصار شرع محدد لكل أساسيات الحياة بحكم السلطة والجماعة والأفراد وتقوم الحياة السياسية فيه على أساس المشاركة بين الأفراد والسلطة والجماعة لتنفيذ هذا الشرع فلكل دوره ولكل دائرته فلا بغي ولا عدوان ولا عسف ولا طغيان.

٧ ـ نشدان الكمال:

المذهب السياسي الإسلامي بمضمونه يستنهض كافة جوانب الحياة في المجتمع الذي يحكمه لتصل إلى مرتبة الكمال ولأقصى حدود الطاقة فإذا تجاوز جانب حد طاقته أوقفه هذا المذهب لأن تجاوز الطاقة مهلكة وله مردود سلبي. فعلى صعيد التشريع يضع المذهب السياسي الإسلامي تحت تصرف الأمة قواعد

صالحة لكل زمان ومكان لا تحتمل الخطأ وتؤدي لغاياتها من أقرب الطرق وبأقل التكاليف قواعد يقينية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل بتبدل الأنظمة والأمزجة والحكام، ومن هنا كان التشريع الإلهي حجر الأساس في نشدان الكمال، وهو الأساس الذي يبنى فوقه، وصدور التشريع من الله يجعله حقيقة ثابتة وأساساً متيناً تستشعر الجماعة كماله وأنها خاضعة لله وملتزمة بأحكامه وأنها لا تخضع لفرد ولا تخضع لهيئة وهكذا يتحقق كمال النظرة إلى التشريع كأساس يبنى فوقه.

وعلى صعيد التنفيذ تبرز خاصية نشدان الكمال الفرد والجماعة والسلطة كلها معنيون بتطبيق الشريعة الإلهية وتنفيذها لأن مصلحة الجميع تتحقق بذلك التنفيذ وعلى وجه الدقة والكمال. وتجد أحياناً أن مفاهيم الأفراد للنص مختلف باختلاف سعة علمهم ولكنهم متفقون على أنّ الفهم الحقيقي للنص هو عين الفهم الذي أراده الله واضع النص. ومع هذا فلا حرج على الفرد من أن يجهر بفهمه. وبهذه الحالة يسمع الإمام كل فهم ويحترمه ثم يعلن تبنيه لفهم معين وينفذ. لماذا كانت كلمة الإمام هي الفصل؟ لأن الله اختاره، ولأنه معتصم بالله وهو الأفهم بالشريعة. لماذا يتوجب على الأمة أن تقتنع بهذا الفهم الذي أعلنه الإمام؟ للأسباب التي ذكرناها وثانياً لأن الأمة بايعته على السمع والطاعة ورضيت به. وثالثاً لأن عرض الأفهام ليس غاية إنما الغاية الحقيقية هو معرفة مقصود الشرع ومقصود الشرع هو حد الكمال. وهكذا تلاحظ أن نشدان الكمال هو غاية مشتركة بين الله والجماعة والفرد والسلطة في ظلال المذهب السياسي الإسلامي.

ويتجلى نشدان الكمال في اختيار الإمام. الجماعة المؤمنة تبحث عن أفضل مؤمن يمكن ائتمانه على الشرع وائتمانه على الجماعة التي ارتبط مصيرها بدقة تطبيق هذا الشرع. أي شخص يستطيع أن يظهر عكس ما يبطن والجماعة بحاجة لمن يقول لها من هو الأفضل؟ من هو المؤتمن على الشرع؟ من هو القادر على قيادة سفينة المجتمع بدقة؟.

فالله جلّت قدرته هو وحده الذي يملك الأجوبة الصحيحة على هذه التساؤلات ورحمة بالجماعة وحتى لا تضل يقدم لها الإمام، يختاره، يرشحه، فإذا قبلت الجماعة المؤمنة باختيار الله فقد اهتدت وطرقت الكمال من أوسع الأبواب،

عندئذ تبايع من اختاره الله ويصبح قائدها وإمامها بعد البيعة وإذا اعتمدت الجماعة المؤمنة على قناعتها أو عقلها أو أهوائها وبايعت شخصاً آخر غير الذي اختاره الله فالشخص الذي بايعته هو حاكمها الفعلي أما الشخص الذي رشحه الله ورفضته الأمة فلا سلطان له عليها لأنه باختصار لا يستطيع أن يقود جماعة لا تريده ولا تقبل به قائداً. وغني عن البيان أن رفض الأمة ينافي خاصية الكمال وبنفس الوقت يهز العقيدة هزاً ويحل عقدة من نظام الإسلام تتبعها بالضرورة كل عقدة.

٨ ـ إزدواجية الزاجر:

إن إيمان الفرد بالعقيدة الإسلامية والمذهب السياسي الإسلامي يخلق زاجرين أو رقابتين:

١ ـ رقابة ذاتية، تدفع الإنسان ليقوم بما عليه طمعاً برضوان الله دون أن يحوج الدولة على التدخل.

٢ ـ رقابة السلطة التي تتدخل عند يأسها من التنفيذ الطوعي.

وهكذا يحمي النص الشرعي والغايات الشرعية زاجران، الأول: ذاتي وهو أقواهما وأولاهما، والآخر: سلطوي وهو بمثابة احتياط.

٩ ـ وحدة الغاية:

في ظلال المذهب السياسي الإسلامي تتوحد الغاية، فغاية الفرد، وغاية الجماعة وغاية السلطة واحدة وهي بالمحصلة رضوان الله تبارك وتعالى ومساعدة الخلق على النجاح بعملية الابتلاء، ورضوان الله يتحقق ويتناسب طردياً مع دقة تطبيق العقيدة الإسلامية والمذهب السياسي الإسلامي. وبهذا ننهي هذا الفصل ولله الحمد.

الفصل السابع

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب
لكي نفهم النظام السياسي الإسلامي

مفهومـه:

النظام السياسي الإسلامي جزء من عقيدة الإسلام، وركن من أركانها، وعضو مهم في ذاتها وكيانها، فالعقيدة الإسلامية قدمت مذهبها السياسي الذي هو بمثابة برنامجها الكامل والمتكامل لإدارة الحياة والأحياء في مجالي الفكر والعمل، ولتكتمل الحلقة قدمت نظامها السياسي ليكون الأداة المشرفة والمنفذة لهذا البرنامج، ففي ظلال النظام ومن خلاله وتحت إشرافه تتم عملية التميز بين الأمة الإسلامية وبين غيرها وتتم عملية ترجمة النصوص الشرعية من النظر إلى التطبيق، ومن المنى إلى الواقع، ومن الكلمة إلى الحركة. ويمكن القول بكل ارتياح إن النظام السياسي الإسلامي في جانبه الأكبر يغطي تماماً ظاهرة السلطة في الإسلام، ما هي الغاية من وجودها؟ وما هي حدودها، وكيف تتكون هذه السلطة؟ وما هي اختصاصاتها؟ وما هو دور الشرع ودور الأمة ودور الفرد في تكوين السلطة ومراقبتها ومحاسبتها والمشاركة فيها؟ وما هو دور القوى الخفية والظاهرة التي تعمل في إطار اختصاصه... إلخ.

ضبط النظام وتحديده:

النظام السياسي الإسلامي هو تلك البنية الفكرية والحقوقية الكاملة والمتكاملة والتي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ والتي بيّنها هذا النبي الكريم خلال

مرحلتي الدعوة والدولة معاً وقام بتطبيقها عملياً خلال مرحلة الدولة التي ترأسها بنفسه مدة عشر سنين، وخلال عهده الأمجد الزاهر تم تطبيق هذا النظام وبالتصوير الفني البطيء. ولم ينتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه إلا بعد أن وضح كل شيء يتعلق بالنظام السياسي الإسلامي فتركه كاملاً.

الفهم الخاطىء:

تمّ بحث النظام السياسي الإسلامي قديماً وحديثاً ووضعت فيه مئات الأبحاث والمؤلفات. وكلهم قد أجمعوا على أن النظام السياسي الإسلامي الذي اختص الله به عباده المؤمنين هو نظام الخلافة الذي طبق بعد وفاة النبي ﷺ بدءاً من الخلافة الراشدة وانتهاء بسقوط آخر خلفاء بني عثمان، وهم يعتقدون أنه لا يوجد في الإسلام إلا هذا النظام ومن هنا فقد اقتصر دورهم على تمجيده ووصفه وتبريره وتطويع النصوص الشرعية لإضفاء صفة الكمال عليه وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وذلك هو مبلغهم من العلم. والحقيقة أن النظام السياسي الإسلامي وجد وطبق مدة عشر سنين قبل أن يعرف نظام الخلافة وهذا النظام هو المثل الأعلى وهو القدوة لأن النبي هو القدوة والإمام وما عداه مأموم ولأنه الأصل وما عداه فرع. والخلاصة أن إخواننا الكرام قد انطلقوا في بحوثهم من منطلقات خاطئة فاقتدوا بالمأموم وتركوا الإمام وهاموا بالفرع وتركوا الأصل ولعل السبب في ذلك هو أنهم قد تربوا علمياً في ظلال بنى فكرية تقدم القوة والغلبة على الشرعية والمشروعية وتقوم على أساس التقليد الأعمى والظن وما تهوى الأنفس.

الكمال المطلق للإسلام ونظامه:

قلنا إن النظام السياسي الإسلامي هو جزء من الإسلام لا يتجزأ. والإسلام قد وضع حكماً لكل شيء، ونظامه السياسي غطى بالكامل ظاهرة السلطة ومساحة العمل السياسي وعلى كل حصيد لأنه جزء من الإسلام ومخصوص بالكمال ومزود بخاصية الاستغناء عن غيره، ولولا أن نرمي بالإطالة لأوردنا مئات الأدلة على كل جملة قلناها ويكفي أن نذكر بقوله تعالى مخاطباً النبي ﷺ: **﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً**

لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (النحل الآية: ٨٩) ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ (الأعراف الآية: ١٤٥). ثم تدبروا قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (المائدة الآية: ٣). وهو كمال مطلق يغطي كل شيء على الإطلاق من حيث المدى بما فيه طريقة التبول والتغوط. وهو كمال مطلق من حيث الدقة والصحة واليقين. تلك أم الحقائق من فاتته فقد فاته الإسلام ومن جهلها فقد جهل الإسلام مهما علت مرتبته العلمية.

وضوح الإسلام ونظامه السياسي:

للتصور اليقيني الذي يقدمه الإسلام ونظامه السياسي يغطي بالكامل ساحة الأهداف والوسائل الخاصة والعامة وعلى كافة الأصعدة وهو بمثابة أدلة مصورة أو مخططات عامة ومفصلة لكل ما هو موجود وما سيجد في دائرتي المنى والواقع، الفكر والتطبيق، العسر واليسر، بحيث تقودك تلك الأدلة أو المخططات الإلهية درجة درجة وخطوة إثر خطوة حتى تلج إلى لب الغاية الشرعية من أقصر الطرق وبأقل التكاليف ويحقق لك النقلة النوعية نحو الكمال وبغير رجة ولا هزة وكأنه تتبع خطوة. وعلى صعيد النظام السياسي خاصة فإن النبي وبالتصوير البطيء المشاهد صورة وحركة وصوتاً غطى عملياً ظاهرة السلطة وبناها وتبينت أدق تفاصيلها ولو تركنا التقليد والخلط وما تهوى الأنفس لكان بالإمكان فهم النظام السياسي الإسلامي وتقديمه للعالم كحل جذري لكل مشكلاته. ولكن كيف يتسنى ذلك وعلماؤنا أنفسهم يجهلون هذا النظام ولا يعرفونه وما زالوا يخلطون بين النظام السياسي كنظام وبين التاريخ السياسي.

الشرعية والمشروعية:

الشرعية والمشروعية في الإسلام لا تتحقق إلا بالإيمان الحقيقي بروحه ومنتهاه يتوقف على أمرين لا ثالث لهما:

١ ـ التحكيم الكامل لحكم الله الوارد في الإسلام وعلى كل الأصعدة ومن قبل الجميع.

٢ ـ التسليم الكامل لهذا الحكم الإلهي، بدليل قوله تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾** (النساء الآية: ٦٥). وغني عن البيان أن حكم الله ينبع من مصدرين القرآن الكريم والسنّة المطهرة بفروعها الثلاثة القول والفعل والتقرير. ومن نافلة القول أن نكرر أن النبي لم ينتقل إلى جوار ربه إلاّ بعد أن بيّن القرآن ونقله من النص إلى التطبيق. ومن هنا فإنّ الشرعية والمشروعية بهذا المفهوم هي الحكم والحكم. «بالفتح والضم».

تبعية القوة للشرعية:

تأتي الشرعية بمعناها الآنف الذكر أولاً، ثم يأتي كل شيء بعدها. الشرعية تضع القوة والغلبة. لكن القوة والغلبة نفسها مبرمجة بالشرعية ومشكومة من قبلها. والشرعية هي التي تتصرف بهذه القوة وتوجهها ضمن إطار الشرعية. فستبقى القوة والغلبة توابع للشرعية ومبرمجة بالموازين الشرعية وطوال فترة حكم النبي ﷺ كانت الشرعية هي القائدة وهي الموجهة. وكانت القوة والغلبة مجرد جنود أو توابع محكومة لهذه الشرعية. وعندما تتحول القوة والغلبة إلى قائدة وتتحول الشرعية إلى تابعة عندئذ تختل الموازين وتنحل عقدة الإسلام وينفصل النظام السياسي عن الإسلام تماماً.

الهيئة التأسيسية:

ما أنزل الله كتاباً إلا على عبد، وما بعث الله رسالة إلا برسول يتولى نقل الرسالة وبيانها. لأنه يبدو أن هنالك صلة عضوية بين الهادي والهداية وبين الرسول والرسالة وبين الكتاب والعبد ويبدو متعذراً إن لم يكن مستحيلاً بيان الكتاب دون عبد وإيصال الرسالة وتبلغيها دون رسول وإشاعة فكرة الهداية دون هاد. لقد مات كل الأنبياء وختمهم بمحمد ﷺ وتوج رسالاتهم برسالته. من يبين بعده؟ من يحرس فكرة الشرعية؟ من يقطع دابر الخلاف؟ من يدل الأمة على طريق السوي إذا تعددت الطرق؟ من الذي يمنع الأمة من أن تضل؟ من الذي سيزود الأمة بالقائد الموثوق بدينه، المأمونة بوائقه ليقودها في ظلال الشرعية والمشروعية؟ الله جلت

قدرته رحم هذه الأمة وساعدها على تحقيق ذلك كله عن طريق ما يمكن أن نسميه بالهيئة التأسيسية والهيئة التأسيسية هي العترة الطاهرة. لأنهم أفضل الناس بالنص الشرعي وأوسطهم بالنص الشرعي.

ما هو الدليل على أن العترة الطاهرة هي الهيئة التأسيسية؟:

الدليل القاطع هو حديث الثقلين وهو قوله ﷺ: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

وقد أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر ونقله عنهما المتقي الهندي في ج١ ص٤٤ من الكنز وقوله ﷺ: «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما» أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم. وقد أخرج مثله الإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت بطريقين صحيحين في أول صفحة ١٨٢ الثاني في آخر صفحة ١٨٩ ج٥ من مسنده وأخرجه ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن سعد عن أبي سعيد(راجع الحديث ٩٤٥ من الكنز ج١ ص٤٧) وقوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» أخرجه الحاكم في ص١٤٨ ج٣ من مستدركه ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على طريق الشيخين ولم يخرجاه، وأخرجه الذهبي في تلخيصه معترفاً بصحته. ومثله:

ما أخرجه الإمام أحمد في آخر الصفحة ١٧وآخر الصفحة ٢٦ ج٣ من مسنده وما أخرجه الحاكم في مستدركه ص ١٠٩ج٣وص٥٣٣ ج٣ وما أخرجه الطبراني وما جاء في باب ٩ فصل ٢ من الصواعق المحرقة لابن حجر وص١٥١ج٣ من المستدرك للحاكم... إلخ.

ويساعد الإفهام أن نذكر قول رسول ﷺ: «النجوم أمان لأهل الأرض وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف فإذا خالفتها قبيلة من قبائل العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» أخرجه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس ج٣ ص١٤٩ ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد. وحتى لا ينسى المسلمون هذه الهيئة التأسيسية

فرض الله عليهم أن يصلوا وأن يسلّموا على أعضاء هذه الهيئة التأسيسية في كل صلاة مفروضة «اللهم صل على محمد وآل محمد... وبارك على محمد وآل محمد...» لكن سبحان الله فإن الهوى لا دواء له.

الشرعية تتلقى لطمة يوم الرزية:

خلال دولة النبوة تحقق وطبق النظام السياسي الرباني كله. وطبقت الشرعية تطبيقاً مثالياً وسادت. وكانت القوة تضع وفق الشرعية، والغلبة تتحقق ضمن الشرعية وبوسائلها وكانت القوة والغلبة مجرد توابع للشرعية.

خيّر النبي فاختار ما عند الله وبدأت رحلة الاختيار بالمرض ولازمه الوحي كما يذكر ابن سعد في ج، ص١٩٣ من الطبقات وأشفق النبي على أمته من الضلالة والاختلاف فأراد أن يؤمنهم ضد الضلالة والاختلاف بكتاب خطي، فقال لمن حوله: «قربوا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً». فانقسم الحاضرون إلى فريقين، فريق يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلوا بعده أبداً. والفريق الآخر يقول: عندنا كتاب الله ولا حاجة لنا بالكتاب وبأهون الأقوال «إن المرض قد اشتد برسول الله. فاختلفوا وما ينبغي عند نبي خلاف فغضب النبي وقال لهم قوموا ما أنا فيه خير مما أنتم فيه».

يوم الرزية:

ويسمي ابن عباس هذا اليوم بيوم الرزية، وما حدث فيه كانت لطمة هائلة للشرعية تركت مفاعيلها على النظام السياسي الإسلامي كله. ولتتفضل الأحزاب مجتمعة ومنفردة وليتفضل علماء الإسلام من العرب فينفوا هذه الحادثة أو يعتذروا عنها فقد كانت كما قيل بحق «بائقة الدهر وقاصمة الظهر».

الأدلة القاطعة:

وحتى لا يكن في صدوركم حرج مما ذكرت فيمكنكم مراجعة كتاب المرضى من صحيح بخاري وص ٢٢ ج١ من صحيح بخاري وص ٣٢٥ ج١ من مسند الإمام أحمد وكتاب السقيفة للجوهري وص ١٨٨ ج٢ من صحيح بخاري وص ٣٥٥ ج١

من مسند الإمام أحمد وص ٢٢٢ ج١ من صحيح مسلم وراجع الطبراني ص١٣٨ ج١ من الكنز وص ٢٠ مجلد٣ ص ٢ سطر٢٧ من شرح النهج لعلامة المعتزلة ابن أبي الحديد وقد نقله بسنده المعتبر عن الإمام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر من تاريخ بغداد.

وراجع ص٣٦٤ ج٣ وج١٩٣ من الطبقات... إلخ.

بعد مغيب الشمس:

تصعد روح النبي الطاهرة إلى بارئها الحق... وتميد الأرض من تحت أقدام الذين آمنوا فهي في حالة رجفان مستمر على حد تعبير الزهراء البتول عليها السلام: (السيرة الحلبية باب وفاة الرسول ﷺ) واتحد الصحابة الكرام لمواجهة حروب الردة مجتمعين واستقامت أمورهم... ثم بدأت مفاعيل اللطمة التي وجهت للشرعية يوم الرزية، وبدأت عرى الإسلام سياسياً تحل عروة إثر عروة لكن الأمور كانت تحت السيطرة بسبب عدالة الصديق والفاروق وحزمهما واستقامتهما وإلفة القلوب لهما وعزوفهما عن متع الحياة وانتشار الفتوحات.

قيادة القوة وتبعية الشرعية لها:

وقويت شوكة بني أمية في أواخر عهد عثمان وسطع نجم معاوية بن أبي سفيان عميدهم آنذاك واستعمل معاوية بشر بن أرطأة وبعثه إلى اليمن وأمره أن يقتل كل من كان في طاعة علي عليه السلام حتى الأطفال كما فعل بطفلي عبيد الله بين العباس بن عبد المطلب وكانا غلامين صغيرين وألقى الرعب في قلوب الصحابة الكرام وأذلهم، راجع ص٢٨٢ ـ ٢٨٣ من نظام الحكم للقاسمي وص١١٣ و١١٧ و١١٨ و١٣٩ ج٥ من تاريخ الطبري.

وعندما شارف معاوية على الموت عين من الناحية الفعلية ابنه يزيد خليفة من بعده وأوصاه «إذا ثار أهل المدينة فأرسل إليهم مسلمة بن عقبة» وثار أهل المدينة. فنفذ يزيد وصية أبيه وأرسل مسلمة بن عقبة ومعه مروان بن الحكم. مروان يؤشر وعقبة ينفذ ويعدم بغير رحمة وفي ذلك اليوم الأسود أبيد من حضر من البدريين

بالكامل وأبيد من قريش ومن الأنصار ٧٠٠ رجل وأبيد من الموالي والعرب عشرة آلاف. واستتب الأمر نهائياً لبني أمية بعد قتل الولي علي وسيدا شباب أهل الجنة في الجنة الحسن والحسين عليهم السلام وتراجعت الشرعية لتفسح المجال للقوة والغلبة وأصبحت القوة او الغلبة هي القائدة وهي الموجهة وتحولت الشرعية إلى تبعية للقوة والغلبة.

تتويج القوة لقيادة الشرعية وإعلان تبعية الشرعية للغلبة:

ذكر أبو يعلى الفرا فقال: روي عن الإمام أحمد ما دل على أن الخلافة تثبت بالغلبة والقهر ولا تفتقر إلى العقد فقال في رواية عبدوس بن مالك العطار: «من غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً براً كان أم فاجراً» وقال أيضاً في رواية أبي الحارث: في الإمام يخرج عليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم(تكون الجمعة مع من غلب). واحتج بأن ابن عمر صلى بأهل المدينة يوم الحرة وقال «نحن مع من غلب». ألا ترى كيف انتهت الأمور واقعياً بالنظام السياسي الإسلامي فعلى الأمة أن تبايع الغالب بغض النظر عن دينه وصفاته وبغض النظر عن موقف الشرعية منه وموقفه من الشرعية. (راجع ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ من نظام الحكم للقاسمي).

الفصل الثامن

نظام الخلافة بين الحقائق والأوهام

١ ـ دواعي هذه الدراسة:

الأحزاب الدينية العربية، والأكثرية الساحقة من عشاق إعادة النظام السياسي الإسلامي إلى مسرح الحياة لخصوا أهدافهم السياسية بشعار واحد وهو: « العمل على إعادة نظام الخلافة الإسلامية التاريخي» على اعتبار أن نظام الخلافة هو نظام الإسلام السياسي الأوحد، وهو يمثل المعالجة الإسلامية المثلى لظاهرة السلطة من جميع نواحيها. ولأكثر من سبب تحول هذا الشعار إلى قناعة عامة يؤمنون بها لاعتقادهم أن عدم الإيمان بها مخالفة صارخة لله تبارك وتعالى، ونبذ لحكمه ودعوة ضمنية لحكم الجاهلية، وترك حكم الله واختيار حكم الجاهلية كفر وظلم وفسوق. ومن الطبيعي أن هذا مبلغهم من العلم، وهم يحملون هذا الشعار فوق ما يحتمل ويؤكدون أنه بمجرد إعادة نظام الخلافة سيتغير كل شيء تماماً وسيدخل المسلمون والعالم في معيشتهم عصراً جديدًا لا شقاء فيه ولا نصب ولا نكد. وعماد الدين النصحية، والإصلاح ضمن طوق الاستطاعة أقل مراتب التكليف، ثم إن أصحاب هذه القناعة الغلابة أخوتي، وأنا واحد من عشاق إعادة النظام السياسي الإسلامي إلى مسرح الحياة، ولكنني لا أرى رأيهم، وغايتي هي الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله.

٢ ـ ما معنى نظام الخلافة؟:

نظام الخلافة: هو النظام الذي حكم الأمة الإسلامية من بعد وفاة

الرسول ﷺ واستمر بصورة مختلفة حتى سقوط آخر سلاطين بني عثمان. وهو يعني قيادة ظاهرة السلطة ونمط سياستها وإدارتها إبان هذه الفترة، وحتى لا يكون في صدر القارىء الكريم حرج من هذا التحديد، يمكنه الاطلاع على كتاب الشخصية للمرحوم تقي الديبي النبهاني وكتاب نظام الإسلام وهذا هو رأي حزب التحرير ويمكن أيضاً قراءة النظام السياسي في الإسلام للسيد محمد عبد القادر أبو فارس وقد تبنى الأخوان المسلمون في الأردن هذا الكتاب.

٣ ـ معنى نظام الخلافة في اللغة والتاريخ:

الخلافة لغة تعني النيابة عن الغير، راجع مفردات الراغب مادة خلف، والخليفة من يقوم مقام الغير ويسد مسده راجع نهاية اللغة لابن الأثير ولسان العرب لابن منظور مادة خلف، وهي باختصار تعني خلافة النبي، وقد روى السيوطي في تاريخه ص ١٣٧ـ ١٣٨ ـ بسنده المعتبر عن العسكري في الأوائل والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك أن عمر بن عبد العزيز سأل أبا بكر بن سليمان بن حتمه: لأي شيء كان يكتب من خليفة رسول الله في عهد أبي بكر ثم كان عمر كتب أولاً من خليفة أبي بكر... وروي عن النووي في تهذيبه... كان يقال لعمر خليفة خليفة رسول الله فعدلوا عن تلك العبارة لطولها، ويبدو أنهم في العهدين الأموي والعباسي عنوا«بكلمة» الخليفة خليفة الله تعظيماً لشخصية الخليفة ومبالغة بإعلان الولاء له. فقد قال الحجاج في خطبة صلاة الجمعة«فاسمعوا وأطيعوا لخليفة الله وصفيه عبد الملك بن مروان» ويمكن لمن أراد التأكد من صحة ذلك الرجوع إلى سنن أبي داود ج٢ ص ٢١٠ ح٤٦٤٥ باب في الخلفاء. أما في العصر العباسي فقد قيل في مجلس المهدي العباسي إن الخليفة الأموي كان زنديقاً عندئذ قال المهدي: «خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها في زنديق» وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه ج١٠ ص٧ ـ ٨ أما في العصر العثماني فقد استعمل اصطلاح خليفة وأريد به خليفة رسول الله حتى صار لفظ الخليفة اسماً لسلطان المسلمين الأعظم راجع المعجم الوسيط مادة خلف وكتابنا النظام السياسي في الإسلام ص٦ وما فوق.

٤ ـ ما معنى النظام السياسي في الإسلام؟:

هو مجموعة القواعد والأحكام المتعلقة بظاهرة السلطة التي طبقها

النبي ﷺ على علاقته بتابعيه إبان الدعوة التي استمرت ١٣ عاماً ثم طبقها في عصر الراشد بعد أن تحولت الدعوة إلى دولة وذلك خلال رئاسته المباركة والتي استمرت عشر سنين، وقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى أكمل الله الدين وأتم النعمة وبيّن كل شيء على الإطلاق وأمره أن يعلن هذا الكمال والتمام والبيان وأعلنه بالفعل، وباستقراء هذا النظام نجد أنه نظام إلهي معد ومصاغ من قبل الله تبارك وتعالى ليكون النظام العالمي الأمثل لعالم أمثل، ولم يبق هذا النظام مجرد قواعد وأحكام نظرية. إنما تم نقله من الكلمة إلى الحركة ومن النظر إلى التطبيق. وبالتصوير الفني البطيء عبر دعوة قادها النبي بنفسه وعبر دولة قادها النبي بنفسه.

٥ ـ أركان هذا النظام:

نسوق أركانه إجمالاً على أن نعود إلى تفصيلها عند الطلب. هذا النظام يقوم على أربعة أركان:

١ ـ قيادة سياسية تمارس القيادة والمرجعية معاً.

٢ ـ صلة عضوية بين القيادة السياسية وبين العقيدة الإلهية.

٣ ـ منظومة حقوقية إلهية تحكم القيادة والأتباع.

٤ ـ دور بارز للمحكومين يتمثل برضاهم وموافقتهم واستعدادهم لقبول الترتيبات الإلهية. وتبسيطاً فإن النظام السياسي الإسلامي يعتمد على كتاب إلهي، وبيان بشري لهذا الكتاب. وقبول المجتمع بالكتاب وبالبيان معاً.

٦ ـ دعوة للتفكير:

يلاحظ القراء الكرام أن النظام السياسي الإسلامي شيء ونظام الخلافة شيء آخر. مثلما أنت شيء وابنك شيء آخر مميز عنك، فالنظام السياسي الإسلامي سابق بوجوده لنظام الخلافة، ونظام الخلافة لاحق به، وإن شئت فقل إن النظام السياسي الإسلامي الذي أنزل الله تعالى على عبده هو الأصل ونظام الخلافة هو الفرع وهو محاولة لمحاكاة الأصل ولكن الأصل شيء والفرع شيء آخر. وقرب الخلافة أو بعدها عن الأصل هو الذي يحدد شرعيتها. فإذا كان نظام الخلافة هو

النظام الإسلامي وإذا كانت الخلافة تعني خلافة النبي بعد موته فما هو النظام الذي كان يطبقه النبي إذاً؟ ﴿**ما لكم كيف تحكمون**﴾!!! ستقولون إن النبي قد مات ولا نبي غيره!! إن موت النبي لا يعني موت النظام الذي أنزله الله عليه، وإن جهل هذا النظام لا يسيغ وضع نظام بديل للنظام الإلهي بل إن هذا الجهل من حوافز فهم النظام الإلهي.

٧ ـ وحدة المنظومة الإلهية:

مما هو معلوم بالضرورة تلك الصلة العضوية بين الهداية والهادي، وبين الرسالة الإلهية والرسول، وبين الكتاب الإلهي المنزل من عند الله تبارك وتعالى وبين العبد المكلف ببيان هذا الكتاب الإلهي، ولو كان مجدياً فك الارتباط بين العبد والكتاب لما كانت هنالك حاجة لإرسال عشرات الآلاف من الرسل والأنبياء، فتوزيع نسخ من الكتب الإلهية للمكلفين أقل مؤونة. ولكن الكتاب الإلهي لا يعطي أكله إلا ببيانه ونقله من الكلمة إلى الحركة ومن النظر إلى التطبيق عبر فترة زمنية معقولة، وغني عن التوضيح أن عملية البيان القرآني مستمرة إلى يوم الدين، وهذا يستدعي بالضرورة وجود نبي، أو شخص موثوق ومختص بالبيان. والخلاصة أن المنظومة الإلهية هي الكتاب المنزل بالإضافة إلى بيان النبي المرسل لهذا الكتاب فقط وأي فصل بين الإثنين كارثة محققة.

٨ ـ المختص بالبيان بعد النبي:

عينت المنظومة الإلهية الجهة المختصة بالبيان بعد النبي، وعلماؤنا في الأردن وأحزابنا الدينية مع عميق الاحترام لا يعرفون هذه الجهة وليتهم يسألونني عنها سؤال المستفهم، وهم أعقل من أن يكابروا وإن فعلوا فسأغرقهم في بحار من المراجع وأقيم الحجة عليهم.

٩ ـ أسباب الفراق بين الخلافة وبين النظام السياسي الإسلامي:

السبب الأول: مقولة: إن القرآن الكريم وحده يكفي المسلمين، وتحت مظلة هذه المقولة حيل بين الرسول ﷺ وبين كتابة ما يريد وتلك واقعة لا أحد في

الدنيا ينكرها أو يملك الاعتذار عنها، وقد رواها البخاري في صحيحه ست مرات ورواها مسلم في صحيحه فضلاً عن غيرهما من الثقات وعلى سبيل المثال راجع ج٧ ص٥ من صحيح بخاري وج ٥ ص ٧٥ من صحيح مسلم وج١١ ص٩٥ من صحيح مسلم بشرح النووي وج٤ ص٣٥٦ من مسند الإمام أحمد وج٦ ص٥١ من شرح المنهج بتحقيق محمد أبي الفضل وج٤ ص٣١ من صحيح بخاري وج٣ ص١٩٣ من تاريخ الطبري وج٢ ص٣٢٠ من الكامل في التاريخ لابن الأثير والملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٢٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص٢٤٢ ـ ٢٤٤ وتذكرة الخواص لابن الجوزي ص٦٢ وسر العالمين وكشف ما في الدارين لأبي حامد الغزالي ص ٢١... إلخ. وقد تختلف أرقام الصفحات باختلاف المطابع وعلى الراغبين بالوقوف على الحقيقة أن يطلبوا مني بيان اسم المطبعة لكل مرجع من هذه المراجع التي ذكرتها.

١٠ ـ منع كتابة الحديث:

واستتبع ذلك إعطاء بيان النبي ﷺ دوراً ثانوياً والاستعاضة عن هذا البيان بالاجتهاد، ومنع كتابة الحديث جاء في ج٥ ص١٤٠ بترجمة القاسم ابن أبي بكر من طبقات ابن سعد، أن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه بها فلما أتوه بها أمر بتحريفها، وبقي هذا المنع حتى ولي الحكم عمر بن عبد العزيز فرفع المنع وكتب إلى أهل المدينة أن انظروا حديث رسول الله فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله وكان ابن شهاب الزهري أول من دون الحديث على رأس المائة بأمر من عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين والتصنيف، (راجع فتح الباري باب كتاب العلم ج١ ص٢١٨) وقد روى الذهبي أن أبا بكر رضي الله عنه جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه، (راجع تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٢ ـ ٣ بترجمة أبي بكر) وروي عن قرظة بن كعب أنه قال: لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر إلى حرار ثم قال: أتدرون لم شيعتكم؟ قلنا: أردت أن تشيعنا وتكرمنا قال: مع ذلك لحاجة أنكم تأتون أهل قرية

لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث عن رسول الله وأنا شريككم، قال قرظة: فما حدثت بعده حديثاً عن رسول الله. وفي رواية أخرى فلما قدم قرظة بن كعب قالوا: حدثنا فقال: نهانا عمر. أخرجها ابن عبد البر بثلاثة أسانيد في جامع باب العلم ج٢ ص١٤٧ وتذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٤ ـ ٥ وصعد عثمان (رضي الله عنه) على المنبر ثم قال: لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر (راجع منتخب الكنز بهامش مسند الإمام أحمد ج٤ ص٦٤) ولقد حاول أبو ذر أن يتمرد روى الأحنف بن قيس قال: أتيت أهل الشام فجمعت أي حضرت صلاة الجمعة فإذا رجل لا ينتهي إلى سارية إلا فر أهلها يصلي ويخفي صلاته قال فجلست إليه فقلت له: يا عبد الله من أنت؟ قال: أنا أبو ذر فقال لي: فأنت من أنت قال: قلت: الأحنف قال: قم عني لا أعدك بشر فقلت له: كيف تعدني بشر قال: إن هذا ـ يعني معاوية ـ نادى مناديه ألا يجالسني أحد (راجع طبقات ابن سعد ج٤ ص١٦٨). وروى الذهبي أن عمر (رضي الله عنه) حبس ثلاثة فقال أكثرتم الحديث عن رسول الله. (راجع تذكرة الحفاظ ج١ ص٧ ترجمة عمر) وكان يقول للصحابة أقلوا الرواية عن رسول الله إلا في ما يعمل به(راجع تاريخ ابن كثير ج٨ ص١٠٧). قال عبد الله بن عمرو بن العاص، كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضى، فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ بإصبعه إلى فيه وقال: أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقاً (راجع سنن الدارمي ج١ ص١٢٥ وسنن أبي داود ج٢ ص١٢٦ ومسند الإمام أحمد ج٢ ص١٦٢ و٢٠٧ و٢١٦ ومستدرك الحاكم ج١ ص١٠٥ ـ ١٠٦(وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج١ ص٨٥) وفي غياب بيان النبي وتوالي الأحداث وتجددها حل الاجتهاد محل البيان.

١١ ـ السبب الثاني مقولة« نحن مع من غلب»:

تلك المقولة التي تحولت إلى قاعدة دستورية فرضت حضورها على الأحداث وقد صدرت تلك المقولة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب يوم الحرة. قال قاضي القضاة أبو يعلى في الأحكام السلطانية ص٧ ـ ١١: إنها أي الخلافة تثبت بالقهر

والغلبة ولا تفتقر إلى العقد. ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً براً كان أم فاجراً فهو أمير المؤمنين، وقال في الإمام يخرج عليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم تكون الجمعة مع من غلب واحتج بأن ابن عمر صلى بأهل المدينة في زمن الحرة وقال: نحن مع من غلب (راجع الأحكام السلطانية ص٧ ـ ٨) وجاء على الصفحة ٤٢٤ من كتاب الإرشاد في الكلام لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني: اعلموا أنه لا يشترط في عقد الإمامة الإجماع بل تنعقد الإمامة وإن لم تجمع الأمة على عقدها . . . فالوجه الحكم بأن الإمامة تنعقد بعقد واحد من أهل الحل والعقد. وقال الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله الأشبيلي المشهور بابن العربي في شرحه لسنن الترمذي ج١٣ ص٣٢٩ «لا يلزم في عقد البيعة للإمام أن تكون من جميع الأنام بل يكفي لعقد ذلك اثنان أو واحد». وقال القرطبي في المسألة الثامنة من تفسير ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله، وقال قاضي القضاة في المواقف المقصد الثالث إنها تثبت بالنص من الرسول ومن الإمام السابق بالإجماع وتثبت ببيعة أهل الحل والعقد. . . إلخ.

١٢ ـ طاعة الغالب وإن خالف الرسول:

روى مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وأن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع. وقال النووي في شرحه بباب لزوم طاعة الأمراء في غير معصية: «وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك. . . وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين» (راجع ج١٢ في شرحه على صحيح مسلم ص ٢٢٩ وراجع سنن البيهقي ج٨ ص١٥٨ ـ ١٥٩). وهكذا أخفيت أثواب الشرعية على تصرفات الخليفة الغالب كائنة ما كانت. والطاعة مقدمة على الحرمة

فالبيت الحرام له حرمة والخليفة له الطاعة فإذا اجتمعت الحرمة مع الطاعة قدمت الطاعة وإعمالاً للطاعة هدمت الكعبة ورميت بالمنجنيق مرتين إعمالاً لطاعة بعض الخلفاء، ومن أجل هذا ختمت أعناق الصحابة الكرام وأيديهم إمعاناً بذلهم وإعمالاً لمبدأ الطاعة المقدم على الحرمة.

١٣ ـ الخلاصة:

إن نظام الخلافة متأخر زمنياًعن نظام الإسلام، وإن نظام الإسلام سابق لنظام الخلافة ومسألة قرب الخلافة أو بعدها عن نظام الإسلام مسألة أخرى والأولى بعشاق العدل أن ينادوا بتطبيق نظام الإسلام الذي أنزله الله على عبده لأنه الأصل بدلاً من المناداة بتطبيق نظام الخلافة التاريخي الذي ساد بعد وفاة النبي وحتى سقوط آخر سلاطين بني عثمان، ولو وعى أنصار الخلافة مقولاتهم لتذكروا أن هنالك خلافة راشدة محددة زمنياً وأتت بعدها خلافة لا يقولون إنها راشدة. ومع عميق الاحترام فإن علماء الدين في الأردن، والأحزاب الدينية فيه لهم القدرة على وصف نظام الخلافة التاريخي ولكنهم يجهلون الإسلام السياسي الذي أنزله الله على عبده، وهم لا يعترفون بذلك ويخلطون بين الأوهام والحقائق، ومثلي ومثلكم كمثل جماعة انطلقت من عمان تريد إربد فسلكت الطريق الصحراوي المؤدي إلى العقبة فنادى مناد، هذه طريق العقبة وليس طريق إربد فغلبوه بكثرتهم وذهبوا إلى العقبة، وقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا فظلموا أنفسهم، لأن المنادي اتجه إلى إربد وهم سلكوا طريقاً قادتهم إلى العقبة، ليتلطف إخواننا الكبار الأجلاء فيسألوا ونحن نجيبهم. وجريدة اللواء الغراء ورئاسة تحريرها الجليلة تتسع بالسؤال والجواب، والأردن واحة الحرية في الشرق يتسع بالرأي والرأي المخالف وهذا أفضل من العنف وفرض الرأي بالقوة. والحمدلله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل التاسع

الخلافة بين الحقائق والأوهام
«النبوة والخلافة»

عالجت في الفصل الأول معنى نظام الخلافة اصطلاحاً، ومعناه في اللغة والتاريخ، ووثقت ذلك بسخاء، ثم لمحت عن النظام السياسي الإسلامي الذي أنزله الله على عبده وقام ﷺ ينقل هذا النظام من الكلمة إلى الحركة، ومن النظر إلى التطبيق عبر دعوة قادها بنفسه، ومن خلال دولة ترأسها بنفسه، وأثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن نظام الخلافة الإسلامي التاريخي شيء، وأن النظام السياسي الذي أنزله الله على عبده شيء آخر، وقرب الخلافة أو بعدها من النظام السياسي الإسلامي الأصيل هو الذي يحدد نصيبها من الشرعية والمشروعية.

سبب طغيان الفرع على الأصل:

الأصل هو النظام السياسي الذي أنزله الله على نبيه ﷺ ونظام الخلافة هو الفرع وهو بأحسن التصانيف محاولة لمحاكاة الأصل وتقليده. إذاً لماذا تجاهل المسلمون الأصل أو جهلوه وأخذوا بالفرع وفهموه، وقصروا دور النظام الأصيل على تجميل الفرع وتزيينه حتى طغى الفرع على الأصل؛ يكمن السبب في أن النظام السياسي الإسلامي الذي أنزله الله على عبده شق طريقه إلى الحياة السياسية عبر دعوة دامت ١٣ عاماً تمخضت عن دولة دامت عشرة أعوام تحركت بدقة متناهية ضمن إطار الشرعية والمشروعية. بينما نظام الخلافة التاريخي طبق عبر دعوة تحميها دولة كانت بيدها مقاليد السيطرة على وسائل الإعلام، بعد أن ألقت أجرانها في الأرض ودام سلطانها ١٣ قرناً ونيف وهي تكرر دعوتها وتجذرها عبر دولتها العملاقة التي تحركت ضمن

إطار القوة اللابسة لثوب الشرعية والمشروعية. ومن هنا فلا عجب أن تعتقد الخاصة والعامة أن نظام الخلافة التاريخي هو نظام الإسلام. وأن تتوهم بأنه لا يوجد في الإسلام إلا هذا النظام. وهم جميعاً يحملون بخيلهم ورجلهم بسرهم وعلانيتهم على كل من يشك بهذا الاعتقاد، وهكذا استبدلوا النعمة الإلهية التي أبدعها الله وهي الأصل بالفرع الذي هو في مجمله ثمرة اجتهاد البشر. وهذه أبرز ثمرة لتكرار وضغط الحادثات التاريخية.

الخلافة والنبوة:

هذا الضغط التاريخي الهائل لصالح الخلافة أوجد حالة من الانبهار والسحر خيّل من خلالها للخاصة والعامة أن الخلافة تتسامى بطبيعتها عن واقعها فتدنو من النبوة، وأن النبوة تتواضع من عليائها فتتساوى مع الخلافة، بل وطمع المتشددون بأكثر من ذلك فقد رجح بعضهم الخلافة على النبوة، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد خطب الحجاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة عبد الملك على العراق في الكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ ثم قال: تباً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية!!! هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟ ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله؟. ولتتيقن من ذلك راجع الكامل للمبرد طبعة النهضة بمصر ص٢٢٢ وراجع شرح النهج لعلامة المعتزلة ابن أبي الحديد ج١٥ ص٣٤٢. وأنظر إلى الفتوى التي أصدرها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في السعودية والتي نشرتها جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٩٨٤ حيث قال: لا يجوز الاحتفال بمولد الرسول ولا غيره لأن ذلك من البدع الحادثة في الدين. . .إلخ. وفي تذكرة الحفاظ ج١ ص ١٩٨ ووفيات الأعيان ج١ ص ٥٩ رويت قصة قتل الإمام النسائي أحد أصحاب الصحاح الستة لأنه فقط قد قال لسائليه عن فضائل معاوية: ألا يرضى معاوية رأساً برأس حتى يفضل، فمازالت الجماهير المحبة للخليفة تدفعه في خصييه وتدوس عليه حتى أخرج من المسجد وحمل إلى الرملة قال الحافظ أبو نعيم: مات بسبب ذلك الدوس وهو منقول. وقال الدارقطني امتحن في دُمشق وأدرك الشهادة.

تواضع النبوة لصالح الخلافة:

روى البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب قول النبي من أذينة، وروى مسلم مثل ذلك في صحيحه كتاب البر والصلة باب من لعنه النبي وليس له أهلاً رويا أن رسول الله ﷺ كان يغضب فيلعن ويسب ويؤذي من لا يستحقها فدعا الله أن يجعلها لمن بدرت منه زكاة وطهوراً، انتهت الرواية كما وردت في الصحيحين.

جاء في سنن الدارمي ج١ ص١٢٥ وسنن أبي داود ج٢ ص١٢٦ ومسند الإمام أحمد ج٢ ص١٦٢، و٢٠٧ و٢١٦ ومستدرك الحاكم ج١ ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦ وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج١ ص١٥ ما يلي: قال عبد الله بن عمرو بن العاص: كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله فنهتني قريش وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضى فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ بإصبعه إلى فيه وقال: أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقاً. صدق رسول الله. انتهت رواية هؤلاء الأفذاذ.

روى المسعودي في مروجه أن أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها عائشة قالت لمروان بن الحكم: أشهد أن رسول الله لعن أباك وأنت في صلبه. وقال الحلبي في سيرته: صار رسول الله يقول اللهم العن فلاناً وفلاناً. وأخرج البخاري قال: حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الأخيرة من الفجر يقول: اللهم العن فلاناً وفلاناً بعدما يقول سمع الله لمن حمده، وقال السيوطي وأخرج أحمد والبخاري والترمذي وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم، قال: كان النبي يدعو على أربعة نفر وكان يقول في صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً وفلاناً (راجع الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ج٥ ص٧١). وأخرج نصر بن مزاحم عن عبد الغفار بن القاسم عن عدي بن ثابت عن البراء في وقعة حطين ص٢١٧ و٢٢٠ تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم العن التابع والمتبوع». وراجع ج٣ ص١٤ و١٥ و١٦ من مروج الذهب للمسعودي تجد رسالة محمد بن أبي بكر (رضي الله عنهما) وهي تبين أن لعن الرسول لنفر من قريش كان حقيقة شائعة بين العامة والخاصة.

ومن سوء الحظ أو حسنه أن هؤلاء الذين لعنهم الرسول كانوا أنفسهم في عداد الخلفاء، وأنجبوا خلفاء، فخرجت هذه الروايات واختلطت الأوراق للتشكيك في واقعة اللعن ولكن على حساب النبوة وتعددت المسالك، وخيم على المقلدين الليل الحالك. وقد شهد الله أن نبيه ﴿لعلى خلق عظيم﴾ وحاشا له أن يسب أو يشتم أو يلعن من لا يستحق فهو لا ينطق عن الهوى، وباستقراء سيرته العطرة عبر مرحلتي الدعوة والدولة تجد أنه لم يتكلم إلا حقاً ولم يمارس إلا حقاً، فكيف يسوغ الناس لأنفسهم أن يتصوروا نبيهم بهذه الصورة!!!.

أمور لا يقبلها الخلفاء:

وروى البخاري في صحيحه في كتاب فضائل أصحاب النبي باب مقدم النبي وأصحابه المدينة وكتاب العيدين باب سنة العيدين وروى مسلم في صحيحه في كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في لعب يوم العيد: أن رسول الله ﷺ استمع إلى غناء جوار من الأنصار فنهرهن أبو بكر، وروى مسلم في كتاب صلاة العيدين حديث ١٨ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ أن رسول الله رفع عائشة على منكبيه لتنظر إلى الحبشة الذين يلعبون في المسجد فنهرهم عمر. وفي رواية الترمذي من أبواب المناقب جاء فيها إذ طلع فانفض الناس فقال رسول الله: إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر، وفي رواية للترمذي من نفس الباب ومسند الإمام أحمد ج٥ ص٣٥٣ أن جارية سوداء ضربت بالدف وغنت بين يدي رسول الله بعد رجوعه من إحدى غزواته فدخل عمر فألقت الدف تحت إستها ثم قعدت فقال رسول الله إن الشيطان ليخاف من عمر. وجاء في صحيح البخاري باب قول الله وصلى عليهم وكتاب الشهادات باب شهادة الأعمى ونكاحه وصحيح مسلم كتاب فضائل القرآن باب الأمر بتعهد القرآن أن النبي سمع رجلاً يقرأ في المسجد، فقال (رحمه الله): أذكرني كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا، وروى البخاري في صحيحه كتاب الذبائح باب ما ذبح على النصب والأصنام ج٣ ص٢٠٧ وأحمد في مسنده ج٢ ص٦٩ و٨٦ أن رسول الله قبل أن ينزل عليه الوحي قدم إلى زيد بن عمر بن نفيل سفرة فيها لحم فأبى زيد أن يأكل منها ثم قال للنبي: إني لا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه... إلخ. وزيد هذا هو ابن عم الفاروق عمر ووالد زوجته كما جاء في ج٢ ص٤ من الاستيعاب.

لا الشرع ولا العقل ولا الصديق ولا الفاروق رضي الله عنهما ولا ابن عم الفاروق يقبلون ذلك. فإن زيد بن عمرو ليس أفضل من النبي الذي صنعه الله على عينه، وإن أبا بكر وعمر ليسا أتقى من النبي والأولى بشياطين الجن والإنس أن تخاف النبي بدلاً من أن تخاف خلفاءه، وماذا لو أن هذا الذي كان يقرأ القرآن في المسجد لم يقرأ على مسمع الرسول أيبقى هذا الجزء من الآية في طي النسيان، إن هنالك وسائل وأساليب لمدح الخلفاء لا تستلزم الإساءة إلى النبي ﷺ.

الخليفة مأجور في الخطأ والصواب:

الذين يعتقدون أن نظام الخلافة هو عينه نظام الإسلام حصروا تصرفات الخليفة بمجوعتين:

١ ـ إما صواب.

٢ ـ وإما خطأ.

فإذا أخطأ الخليفة قالوا إنه مجتهد وله أجر واحد، وإذا أصاب الخليفة قالوا إنه مجتهد وله أجران، بل والأهم من ذلك أنهم اعتبروا الرسول نفسه مجتهداً في أمور وأجازوا للخليفة مخالفة الرسول في الأمور الاجتهادية قال علامة المعتزلة ابن أبي الحديد عند ذكره لجيش أسامة: إن الرسول كان يبعث السرايا عن اجتهاد لا عن وحي يحرم مخالفته. وقال القوشجي في رده على أربعة أحكام شرعية عمل بها النبي وخالفه فيها الخلفاء قال: وأجيب عن الوجوه الأربعة بأن ذلك ليس مما يوجب القدح فيه، فإنه من مخالفة المجتهد لغيره في المسائل الاجتهادية اعتبر القوشجي رحمه الله أن الرسول مجتهد وأن الخليفة مجتهد مثله (راجع شرح التجريد ص٤٠٨) وقال القوشجي في إسقاط القود عن عبيدالله بن عمر إنه اجتهد وإنه لا يلزم حكم هذا القتل. . . (ص ٤٠٩ من شرح التجريد وراجع النهج ج ١ ص٢٤٣ لابن أبي الحديد). وحول رد الحكم بن العاص إلى المدينة بعد أن طرده الرسول وذريته منها قالوا إن الرسول لو لم يأذن برده لجاز للخليفة أن يرده إذا أداه اجتهاده إلى ذلك راجع شرح النهج لعلامة المعتزلة ابن أبي الحديد ج١ ص٢٣٣ وقال ابن تيمية هو أمر اجتهادي وقال: قد يكون الإمام مجتهداً في العقوبة مثاباً عليها وأولئك مجتهدون في ما فعلوا ولا يأثمون عليه راجع منهاج السنة ج٣ ص١٩٣ وأجاب عما ورد في زيادة

الخليفة للأذان الثالث يوم الجمعة فقال: إنها من مسائل الاجتهاد(راجع ج٣ ص٣٠٤) وقال ابن حجر الهيثمي في صواعقه... وكل منهما مجتهد فلا يعترض بما فعله أحدهما مع الآخر راجع الصواعق المحرقة ص١١٢ وقال ابن حزم ما موجزه: إن معاوية ومن معه مخطئون مجتهدون مأجورون أجراً واحداًراجع الفصل في الملل والأهواء والنحل تصنيف أبي محمد علي بن حزم الأندلسي وقال: معاوية رحمه الله مخطىء مأجور مرة واحدة لأنه مجتهد. ج ٤ ص ٨٩ ذكر مرة معاوية وعمرو بن العاص وقال: إنما اجتهد في مسائل دماء كالتي اجتهد بها المفتون(راجع الفصل ج٤ ص١٦٤) واعتذر ابن تيمية لمعاوية في ما فعل بأنه مجتهد وقال إنه كعلي بن أبي طالب في ذلك. راجع منهاج السنة ج٣ ص ٢٦١ و٢٦٦ و٢٧٥ و٢٨٤ و٢٩٨ وقال ابن كثير في تاريخه ج٧ ص٢٧٩ معاوية مجتهد مأجور وقال عن عمرو بن العاص مجتهد والاجتهاد يخطىء ويصيب ج٧ ص٢٨٣ من تاريخ ابن الأثير، وقال ابن حزم في ج٤ ص١٦٤ إن الذي قتل عمار بن ياسر مجتهد مأجور أجراً واحداً وقال في ج١ ص٤٨٤ في عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل علياً إلا متأولاً مجتهداً. حتى قالوا إن يزيد بن معاوية مجتهد مأجور وهو الذي هدم الكعبة المشرفة، وأباد الصحابة الكرام وأذل من بقي منهم وختم أعناقهم وأيديهم إمعانا بذلهم، وأباد ذرية النبي.

أحد ضحايا المجتهد يزيد:

خطب الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام أمام جيش الخليفة يزيد فقال: أما بعد: فانسبوني فانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها هل يجوز لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وآله وابن عمه وأول القوم إسلاماً وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسول الله بما جاء به من عند الله أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الطيار ذي الجناحين عمي..؟.

الخلاصة:

إن الجهد الذي سنبذله لفهم النظام الإسلامي هو أقل بكثير من الجهد الذي سنبذله لتزيين التاريخ وتجميله، والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل العاشر

الإسلاميون ومفاهيم الحرية والديمقراطية

١ ـ المقاس الضيق:

لقد بالغ «الإسلاميون الحزبيون العرب» وأشياعهم وأسرفوا أيما إسراف بإصرارهم المتعنت على تلبيس الإسلام طقم «السموكن» الغربي المفصل أصلاً على مقاسات الحرية والديمقراطية الوضعية. ولأنهم يظنون ـ وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً ـ أن فهمهم للإسلام هو الإسلام بعينه. وأنهم الأوصياء عليه من دون الناس، لذلك لم يصغوا لصوت الإسلام نفسه وهو يناديهم مشفقاً: وفروا على أنفسكم عناء التلبيس الإجباري فإن «السموكن» ضيقة جداً علي.

٢ ـ الارتجال والتهافت:

ولا يروق هذا التهافت لحزبيين إسلاميين آخرين، وبعصبية ظاهرة، يرتجلون حكماً مبتسراً فيقولون إن الديمقراطية «كفر بواح وشرك صراح...إلخ» وهم كإخوانهم الذين سبقوهم يتوهمون أيضاً أن فهمهم للإسلام هو عين حكم الإسلام.

٣ ـ الإسلام والظل:

ولكثرة ممارسة الأحزاب الدينية الغربية لأوهامها وظنونها فرحت بها وركنت إليها.

﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ وحسبت أن فهمها للإسلام هو الإسلام. مع يقينها أن الفهم يتفاوت من فرد إلى فرد، وأن الفهم شيء والمفهوم شيء آخر

وموضوع الفهم حاجة ثالثة. ومن هنا فهم لا يصدقون أنفسهم، ولا يصادقهم الإسلام على ما يزعمون. فالشجرة شيء وظلها شيء آخر. وفهم الأحزاب الدينية العربية للإسلام شيء والإسلام شيء آخر. ومن المثير للدهشة حقاً أن العلمانيين العرب قد توهموا أن فهم الأحزاب الدينية العربية للإسلام هو عين الإسلام وبنوا قناعاتهم على شفا هذه الحفرة من الوهم. فظلموا أنفسهم وألحقوا ضرراً بالغاً بالفكر الإنساني نتيجة خلطهم المريع بين الشيء وظله، بين الفهم والمفهوم والمثير أنهم جميعاً يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولكن الله غالب على أمره.

٤ ـ إنتشال الحقيقة من تحت الأنقاض:

أ ـ تسمية الأشياء بأسمائها.

لقد شوهت الأحزاب العربية بشقيها العلماني والديني الفكر الإنساني في هذه المنطقة، وقلبت الحقائق رأساً على عقب وسمّت الأشياء بغير أسمائها، وهدمت عالم الفكر على ساكنيه، وضعت الحقائق بين الأنقاض بعد أن خلطت الوهم بالحقيقة، واليقين بالشك والحق بالهوى، فلو عاد اليقين لما تعرف عليه أحد، ولو تألقت الحقيقة الخالصة لتنكر لها الناس لاقتناعهم المتولد عن التكرار والعادة بأن الشك هو اليقين وأن الوهم هو الحقيقة.

ب ـ خدمة للجميع:

ومن هنا فإن بيان حقيقة الحرية، والديمقراطية، وموقف الإسلام منهما بحد ذاته خدمة للأحزاب الدينية العربية التي تركت البحث وركنت إلى التقليد، وأدارت ظهرها للمنظومة الحقوقية الإلهية وأقبلت على التاريخ لتتغذى بالطيب من طعامه، ولتتنكر لما خبث.

وبيان هذه الحقائق خدمة للأحزاب العربية التي ترجمت الفكرين الغربي الديمقراطي والشرقي الاشتراكي واقتصر همها على التقليد أيضاً، ثم إن هذا البيان يشكل تقييماً، وتجذيراً، وربطاً للعقائد بالأفكار ربطاً علمياً تمهيداً للحكم والتصحيح أو الركون، وأبرز نتائج هذا البيان إثراء الفكر السياسي لصالح الإنسان.

ج ـ ما بعد الحرية والديمقراطية:

ومع التأكيد على بالغ التقدير والاحترام لهذين المفهومين وللأخوة العرب الذين ينادون بتطبيقها بمفهومهما الغربي وتعميمهما في العالم العربي فإنني وبكل الرفق والاحترام ألوح بما هو أعظم وأهدى من هذين المفهومين. ألوح بالإسلام وبمنظومته الحقوقية التي تشكل بحد ذاتها خطة إلٰهيّة متكاملة للرقي الفردي والأسروي، والشعبي والدولي، والبشري كله، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو الإقليم، أو الدين، فمن غير الجائز لأي مسلم على الإطلاق حتى ولو كان نبياً حسب أحكام هذه المنظومة ظلم أي إنسان على الإطلاق مهما كان جنسه أو لونه أو عرقه أو إقليمه أو دينه حتى ولو كان يعبد الأصنام.

د ـ مزايا الإسلام:

إنه يعطي الحرية للجميع، ويحقق العدالة للجميع، ويضفي الحماية على الجميع، ويحقق المساواة بين الجميع، بمستوى المعيشة وأمام القانون ويملك السلطة عملياً للجميع، وينشد السعادة للجميع ويعتبر أبناء الجنس البشري جميعاً أخوة أبوهم واحد وهو آدم وأمهم واحدة هي حواء، ويعتبر الكرة الأرضية مجرد إقليم واحد تغذي ساكنيها، فتأخذ من كل واحد طاقته وتعطي كل واحد كفايته وتلك أماني ـ مع عميق الاحترام ـ تقف الديمقراطية على أبوابها عاجزة قاصرة ومسيرة. هذا هو الإسلام ـ وليس كما تفهمه الأحزاب ـ وسأثبت ذاك بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

الدخول بالموضوع:

أ ـ الصلة العضوية.

صلة الديمقراطية بالحرية صلة عضوية، فهي تدور معها وجوداً وعدماً فإذا انتفت الحرية تنتفي الديمقراطية، وحيث توجد الحرية تكون الديمقراطية، فكأن الحرية والديمقراطية وجهان لعملة واحدة، أو كأن الديمقراطية هي المؤشر على وجود الحرية، ويمكنك القول إن الحرية هي الأصل وإن الديمقراطية ثمرة من

ثمراتها وفرع من فروعها، ثم أشير للأصل بالفرع، ورمز للشجرة بالثمرة.

ب ـ دوران الفرع مع الأصل:

في يوم من الأيام عنت الحرية استقلال الفرد بنفسه وماله ومصيره فجاءت الديمقراطية لتقوم بدور الدرع الذي يحمي هذا الاستقلال وكانت مهمة الدولة الديمقراطية وقتذاك هي حراسة هذا الاستقلال.

«الدولة الحارسة» ثم تبين أن الفرد غير قادر على حماية حريته واستقلاله ومصيره فجاءت الديمقراطية لتعني أن هذه الحرية بمعناها الآنف الذكر يجب أن تضمن من قبل الدولة فأصبحت الدولة الديمقراطية هي الحارسة للحرية وهي الحامية لها بنفس الوقت.

ثم أصبحت الديمقراطية تعني فن التوفيق بين الحرية وبين السلطة ونتيجة لانتصار الشيوعية والمناداة بفكرة المساواة ظهرت الديمقراطية الاجتماعية التي لا تكتفي بالحق الطبيعي بالحرية انما تركز على إشباع هذا الحق وتمكين صاحبه من ممارسته.

وأخيراً أصبحت الديمقراطية عنوان نظام يقوم على أساس تمليك السلطة للرعية عن طريق الانتخاب وسيتمخض هذا النظام عن أكثرية تحكم وأقلية تتمتع بحق المخالفة والمعارضة وتتناوب الأكثرية والأقلية على الحكم مع التسليم بوجود حقوق وحريات للأفراد هي بمثابة قيود أو كوابح لحركة الأكثرية والأقلية في المجتمع، وكل هذا يؤدي لتوزع الحقيقة وتعدد الاجتهادات بفهمها وإتاحة الفرصة أمام الأفراد ليعرضوا هذه الافهام.

معشوقة الجميع:

نظراً لارتباط مفهوم الديمقراطية بمفهوم الحرية، ولارتباط الحرية بالإنسان ـ أي إنسان ـ وحاجته إليها، وشغفه بها، أصبحت الديمقراطية معشوقة جميع البشر، وزينة لكل العقائد والأنظمة والدول، فالدول الغربية تزعم أنها دول ديمقراطية كيف لا وهي نفسها التي أنشأت النظام الديمقراطي، «وكارل ماركس»

نفسه الذي نادى بدكتاتورية البروليتاريا لغاية سحق الطبقات الأخرى لم يجد غضاضة من أن يزين هذه الديكتاتورية بالديمقراطية فلذلك نجده يقول عن دولة البروليتاريا «إنها ديكتاتورية ديمقراطية» ودول العالم الثالث تقول بملء أشداقها أنا دولة ديمقراطية، وإذا أراد حزب أن يروج بضاعته وأن يستقطب الناس إلى جانبه يتغنى بالديمقراطية ويزعم أنه ديمقراطي والسر في ذلك أن الديمقراطية اختلطت مع الحرية وأن الحرية لصيقة بالإنسان أي إنسان ومن يعاديها يعادي ذاته ومعاداة الذات جنون بالإجماع.

ماهية الحرية في الفكر العالمي:

عرفت البشرية نوعين من العقائد السياسية:

١ ـ العقائد الإلهية والإسلام آخرها.

٢ ـ العقائد الوضعية بفروعها الثلاثة:

أ ـ الحكم المطلق.

ب ـ التحررية الرأسمالية.

ج ـ الماركسية الشيوعية وسنبين ماهية الحرية في كافة هذه العقائد بالكيفية التي يفهمها الخاصة ولا تستعصي على العامة.

ماهية الحريات في العقائد الوضعية:

أ ـ ماهية الحريات في عقيدة الحكم المطلق: الحريات بمختلف أنواعها هي مجرد هبات يهبها الحاكم لرعيته أو لبعض أفرادها متى شاء ويستردها منهم متى شاء لأن الهبة غير ملزمة للواهب وبالتالي فلا معقب لحكمه ولا سلطان عليه إلا لضميره من الناحية العملية.

ب ـ ماهية الحريات في العقيدة التحررية السياسية: الحريات بمختلف أنواعها هي مجرد حقوق طبيعية لصيقة بالإنسان حسب نظرية الحقوق الطبيعية التي نادى بها «جون لوك» والقائلة بوجود حقوق طبيعية ملاصقة للإنسان وسابقة لوجود السلطة

والسلطة نفسها ما هي إلا ثمرة من ثمرات ممارسة الأفراد لحقوقهم هذه حسب نظرية العقد الاجتماعي التي قال بها «روسو» وباختصار إن الحريات مجرد حقوق.

ج ـ ماهية الحريات في العقيدة الشيوعية:

الحريات، بمختلف أنواعها ليست مجرد حقوق وأفكار ومفاهيم مجردة وليس منبعها الطبيعة إنما هي حاجات تلبى، ورغبات تشبع وهي نابعة من قلب المجتمع وتشبع هذه الحاجات بانتقال السلطة إلى البروليتاريا ونقل ملكية مسائل الإنتاج إليها، وتعاون الدولة مع الطبقة الحاكمة لقهر الطبيعة حتى تلبي هذه الحاجات على حد تعبير «كارل ماركس».

ماهية الحريات في الإسلام:

الحرية ليست هبة من الحاكم لرعيته، ولا مجرد حقوق طبيعية أو حاجات تلبى وتنبع من المجتمع كما تزعم العقائد الوضعية إنما هي جزء من طبيعة وذات الإنسان. وركن من أركان وجوده وعنصر من عناصر الغاية من هذا الوجود، فلا تتحقق الغاية إلا بها. ولا تستقيم الحياة إلا بها وهي سابقة لوجود الحاكم، ولوجود المجتمع نفسه وهي جزء من الإنسان نفسه ـ أي إنسان على الإطلاق ـ وهي عماد الدين، وموضع الثواب والعقاب، فإذا انتفت الحرية، فقد انتفت الإنسانية نفسها، واختفت فكرة الثواب والعقاب، فهو تبارك وتعالى لا يثيب ولا يعاقب إلا في حدود الحرية، والطاقة.

تفصيل ذلك وآيته:

إن الله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة أصلاً لغاية ابتلاء الإنسان أي امتحانه خلال فترة الحياة الدنيا كما أكدت على ذلك ١٩ آية من القرآن الكريم أبرزها الآية ٧ من سورة الكهف والآية ٢ من سورة الملك، وكضرورة من ضرورات عملية الابتلاء فقد زود الله الإنسان الذي سيخضع للثواب والعقاب بالقدرة على إتباع أمر الله ونظامه أو مخالفة هذا الأمر وذاك النظام والآيات الواردة في القرآن والتي تؤكد هذه القاعدة تربو على ألف آية وبعد ذلك جعل التكليف بحدود الوسع

والطاقة، وبعد ذلك أعطى الإنسان الحرية ليفصل أو يمتنع عن الفعل، لأنه لو كان مكرهاً على فعل الخير لما استحق ثواباً ولو أكره على فعل الشر لما استحق عقاباً، وهذا جوهر ما نريده فالحرية عنصر من عناصر المسؤولية ـ فإذا انتفت الحرية انتفت المسؤولية وهنا ربط الله الفعل بالمشيئة والإرادة الإنسانية. ويمكن تلاوة الآية ١٧ من سورة الكهف والآية ٥٧ من سورة الفرقان والآية ١٩ من سورة المزمل والآية ٣٧ من سورة المدثر والآية ٥٥ من سورة المدثر أيضاً والآية ٢٩ من سورة الإنسان و٢٨ من سورة التكوير و١٥ من سورة الزمر و٤٠ من سورة فصلت وكلها ناطقة بالمعنى الذي أشرناه.

تقييم تجذير فكرة الحرية والديمقراطية:

الحكم المطلق يعتبر الحريات هبات والتحررية الرأسمالية تعتبر هذه الحريات حقوقاً طبيعية والماركسية تعتبرها حاجات نابعة من المجتمع بمعنى أن العقائد الوضعية تربط الحريات برباط خارجي غير متين وأفضلها التحررية الرأسمالية القائلة بأن الحريات حقوق طبيعية«الصيقة» بالإنسان بينما الإسلام يعتبر الحرية جزءاً لا يتجزأ من ذاته الإنسان أي يفسح لها مقراً في أعماق الذات الإنسانية ويجعلها عنصراً من عناصر الوجود الإنساني، وركناً من أركان غايات هذا الوجود، وهذا قمة الإكبار للحريات الإنسانية. ومن تتبع السيرة النبوية في الدعوة والدولة النبوية يستيقن أن دولة النبوة هي الروضة التي أزهرت فيها الحرية الإنسانية وأخذت مداها كاملاً.

وسنعالج ترشيد الحريات، ومجالاتها، وآفاقها ضمن آلية حركة المجتمعات السياسية، والحمدلله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الحادي عشر

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب
«منهج الإسلام في التغيير»

قلنا في الفصل السابق إن الإسلام قد وضع حكماً لكل شيء على الإطلاق وقد أثبتنا ذلك وإن نظامه السياسي قد غطى ظاهرة السلطة ومساحة العمل السياسي بكل جوانبه وأبعاده وذلك ضمن منظومة الإسلام التصورية والفكرية والحقوقية الكاملة والمتكاملة والتي وضعها الله سبحانه وتعالى بنفسه خصيصاً لإدارة الحياة والأحياء على الإطلاق وأن هذه المنظومة تتمتع بالكمال المطلق من حيث المدى لأنها تغطي كل شيء بما فيه كيفية التبول والتغوط وكمال هذه المنظومة مطلق من حيث الصحة والدقة واليقين لأن الذي أبدعها هو الله رب العالمين وخالق الحياة والأحياء معاً وأن هذه المنظومة ترجمت من النص إلى التطبيق ومن الكلمة إلى الواقع والحركة من خلال دعوة قادها النبي ﷺ بنفسه ومن خلال دولة ترأسها النبي بنفسه.

وجود المنهج وأهمية معرفته:

حيث أن الإسلام قد بين كل شيء ووضع أحكاماً لكل شيء فمن الطبيعي أن يكون للإسلام منهجه الخاص في التغيير لأن المنهج خطة وجزء من عقيدة وكل ما يصدر عن الإسلام هو فصل في خطته المحكمة لإدارة الحياة والأحياء والفكرة في الإسلام تسبق الحركة وتحكمها ويتشكل الواقع الذي يصنعه الإسلام على ضوء الفكرة وهداها وخطة التغيير منهج الإسلام في التغيير هو جزء من الإسلام الذي

وضعه الله وخصه بالكمال وزوده بخاصية الاستنغاء عن غيره ووضعه تحت تصرف طلاب التغيير الحقيقي في كل زمان ومكان وبالنتيجة فإن عملية التغيير مرهونة بمعرفة منهج الإسلام في التغيير ثم الاقتناع بهذا المنهج وتبنيه وأعماله.

مفهوم المنهج:

المنهج هو الطريق أو الأسلوب أو الخطة المعدة لإحداث التغيير وهو جزء من العقيدة ـ أي عقيدة ـ وأداة من أدوات مذهبها السياسي أي مذهب بالمعنى الذي وضحناه توضيحاً كافياً في مقالاتنا السابقة وبالضرورة فإن كل عقيدة تقدم منهجها الخاص في التغيير وكل مذهب سياسي يتضمن في برنامجه فصلاً خاصاً يعالج فيه خطته في التغيير ومدى هذا التغيير فالإسلام كعقيدة له منهجه الخاص في التغيير، المذهب السياسي الإسلامي ضم في جانب منه خطة خاصة لإحداث التغيير وكل عقيدة من العقيدتين التحررية الرأسمالية والماركسية الشيوعية قدمت منهجاً في التغيير.

ضبط منهج الإسلام في التغيير وتحديده:

منهج الإسلام في التغيير هو بنية فكرية وحقوقية أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسوله وأوحاها له وهي بمثابة خطة التغيير تولى النبي ﷺ بيانها خلال مرحلة الدعوة وطبقها خلال مرحلة الدولة وهذه الخطة هي جزء من عقيدة الإسلام وبنيته الفكرية والحقوقية وقد تعمدت هذا الضبط والتحديد لأقطع خط الرجعة على أولئك الذين يجهلون خطة الإسلام في التغيير فيعوضون عن جهلهم هذا بالخلط الذي ما أنزل به من سلطان.

تطبيق منهج الإسلام في التغيير:

لم يبق منهج الإسلام في التغيير مجرد بنى فكرية وحقوقية نظرية إنما طبق حقيقة خلال مرحلتي الدعوة والدولة معاً وتمخض تطبيق هذا المنهج عن إحداث أعظم وأشمل عملية تغيير تمت في التاريخ البشري كله سواء من حيث المدى أو من حيث النتيجة أم من حيث التكاليف.

من نتائج تطبيق المنهج الإسلامي في التغيير:

١ ـ كان العرب قبائل متناثرة متطاحنة لكل قبيلة إلهها ومرعاها تعيش جميعاً على هامش التاريخ ونتيجة تطبيق المنهج الإسلامي في التغيير تغير العرب وتمّ نقلهم من دين إلى دين وتم توحيدهم عقائدياً وسياسياً ولأول مرة في التاريخ وبمدة لا تتجاوز ٢٣ عاماً وبكلفة بشرية لا تزيد عن ٣٨٩ قتيلاً.

٢ ـ تم تكوين أمة ولأول مرة في التاريخ على أساس عقائدي صحيح وهو الإيمان بالله وتحكيم شرعه والتسليم لأمره والتعاون بين أفرادها وسلطتها بهدف ومثل أعلى محدد يتمثل بالسعي لتحرير البشرية من عبودية الطغاة وإشاعة الهداية بين أبناء الجنس البشري وفتح أبواب السعادة الحقيقية أمام الجميع بغض النظر عن اللون أو العرق أو الإقليم لأن الناس أخوة أبوهم واحد وهو آدم وأمهم واحدة وهي حواء.

٣ ـ تكوين دولة المبادىء لتكون التعبير الشرعي لأمة المبادىء وفي ظلال تلك الدولة وأفيائها المباركة تساوي ولأول مرة في التاريخ الحاكم مع المحكوم أمام الشريعة وبالتكليف وبمستوى المعيشة وفي ظلالها أحس الإنسان أن له رسالة ومثلاً أعلى وأنه عبد الله وحده لا لغيره وأنه حر وأن بإمكانه أن يبدي رأيه بمواجهة أي كان حتى ولو كان النبي نفسه دون أن يتعرض للوم أو عقوبة.

٤ ـ وعلى الصعيد العالمي تم إسقاط النظام العالمي الذي كان قائما آنذاك على المصالح وعلى تتبيع كل شيء للقوة الغاشمة وتهاوت الدولتان الأعظم فارس في الشرق وروما في الغرب.

٥ ـ وترسخ اليقين نهائياً بنجاعة منهج الإسلام لإحداث التغيير النوعي المنشود على أصعدة النفس والفكر والواقع.

للأحزاب الدينية العربية منهج غير منهج الإسلام:

في الفصل الرابع قلت ومن هنا فقد قررت الأحزاب الديئية العربية أن تعمل ولكن بدون فكرة، أن تبني ولكن بدون خطة أن تبحر وسط بحر هائج يعج

بالظلمات ولكن بدون سفينة ولا قبطان أو بسفينة متآكلة لا تقوى على مقارعة الأمواج العاتية يقودها قبطان ما علا موج البحر قط، وعندما قررت الأحزاب الدينية أن تعمل دون فكرة وأن تبني دون خطة أو بخطة قائمة على الافتراض والتخمين وناتجة عن خلطها الآثم بين أهداف الإسلام الإلهية ووسائل الغرب الوضعية فإنها قد ارتكبت غلطة منهجية فادحة، إذ جمعت بين المتناقضات وطلبت المستحيلات بالشرع والعقل معاً وخلطت ما لا يجوز خلطه ومن هنا لم يكن للأحزاب العربية منهج خاص بها وخطتها في التغيير إن صح أن نسميها خطة هي خطة وضعية وليست إسلامية، وهي مرقعة فيها أجزاء من كل العقائد الوضعية الراهنة وفيها جزء من الإسلام والفارق بين الأحزاب الدينية والعلمانية من هذه الناحية يكمن في الشكل أو إن شئت فقل في الرداء الإسلامي.

بحث الأحزاب الدينية العربية عن مناهج للتغيير:

أدركت الأحزاب الدينية العربية بعد فوات الأوان استحالة العمل بدون فكرة وخطة إسلامية خالصة، واكتشفت أن التغيير بدون منهاج محدد للتغيير مستحيل ومن هنا ظهرت موجة مفاجئة من مناهج التغيير التي صاغتها الأحزاب الدينية العربية من بنات أذهانها ثم ألبستها بالإكراه جبة الإسلام ونذكر من هذه المناهج.

١ ـ في ٢٢ كانون الأول عام ٨٩ ألقى مندوب حزب التحرير خطاباً في مؤتمر رابطة المسلمين المنعقد في ولاية ميتسوري بأمريكا؛ ؛ وفوجئنا بأن هذا الخطاب قد طبع على شكل كتيب ٤٧ صفحة من الحجم الصغير يحمل اسم منهج حزب التحرير في التغيير.

٢ ـ ولم تمض مدة على إصدار منهاج حزب التحرير حتى أصدر الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس كتيباً يقع على سبعين صفحة وسماه منهج الحركة الإسلامية في التغيير.

تقييم سريع للمنهجين:

منهج حزب التحرير في التغيير هو منهج الحزب وليس منهج الإسلام ومنهج

الإسلام يختلف اختلافاً كلياً عن منهج حزب التحرير، وأما المنهج الذي وضعه أبو فارس، فليس منهج الحركة الإسلامية في التغيير إنما هو المنهج الخاص بالأستاذ أبي فارس، ويكفي المنهجين عيباً أن الخطاب الذي ألقاه مندوب حزب التحرير هو من إعداد المندوب شخصياً وإنه لم يستشر أحداً من أصحابه تماماً كما فعل الأستاذ أبو فارس، وهذا قمة الطغيان الفردي أما مضمون هذين المنهجين فإنه بمجمله يشكل استخفافاً بعقول المسلمين ولولا أخوة الإسلام وكراهيتنا لشماتة الآخرين بنا لكان لنا موقف آخر يخدم الحقيقة المجردة.

من أين تبدأ عملية التغيير في الإسلام؟:

النفس الإنسانية هي الإطار العام الذي تتكون وتنمو فيه الأفكار والمشاعر والقيم وهذه النفس مملكة حقيقية بالنص الشرعي وما يقع خارج إطار النفس الإنسانية ما هو في الحقيقة إلا صدى وترجمة لتلك الأفكار والمشاعر والقيم أو مسخر لخدمة النفس الإنسانية ومساعدتها على تحقيق ما تفكر به وما تتمناه، ومن هنا فإن عملية التغيير الإسلامية تبدأ بالنفوس فإذا أمكن تغيير ما في النفوس يتغير بصورة حتمية الواقع، والتغيير الحقيقي لا يتم إلا إذا تم تغيير ما في النفوس ودليلنا على ذلك قوله تعالى: **﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾** (الرعد الآية: ١٠و١١).

وقوله تعالى: **﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾** (الأنفال الآية: ٥٢ و٥٣). فعملية التغيير تنصب في الدرجة الأولى على نزع الأفكار والمشاعر والمعتقدات والقيم الفاسدة من نفوس الناس لتحل محلها أفكار ومشاعر ومعتقدات وقيم الإسلام، أو بتعبير أدق نزع العقيدة الفاسدة المستقرة في النفوس وإحلال عقيدة الإسلام محلها.

تقوم عملية التغيير في الإسلام على ثلاثة أركان:

١ ـ الركن الأول هو الركن الشخصي وهو الشخص الذي يشرف على إجراء وتنفيذ عملية التغيير الإسلامية، وهذا الشخص مختص وله مواصفات معينة وهو المرجع المختص ببيان أحكام وقواعد العقيدة الإسلامية على سبيل الجزم واليقين، ويتقبل المؤمن بيان ذلك الشخص على أساس أنه حقيقة إيمانية وعقلية فلا عقيدة بدون مرجعية ولا مرجعية إلا في عقيدة، والمرجع هو القبطان الذي يقود سفينة الإسلام والإسلام هو السفينة. عقيدة الإسلامي مخططات والمرجع هو المهندس الذي يتولى توضيح وشرح تلك المخططات وبيانها وترجمتها مرحلياً إلى واقع محسوس، وفي الإسلام يجب أن يكون هذا الشخص أعلم أهل زمانه في العقيدة وأتقى أهل زمانه وأكثر أهل زمانه اعتصاماً بالله، وهذه أمور لا يعلمها إلا الله لذلك شاءت العناية الإلهية رحمة بالخلق أن تقدم هذا المرجع للناس وكل مرجع يقدم بنص ممن سبقه لأن الدعوة الإسلامية وعملية التغيير مستمرتان إلى يوم القيامة.

٢ ـ الركن الثاني هو الركن الموضوعي وهو العقيدة ونعني بالعقيدة الإسلامية نظرياً مجموعة القواعد والأحكام والمبادىء والأوامر والنواهي والمعلومات العامة والتفصيلية، والتي أنزلها الله تبارك وتعالى على عبده محمد ﷺ وقام هذا النبي ببيانها للناس نظرياً عبر دعوة وعبر دولة ثم وضعها موضع التطبيق من خلال دعوة قادها بنفسه ومن خلال دولة ترأسها بنفسه. وهذه العقيدة بينت كل شيء على الإطلاق ووضعت حكماً لكل شيء وقدمت تصوراً يقينياً قائماً على الجزم واليقين، وهذا التصور يغطي بالكامل ساحة الحياة والأحياء.

٣ ـ الركن الثالث وهو الركن الواقعي ويتمثل بالواقع المراد تغييره، فالمرجع هو بمثابة الطبيب والعقيدة بمثابة الدواء والواقع المراد تغييره بمثابة المريض، والإسلام يعتبر أن العالم كله مريض ومسؤولية المسلمين منصبة على شفاء العالم من مرضه.

وسنعالج في الفصول القادمة روافد وأدوات التغيير في الإسلام وكيف تتم عملية التغيير خطوة خطوة إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني عشر

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«خطة التغيير»

قلنا في الفصل السابق إن للإسلام خطته أو منهجه الخاص به في التفسير، وإن الله سبحانه وتعالى هو الذي رسم هذه الخطة أو وضع هذا المنهج وأوحاه إلى نبيه محمد ﷺ أن هذه الخطة هي جزء لا يتجزأ من عقيدة الإسلام، وقد شرع النبي بتطبيق هذه الخطة. ومن خلال مرحلتي الدعوة المحمدية والدولة المحمدية اتضحت بصورة مفصلة ونهائية خطة الإسلام في التغيير وهي خطة إلهية غير قابلة للتعديل أو التبديل، وكلف الله نبيه وأتباعه بالالتزام بهذه الخطة واستمرار العمل بها حتى يبلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار وحتى يلقي أجرانه نهائياً في الأرض، وذلك من خلال دعوة مستمرة إلى يوم القيامة تتحول بالضرورة إلى دولة مهمتها أن تحمي الدعوة وتكون النموذج الأمثل للسلطة التي تقود الدولة والدعوة، وتنجز مشروع إشاعة الهداية بين أبناء الجنس البشري كافة، وإنجاز مشروع التغيير الشامل لحياة هذا الجنس كله.

والخطة بمجملها تنصب على إحداث تغيير معين في النفوس يتمثل باقتلاع القناعات الفكرية والنفسية التي أوجدتها العقيدة التي صنعت الواقع الحياتي السيء المراد تغييره، وغرس وتنمية القناعات الفكرية والنفسية لعقيدة الإسلام كخطوة لا بد منها لإيجاد واقع جديد ليحل محل الواقع المراد تغييره. وذلك من خلال دعوة مقننة ومبرمجة إسلامياً تتحول بالضرورة وبصورة محتومة إلى دولة مقننة أيضاً أو مبرمجة إسلامياً لقيادة عملية التغيير وتثبيتها. وقد بيَّنا: أن الخطط والمناهج التي

تقدمها الأحزاب الدينية العربية هي خطط ومناهج وضعية تختلف اختلافاً كلياً عن خطة الإسلام ومنهجه في التغيير،وقد بسطنا في الحلقة السابقة مفهوم المنهج وموقعه في عقيدة الإسلام، وحددناه وضبطناه ووضحنا أركانه وآثاره.. وها نحن نتابع الموضوع ببحث وسائل التغيير وأدواته وكيفية إحداثه.

وسائل الإسلام في التغيير:

تتم عملية التغيير وتتثبت إسلامياً بواسطة ثلاث وسائل حسب ترتيبها الوارد في العقيدة هي؛

١ ـ الداعية أو المرجع.

٢ ـ الدعوة أو تبليغ العقيدة.

٣ ـ الدولة وهي التعبير القانوني عن وجود الأمة المؤمنة بالتغيير الإسلامي.

الداعية أو المرجع:

وهو ضرورة من ضرورات كل عقيدة إلهية أو وضعية، وعنصر مهم في كل عملية تغيير، ويجب أن يكون الأعلم في هذه العقيدة والأكثر فهماً وإخلاصاً لها، وخير الموجودين في زمانه وأفضلهم على سبيل الجزم واليقين لا على سبيل الافتراض والتخمين. وتلك صفات خفية لا يعلمها علم اليقين إلا الله سبحانه وتعالى لذلك تكفل بتقديم الداعية أو المرجع، وهذه الصفات مجتمعة توفرت بكل الأنبياء وبخاتمهم محمد ﷺ الذي أشرف على عملية التغيير الإسلامية وقادها خلال مرحلتي الدعوة والدولة معاً، وهذا الداعية أو المرجع هو قائد الدعوة وهو المشرف على عملية التغيير وهو ولي الأتباع وقائدهم وإمامهم، وهو مرشح العناية الإلهية ليكون إمام الدولة أو رئيسها في حالة نجاح الدعوة وتحولها إلى دولة وهو منظر عملية التغيير منظِّر الدعوة والدولة معاً ومحمد ﷺ، كان هو الداعية أو المرجع وكان مرشح العناية الإلهية ليكون أول إمام للدولة الإسلامية بعد مبايعة الأتباع له، وقد بويع بالفعل وحمل مسؤولية رئاسة أول دولة إسلامية ومن خلال

الدعوة والدولة بيَّن لنا كيف تتم عملية التغيير في الإسلام، وكيف تتثبت وتستمر وما هي قواعدها وبناها.

إستحالة نجاح عملية التغيير بدون داعية أومرجع:

آن الأوان لعلماء الإسلام وللأحزاب الدينية العربية أن يتيقنوا بأن التغيير دون داعية أو مرجع شرعي مستحيل، وأن يعلموا أن الصفات الواجب توافرها بالداعية صفات خفية لا يعلمها إلا الله، ومن المستحيل أن تتضمن العقيدة الإسلامية بياناً لكل شيء وأن تغفل الداعية أو المرجع. ومن المستحيل أن يترك اختبار المرجع أو الداعية لأهواءالناس لأن تركه لأهواء الناس يورث الخلاف والاختلاف، وإغفاله يؤدي لتُعدد المراجع وتعدد المراجع يؤدي حتماً إلى تقسيم الأمة إلى فرق وأحزاب بعدد هذه المراجع بحيث يستقطب كل مرجع فئة من هذه الأمة وتتكرس حالة الخلاف والاختلاف على مستوى الدعوة، وكثمرة لذلك تنشأ حالة الخلاف على مستوى الدولة فيما إذا تحولت الدعوة إلى دولة. ولو كان بالإمكان إحداث عملية التغيير دون داعية أو مرجع لأرسل الله سبحانه وتعالى نسخة من كل كتبه السماوية إلى كل فرد من أفراد البشر، وباستقراء وقائع التاريخ البشري لم نجد على الإطلاق أن الله قد أنزل كتاباً إلا على عبد من عباده، ولا بعث رسالة إلا بواسطة رسول من رسله، ستضج الأحزاب الدينية العربية ومعها علماؤها ويقولون: إن لدينا بفضل الله عشرات المراجع والدعاة فلكل حزب ديني مرجعه الخاص به. ونحن نقول لهم لو أن كل حزب ديني اعترف حقيقة بمرجعية الحزب الآخر لفقد مبرر وجوده ونقول لهم أيضاً إن الدعوة الواحدة لها ولكل أتباعها مرجع واحد. ففي زمن النبي ﷺ كان هو المرجع الوحيد للدعوة وهو سيد الدعاة وهو رمز وحدة الأتباع. ولو آمنت الأحزاب بوحدة المرجعية في الدين لتوحدت ولتحولت إلى حزب واحد بيوم واحد.

وباختصار على صعيد الدعوة ليس للإسلام والمسلمين إلا مرجع واحد. وعلى صعيد الدولة ليس للإسلام والمسلمين إلا دولة واحدة وعلى صعيد رئاسة الدولة ليس للإسلام والمسلمين إلا إمام واحد. وهذا ليس صدفة فإذا اختفت دولة الإسلام مؤقتاً فإن دعوة الإسلام لا تختفي، وبالضرورة فإن لها مرجعاً واحداً كرمز

لوحدة الدعوة ووحدة المسعى ليكون للدعوة الإسلامية كلها دولة واحدة. وقد حدد الله المرجع في كل زمان ولا يخلو زمان من مرجع. وإن توسعتم توسعنا.

الوسيلة الثانية:

الدعوة:

عملية التغيير في أساسها عملية عقائدية بالدرجة الأولى تتمثل بتفكيك عقيدة وضعية فاسدة مع كافة ما انبثق عنها من بنى فكرية وحقوقية وتصورية. وإثبات عمقها وفسادها وعدم صلاحيتها لسياسة المجتمع. وبنفس الوقت إحلال عقيدة الإسلام بكل ما ينبثق عنها من بنى فكرية وحقوقية وتصورية. محل العقيدة الفاسدة وإثبات نجاعة وصلاحية عقيدة الإسلام لسياسة الحياة والأحياء. وعملية التفكيك والإحلال هي في حقيقتها صراع فكري وسلمي وبدون عنف قوامه الكلمة وأساسه الإقناع وميدانه ومحله هو النفوس والنفوس وحدها.

وتتوقف نتيجة هذا الصراع الفكري على كفاءة الدعاة وانفتاح أو انغلاق عقول أبناء المجتمع المراد إحداث التغيير فيه. فلو كان الدعاة أكفاء وأغلق أبناء المجتمع عقولهم عندئذ لن تنجح العدوة ولن تتم عملية تفكيك العقيدة الفاسدة التي صنعت الواقع المراد تغييره، ولن تتم عملية إحلال عقيدة الإسلام كلها. وبهذه الحالة وعلى مستوى الدعوات الإلهية فإن النتيجة المحتومة هي إعلان وقف عملية التغيير وينزل العذاب بالمجتمع وتتم عملية استبداله بالقوة الإلهية **﴿يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾** (التوبة الآية: ٣٩). **﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾** (هود الآية: ٥٧). **﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾** (محمد الآية: ٣٨). وباختصار فإن أساس الدعوة هو الإقناع والاقتناع الناتج عن الرضى والاختيار.

على صعيد الواقع:

واقع المجتمع أي مجتمع بكل ما فيه من بنى فكرية وحقوقية وتصورية ووقائع مادية، ما هو في حقيقته إلا صدى أو أثر أو انعكاس لتطبيق عقيدة ما أو فهم المجتمع لهذه العقيدة وقناعته بها ورضاه عنها فإذا اختلت هذه العقيدة وتهاوت

أركانها في النفوس، وتفكك الاقتناع بها وزال الرضى عنها عندئذ يتداعى واقع ذلك المجتمع بصورة تبعية وحتمية وتنهار كافة آثار هذا الواقع وكافة البنى القائمة فيه لتفسح المجال لواقع جديد وضعت معالمه العقيدة الجديدة التي استقرت في النفوس.

أسلوب الدعوة:

لجأ النبي ﷺ إلى الكلمة المجردة، يخاطب بها الناس فرادى ومجتمعين كما فعل يوم صعد على الصفا، أو بصورة عائلية كحديث الدار أو بصورة فردية هو وأتباعه كما فعل مع خديجة زوجته وعلي أخيه وابن عمه، أو بعرض نفسه على قوافل الحجيج حتى أنه ليسأل القبائل قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم. وكانوا يقولون له: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، ويكلمونه ويجادلونه ويدعوهم إلى الله ويقول أخيراً: «اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا فكان ممن سمي من القبائل التي عرض نفسه عليها بنو عامر بن صعصعة وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو النضر وبنو البكاء وكنده وكلب والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة ولم يستجب له أحد منهم وساقه الله إلى حي من الأوس والخزرج فجلس إليهم ودعاهم فاستجابوا له وقيل آمن به رجل منهم وقيل رجلان وقيل ستة وقيل ثمانية أخذ هؤلاء يدعون إلى الله ويتكاثرون في بلدة يثرب. والخلاصة أنه يمكن التبشير بالعقيدة الإلهية والدعوة إلى الله بكل طريقة ممكنة.

ثمرة الدعوة ونتائجها:

يمكن تصور ثلاث صور لنتائج الدعوة أي دعوة:

الصورة الأولى: أن يفتح أبناء المجتمع عقولهم لدعوة العقيدة الجديدة ويتبنوها كاملة ويتخلوا عن عقيدتهم السابقة وكافة آثارها. وهذا ما لم يحدث في التاريخ البشري على الإطلاق، لأن المنتفعين من تطبيق العقيدة القديمة لهم مكتسبات لن يفرطوا بها طواعية.

الصورة الثانية: أن يغلق أبناء المجتمع المراد تغييره عقولهم في وجه العقيدة الجديدة ويتمسكوا بعقيدتهم السابقة فلا يؤمن منهم إلا القليل الذي لا يقوى على إحداث التغيير رغماًعن الأكثرية الساحقة التي تعارضه، وهذا ما حدث مع أكثرية الأنبياء الكرام كنوح وهود وصالح وشعيب. . .إلخ. وبهذه الحالة يعلن عن وقف عملية التغيير وينزل العقاب برموز المجتمع المراد تغييره والرافض للتغيير وتنجو القلة التي آمنت.

الصورة الثالثة: أن ينغلق المجتمع المراد تغييره على نفسه ويقاوم العقيدة الجديدة ويضيِّق على دعاتها ودعوتها، ولكن مع حصول الإصرار الإلهي على إحداث التغيير يؤمن بالعقيدة الجديدة عدد قليل ولكنه أكثر من العدد الذي تحصل بالصورة الثانية الآنفة الذكر، وهو العدد الذي أمكن تحقيقه قبل الهجرة النبوية. وهنا بالذات يكمن محور عملية التغيير ومنهجه في الكلام، وسنوضح كيف يتصرف الإسلام بهذا العدد القليل وينجز به عملية التغيير.

الوسيلة الثالثة من وسائل التغيير« الدولة»:

إيمان عدد معين بالعقيدة الإسلامية وإصرارهم تبعاً للإصرار الإلهي على إتمام عملية التغيير يعني نجاح الدعوة نجاحاً أساسياً. ولكنه غير كاف لإحداث عملية التغيير في مجتمع الشرك وبقاء هذا العدد أو هذه الجماعة في مجتمع الشرك يعني ضياعهم وسط الكثرة المشركة التي لا تؤمن بعقيدة الإسلام ولا بصلاحيتها لإدارة الحياة والأحياء، ويعني بالتالي انعدام الهوية السياسية والإضطرار للركوع والاحتكام إلى بنى الشرك الحقوقية على الأقل السائدة في المجتمع.

ومن هنا كان لا بد من تميز هذه الجماعة«العدد» ولا بد من التعبير القانوني عن وجود هذه الجماعة ويتحقق ذلك عن طريق الانسحاب المؤقت أو الهجرة من مجتمع الشرك والتجميع والتجمع في منطقة خاصة بهذه الجماعة وتكوين كيان سياسي وهو الدولة ليعبر عن الوجود الشرعي لهذه الجماعة وليقود الدعوة ويطبق العقيدة ويحمي الكلمة المجردة بالقوة الشرعية التي تضمن حرية الاختيار لمن يريد أن يختار ولترفع عنهم ضغط القوى التي تتمسك بالعقيدة الشركية الفاسدة وتقاوم

بعناد عملية التغيير، وبتكوين الكيان السياسي يتكون النموذج الحي المتحرك للعقيدة الإسلامية وتتواجد القاعدة التي يأوي إليها كل طلاب التغيير وعشاق عقيدة الإسلام ومذهبه ونظامه، وتكون هذه الدولة علاوة على ذلك هي الناطقة باسم الجماعة والحامية لهم وهي التي ستتولى بالتعاون مع الجماعة والطرائق والسبل الشرعية إتمام عملية التغيير وإنقاذ المجتمع المراد تغييره من نفسه ومن عقيدته الفاسدة، ولكن كيف يتم ذلك وما هي أداته وما هي الخطوات التفصيلية المحددة بالشرع لا بالاجتهاد؟ هذا ما سأجيب عليه في الفصول القادمة إن شاء الله.

الفصل الثالث عشر

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

«مراحل التغيير في الإسلام»

قلنا في الفصلين السابقين إن الإسلام قد اشتمل ـ على خطة من جملة مشتملاته ـ للتغيير متميزة تماماً عن الخطط الوضعية، وأن هذه الخطة قد وضعها الله سبحانه وتعالى وأوصى بها إلى عبده ونبيه محمد ﷺ وكلفه بأن يبينها من خلال دعوة الإسلام ودولته، وأن يطبقها في مرحلتي الدعوة والدولة، وقد اتبع النبي ما أوحي إليه وصدع بما أمر به، ولم ينتقل إلى جوار ربه إلا بعد كمال الدين وتمام النعمة على الصعيدين النظري والعملي، وقد بينا الكثير من معالم هذه الخطة وها نحن استكمالاً للبحث نتناول مراحل التغيير في الإسلام.

بين يدي مراحل التغيير في الإسلام:

حتى لا نضيع، وحتى نربط الموضوع ربطاً منهجياً يجب أن نستذكر أن للتغيير أركاناً في الإسلام تشكل بنى تحتية ومنطلقات أساسية إذا فقد ركن منها تختل عملية التغيير تماماً وتفقد صفتها الإسلامية وهذه الأركان هي:

١ ـ **الركن الشخصي**: وهو الشخص الذي يشرف على إجراء وتنفيذ عملية التغيير الإسلامية وهو المرجع المختص ببيان أحكام العقيدة الإسلامية على سبيل الجزم واليقين وهو المرجع فلا عقيدة بدون مرجعية وهو قبطان سفينة الإسلام.

٢ ـ **الركن الثاني وهو الركن الموضوعي**: وهو العقيدة الإسلامية، ونعني بالعقيدة الإسلامية نظرياً مجموعة القواعد والأحكام والأوامر والنواهي والمبادىء

والمعلومات العامة والتفصيلية التي أنزلها الله تعالى على نبيه.

وقام هذا النبي ببيانها للناس نظرياً عبر دعوة قادها بنفسه وعبر دولة ترأسها بنفسه، وهذه العقيدة بينت كل شيء على الإطلاق وقدمت تصوراً يقينياً لمنظومة العلاقات كلها وعلى كل صعيد.

٣ ـ **الركن الثالث وهو الركن الواقعي**: ويتمثل بالواقع المراد تغييره فالمرجع أو الشخص هو بمثابة الطبيب والعقيدة هي بمثابة الصيدلية التي تحوي دواء، والواقع المراد تغييره هو بمثابة المريض، والغاية الكبرى للإسلام هي إنقاذ الجنس البشري كله على اعتبار أنه المريض وأنه بالذات موضوع مشروع الهداية الإلهية فإذا فقد ركن من هذه الأركان الثلاثة تتعثر عملية التغيير وقد تفشل على الغالب، أما إذا توفرت هذه الأركان عندئذ تبدأ مراحل التغيير.

معنى مراحل التغيير:

المرحلة: هي مساق أو مسافة من طريق، إنها فصل من كتاب أو خطة متكاملة مع خطوات تؤدي في النهاية وبصورة حتمية لتحقيق الغاية الشرعية الكبرى مرحلياً وهي التغيير على الطريقة الإسلامية وتؤدي لترسيخ هذا التغيير واستقراره بعد إحداثه وتوظيفه لصالح الجنس البشري، لأن التغيير بذاته ليس هو الهدف في الإسلام بل إن التغيير مرحلة لا بد منها لإنقاذ الجنس البشري وإصلاحه ووضعه على الصراط المستقيم الذي يمكنه من إشباع حاجاته ورغباته كلها من مادية وروحية وبث السكينة في ذات أفراده وإدارة حياتهم على الوجه الأمثل وإيجاد التوافق والانسجام بين أبناء هذا الجنس مع بعضهم وبينهم وبين مظاهر الكون المحيطة بهم والمسخرة لخدماتهم من جهة أخرى، وبالنتيجة إرساء قواعد التوافق والتواصل والانسجام ما بين المخلوقات والخالق، وذلك ضمن خطة مبرمجة تنفذ مرحلياً ـ على مراحل ـ خطوة بعد خطوة ومرحلة بعد مرحلة بدون رجة وبدون هزة وكأنها خطوة تتبع خطوة ومرحلة تلي مرحلة بهدوء تماماً كما تدخل السنة بالسنة وكحالة إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل بحيث تجد نفسك في آخر

هذه المراحل وقد دخلت اليقين من أوسع الأبواب بكل ما فيه من سكينة واطمئنان واكتفاء.

التغيير على مراحل ولكن ضمن العقيدة الواحدة:

لا بد من التنويه بأن العقيدة الإلهية «الإسلام» هي عقيدة كل الأنبياء، وبشرى كل الأنبياء، وأن كل نبي قد جاء بفصل من كتاب هذه العقيدة، ورفع مشعلاً من مشاعل هدايتها، فكانت هذه الشعل محطات بارزة في ظلمات التاريخ البشري وعندما شاءت العناية الإلهية أن تختم الرسالات برسالة محمد وأن تختتم النبوات بنبوة محمد، أخذت العقيدة الإلهية صورتها النهائية وإن شئت تم تبليغ العقيدة الإلهية للبشر بصورتها النهائية الكاملة وهو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وقد اتضحت هذه العقيدة نظرياً «على الصعيد الفكري والتصوري» عبر دعوة وعبر دولة، واتضحت عملياً «على صعيد تحويل الفكر والتصور إلى واقع ملموس» أيضاً عبر دعوة وعبر دولة، ولم ينتقل النبي إلى جوار ربه إلا بعد الكمال المطلق على الصعيدين النظري والعملي، فالتغيير يتم مرحلياً ولكن ضمن العقيدة الواحدة وبطريقة العقيدة الإلهية الواحدة.

حصر وتعداد مراحل التغيير في الإسلام:

بالاستقراء الدقيق للعقيدة الإلهية بصورها المختلفة التي بشَّر بها كل الأنبياء الكرام وبصورتها النهائية المثلى التي جاء بها خاتم الأنبياء محمد ﷺ «وهي الإسلام» نجد أن مسافات التغيير أو خطواته أو مراحله تستحضر في ثماني مراحل:

١ ـ تقييم الموقف بعد فترة من الشروع في الدعوة.

٢ ـ قرار الانسحاب من مجتمع الشرك.

٣ ـ إعداد القاعدة المكانية الدائمة لتجمع الذين آمنوا «الإيواء».

٤ ـ الانسحاب أو الهجرة إلى دار الإيمان.

٥ ـ التجمع والتنظيم.

٦ ـ إعلان دولة الإيمان وممارستها لسلطنتها.

٧ ـ المواجهة بين دولة الإيمان ودعوته وبين دول الشرك ودعواتها.

٨ ـ التأكيد على وجوب تحقيق الغاية القصوى للإسلام المتمثلة بإنقاذ الجنس البشري كله وتبليغه دعوة الإسلام، لا بقصد الفتح والاستعمار ولكن بقصد إشاعة الهداية وتحرير البشرية ووضع الإصر والأغلال عنهم.

تبسيط وتوضيح مراحل التغيير في الإسلام:

المرحلة الأولى: التقييم بعد الدعوة: عقيدة الحق نور وعقيدة الشرك ظلمات، ومن المستحيل عقلاً وشرعاً تعايشهما معاً فلا بد أن تهزم إحداهما الأخرى، ولو تكافأتا لهزمت عقيدة الباطل، ولكن السر يكمن في عدم التكافؤ، وبعد الشروع بدعوة الحق وبوقت يطول أو يقصر ينغلق المجتمع الجاهلي بوجه دعوة الحق ويضيق صدره بها، ويفرض المجتمع الجاهلي المواجهة غير المتكافئة بين عقيدة الشرك ودعوتها المسلحة بالقوة الغاشمة والمدعومة من الأكثرية الساحقة من أبناء المجتمع الجاهلي وبين عقيدة الحق التي تتبناها القلة القليلة المؤمنة والمسلحة بالمنطق والكلمة الطيبة وهي مواجهة معروفة النتائج سلفاً لأن المجتمع الجاهلي لن يوقفها قبل القضاء على الداعية، وإطفاء نور الدعوة، وفتنة أتباعها وتركيعهم لعقيدة الشرك، بهذا الجو المشحون بالتوتر والإحباط يتم تقييم الموقف ويقتنع الداعية بعد تقليب الأمور على مختلف الوجوه أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأن المنطق والكلمة الطيبة ليست هي المنبر المناسب للقوة الغاشمة التي تتصرف بها عقيدة الشرك، وأن القلة المؤمنة عاجزة تماماً بمثل هذه الظروف عن إحداث التغيير وحسم المواجهة لصالح عقيدة الحق، ويقتنع أن الاستمرار بالدعوة بمثل هذه الظروف عبث لا طائل تحته، وأن تسليم الداعية وأتباعه نتيجة هذه المواجهة هو بمثابة التوقيع على صك الاستعباد والهوان، وتوضع نتيجة هذا التقييم بين يدي الله العالم بكل شيء وعلى ضوء هذا التقييم يصدر الأمر الإلهي بوقف عملية التغيير، ويتولى الله بنفسه مواجهة المجتمع الجاهلي ويحسم الصراع لصالح الحق وعقيدته ولكن ليس بيد الفئة القليلة المؤمنة إنما ببعض جند الله الذي لا يحصى

كالماء والريح والنار والزلزلة والملائكة وهذا ما حدث مع الأنبياء نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، ولوط، وموسى. . .إلخ. حيث تم وقف عملية التغيير، وتولت العناية الإلهية مواجهة عقائد الشرك وأتباعها.

خصوصية مرحلة التقييم في الإسلام:

لقد تعرضت دعوة الإسلام لأشد مما تعرضت له الدعوات الإلهية السابقة وتمت المواجهة بينها وبين عقيدة الشرك في ظلال نظام مواجهة الشرك الذي بيناه، وكان من المفترض حسب المقاييس الموضوعية أن يتم وقف عملية التغيير أمام الأهوال التي تعرض لها النبي ودعوته وعترته وأتباعه:

١ ـ **فعلى صعيد الداعية أو المرجع:** فقد استهزأ بالداعية وسخر منه وجرت محاولات لإغرائه وألصقت به أشنع التهم فقيل عنه ـ حاشا له ـ إنه كذاب، وإنه ساحر، وإنه كاهن وآذوه مرة وسدوا كافة المسالك في وجهه وتآمروا على قتله ومحاولات قتله لم تتوقف.

٢ ـ **وعلى صعيد العترة الطاهرة:** فقد اجتمعت كل بطون قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب وعلى حصارهم في شعاب أبي طالب واستمرار الحصار ثلاث سنين ولهذه البطون مطلب واحد يتمثل بتمكين قريش من قتل محمد، وبرفع الهاشميين والمطلبيين حمايتهم له، ولكن العترة صمدت ولم تستسلم وحمت الدعوة والداعية.

٣ ـ **على صعيد الدعوة:** فقد طعنوا بالقرآن الكريم نفسه وقالوا عنه ـ حاشا له ـ **﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**، وآيات القرآن الكريم حافلة باتهاماتهم، وحاولوا أن يجذبوا الناس عنه عن طريق هذا الزعم، وأبرزوا محدثين يحدثون عن الأمم السابقة كما فعل النضر بن الحارث إذ كان يحدث قريش عن ملوك فارس، وخصصوا فرقة خاصة للاستهزاء بالنبي ودين الإسلام من أبرز أعضائها الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد والعاص بن وائل وأسود بن عبد المطلب والأسود بن يغوث، والحرث بن عيطلة وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاص بن أمية جد ملوك بني أمية ووالد مروان بن الحكم، وأبو جهل. . .إلخ.

٤ ـ وعلى صعيد الأتباع: ثارت كل قبيلة بمن أسلم من أفرادها فعذبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم كما فعلوا ببلال وبالمسلمة زنيرة التي عميت من التعذيب والمسلمة لطيفة التي عذبها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى ملّ عذابها، والخباب بن الأرث وياسر وعمار، وحاصروا من يريد الهجرة لمنعهم من المهاجرة ومحاولة طرد المهاجرين من مهاجريهم كما فعلت قريش يوم أرسلت عمرو بن العاص في أثر الذين هاجروا إلى الحبشة.

والخلاصة:

بتقييم الموقف اقتنع النبي أنه لن يؤمن من قريش إلا من قد آمن، وأن المنطق والكلمة الطيبة ليست هي المنبر الملائم للقوة الغاشمة وأن القلة المؤمنة عاجزة عن إحداث التغيير، والاستمرار بالدعوة بمثل هذه الظروف عبث لا طائل تحته وهذه هي النتيجة التي وصل إليها أكثر الأنبياء، كان من الممكن أن تتوقف عملية التغيير على ضوء هذا التقييم لكن الله قرر أن يحق الحق وأن يقطع دابر الشرك وأن يجعل كلمته هي العليا فأمر باستمرار الجهد لإتمام التغيير، وعلى ضوء ذلك كله تم اتخاذ القرار التاريخي بانسحاب الذين آمنوا من مجتمع الشرك وبدأت المرحلة الثانية وهي مرحلة الانسحاب من مجتمع الشرك وهذا ما سنوضحه مع بقية مراحل التغيير في الحلقة القادمة إن شاء الله.

الفصل الرابع عشر

سباحة بمواجهة تيار الأحزاب

تبسيط مراحل التغيير في الإسلام

في معرض عرضنا لخطة ونظرية الإسلام في التغيير قلنا في الفصل السابق إن التغيير في الإسلام لا يتأتى طفرة، إنما يحدث عبر سلسلة من المراحل الإبداعية، فكل مرحلة سابقة تشكل أساساً تحتياً للمرحلة التي تليها، حتى ليلوح الانتقال من مرحلة إلى مرحلة كأنه خطوة تتبع خطوة أو كأنه يوم يلي يوماً أو شهراً يدخل في الشهر الذي يليه. وقد حصرنا مراحل التغيير وعددناها في الحلقة السابقة وقلنا إنها تتكون من ثماني مراحل، ووعدنا أن نبسطها ونوضحها بالقدر الذي تفهمه الخاصة وتعيه، ولا تجد العامة عسراً في استيعابه وتلقيه وها نحن نفعل ذلك ضمن هذا التحديد.

المرحلة الأولى: التقييم واستخلاص النتائج:

وضحنا هذه المرحلة في الفصل السابق ولربط الموضوع نستذكر أن المجتمع الجاهلي يصل في أسوأ أطواره وآخر مراحل زواله إلى مرحلة الانغلاق التام في وجه دعوة الحق ويتبلد تماماً فلا تنفعه الدعوة ولا ينتفع بها تماماً كالمريض المشرف على الهلاك لا ينفعه دواء وهو ما يعرف قرآنياً باصطلاح «الطبع على القلوب» وأحياناً «ران على قلوبهم» وسورة نوح الواردة في القرآن الكريم ترسم صورة فنية كاملة وغنية بالتفاصيل لهذا الطور من حياة المجتمع الجاهلي. فعندما يصل ذلك المجتمع إلى طور الانغلاق لا يكتفي به إنما يفرض مواجهة غير متكافئة

بين كثرته الساحقة التي تتبنى العقيدة الجاهلية ودعوتها من جهة وبين القلة المؤمنة التي تتبنى عقيدة الإسلام ودعوته من جهة أخرى. ويهدف هذا المجتمع من خلق المواجهة أن يجتث كلمة الحق من جذورها وأن يقضي على الدعوة والداعية والأتباع. وهو يعتقد أنه بمشاريعه تلك يحسن صنعاً ويتقرب إلى الآلهة ويعبر عن وفائه لسواع ويغوث ويعوق ونسر زمانه.

عند هذه المرحلة وقف كل الأنبياء الكرام، وقيموا الموقف، واستخلصوا النتائج، فلو بقي نوح أول الدعاة ٩٦٠ ألف عام لما غير المعادلة ولما آمن من قومه إلا من قد آمن، كذلك لو بقي النبي محمد ﷺ في مكة ١٣ ألف عام لما تغيرت المعادلة ولما آمن من قومه أهل مكة إلا من قد آمن. والاستمرار بالدعوة بهكذا ظروف ضرب من العبث، وحوار مع الصلخد الصم وعندما يتم تقييم الموقف وتقديره بعد سنين من تعثر الدعوة والوصول إلى قناعة مفادها استحالة نجاح الدعوة أمام انغلاق المجتمع الجاهلي يطرح السؤال الكبير فما هو المخرج؟.

المرحلة الثانية: اتخاذ القرار بالانسحاب:

المجتمع الجاهلي قد انغلق تماماً في وجه دعوة الحق وعقيدته، وألغى تماماً لغة العقل والمنطق والحوار، واستبدلها بالمخالب والقوة الغاشمة ليركع القلة المؤمنة التي تتبنى دعوة الحق، وهو يبذل قصارى جهده ليعيد هذه القلة المؤمنة إن استطاع صاغرة إلى عقيدة الأكثرية وهو يلاحقها بلا كلل ولا ملل، يضيق بها ويضيق عليها ويجعل الخيار الوحيد أمامها العودة لعقيدة الأكثرية بعد أن كفرت بها والركوع لحكمها بعد أن خرجت منه وبغير ذلك يتوجب على هذه القلة المؤمنة أن تواجه العنت والإذلال والتصفية أو العزلة. عندما كانت المجتمعات الجاهلية تتجاوز المدى وتصل بظلمها إلى هذا الحد كانت العناية الإلهية تتدخل فتوقف عملية التغيير وتضع حداً لعسف المجتمعات الجاهلية وقوتها الغاشمة بواسطة جند الله غير البشر، وتنمو القلة المؤمنة وتهلك الأكثرية الظالمة.

حيثيات قرار الانسحاب الإسلامي:

كوّن النبي محمد ﷺ نفس القناعات التي توصل إليها الأنبياء من قبله عن

المجتمع الجاهلي المنغلق، واقتنع تماماً أنه لن يؤمن من أهل مكة إلا من قد آمن، مما يجعل البقاء في مجتمع هذا وضعه، واستمرار دعوته عبثاً لا طائل تحته، خاصة وأن المجتمع الجاهلي قد فرض المواجهة على القلة المؤمنة، وأن هذه القلة عاجزة تماماً عن حسم المواجهة لصالح الحق.

العودة لملة الشرك مستحيلة والرضوخ لحكم الشرك مستبعد وتأباه النفس المؤمنة، وقبول ضياع القلة وسط الكثرة المعادية لها غير وارد، والقلة المؤمنة لن تقبل بالعيش على هامش المجتمع.

والركوع أمام المحن، والاستسلام لغير الله ضد طبيعة عقيدة الإسلام، وضد طبيعة رسول الإسلام محمد، وضد الطبيعة الهاشمية حامية الدعوة والداعية آنذاك.

قرار الانسحاب من المجتمع الجاهلي:

إن البديل الوحيد المتاح هو الوقف المؤقت لعملية تغيير المجتمع الجاهلي في مكة، ثم الانسحاب إلى حين من هذا المجتمع ولكن بنية العودة لإتمام عملية التغيير التي ستتوقف اضطرارياً. وبنية دخول هذا المجتمع فيما بعد دخول الفاتحين. وهذا ما قرره مرجع الإسلام وداعيته آنذاك محمد ﷺ وأخذ يعد العدة لتنفيذه.

تلك أول مرة في التاريخ البشري يتم اتخاذ قرار بالانسحاب من مجتمع الشرك بهذا الحجم وبهذه النية وعلى هذا المدى، وهو مختلف ومتميز عن قرار أهل الكهف وعن قرار موسى وهارون وبني إسرائيل قد انصب بالدرجة الأولى على التخلص من عقيدة الشرك وحكمه ومجتمعه، والنجاة بالدين والنفس والعرض والمال مع الإصرار على عدم العودة. ومن هنا فإن قرار الانسحاب الإسلامي من مجتمع الشرك نسيج وحده في التاريخ البشري.

المرحلة الثالثة: إعداد القاعدة المكانية، الإيواء:

بعد أن تم اتخاذ القرار بالانسحاب من المجتمع الجاهلي تأتي مرحلة تعيين وتحديد القاعدة المكانية التي ستأتي إليها القلة المؤمنة بعد انسحابها فعلياً من

المجتمع الجاهلي، ولا يشترط أن تكون هذه القاعدة خالية من السكان فهذا غير وارد ولا ينبغي أن يكون، فمدينة يثرب كانت تسكنها جالية يهودية كبيرة جداً تتحكم في العصب الاقتصادي وكانت تسكنها فئة مشركة وفية لأوثانها لكن المهم أن الجماعة المؤمنة كيان واحد مميز له مرجعيته وقيادته وأن الكلمة العليا هي للجماعة المؤمنة وأن الحكم فيما يشجر من خلافات بين الجماعات والأفراد هو الله ورسوله ولا حرج من التعامل مع الجماعات المتواجدة في قاعدة الإيواء لكن الحقيقة المؤكدة أن هذه القاعدة هي الإقليم بالمفهوم الدستوري وأن الجماعة المؤمنة هي السلطة وأن مرجعية هذه الجماعة (النبي) هو رئيس السلطة وأن مهمة السلطة هي أن تكون النموذج الأمثل وأن تعطي العدالة الشرعية لجميع القاعدة بغض النظر عن الدين أو اللون أو الولاء وأن تتيح الحرية للجميع وأن تضع الهداية بين يدي الجميع وأن تحمي الجميع.

ويمكنك القول إن النبي من خلال اتصالاته التي لم تنقطع من قبائل العرب بمواسم الحج كان يبحث عن القاعدة حتى ساقه الله إلى حي من الخزارجة فكانت يثرب هي القاعدة أو الإقليم، ورحلته للطائف كانت بحثاً واستكشافاً لهذه القاعدة، والخلاصة أنه قد اتخذ القرار بأن يثرب هي القاعدة.

المرحلة الرابعة: الهجرة إلى القاعدة:

بعد اتخاذ القرار بالانسحاب من المجتمع الجاهلي وتحديد المكان الذي ستستقر فيه الجماعة المؤمنة تبدأ عملية الهجرة الفعلية أي الانتقال من مجتمع الشرك إلى مجتمع الإيمان الجديد، وتصبح الهجرة رمز الإيمان، وواجبه على كل مسلم ومسلمة حيث يتجمع المسلمون في قاعدة الإسلام ويضعون أنفسهم تحت تصرف السلطة المؤمنة لتوجههم بالطريقة الشرعية لتحقيق الغايات الشرعية وتبقى الهجرة مفروضة حتى يتم تغيير المجتمع الجاهلي فإذا تغير المجتمع الجاهلي وخضع لسلطة الإسلام عندئذ تتوقف الهجرة وتكون الإقامة شرعية ومباحة بأي جزء من دار الإسلام. فإذا انهارت دولة الإسلام وبوقت يطول أو يقصر نشأت قاعدة إسلامية تعود الهجرة واجبة لأنها مرحلة من مراحل التغيير القائمة إلى يوم القيامة ودليلنا قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تطلع الشمس من مغربها» (راجع إخراج

الأمة المسلمة لماجد الكيلاني وقد نقله عن سنن الدارمي باب السير). ومع الهجرة إلى القاعدة تهجر النفوس عقائد الشرك ونظمه وحكمه، وتهاجر إلى عقيدة الإيمان ونظامها وحكمها. والهجرة مرحلة أساسية في التغيير يتعذر على الأحزاب الدينية العربية الاستمرار في تجاهلها أو المضي في تأويلاتها الخاطئة لها.

المرحلة الخامسة: التجمع والتنظيم:

وتتحقق هذه المرحلة عندما تتجمع الأكثرية الساحقة من الفئة المؤمنة في قاعدة الإيواء وتلتقي هذه الأكثرية مع المرجعية أو القيادة فتقوم القيادة بتنظيم الجماعة المؤمنة «نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار» وينتهي التنظيم بتحويل الجماعة المؤمنة إلى كيان ذاتي مستقل وقائم بذاته ومرتبط مع المرجعية بنظام الولاية وبعد ذلك يتم تنظيم المجتمع كله(كل السكان) والدستور النبوي (الصحيفة) التي وضعها النبي بعد الهجرة تعكس طبيعة هذه العلاقة وهذا الدستور يتألف من ٤٧ مادة والمادة ٤٢ من الدستور أعطت بكل وضوح رئاسة المجتمع للنبي إذ نصت بالحرف «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث» استجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرها» (راجع ابن هشام وما بعدها وراجع مجموعة الوثائق السياسية وقد أشار إليها اللواء السوري مصطفى طلاس في كتاب الرسول العربي وفن العرب عند العرب ونسبها إلى ابن إسحاق. وذكر ذلك ظافر القاسمي في كتابه نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ص ٣١ ـ ٣٦).

المرحلة السادسة: إعلان دولة الإسلام:

المراحل الخمسة السابقة أوجدت من الناحية الواقعية كياناً سياسياً له كل مقومات الدولة المتعارف عليها في الفقه الدستوري المعاصر من إقليم وأمة وسلطة وما يستتبع ذلك من وجود رئيس للدولة وشريعة تنظم العلاقات وسلطة تنفيذية وقضائية، ومن تعيين ولاة، وفرض الضرائب وإقامة الحدود... إلخ. والدستور النبوي يعتبر بمثابة إعلان لقيام الدولة الإسلامية وكتب النبي إلى ملوك الأرض آنذاك أكدت هذا الإعلان.

المرحلة السابعة: المواجهة:

عقائد الشرك لها دعوات ولها كيانات سياسية تدعم هذه الدعوات بل وتفرضها، عقيدة الإسلام لها دعوة ولم يكن لها كيان سياسي يحمي الدعوة، وبأي لحظة كانت الكيانات السياسية التي تحمي دعوات الشرك تكشر عن أنيابها وتستعمل مخالبها مما يجعل المواجهة بين عقائد الشرك ودعواتها من جهة وبين عقيدة الإسلام ودعوته من جهة أخرى غير متكافئة.

وبقيام دولة الإسلام تحقق التكافؤ بين عقيدة الشرك ودعوتها وكيانها السياسي من جهة وعقيدة الإسلام ودعوتها وكيانها السياسي من جهة أخرى.

تعطي الحرية للجميع، وترفع كافة الضغوط عن الجميع وتكون المواجهة بين عقيدة الإسلام ودعوته من جهة وبين عقيدة الشرك ودعوتها من جهة أخرى مواجهة سليمة متحضرة تأخذ طابع الحوار الناشر للحقيقة المجردة والمعادي للتقليد الأعمى، والقائم على القناعة والاقتناع واستمرار الحوار. فإذا اقتنع أحد بالإسلام فلا توضع العوائق أمامه.

وتتدخل دولة الإسلام فقط لإعطاء الحرية، ولرفع الضغوط ولخلق الظروف المساعدة على القناعة والاقتناع. ولجعل الصراع الفكري بين العقيدتين متكافئاً. ولتوسيع نطاق الهداية الإلهية ليشمل العالم كله، ليعيش في أفيائها المباركة وما يميز دولة الإسلام عن غيرها من الدولة هو أنها تعطي الحرية للجميع وتمنح العدل للجميع وترفع الضغوط عن الجميع ويتساوى فيها الجميع أمام الشريعة وبمستوى المعيشة وأنها لا تستعمل القوة إلا كرصيد احتياطي، وإذا استعملت القوة فبالقدر الممد إلهياً لا للانتقام إنما إشفاق تماماً كما تستعمل الأم القوة أحياناً مع أولادها. لأن دولة الإسلام هي الأم الرؤوم والمسلمون أولادها. وهي التعبير القانوني عن وجود الأمة وعن حكم الإسلام.

الفصل الخامس عشر

الفكر السياسي الإسلامي بين التطرف والتفريط(١)

١ ـ مفهوم الفكر السياسي:

الفكر السياسي على العموم وبطبيعته تابع، يرتبط برابطة عضوية مع العقيدة أي عقيدة ويدور في مدارها. فحيثما وجدت العقيدة يستتبع بالضرورة وجود فكر سياسي، وحيثما انتفى وجود العقيدة يستتبع بالضرورة أيضاً انتفاء وجود الفكر السياسي. وانتفاء وجود العقيدة غير وارد بالضرورة، لأنّ أي مجتمع سياسي لا بد له من عقيدة، تقدم له تصوراً متناسقاً لكينونته الواقعية وأيلولته المستقبلية وأسباب بقائه وارتقائه مستحكمة نظرياً بشبكة العلاقات العامة والخاصة، محددة للأهداف، ومبينة لوسائل بلوغها واهبة للشرعية عبر منظومتها الحقوقية وروحها العامة.

وهنا يأتي دور الفكر السياسي الذي يواكبها ويلد بالضرورة بولادتها فيبدي مطالعته عليها ويشهد عملية تكييف النص على الواقع في ظلالها. وتتبيع الحركة الواقعية للفكرة العقائدية لتبقى تحت سيطرتها، فكأن الفكر السياسي يقوم بترشيد الحركة السياسية للمجتمع بحيث تبقى دائماً ضمن المدى المرسوم لها في مخطط العقيدة.

وتتحقق حالة الانسجام بين العقيدة والفكر السياسي بحجم دقة التصور الذي تقدمه تلك العقيدة، فإذا اختل هذا التصور واقعياً عبر مسيرته التطبيقية تختل تبعاً لتلك العلاقة بين العقيدة وبين الفكر السياسي، وما يزال هذا الاختلال يتعمق، وما

تزال الفجوة تتوسع حتى تحدث عملية فك بين العقيدة السائدة وبين الفكر السياسي الذي نشأ في ظلالها وتؤدي تلك العملية في النتيجة إلى ثبوت عقم العقيدة السائدة وعجزها عن إدارة دفة الحياة والأحياء في المجتمع الذي كانت تسوده وتمده بالشرعية والمشروعية مما يفسح المجال لاستبدالها بعقيدة أخرى لينشأ في ظلالها فكر سياسي جديد فيدور في مدارها. . . إلخ.

٢ ـ نشأة الفكر السياسي الإسلامي:

الفكر السياسي الإسلامي لا يشذ عن التحليل السابق فالعلاقة بينه وبين العقيدة الإسلامية علاقة وطيدة، وصلته بها صلة عضوية. وقد ولد هذا الفكر بشروق شمس العقيدة الإلهية، فواكبها وبشَّر بها وهي دعوة ورافقها عندما تمخضت الدعوة الإسلامية عن الدولة الإسلامية المثلى «دولة النبي ﷺ» وتابع تطبيقاتها المختلفة في صورة الخلافة الراشدة، ولم يقطع صلته بها يوم تحولت الخلافة إلى ملك يؤول لمن غلب، ومضى في ركابها حتى تفككت بسقوط آخر السلاطين العثمانيين. وها هو الآن يبشر بها وينادي بتطبيقها، يتباكى بحرقة عليها، بكاء تختلط فيه العاطفة مع العقل، والفكر مع العقيدة والتاريخ السياسي الذي ساد مع النظام السياسي المنبثق عن هذه العقيدة، ويختلط ما تهوى الأنفس مع الدين نفسه، خلطة عجيبة تحتاج إلى فك اشتباك من نوع آخر وعلى كافة الجبهات الفكرية.

٣ ـ خصوصية الفكر السياسي الإسلامي:

قلنا إن الفكر السياسي عموماً ينشأ في ظلال عقيدة ـ أي عقيدة ـ ويرتبط معها وجوداً وعدماً، سواء أكانت العقيدة وضعية كعقيدة الحكم المطلق، أو التحررية الرأسمالية أو الماركسية الشيوعية أو عقيدة إلهية كالإسلام ـ دين كل الأنبياء ـ بصورته النهائية والفارق بين الفكر السياسي الإسلامي وبين غيره هو أن الفكر السياسي الإسلامي يدور في مدار عقيدة إلهية بينما الفكر السياسي الآخر يدور في مدارات عقائد وضعية.

٤ ـ مدى الفكر السياسي الإسلامي:

الفكر السياسي الإسلامي معني بكل ما تتناوله العقيدة الإسلامية مع تركيز

خاص على الحركة السياسية للمجتمع وعلى النظام السياسي المنبثق عن العقيدة الإسلامية. وغايته أن تبقى الحركة السياسية للمجتمع في حالة تبعية التوجيهات والغايات الإلهية وأن يبقى النظام السياسي الإسلامي تماماً ضمن المنظومة الحقوقية الإلهية وأن تتعاون القيادة الإسلامية مع الفكر الإسلامي مع المجتمع الذي تسوسه العقيدة الإسلامية لترجمة النصوص الواردة في المنظومة الحقوقية الإلهية من عالم النظر والنص إلى عالم التطبيق والحركة، بحيث تكون الحركة السياسية للمجتمع تابعة ومعيرة اهتماماً بالمنظومة الحقوقية الإلهية وأنت ترى أنه من هذه الناحية لا فرق بين العقيدة الإلهية وبين العقائد الوضعية كل ما في الأمر أن العقائد الوضعية تستهدف تقييد حركة المجتمع السياسية بقواعد المنظومة الحقوقية الوضعية «دولة القانون». بينما تهدف العقيدة الإلهية الإسلامية إلى ترشيد حركة المجتمع السياسية وفق قواعد المنظومة الحقوقية الإلهية.

٥ ـ الثقلان:

١ ـ العقيدة.

٢ ـ القيادة السياسية.

حركة المجتمع السياسية وفق العقيدة الإلهية محكومة بثقلين: الثقل الأول وهو العقيدة وهي بمثابة مخططات عامة وتفصيلية تغطي بالكامل حركة المجتمع السياسية بالحال والمآل، أو إن شئت فقل إنها بمثابة صيدلية كبرى تحوي العلاج الشافي من كل داء، فيها التجذير النظري لكل داء، والتنظير النظري لكل دواء، وتقدم ضمانة مؤكدة بفاعلية هذا العلاج، ويمكنك القول إنها منظومة حقوقية تغطي حياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والعالم كله وتنظم علاقاته وتقوده إلى التعاون والانسجام وتشبع حاجاته المادية والروحية هذا على صعيد ثقل العقيدة.

أما على صعيد القيادة المنبثقة من هذه العقيدة فهي بمثابة المهندس الذي استوعب هذه المخططات العامة والتفصيلية أو هو بمثابة الطبيب والصيدلاني الذي يشخص المرض ويصف العلاج ويقدمه لك من الصيدلية «العقيدة» ويتابعك وأنت

تتناوله وهو المنظر للمنظومة الحقوقية الإلهية وهو الأعلم بها وهو الأصلح من بين كل الموجودين، وهو أفضلهم.

وكقيادة سياسية هو المخول بقيادة حركة المجتمع السياسية وفق قواعد هذه العقيدة. فهو المبين لها من خلال نقلها وتبليغها كما تلقاها من ربه ومن خلال ترجمتها من النص إلى الحركة بعد عملية النقل والتبليغ وهو الشاهد على عملية البيان بشقيها وهو المبشر وهو المنذر وهو الداعية إلى الله وهو السراج الذي ينير درب المجتمع أثناء حركته السياسية.

٦ ـ القيادة السياسية في العقيدة الإلهية:

الله الذي أنزل العقيدة هو وحده الذي يعلم من هو أفضل الموجودين، ومن هو المؤهل لبيان أحكام هذه العقيدة ومن هو القادر على أداء الشهادة بدقة ومن هو المؤهل للتبشير والتنذير ومن هو القادر على أن يكون الداعية الموثوق إلى الله والسراج المنير لحركة العالم السياسي. ولأنه هو وحده الذي يعلم هذه المزايا علماً يقينياً لذلك حصر بنفسه حق ترشيح القيادة السياسية لتقود الدعوة إلى العقيدة وتقود الدولة عندما تتمخض الدعوة عن دولة وليطبق قواعد تلك العقيدة على صعيدي الدعوة والدولة.

٧ ـ دور الأمة:

فإذا قبلت الأمة الترشيح الإلهي للقيادة السياسية فقد اهتدت وسارت على درب الفلاح وتقطف الأمة والقيادة معاً ثمرة تطبيق العقيدة الإلهية وتمارس تلك القيادة السياسية دورها وتستمد شرعية وجودها من مصدرين:

١ ـ الترشيح الإلهي.

٢ ـ مبايعة الأمة للقيادة السياسية المرشحة. وإذا رفضت الأمة الترشيح الإلهي فإن الله لا يكرهها على فعل الحق. بل سيملي لها ويعاقبها على معصيته في الدنيا والآخرة.

٨ ـ نماذج لا تنكر:

هذا عين ما حدث مع رسول الله ﷺ، فقد رشحه الله تعالى لقيادة الدعوة الإسلامية وبايعه كل الذي آمنوا به على أساس أنه النبي والولي بالرضى وبدون إكراه، بايعه الرجال، وبايعته النساء وبايعه الأطفال على ذلك، إنها بيعة بالرضى وبالإجماع، وعندما تمخضت الدعوة عن دولة أصبح النبي هو أول رئيس للدولة فكان هو النبي وكان هو الولي بنفس الوقت، الولي الذي رشحه الله وبايعه العباد كرمز لقبولهم بالترشيح الإلهي ولرضاهم بالمنظومة الحقوقية الإلهية كقانون نافذ في المجتمع.

ونفس العملية حدثت مع طالوت فقد رشحه الله ورفضه اليهود بحجة أنهم أحق منه بالملك ولم يؤت سعة من المال، فرد عليهم نبيهم بأن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم. وجاءتهم الآيات التي تثبت أنه الترشيح الإلهي فبايعوه ويمكن تلاوة الآيات من ٢٤٥ ـ وما فوق من سورة البقرة للتأكد من ذلك.

ونفس الحالة تكررت مع داود، وتكررت مع سليمان عليه السلام وهي حالات موثقة في القرآن الكريم ولا أعتقد أن مفكراً إسلامياً واحداً يقوى على إنكارها أو يجرؤ على تأويلها.

٩ ـ التكامل بين العقيدة الإلهية والقيادة السياسية:

العقيدة الإلهية الإسلامية بكليتها وأساسها قائمة على ركنين: أولهما كتاب الله المنزل وهو القرآن الكريم وثانيهما نبي الله المرسل وهو محمد شخصياً ﷺ فهو القيادة السياسية المخول إلهياً بقيادة الدعوة إلى العقيدة والمرشحة إلهياً لتقود الدولة بعد أن تسفر الدعوة عن الدولة. بمعنى أن القيادة السياسية لدعوة العقيدة الإلهية ودولتها هي جزء لا يتجزأ من هذه العقيدة وهي أصل من أصولها فالإيمان بقيادة محمد هو جزء من الإيمان بالعقيدة الإلهية، كذلك فإن الإيمان بقيادة طالوت كان جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإلهية السائدة آنذاك، وكذلك داود، وكذلك سليمان عليه السلام . . . .

لأنه ليس بالإمكان ـ حسب نواميس الحياة ـ تبليغ العقيدة الإلهية الإسلامية وبيان أحكامها دون القيادة السياسية لمحمد بالذات فهو نفسه الذي ترجم نصوصها من الكلمات إلى الحركات عبر دعوة قادها بنفسه، وعبر دولة ترأسها بنفسه، لأنه محور القيادة السياسية التي أسندت لها مهمة قيادة الدعوة والدولة معاً.

وليس بالإمكان أيضاً الإحاطة بعقيدة الإسلام بوصفها الصيغة المثلى والنهائية للعقيدة الإلهية بدون كتاب منزل وهو القرآن الكريم.

ويؤكد هذا الترابط والتكامل والصلة العفوية بأن الله سبحانه وتعالى وطوال التاريخ البشري لم يرسل رسالة إلى البشرية بدون رسول، ولم ينزل كتاباً إلا على عبد ليقود المؤمنين بهذا الكتاب ويبين لهم أحكامه ويسوس حياتهم وفقها. ولو كان مجدياً فك الترابط بين العقيدة الإلهية والقيادة السياسية وبين الرسول والرسالة وبين الكتاب والعبد، لكان يسيراً على الله تعالى أن يرسل نسخاً من كل الكتب السماوية إلى كل إنسان بالغ وأن يكلفه بفهمها والعمل بها ولما كانت هنالك حاجة لإرسال عشرات الآلاف من الرسل والأنبياء والمهديين. ففك الارتباط بين العقيدة الإلهية وبين القيادة السياسية غير وارد بكل المقاييس العقلية والمنطقية والدينية ويخرج عن دائرة المعقول تماماً، التمسك بالقرآن الكريم وحده وتجاهل القيادة السياسية الإلهية. تماماً مثل من يتمسك بالقيادة السياسية الإلهية ويتجاهل القرآن الكريم، فالقيادة السياسية هي بمثابة الهيئة التأسيسية وهي المختصة ببيان العقيدة، وهذا البيان عملية فنية تماماً كالطب، أو الذرة أو الهندسة، ومن المستحيل أن تترك لأهوائنا واجتهاداتنا والوقوف على الحقيقة الشرعية بهذه الناحية يؤثر تأثيراً كلياً على مسيرة الفكر السياسي الإسلامي، وعلى حركة المجتمع السياسية كاملة. فلا بد من الوقوف على الحقيقة الشرعية المجردة وهذا ما سنبحثه في الحلقات القادمة إن شاء الله باعتبار هذا البحث ضرورة من ضرورات ترشيد الفكر السياسي الإسلامي ووضعه في مداره الصحيح. والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل السادس عشر

الفكر السياسي الإسلامي بين التطرف والتفريط(٢)
«تجذير وتأصيل الفكر»

١ ـ الربط للتوضيح:

أثبتنا في الفصل السابق أن الفكر السياسي على العموم تابع بالضرورة لعقيدة سياسية، يلد بولادتها، ويدور في مدارها، ويزول بزوالها. ويكمن محور ارتكازه. ومنطلق نمائه في مواكبته وتفاعله مع جهد القيادة السياسية التي تتولى قيادة وترشيد حركة المجتمع السياسية وفق نواميس وأطر هذه العقيدة أو تلك.

وتبين لنا أن القيادة السياسية متكاملة مع العقيدة السياسية أي عقيدة ومرتبطة معها برابطة عضوية لا تقبل التجزئة. فطالوت وداود وسليمان ومحمد هم أنفسهم قيادة سياسية مخصصة لقيادة وترشيد حركات مجتمعاتهم السياسية وفق العقيدة الإلهية النافذة في زمن كل واحد منهم. على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

ولا يختلف الأمر كثيراً في العقائد الوضعية فقادة الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والمصلحون «السكسبون» هم أنفسهم الذين تولوا قيادة وترشيد حركات مجتمعاتهم السياسية بوصفهم هم الأعلم والأفهم بقواعد العقيدة التحررية الرأسمالية. كذلك فإن «ماركس وإنجلز ولينين وستالين» تولوا قيادة حركة مجتمعاتهم السياسية وفق قواعد العقيدة الماركسية الشيوعية قبل أن تنهار.

والسبب يكمن في أن القيادة السياسية يفترض أن تكون الأعلم والأفهم

بمضمون العقيدة المراد ترشيد حركة المجتمع السياسية وفق أحكامها. صحيح أن عبد مناف بن عبد المطلب المكنى «بأبي طالب» هو شيخ البطاح وهو حامي النبي، لكنه غير مؤهل لقيادة حركة الجماعة المسلمة السياسية بدلاً من محمد، لأنه لا يفهم العقيدة الإسلامية كما يفهمها محمد، وهو غير مرتبط بها كارتباط محمد. وصحيح أيضاً أن قيصر روسيا أوجد حالة من الانبهار به، ولكنه غير مؤهل لقيادة حركة المجتمع الروسي السياسية وفق قواعد العقيدة الماركسية الشيوعية. . . إلخ.

٢ ـ حصر الموضوع:

مع أن الفكر السياسي المنبثق عن العقائد الوضعية بصيغها الثلاثة المعروفة ـ الحكم المطلق والتحررية الرأسمالية والماركسية الشيوعية ـ يؤثر علينا ويتأثر بنا، بغض النظر عن حجم هذا التأثر والتأثير، مما يفرض علينا أن نتحاور معه وأن نعيه، فنأخذ خيره إن وجدنا فيه خيراً واحتجناه على اعتبار أن الخير مطلوب لذاته، ونتجنب شر هذا الفكر لأن الشر منفور منه بالفطرة، مما يجعل التصادم أمراً لا ضرورة له وسواء أخذنا بالحوار أو اخترنا الصدام فلا بد لنا من سلاح يثري الحوار، أو يحسم التصادم لصالحنا، وسلاحنا هو العقيدة الإلهية والفكر السياسي الإسلامي الصحيح الذي نشأ في ظلالها ودار في مدارها وواكب قيادتها. وليس لنا مصلحة بتبني هذا الفكر أو ذاك إنما تتحقق المصلحة بتبني الرأي السياسي الذي يتلاءم مع نصوص العقيدة الألهية ومع تصورها وروحها العامة الخالصة ومن هنا سنحصر بحثنا بهذه الناحية ونجذرها ونبسطها حتى يفهمها الخاصة ولا يستعصي فهمها على العامة. والأصل بالبحث هو الحياد والتجرد وطلب الحقيقة واستبعاد سلطان الهوى والتقليد في معرض هذا الطلب.

٣ ـ تجذير وتأصيل الفكر السياسي الإسلامي:

أ ـ القيادة السياسية المثلى في العقائد الإلهية:

تتحقق القيادة السياسية المثلى في العقائد الإلهية بتوافر شرطين إذا انهدم أحدهما تنهدم الشرعية بحجم هذا الشرط المهدوم:

١ ـ **الشرط الأول:** الترشيح الإلهي للقيادة السياسية يأخذ الترشيح صورتين:

أ ـ **الترشيح الإلهي المباشر:** ويتحقق باختيار إلهي مباشر للقائد وتبليغه هذا الاختيار بالذات ومثل ذلك اختياره تعالى للنبي داود، وللنبي سليمان، وللنبي محمد ليقودوا الجماعات المؤمنة ودول الإيمان في أمانهم.

ب ـ **الترشيح الإلهي غير المباشر:** ويتحقق ذلك باختياره لشخص معين ليقود الجماعة المؤمنة ويتم تبليغ هذا الشخص بواسطة نبي أو ولي وذلك كما حدث باختياره تعالى لطالوت. إذ اختار الله تعالى قائداً لبني إسرائيل وأبلغه هذا الاختيار بواسطة نبيهم في ذلك الزمان. وإن كنت في شك من هذا يمكنك مشكوراً أن تتلو الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.

٢ ـ **الشرط الثاني:** موافقة الجماعة المؤمنة على هذا الترشيح الإلهي ويعبر عن هذه الموافقة بالبيعة أو القبول بالإيجاب الإلهي وهو تعبير أصيل عن الاحترام الإلهي للإرادة الإنسانية وعن حق الإنسان بالمساهمة باختيار قيادته، والمشاركة في السلطة وإضفاء الصيغة التعاقدية الرضائية على علاقة الحاكم بالمحكوم في ظلال العقيدة الإلهية. لأن الناس يبحثون عن الأفضل والأعلم بالمنظومة الحقوقية الإلهية المراد تنفيذها وسياسة المجتمع وفق أحكامها وهم بحاجة إلى هيئة تأسيسية تنظم العملية السياسية وهم يجهلون أو لا يعلمون علماً يقيناً من هو الأفضل والأعلم ومن هو المؤهل للقيام بعمل الهيئة التأسيسية، فتفضل جلت قدرته فدلهم على الأفضل والأعلم والأنسب ورشحه ليكون لهم ولياً أو قائداً سياسياً. فإن قبلوه فقد استقام أمرهم في الدنيا والآخرة، وإن رفضوه وبايعوا غيره فحاكمهم وقائدهم الفعلي هو الذي بايعوه ويحدث خلل قاتل مايزال يتوسع حتى يقتلع العقيدة الإلهية من واقع الحياة العملية بعد أن تتحول إلى هيكل عظمي وتدفع الجماعة المؤمنة أعلى الضرائب في الدنيا ويكلهم الله إلى أنفسهم ويوم القيامة يحاسبون على معصيتهم وتفريطهم.

ب ـ الحكم الأمثل:

ويتحقق الحكم الإلهي الأمثل عندما يكون هنالك ترشيح إلهي للقيادة

السياسية مباشراً كترشيح داود، وسليمان ومحمد ﷺ أو غير مباشر كترشيح طالوت. وقبول الجماعة المؤمنة بهذا الترشيح أو الإيجاب الإلهي معبرة عن هذا القبول بمبايعتها للقائد ورضاها بقيادته وتعاونها معه لتطبيق قواعد المنظومة الحقوقية الإلهية وقد تحقق هذا الحكم الأمثل كلياً في دعوة النبي ودولة النبي محمد ﷺ. حيث رشحه الله وبايعه كل المسلمين بالرضى وطبقت الأحكام الإلهية تطبيقاً دقيقاًعلى كل الأصعدة، ، فأعطيت الحرية للجميع، وتحققت العدالة للجميع، وتساوى الجميع أمام أحكام العقيدة الإلهية، وتساوى الحاكم والمحكوم بمستوى المعيشة وبالتكاليف وأمام الشرع. فعهده الخالد هو العهد المثل الذي لا مثيل، وهو القدوة، فلا قدوة سواه، وهو المثال الأعلى ولا مثال أعلى سواه.

ج ـ الجهل الفاضح:

ومن هنا تبين لنا جهل الذين يسمون النظام السياسي الإسلامي بنظام الخلافة قاصدين بذلك الخلافة الراشدة مع أن النظام السياسي الإسلامي سابق للخلافة الراشدة ومتكون بالكامل قبلها بعشر سنين حيث ألقى أجرانه في الأرض نظراً وممارسة، عزاً وتمكيناً وقطف المؤمنون في ظلال هذا النظام أحلى الثمرات. وهان على هؤلاء المتجاهلين فيما بعد أن يدمجوا دمجاً كاملاً التاريخ السياسي بالنظام السياسي الإسلامي معتقدين أن النظام السياسي الإسلامي هو عينه التاريخ السياسي الإسلامي الذي ساد بعد وفاة النبي الأعظم واستمر بصور مختلفة حتى سقط آخر سلاطين بني عثمان. آخذين بالفرع وتاركين الأصل وهو عهد النبوة حيث تشكل نهائياً النظام السياسي الإسلامي وأخذ صورته النهائية عبر رحلة المجد الإنساني التي بدأت بالدعوة النبوية وتمخضت عن الدولة النبوية الماجدة.

د ـ الغلطة القاتلة:

هذا الخلط العجيب أوقع الفكر السياسي الإسلامي المعاصر في مطب قاتل وأفقده نقطة ارتكازه. فعصي على العقل أن يقفز بالكامل عن الأصل والمثال وهو عصر دولة النبوة وأن يركز كل اهتمامه على الفرع وهو التاريخ السياسي الإسلامي الذي ساد بصور مختلفة بعد وفاة النبي حتى سقوط آخر سلاطين بني عثمان (نظام الخلافة) وتأسيساً عليه فإن النظام السياسي الإسلامي سابق لنظام الخلافة، ومتكون

بالكامل قبل أن تعرف وتتكون. فالتاريخ السياسي الإسلامي موضوع والنظام السياسي الإسلامي موضوع آخر فقد يقتربان وقد يبتعدان هذا موضوع آخر وعصي على العقل أن يقتنع أن الذي حارب الإسلام ونبيه بكل وسائل الحرب حتى حوصر فاضطر للإسلام هو تماماً، محياه ومماته، مثل من حارب مع الإسلام كل معاركه تحت شعار كلهم صحابة.

وعصي على العقل أن يقتنع بسلامة تتبع النصوص تتبيعاً كاملاً لحركة الواقع وتطويعها لخدمة الغالب وتبرير وجوده، وإضفاء الشرعية على هذا الوجود. فالأمويون لم يحكموا لأنهم الأحق والأنسب للحكم حسب القواعد الإلهية إنما حكموا لأنهم غلبوا، والعباسيون كذلك، والعثمانيون كذلك، والإنفصاليون الذين استعصوا عليهم كذلك فالسند الشرعي الوحيد لحكمهم هو الغلبة «نحن مع من غلب» على حد تعبير القاعدة الشهيرة التي وضعها الصحابي الجليل عبد الله بن عمر، وقبلت الأمة هذه الغلبة بحكم الحال والاضطرار كما عبر عن ذلك حجة الإسلام حامد الغزالي.

فحار الفكر السياسي الإسلامي في أمره، وبعد تردد أسلم قيادته للواقع التاريخي ودار في فلكه، مجملاً ومحسناً ومنكراً لمناوئيه ومعارضيه ومتهماً إياهم بشق عصا الطاعة، والخروج على الجماعة، وأحياناً يقسو فيتهم المعارضين بالكفر والإلحاد والزندقة. ومن الملفت للانتباه أن العام الذي انتصرت فيه القوة والغلبة على الشرعية سمي بعام الجماعة.

هـ ـ مصدر الآلام:

تكمن غلطة الفكر السياسي الإسلامي القاتلة، ويكمن سر انتصار القوة والغلبة على الشرعية وتكمن كل الآلام التي لحقت بهذه الأمة طوال تاريخها وما أصابها من تمزق وضياع وعدم استقرار سياسي يكمن كل ذلك في الفصل بين العقيدة الإلهية والقيادة السياسية بالرغم من الارتباط العضوي بينهما.

بيان الصلة بين العقيدة الإلهية والقيادة السياسة:

الإسلام شأنه شأن كل العقائد الإلهية السابقة أكد هذه الصلة الوثيقة من خلال

٤٥٠ آية من كتاب الله وبينها الرسول ﷺ لفظاً من خلال ٢٣٨ حديثاً متواتراً لا يرقى إليها أدنى شك بصدورها عنه. وطوال فترة الدعوة المحمدية، وطوال مدة حكم دولته وهو يبين هذا الارتباط وبالكيفية التي تلقاها من ربه تعالى، وأصر إصراراً خاصاً على بيان الصلة الوثقى بين العقيدة الإلهية والقيادة السياسية وبين حركة المجتمع السياسية المستقبلية، فبين الإطار العام لهذه القيادة وبين الإطار الخاص، وبين مركز الدائرة السياسية بياناً لم يبق معه عذر لأحد، حذر من العواقب المدمرة التي تنتظر الأمة في حالة مخالفتها لهذا البيان.

القيادة والقدر المشترك:

أثبتنا سابقاً من خلال استعراضنا للصلة بين العقائد الإلهية وبين قياداتها السياسية أن تعيين هذه القيادة قدر مشترك بين الله جلت قدرته وبين الأمة المؤمنة بالعقيدة الإلهية. فالله سبحانه وتعالى يبين للأمة الأفضل والأعلم والأنسب، ويرشحه لقيادتهم السياسية. والأمة المؤمنة الباحثة عن هذه الصفات تثق بهذا التكييف الإلهي «الأفضل والأعلم والأنسب» وتتقبله شاكرة لأنعم الله. ومعبرة عن هذا القبول بالبيعة والتعاون الصادق مع القيادة السياسية لتطبيق وتعميم العقيدة الإلهية. هذه الصيغة هي الضمانة الوحيدة لوحدة الدعوة ووحدة الدولة ووحدة الأمة وهي الفارق العملي الوحيد بين النظام السياسي الإلهي. وهي الضمانة المستقبلية للنظام السياسي الإلهي. وأخيراً هي طوق النجاة من الضلالات التي تتربص بالأمة المؤمنة. تلك الضلالات التي عصفت بالأمم السابقة وفرقتها شيعاً وأحزاباً بسبب انفصال القيادة عن العقيدة، وغياب المرجعية الشرعية وتصادم الاجتهادات للحصول على القيادة السياسية المثلى.

القناعات الموازية كمدخل لفهم حركة الفكرالسياسي الإسلامي

الصيغة السياسية:

المجتمع المكي قبل الدعوة المحمدية مجتمع قبلي جاهلي، تشكل القبيلة نقطة ارتكازه، ومحور وجوده، وبحكم الضرورة كحماة للبيت الحرام وبعد لأي شديد توصلت القبائل المكية لصيغة سياسية متوازنة معبرة عن وجودها وقائمة على اقتسام مناصب الشرف «المناصب السياسية» فيما بينها، بحيث لا يكون بينها غالب ولا مغلوب فالسقاية والرفادة لبني هاشم والقيادة لبني عبد شمس، والراية لبني عبد

الدار، والسفارة لتيم. . . إلخ. وارتاحت القبائل المكية لهذه الصيغة واطمأنت لها، وأصبح الحفاظ عليها غاية مشتركة تسعى كل القبائل لتحقيقها. ومع توالي الأيام والأعوام تحولت هذه الصيغة ومعطياتها إلى قناعات راسخة موروثة ضربت جذورها في أعماق النفوس بحيث يتعذر اجتثاثها كلياً.

الصيغة السياسية في خطر:

عندما أعلن محمد الهاشمي أنه نبي مرسل من الله تعالى للعرب خاصة وللجنس البشري عامة، وأعلن الهاشميون والمطلبيون أنهم معه ولن يسلموه أبداً مهما كان الثمن وإذا مست قريش محمداً فإن الهاشميين والمطلبيين سيقاتلون حتى الفناء التام ـ كما يروي ويجمع على ذلك أهل الملة ـ على أثر هذه الإعلانات لم تهتز آلهة مكة «أصنامها» فحسب إنما اهتزت صيغتها السياسية، واهتز ماضيها وحاضرها ومستقبلها وقناعاتها المطلقة بهذه الصيغة. فوقفت قبائل مكة وقفة رجل واحد بوجه محمد وبني هاشم وقاطعتهم بالإجماع وحصرتهم في شعاب أبي طالب واضطرتهم أن يأكلوا ورق الشجر من الجوع واضطرت أطفالهم أن يمصوا الرمال من العطش. ولكن لم يستسلم محمد ولا استسلم الهاشميون إنما مضوا قدماً وفشل الحصار، عندئذ اقتنعت القبائل المكية أنه لا حل لهم ولا يدفع الخطر عنهم إلا قتل محمد على أن يكون القتل بدون ويلات في سبيل تحقيق ذلك اختارت كل قبيلة منها رجلاً وعهدت للرجال المختارين بقتل محمد على أن يضربوه ضربة رجل واحد حتى يضيع دمه بين القبائل ولا يقوى الهاشميون على المطالبة بدمه. لكن الله نجى نبيه من هذا المكر ووصل سالماً إلى يثرب وأعلن عن قيام دولة إسلامية برئاسته.

فجن جنون القبائل المكية وجيشت الجيوش، وحاربته في بدر وأحد وتحالفت مع اليهود وحاربته في الخندق، وفشلت بكل حروبها وفوجئت بجند الله يحيط بعاصمة الشرك من كل صوب ويدخلها النبي فاتحاً، فاستسلمت قيادة القبائل، وتوقعت أوخم العواقب، لكن النبي قال لهم من موقع الاقتدار: «إذهبوا فأنتم الطلقاء» عندما حوصروا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت هنالك فقط أسلموا، فتعامل النبي مع ظواهرهم، وترك نواياهم لله. وامتزج السابقون باللاحقين واتسعت بالجميع مساواة الإسلام وعدله وحريته.

الملك العظيم:

أدركت القيادة المكية ومن والاها أن النبوة الهاشمية أصبحت حقيقة كطلوع الشمس من المشرق، وإنه لا يمكن الفصل بين الدين وقيادة بين هاشم ولخصوا فهمهم للأحداث بكلمة أبي سفيان للعباس عندما كان جند الله يدخل مكة فاتحاً «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فقيادة الشرك تصورت الدين الإسلامي غطاء للفوز بالملك والخروج على الصيغة السياسية، وتصورت أن الهاشميين قد فازوا بهذا الصراع. وتيقنوا أن الهاشميين قد فازوا بالنبوة وقيادتها.

تأجج نيران الكراهية لبني هاشم:

ما الذي يجري!! لقد أخذ الهاشميون النبوة، وها هم يقودون عصرها فما الذي يريدونه فوق ذلك؟ النبي يقول بأمر من ربه: «إن خير بطون الأرض بنو هاشم وخير بيوت الأرض بيت عبد المطلب، وصفوة بيت عبد المطلب هم أهل بيته الطاهرين» ويسمعونه يردد: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وقد أنبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. . .» وأهل البيت لهذه الأمة كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق، وأن مكانهم من الأمة مكان الرأس من الجسد. . . إلخ.

وتعمق في النفوس الحسد لبني هاشم. ناهيك عن تنمر الهاشميين في ذات الله. فقد أفشلوا الحصار العربي، وقد منعوا محمداً، وقد حملوا لواء الإسلام في كل مواقعه، ورافق الحسد الحقد والكراهية، حيث قيل الحمزة وعلي صناديد قريش.

فنشأت على استحياء مقولة «لا ينبغي أن يجمع الهاشميون النبوة مع الملك»، لأن النبوة شيء وهي دين، والملك شيء آخر. وما زالت تلك المقولة تستشري حتى تحولت إلى تيار عام لدى القبائل المكية ولكن هذا التيار الغلاب ملجوم بوجود النبي. وسنعالج في المقال القادم القيادة كمدخل لفهم الفكر السياسي الإسلامي والحمد لله أولاً وآخراً.

الفصل السابع عشر

الفكر السياسي الإسلامي بين التطرف والتفريط(٣)

١ ـ ربط الموضوع ومدخل لفهم الفكر السياسي الإسلامي:

أوضحنا في الفصلين السابقين أن الفكر السياسي على العموم ينشأ في ظلال عقيدة فيدور في مدارها ويواكب بشكل خاص مسيرة القيادة السياسية التي تحمل على كاهلها ترشيد حركة المجتمع السياسية وفق أحكام هذه العقيدة أو تلك.

وبيّنا أن الصلة بين العقيدة وقيادتها السياسية صلة عضوية لا تقبل التجزئة سواء على صعيد العقائد عامة أو على صعيد العقائد الإلهية خاصة وهذه الصلة كانت هي السمة البارزة بين العقيدة الإلهية الإسلامية وبين قيادتها السياسية على صعيدي الدعوة والدولة معاً في عهد التشريع فالقيادة السياسية الإسلامية قدر مشترك بين الله تعالى وبين الأمة. فالله تعالى قدم الأفضل والأعلم والأنسب. والأمة الإسلامية قبلت هذا التكليف الإلهي وعبرت عن قبولها بالبيعة وبالتعاون مع القيادة السياسية لغايات ترشيد حركة المجتمع السياسي الإسلامي وفق أحكام المنظومة الحقوقية الإلهية.

وقلنا إن القيادة السياسية الإسلامية في هذه المرحلة لم تخرج من قبيلة قريش عموماً في مرحلتي الدعوة والدولة. تلك القبيلة التي تربت بطونها سياسياً في ظلال صيغة سياسية موروثة ومتوازنة وقائمة في جوهرها على اقتسام المناصب السياسية فيما بينها بحيث لا يكون بين هذه البطون غالب ولا مغلوب. فلما جاء الإسلام وقفت تلك البطون مجتمعة وقفة رجل واحد ضد «النبوة الهاشمية» وحاربت محمداً

وبني هاشم بكل وسائل الحرب، ثم أحيط بها واستسلمت ثم أسلمت لأن كل الأبواب قد أغلقت في وجهها إلا باب الإسلام. واقتنعت أخيراً أن «النبوة الهاشمية» قدر لا مفر منه، وقضاء لا محيد عنه. وأيقنت أن صيغتها السياسية قد اختلت وإلى الأبد.

فنشأت مقولة قرشية مفادها «أنه لا ينبغي أن يجمع الهاشميون مع النبوة الملك» وتحولت تلك المقولة إلى تيار غلاب لكنه ملجوم بالضرورة بوجود القيادة المحمدية المباركة. تلك هي الجذور الخفية لفك الارتباط الفعلي بين القيادة السياسية وبين العقيدة الإلهية الإسلامية بحيث أصبحت القيادة السياسية الإسلامية شأناً خاصاً بالمسلمين متروكاً لإرادتهم واجتهاداتهم لمعرفة الأفضل والأعلم والأنسب لقيادتهم ولم تعد القيادة السياسية أصلاً من أصول الدين.

٢ ـ شمول البيان الإلهي:

من المسلمات الشرعية والعقلية أن الله تعالى قد أكمل الدين وأتم النعمة على المسلمين، وبين حكم العقيدة الإلهية في كل أمر من أمور الحياة على الإطلاق بما فيه كيفية التبول والتغوط، بدليل قوله تعالى ﴿...**وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء**...﴾ (النحل الآية:٨٩) وغني عن البيان أن البنى الأساسية لخير أمة أخرجت للناس قد أرسيت تماماً. وأن المنظومة الحقوقية الإلهية قد نقلت بكاملها من النص إلى التطبيق ومن النظر إلى العمل في مرحلتي الدعوة والدولة معاً.

بعد كمال الدين وبيانه وتمام النعمة الإلهية، خيِّر رسول الله ﷺ فاختار ما عند الله وأعلن ذلك للملأ فوجع وجعه الذي مات منه وأراد أن يلخص الموقف لأمته ليجنبها شر الضلالات التي تتربص بها وتوشك أن تفتح أشداقها بعد موته وكان بيته المبارك يغص بالصحابة الكرام.

٣ ـ رفض التأمين الشامل ضد الضلالة:

فقال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقال عمر بن

الخطاب: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف الحاضرون فاختصموا منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم رسول الله ﷺ «قوموا عني» قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب: وقد روى البخاري هذه الحادثة بست صيغ. (راجع صحيح بخاري ج٤ ص٧ ط دار إحياء الكتب وج٢ ص١٧٨ وج١ ص٣٢ ج١ ص١١ ط مطابع الشعب وج٤ ص٦٥ ـ ٦٦ ط. استانبول وج٨ ص١٦١ ط. استانبول. ورواها مسلم في صحيحه ج٥ ص٧٥ ط. المكتبة البخارية).

٤ ـ تساؤل وحكم:

هل من عاقل في الأردن أو العالم العربي كله يجرؤ على إنكار هذه الحادثة، أو يكابر بالاعتذار عنها فقد كانت كما سماها ابن عباس «يوم الرزية» وكانت كما قيل بحق «بائقة الدهر وقاصمة الظهر».

٥ ـ آثار هذه الحادثة:

هذه الحادثة رسخت واقعياً الفصل بين العقيدة الإلهية وبين قيادتها السياسية المرتبطة معها وهمشت دور هذه القيادة، وألقت في الروح والأذهان أن القرآن وحده يكفي الأمة المسلمة، وأن القيادة السياسية التي ارتبطت معه قد أدت دورها، وخرجت تماماً عن الخط بعد أن بينت للناس ما أنزل إليهم من ربهم فأمست القيادة السياسية المستقبلية للأمة شأناً خاصاًبالأمة وحدها وليست أصلاً من أصول الدين كما كانت. فالأمة هي الأمة وهي بالوقت نفسه الهيئة التأسيسية التي تجتهد وتبحث عن الأفضل والأعلم والأنسب وهي التي تبايعه وتنقاد وإياه لقواعدالعقيدة الإلهية.

لكن فكرة الإجماع الرضائي السياسي للأمة وفق هذه الأطر مستحيلة. وفكرة اجتماع الأمة كهيئة تأسيسية أكثر استمالة، فمن هو المؤهل شرعياً، لقيادة المبادرة التأسيسية، وفكرة عثور الأمة على الأعلم والأفضل والأنسب أو عين المقصود الإلهي أكثر الأشياء استمالة.

وهذا ما فتح أبواب كل الاحتمالات وهيأ الفرص لنجاح كل المبادهات والاجتهادات وحول المجتمع الإسلامي في ناحية من نواحيه إلى مجتمع عقلاني بمعنى أنه قد حفل بالعقل والتجربة فما أثمر من التجارب تحول إلى سوابق دستورية يقاس عليها ومن هذه السوابق أن الخليفة أو رئيس الدولة القائم كان يقوم بدور الهيئة التأسيسية فهو نفسه الذي يرشح للأمة الأفضل والأعلم والأنسب لقيادتها السياسية من بعده وتحولت هذه السابقة إلى حق شرعي كما يرى ابن خلدون.

وبوقت طال أم قصر أصبحت رئاسة الدولة حقاً خالصاً للغالب فقد احتدم الصراع بين الواقع والشرعية وبين المثال والممكن واحتار الكثير ماذا يفعلون..

٦ ـ مسارب الفكر السياسي الإسلامي من خلال المعالم الأولى للقيادة التاريخية:

من كان يريد العثور على الأفضل والأعلم والأنسب لقيادة الأمة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ فما عليه إلا أن يبحث عنه في قريش عملاً بالقاعدة الشرعية «الأئمة من قريش» لأن قريشاً هي قبيلة النبي، ولأنها حامية البيت الحرام وأهله ولأنها أول من تلقى الدعوة الإسلامية وعلى أساس هذه القاعدة أعطى الأنصار المقادة للمهاجرين الذين حضروا اجتماع السقيفة، لماذا؟ لأنهم أولياء النبي وعشيرته، ولا ينبغي لأحد أن ينازعهم سلطانه على تعبير الفاروق بكلمته الرائعة في السقيفة، ولقد عبر عن عمق هذا التوجه بشيربن سعد عندما قال في السقيفة: إن محمداً رجل من قريش وقومهم أحق بميراثه.

وفي أواخر عهد الفاروق وهو يلفظ أنفاسه الطاهرة الأخيرة اهتزت هذه النظرية حيث قال كما يجمع المؤرخون: لو كان أبو عبيدة حياً لوليته واستخلفته... إلخ. إلا أنه قال: ولو كان معاذ بن جبل حياً لوليته واستخلفته، ومعاذ من الأنصار وليس من قريش ثم قال: ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته واستخلفته، وسالم هذا مولى ليس من الأنصار وليس من قريش ولا يعرف له نسب في العرب. هذا الموقف يشكل منعطفاً وبذرة نمت فيما بعد. بعد أن غابت صورة الخلافة الراشدة آل الأمر لآل أبي سفيان وهم من ذؤابة قريش فعبد شمس

وهاشم توأمان وهما سادة قريش في الجاهلية وهاشم سيدها في الجاهلية والإسلام، كذلك وبسقوط حكم عائلة أبي سفيان جاءت عائلة الحكم بن العاص وهو من قريش أيضاً. ثم ولت وجاء العباسيون وهم من ناصية قريش وعملاً بقانون الغلبة «نحن مع من غلب» آل الأمر لبني عثمان وهم ليسوا عرباً.

٧ ـ الهيئة التأسيسية:

الصديق، والفاروق وأبو عبيدة؛ (رضي الله عنهم) عندما دخلوا سقيفة بني ساعدة وقادوا المبادرة كهيئة تأسيسية ونجحوا بها كانوا مجرد أعضاء بارزين في المجتمع الإسلامي ولكن بدون سلطة ثم خرجوا من السقيفة كسلطة حقيقية برضى الأغلبية المجتمعة في سقيفة بني ساعدة، وفوجئت الجموع المؤمنة التي كانت تبكي نبيها، وتلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة قبل أن يوارى في ضريحه الأقدس فبايعت أغلبيتها الصديق، وعندما دنا أجله وفي عنفوان وجعه قام بدور الهيئة التأسيسية.

٨ ـ قانون الغلبة «نحن مع من غلب»:

ذكر أبو يعلى الفرا فقال: روي عن الإمام أحمد ما دل على أن الخلافة تثبت بالغلبة والقهر، ولا تفتقر إلى العقد فقال من رواية عبدوس بن مالك العطار: من غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً براً كان أم فاجراً، وقال أيضاً في رواية أبي الحارث: في الإمام يخرج عليه من يطلب الملك ويكون مع هذا قوم ومع هذا قوم «تكون الجمعة مع من غلب» والدليل الشرعي على ذلك أن ابن عمر صلى بأهل المدينة بعد يوم الحرة وقال: «نحن مع من غلب».

٩ ـ خروج الأمر من قريش:

لو كان معاذ بن جبل حياً لولاه الفاروق واستخلفه كما صرح بذلك ومعاذ من الأنصار وليس من قريش، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لولاه الفاروق أيضاً واستخلفه ليترأس الدولة من بعده، وسالم من الموالي ولا يعرف له نسب في العرب، إذن فإن الفرصة مهيأة لإخراج الأمر من قريش، فالفاروق لا يرى في ذلك

غضاضة ولا حرجاً، وبما أن قاعدة «نحن مع من غلب» استقرت دستورياً، وصبغت بالصبغة الشرعية ربما أن الفاروق لا يرى بأساً بأن يتولى رئاسة الدولة الإسلامية رجل صالح من الأنصار أو حتى رجل صالح من الموالي ومن غير العرب فما الذي يمنع من أن تخرج الإمامة من قريش وحتى من العرب ويتولاها أي مسلم بغض النظر عن جنسه أو قومه أو لونه. ثم يحكم الناس عليه من خلال عمله وانقياده لله.

١٠ ـ نظام الخلافة:

وبهذه البنى الدستورية العقلية مجتمعة تكون نظام الخلافة التاريخي بصوره وتطبيقاته المختلفة من بعد وفاة الرسول ﷺ حتى سقوط آخر سلاطين بني عثمان، وهو عين النظام الذي تطالب الأحزاب العربية الدينية بتطبيقه، متصورة أنه بذاته النظام السياسي الإسلامي الذي أنزله الله تعالى على عبده ليسوس العالم البشري به.

١١ ـ دور الفكر السياسي:

إقتصر دور الفكر السياسي عند إتِّباع المذاهب الأربعة على إبداء المطالعة على حركة المجتمع الإسلامي السياسية وأسلوب القيادة السياسية التاريخية بترشيد وإدارة حركة المجتمع الإسلامي السياسية ومواءمة هذا الأسلوب للقواعد الشرعية ومواءمة القواعد الشرعية معه أو إن شئت فقل محاولة خلق الانسجام بين المثال والواقع، لكن هذا الفكر ـ مع عميق الاحترام ـ جانب الصواب بخلطه الواضح بين المثال والواقع وبتذويبه للمثال في خدمة الواقع. وفي الفصل القادم سأعالج موضوع القيادة السياسية في الإسلام. والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثامن عشر

أضواء على فقرات من خطاب الحسين

لماذا طورد بنو هاشم وما هي خصوصيتهم؟

١ ـ تحديد الموضوع:

عممت وسائل الإعلام الأردنية الرسمية مشكورة خطاب الحسين، وحاولت بأسلوبها الخاص أن تقيس صداه وأثره ووقعه على النفوس، دون أن تقوم بتحليل علمي موثق لهذا الخطاب . وأنا كمواطن أردني أنعم الله علي بحب آل محمد استمعت لخطاب الحسين، ولو أردت أن أحلل هذا الخطاب تحليلاً علمياً لضاقت بهذا التحليل المجلدات ومن هنا قصرت غايتي على تحليل فقرات من هذا الخطاب لفت انتباهي تركيز الحسين عليها وهذه الفقرات هي، أهل البيت وبنو هاشم، وشعب أبي طالب، وكربلاء وتلك أمور خافية حقيقتها النامية على الخاصة والعامة وإن فهموها فإن فهمهم لها أقل بكثير من المقصود الشرعي.

٢ ـ خصوصية القرابة الطاهرة:

البطن الهاشمي ـ نسبة إلى هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ـ هو خير بطون الناس عامة وبطون العرب خاصة بالنص الشرعي، وبيت عبد المطلب بن هاشم هو خير بيوت الناس عامة والعرب خاصة بالنص الشرعي، وبالنتيجة فإن آل محمد هم أفضل الآل بالنص الشرعي وقد افترض الله مودتهم في الكتاب وجعل الصلاة عليهم ركناً من أركان الصلاة المفروضة على العباد، (ويمكن لمن أراد التأكد أن يراجع كنز العمال للمتقي الهندي ج١٢ ص٤٣ وقد نقل ذلك عن الحاكم

في المستدرك والبيهقي في سننه والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل على سبيل المثال).

٣ ـ وظائف القرابة الطاهرة

لقد ثبتت مرجعيتهم بالنصوص الشرعية القاطعة الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة وهي موضع اتفاق نظري على الأقل، فالقرآن الكريم هو الثقل الأكبر والقرابة الطاهرة هم الثقل الأصغر بالنص الشرعي، والهداية لا يمكن أن تدرك إلا بالتمسك بالثقلين والضلالة لا يمكن تجنبها إلا بالتمسك بالثقلين، والفصل بين هذين الثقلين سيترك مفاعيل مدمرة تظهر آثارها آجلاً أو عاجلاً وستجد الأمة نفسها وسط ليل الضلالة. (ويمكن مراجعة النصوص الشرعية الواردة في القرآن والنصوص الشرعية الواردة في السنة النبوية وعلى سبيل المثال صحيح الترمذي ج ٥ ص٣٩٨ وتفسير ابن كثير ج ٤ ص١١٣ ومصابيح السنة للنبوي ص٣٠٦ وجامع الأصول لابن الأثير ج١ ص ٦٥ والمعجم الكبير للطبراني ومشكاة المصابيح ص ٢٥٨ وإحياء الميت للسيوطي بهامش الإتحاف ص١١٤ والفتح الكبير للنبهاني ج١ ص٥٠٣ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ج٢ ص١٢ وتفسير الخازن ج١ ص٤ ومجمع الزوائد للهيثمي ج٩ ص١٦٢ والمناقب للخوارزمي ص٢٢٣ وفرائد السمطين للحمويني الشافعي ص١٤٢ ومناقب علي لابن المغازلي الشافعي ص٢٣٥ والصواعق المحرقة ص١٤٨ والسيرة الحلبية ص٣٢١ الهامش وصحيح مسلم كتاب الفضائل ج٢ ص٣٦٢ وشرح النووي ج١٥ ص١٧٩ ـ ١٨٠ ولولا أن يطول بنا المقام لأوردت ١٨٣ مرجعاً تؤكد ما قلته).

٤ ـ رواة حديث الثقلين:

أمير المؤمنين علي والحسن بن علي عليهما السلام وسلمان وأبو ذر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن أسيد الغفاري وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم والبراء بن عازب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو أيوب الأنصاري وأم سلمة زوج النبي وأم هاني أخت أمير المؤمنين وعشرات غيرهم

(راجع رواياتهم في عبقات الأنوار ج١ وج٢).

٥ ـ اقتراح:

إذا دأبنا على ذكر بعض المراجع سيطول بنا المقام، يمكن لمن شاء من الأخوة القراء أن يسأل عن دليلي الشرعي على كل جملة أقولها وسأقوم بالرد على الأسئلة وتسمية المراجع.

٦ ـ تابع وظائف أهل البيت:

هم لهذه الأمة كسفينة نوح بالنص الشرعي من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهم أمان لأمة محمد من الاختلاف بالنص الشرعي، ومن هنا كانوا نقطة ارتكاز للمسلمين فيهم تكتمل الدائرة ويتمدد مركزها، فيستقطبون الأمة كلما تفرقت يأتي الحل بالتوجه إلى نقطة الارتكاز فلا يذهب المسلمون لا للشرق ولا للغرب ولا للشمال ولا للجنوب إنما يلجأون للقرابة الطاهرة، ويتجمعون حولها فتجمعهم، وهم بنفس الوقت مرجعية للدين ومرجعية للمسلمين ولغير المسلمين تسمع من الجميع ثم تقدم الفهم الأمثل للمقصود الإلهي، وهم القيادة السياسية لهذه الأمة، فعندما تكون القيادة السياسية لآل محمد تطيب نفوس الجموع وينقطع دابر الخلاف ويموت الطمع بالرئاسة والتنافس عليها وقد تكفل الشرع الحنيف ببيان لمن منهم تكون هذه القيادة وكيف تنتقل.

٧ ـ لماذا أعطيت القرابة هذه الخصوصية وأسندت لها هذه المهام؟:

لماذا اختار الله محمداً للرسالة ولم يختر أبا سفيان؟ هذا فضل الله يؤتيه من يشاء لماذا فضّل بعض النبيين على بعض؟ هذا فضل الله. لماذا اختار محمداً من بني هاشم ولم يختره من عدي أو تيم مثلاً؟ هو الذي بيده الفضل يؤتي فضله من يشاء، ولكن باستقرائنا العميق للشرع ولتاريخ الإسلام نجد بعض التعليلات التي يمكن أن تبرر هذه الخصوصية من الناحية العقلية.

٨ ـ تعليلات هذه الخصوصية:

١ ـ لقد بين الله سبحانه وتعالى أن قرابة محمد هم خير الناس وأفضلهم ومن

مصلحة العباد أن يقودهم الأفضل والأحسن.

٢ ـ الإنذار الصادر عن بني هاشم والموجه لكل بطون قريش عندما أشيع أن محمداً قد قتل إذ أنذرهم أبو طالب قائلاً: والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم احداً حتى نتفانى وإياكم وأثبت لهم أنه قد همَّ فعلاً بقتل زعامة قريش كلها عندما أشيع بأن النبي قد قتل.

٣ ـ إن كل بطون قريش بلا استثناء قررت مقاطعة بني هاشم وكتبوا كتاباً بأن لايناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم وتم حصر الهاشميين في شعاب أبي طالب ثلاث سنين وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب، وقطعت قريش عنهم الميرة والمادة فكان الهاشميون لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، وسمعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب واضطر الهاشميون أن يأكلوا ورق الشجر من الجوع وأن يمصوا الرمال من العطش، ولقريش مطلب واحد وهو أن يسلموا محمداً لقريش لتقتله أو أن يخلوا بين قريش وبين محمد. ولكن الهاشميين أبوا ذلك ودافعوا عنه بأموالهم وأرواحهم وأولادهم واستقرارهم.

٤ ـ ولما فشل الحصار وخوفاً من القرابة الطاهرة اضطرت بطون قريش بالإجماع أن تختار من كل بطن رجلاً حتى يشترك الجميع بقتل النبي ولا يقوى الهاشميون على المطالبة بدمه.

٥ ـ القرابة الطاهرة في الجاهلية هم ناصية العرب عامة وقريش خاصة ولا تقطع الأمور دون مشورتهم بل وهم الأحناف.

لهذه الأسباب مجتمعة ومنفردة بالإضافة إلى الفضل الإلهي أعطيت القرابة الطاهرة هذه الخصوصية، بالإضافة إلى الإعداد الرباني لعمدائهم من الناحيتين العلمية والتربوية.

٩ ـ هذه الخصوصية تحولت إلى حجة لغيرهم:

فقد خاطب أبو بكر الصديق الأنصار قائلاً: نحن عشيرة الرسول والناس تبع

لنا، وقال لهم الفاروق: إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم من ينازعن سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته، وقال بشير بن سعد الذي شق إجماع الأنصار أن محمداً رجل من قريش وقومه أحق بميراثه. ومن أجل هذا بويع الصديق ثم عهد للفاروق بالخلافة وذهب الصديق والفاروق إلى العباس ليعطيهم البيعة والرضى فقال الصديق: يابني عبد المطلب إن رسول الله منا ومنكم فأجابه العباس إن رسول الله كان من شجرة نحن أغصانها وأنتم ضلالها. وحتى معاوية احتج بقرابته من رسول الله كيف لا وهو معاوية بن أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وعبد شمس وهاشم توأمان فالحكم من بعد وفاة الرسول وحتى سقوط آخر الخلفاء العباسيين تمام في جانب منه على قاعدة القرابة.

تمت مطاردة أهل البيت وبني هاشم طوال التاريخ لغايات:

١ ـ إصرار المطاردين (بكسر الراء) على إجبار أهل البيت للتخلي عن خصوصيتهم التي خصهم الله بها من دون الناس.

٢ ـ تأويل هذه الخصوصية وإخراجها من معانيها ووظائفها.

٣ ـ إيجاد خصوصية وضعية منافسة للخصوصية الإلهية. ولو أن القرابة الطاهرة عطلت خصوصيتها وقبلت قلبياً بالأمر الواقع فإن طلاب الدنيا لن يتركوها فالقرابة بحالة مطاردة مستمرة.

العلة في استمرار المطاردة:

السلطة فاتنة جميلة وهي زوجة شرعية لأهل بيت محمد، تزوجها كل الحكام بالإكراه بعد أن أخذوها من زوجها الشرعي. ملكوا جسد تلك الفاتنة أما قلبها وروحها فمع الزوج الشرعي تحلم به ليل نهار وعلناً وهي بقبضة الحكام. فشبت في قلوب الحكام الغالبين طوال التاريخ غيرة قاتلة وقادتهم هذه الغيرة إلى أفاعيل مخجلة ارتكبوها بحق الأمة وحق القرابة الطاهرة.

المكافـأة:

بالرغم من النصوص الشرعية القاطعة والآخذة بالأعناق، والتي تعطي القيادة

السياسية لمحمد وآل محمد وتحصر بهم المرجعية لغايات فنية تتعلق بالمنظومة الحقوقية الإلهية، وبالرغم من فضل القرابة الطاهرة على هذه الأمة وأسبقيتها باحتضان الحق وداعية الحق، وبالرغم من الشهادة الإلهية بأن الله قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وبالرغم من الله أمر نبيه أن لا يسأل المسلمين أجراً إلا المودة في القربى بالرغم من كل هذا فقد وقع شعار لا ينبغي أن يجمع الهاشميون النبوة والخلافة وبالتالي وتخريجاً على هذا الشعار لا يجوز أن يتولى هاشمي أي أمر من الأمور بدوافع منع الإجحاف الهاشمي. ومن الطبيعي أن هذا شعار جاهلي من كل الوجوه! يا إلهي ما أشنع الظلم إنه ظلام! يا إلهي ما أقبح قلب الحقائق وتبديلها!!!.

كربلاء:

صبرت القرابة الطاهرة على ما هو أمرّ من العلقم، وشاهدت الأمة وهي تدير ظهرها للحق وتصفق للغالب، واحتسبت القرابة الطاهرة واجتهدت في طاعة الله ما استطاعت وآلت الأمور إلى يزيد بن معاوية بحكم الغلبة والعهدة، ويزيد هذا فاجر بالإجماع وبعد أن حصل يزيد على بيعة الأمة بالإكراه والإغراء رغبة ورهبة أراد أن يزين بيعته ببيعة القرابة الطاهرة له، كان الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عميد القرابة الطاهرة آنذاك. ليس عجباً أن تركع أمة، فطالما ركعت الأمم أمام الجبابرة لكن آل محمد لا يركعون إلا لله، ولا ينحنون أمام العواصف مهما عتت، وأدرك الحسين أن قدره وبتعبيره: أن لا يعطي مخافة الموت ضيماً، وأن المنايا ترشده أن يحيد فقرر أن يفر بدينه وبذرية محمد وعلى شط نهر الفرات وجد جيش الخليفة المؤلف من أربعة آلاف مقاتل بانتظاره، ولم يتجاوز صحبه ٧٣ رجلاً وبعد أخذ وعطاء صلى جيش الخليفة بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الصبح ولم ينسوا الصلاة على النبي وآله وبعد أن أتموا صلاة الصبح هجم ٤٤٠٠ مقاتل على ٧٣ رجلاً وقتلوا الحسين وسلبوه حتى ملابسه وهو ميت ولم يكتفوا بذلك بل أوطأوا الخيل جثة الحسين الطاهرة وقتلوا حتى الأطفال وأخذوا من بقي من بنات النبي وذريته غنائم ووضعوا غنائمهم بين يدي الخليفة وصاح كل واحد من قتلة الحسين:

أوقر ركابي فضة وذهبا   فقد قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأبا

العائلة المباركة:

لو أن عائلة في الأرض تعرضت لما تعرض له الهاشميون لا نقرضت ولأبيدت تماماً ولكن بفضل الله ومنته فإن الهاشميين يتكاثرون وأعوانهم وشيعتهم والمتفهمون للظلم الذي لحق بهم يزدادون مما يجعل وحدة الهاشميين في الأرض ركناً أساسياً من أركان نهضة الأمة وهذا مطلب لا يقوى الناس على تحقيقه لأنه من اختصاص القرابة الطاهرة ومن أولى من الحسين بتحقيقه والتصدي لهذه المهمة؟ .

مسك الختام:

قيل لرسول الله ﷺ ما بقاء الناس بعدهم(أي بعد أهل البيت) فقال ﷺ : «بقاء الحمار إذا كسر صلبه» (راجع على سبيل المثال الصواعق المحرقة لابن حجر ص٢٣٧ المطبعة المحمدية وص ١٥١ و٩١ من طبعة الميمنة بمصر) .

والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله .

الفصل التاسع عشر

بين يدي الوالد والمولود جامعة آل البيت

١ ـ البعد الزمني للحركة الإنسانية:

يبدو واضحاً أن سيد البلاد ـ أطال الله بقاءه ـ بالرغم من مشاغل الملك التي تستغرق كل جهده ـ إلا قليلاً ـ يراقب بدقة حركة كليات المسيرة الأردنية وأشكالها ومضامينها ونتائجها وطاقاتها على الاستيعاب، ومن هنا فقد أدرك بثاقب بصيرته حاجة العالم العربي عامة والأردن خاصة لجامعة مميزة بالرغم من كثرة الجامعات وتعددها، لتقوم هذه الجامعة المميزة بدور الريادة والقوامة في مضماري العلوم الإنسانية والفكرية، وتشكل النموذج الحي المتحرك الذي يتبنى مسؤولية ربط الماضي مع الحاضر واستشراف المستقبل برؤى متكاملة قائمة على التعددية والتنسيق من خلال ابتغاء الحقائق المجردة، على اعتبار أن الماضي والحاضر والمستقبل حلقات مترابطة ترابطاً عضوياً تشكل البعد الزمني للحركة الإنسانية، والأساس الذي يبني فوقه، لأن الحركة الإنسانية تتراوح بالضرورة بين ماض واقع، لا مجال لتغييره لفوات الأوان، وبين حاضر واقع إحدى يديه ممدودة للخلف الماضوي والأخرى تتجه للأمام المستقبلي، وبين مستقبل نجهل تفاصيله ولكننا نحاول استكشافها بسلاحي التجربة الماضوية وزخم اندفاع الحاضر الواقع، كل هذا يجعل البعد الزمني بالمعنى الآنف الذكر وحدة متكاملة ويتعذر منطقياً خروج الحركة الإنسانية من مدار هذه الوحدة، وبالضرورة يستوعب هذا البعد التجربة الإنسانية ويعكس الملامح المتشابهة لوحدة الحركة الإنسانية.

٢ ـ تسمية جامعة أهل البيت:

قطعاً إن فكرة إنشاء جامعة أهل البيت لم تكن بنت لحظتها، إنما سبقه مخاض، ووطدت لها معاناة حقيقة، ثم شقت طريقها إلى الوجود وأبصرت النور برسالة والد الفكرة ومبدعها إلى سيادة رئيس الوزراء، ويوم ولادتها سماها صاحبها بجامعة أهل البيت، تشريفاً لقدرها، وتلميحاً يصل إلى درجة التصريح عن عظم الآمال المعقودة عليها، والأماني المنوطة بها، والعناية الهاشمية الخاصة التي ستغدق عليها، والدور الذي ينتظرها لاستشراف الرؤى الفكرية وتوحيدها تمهيداً لترشيد حركة المجتمع السياسية على اعتبار أن الفكرة سابقة بالضرورة للحركة ومرشدة لها حيث تتفاعل الحركة ـ أي حركة ـ ضمن إطار الفكرة ـ أي فكرة ـ وفي وجود آفاقها وعلى هدي من نواميسها.

٣ ـ لماذا أهل البيت بالذات؟:

لأن أهل البيت الكرام بالرغم من إقصائهم عملياًعن المسرح السياسي إلا أنهم هم الذين أصّلوا وجذّروا وبيّنوا الخطوط العريضة والتفصيلية للمنظومة الحقوقية الإلهية وهم الذين حافظوا على نقائها واحتفاظها بمميزاتها الخاصة بها حتى أصبحوا رمزاً لخلود الرسالة والنبوة. تلك المنظومة الحقوقية الإلهية التي لخصت تجربة الإنسان الماضوية كلها ـ خيرها وشرها ـ وأثرت تلك التجربة واستشرفت مستقبل الجنس الإنساني وقدمت بياناً قائماً على الجزم واليقين للحركة الإنسانية المستقبلية ووسائل ضبطها لصالح الإنسان وخيره ضمن خطة إلهية متكاملة وموثوقة. ثم وضعت نفسها تحت تصرف الإنسانية مستنفرة فيها كل الطاقات البشرية لتستكشف الإنسانية، بنفسها، وبحريتها، وبالمواهب الإلهية التي وهبها الله لعباده، كل الحقائق المجردة لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.

٤ ـ الهيئة التأسيسية:

في المسيرة الإنسانية. الإنسانية العقلانية المباركة الساعية بتجرد وموضوعية شطر ما يكشف الحقائق المجردة التي تحكم الحركة الإنسانية المثلى لا بد من فئة

ترمز للصلة الدائمة بين السماء والأرض وتذكر بآخر النداءات الإلهية لبني البشر وتستوعب المنظومة الحقوقية الإلهية وذلك لتقوم بدور المرشد والموجه الموثوق الذي تأمن الإنسانية بوائقه ومكره حتى لا يخذلها في منتصف الطريق فتكون هذه الفئة بمثابة الهيئة التأسيسية للمسلمين خاصة وللجنس البشري عامة فإذا أدركت الإنسانية مناها باكتشاف الحقائق المجردة تكتشف أهمية هذه الهيئة وتحدد موقفها هذه الهيئة التأسيسية هم أهل بيت النبوة. قد يتصور البعض أن هذا محض خيال، إنني أتحدى هذا البعض أن ينكر أن أهل بيت النبوة هم المرجعية، وهم القدوة من بعد النبي وهم أحد أركان الهداية، فإن قبل البعض هذا التحدي عهداً علي لأغرقنهم في مئات المراجع التي تنم عن الحقائق الشرعية المجردة التي تركوها مع أنها يقين كرمى لعيون التقليد الذي هو في حقيقته ظن مع أن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

٥ ـ إنهيارات في البعد الزمني على الصعيد العربي:

عاش العرب قبل محمد ﷺ على هامش التاريخ لا يقام لهم وزن ولا يحسب لهم حساب، باستثناء مكانة أدبية كان يحظى بها أولاد عبد مناف، وهم هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل فقد كانوا يسمون بأقداح النضار لشرفهم وفخرهم وسيادتهم على العرب، وقد أخذوا المعصم للعرب من ملوك الأرض. وبشروق شمس الهداية الإلهية قاد محمد ـ بتكليف من رب العالمين ـ والهاشميون والمطلبيون من خلفه الدعوة إلى حياة جديدة في أفياء منظومة حقوقية إلهية مضمونة النتائج تحترم الإنسان وتذكره بأن كل ما في الكون من مخلوقات مسخرات لخدمته ليكون الناطق الرسمي باسمها وأعطى العرب دوراً تاريخياً جديداً وهو مهمة تبليغ الرسالة الإلهية وتعميم المنظومة الإلهية ووضع الحقائق المجردة تحت تصرف العائلة الإنسانية بعد تكوين النموذج الأمثل. ومن سوء الحظ والطالع أن كل العرب وقفوا ضد النبي وبني هاشم وحاصروهم حصاراً رهيباً لامثيل له على الإطلاق في تاريخ القبائل العربية، وكان من المفترض بالحسابات الإنسانية أن يدعو محمد على العرب كما دعا الرسل أولي العزم من الأنبياء على أقوامهم، وكان من المفترض أن ينفض الهاشميون والمطلبيون من حوله وبالتالي يسدل الستار على الرسالة وعلى المنظومة الحقوقية الإلهية، لكن لله حسابات غير حساباتنا ومحمد والهاشميون

يجهلون لغة الوقوف في منتصف الطريق، فمضوا قدماً وبعون الله وتوفيقه وعظمة القيادة المحمدية المباركة، وبأسياف بني هاشم ورئاسة أركانهم ومن مشاريعهم دانت العرب للإسلام، وتوحدت جزيرة العرب تحت إمرة قيادة سياسية واحدة لأول مرة في التاريخ بكلفة بشرية لا تتجاوز ٤٨٣ قتيلاً من كلا الطرفين المتصارعين وتلك حالة نادرة في التاريخ، ـ فوحدة الكويت مع العراق بضعة شهور كلفت ربع مليون قتيل وجريح وكماً هائلاً من النكبات والمعاناة والدمار ـ، وبعد انتقال النبي إلى جوار ربه بدأت سلسلة الانهيارات.

٦ ـ النبوة والملك:

بالرغم من فضل الهاشميين على العرب، وبالرغم من التضحيات الهاشمية الجسام، وبالرغم من النصوص الشرعية الآخذة بالأعناق والتي تعطي القيادة السياسية والمرجعية لآل محمد، إلا أن العرب اجتهدوا مع وجود النص بعدم جواز جمع الهاشميين للنبوة مع الملك فقد أخذوا النبوة وهي كل الفخر فلا ينبغي أن يأخذوا الخلافة ويتركوا العرب بدون فخر متأثرين بالصيغة السياسية الجاهلية التي كانت سائدة قبل البعثة النبوية والقائمة على اقتسام مناصب الشرف. وأقام الهاشميون الحجة الشرعية على العرب، ولكن العرب غلبت بكثرتها واستبدلت الاجتهاد بالنص والرأي بالحكم الإلهي وانتهى بهم الرأي إلى القول بقاعدة (نحن مع من غلب) فتغالبت العرب ثم غلبهم الأتراك على الخلافة بنواميس الغلبة، وبانهيار الخلافة انهار التجمع الشكلي للأمة، وعادت المياه إلى مجاريها، وعادت العرب قبائل كما كانت ولكن القبائل نمت وتكاثرت وأمست شعوباً. . ولا أعتقد أن أي قبيلة عربية لها القدرة على توحيد العرب سوى القبيلة الهاشمية، **﴿كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾**.

٧ ـ أسئلة تحتاج لأجوبة:

ـ لماذا بدأت سلسلة الانهيارات حتى اقتلعت البنيان من أساسه ولم يبق منه غير الأطلال المتراكم بعضها فوق بعض؟.

ـ ما هي وجهة نظر الذين غلبوا طول التاريخ؟.

ـ ما هي وجهة نظر الذين عارضوا طوال التاريخ؟.

ـ ما هي وجهة نظر بني هاشم وأهل البيت الكرام؟ ما هو فكرهم؟ ما هو حكم الشرع الحنيف بما جرى ويجري وبوجهات النظر؟ ما هو موقف الفكر السياسي العالمي ومدى ائتلافه مع الشرع الحنيف؟.

ـ كيف نجري حواراً سلمياً بيننا وبين العالم؟ وبين أنفسنا؟ ما هي النتائج وكيف نستخلصها؟.

ـ كيف نمتلك فضيلة الصبر حتى نسمع آراء الجميع؟ كيف تتكون عندنا الأمانة العلمية حتى نعرض كامل وجهة نظر هذه الأطراف بدون تحريف وبنفس الأسلوب الذي يستمع فيه القاضي الأردني لأطراف القضية المعروضة عليه؟ كيف نمارس كل ذلك بروح رياضية بلا تشنّج ولا تطرّف ولا خصومة لأن غايتنا واحدة وهي الوقوف على الحقائق المجردة لتوجيه حركة الإنسان وإثرائها.

٨ ـ هل تتصدى جامعة أهل البيت لهذه المهام؟:

إن جامعة أهل البيت ستحتل صفحات مشرقة من تاريخ العائلة البشرية إذا تمكنت من الإجابة على هذه الأسئلة أو على جزء منها، وما الذي يمنع فالحسين هو الوالد، والجامعة هي المولود، والأردن قائم الآن على التعددية والديمقراطية ويحفل بحقوق الإنسان ويعطي قيم التسامح والبحث المجرد عن الحقائق عناية بالغة، والتصدي لهذه المهام أمر في طاقة الجامعة وبحدود قدرتها وبمستوى الآمال المعلقة عليها.

والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل العشرون

مداخلة في ما سماه الدريني بفرض الاجتهاد

إن لم تخنّي الذاكرة فالأستاذ الفاضل الدكتور محمد الدريني أحد أساتذتي ومشايخي الكرام فقد تتلمذ على يديه قبل أكثر من عشرين عاماً في جامعة دمشق، وحديثاً على صفحات جريدة اللواء الغراء قرأت له الكثير من حلقات بحوثه المتعمقة والتي يتابعها بإصرار.

أسباب المداخلة:

وأخيراً قرأت مقالة أستاذي الفاضل في عدد اللواء الغراء الصادر بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ٩٢ والتي تناولت ما أسماه بفرض الاجتهاد، ومع عميق تقديري لمنهجية الأستاذ بالبحث وترتيب الأفكار مع كرم الجمل، إلا أن لي ملاحظات جوهرية غالبتني فغلبتني ، ولو اهتديت لعنوانه لهاتفته، ووضعت تلك الملاحظات بين يديه لعله يستفيد منها إذا ما لاح له على بصيص نورها أن يعدل من رؤيته حول هذا الموضوع، وقد جمعت «بتشديد الميم» هذه الملاحظات على عجل من مؤلفات علماء مدرسة أهل البيت الكرام، ومن علماء مدرسة الخلفاء، وها أناأضعها بين يديك وتحت تصرف القراء الكرام لغايات محددة وهي الوقوف على المقصود الشرعي.

معنى الاجتهاد لغة:

قال ابن الأثير تحت مادة جهد: «الاجتهاد بذل الجهد في طلب الأمر وهو افتعال من الجهد والطاقة» وقال أبو حامد الغزالي: الاجتهادهو عبارة عن بذل الجهد واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال ولا يستعمل إلا في ما فيه كلفة وجهد

ـ راجع المستصفى من أصول الفقه ج٢ ص١٠١ والأحكام للآمدي ج٤ ص١٤١).

معنى الاجتهاد في الشرع الحنيف:

معنى الاجتهاد شرعاًهو عين المعنى اللغوي فقد ورد عن الرسول ﷺ قوله: . . . أما السجود فاجتهدوا بالدعاء. (راجع صحيح مسلم كتاب الصلاة ج٢٠٧ ومسند أحمد ج١ ص٢١٩) وقوله: «صلوا علي واجتهدوا بالدعاء» (راجع سنن النسائي ج١ ص١٩٠ باب الأمر بالصلاة على النبي، ومسند أحمد ج١ ص١٩٩) وقوله: «فضل العالم على المجتهد مائة درجة» (راجع سنن الدارمي ج١ ص١٠٠ وجاء في موطأ مالك كتاب الجنائز ج٤٣) «كان في بني إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد». وجاء في صحيح مسلم كتاب الاعتكاف ج٨ وسنن ابن ماجة كتاب الصيام ح١٧٦٧) عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «كان رسول الله يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره» أي يجتهد بالعبادة. وعن أبي سعيد كان رسول الله إذا حلف واجتهد في اليمين قال. . . (راجع مسند أحمد ج٣ ص٣٣ و١٤٨) وجاء في البخاري «وفي سؤال الصحابة أم حارثة في شأن ابنها حارثة عن رسول الله «إن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء» (راجع صحيح البخاري ج٢ ص٩٣ كتاب الجهاد ومسندأحمد ج٣ ص٢٦١ و٢٨٣).

خلاصة معنى الاجتهاد في اللغة والشريعة:

يلاحظ استاذي الكريم أنه طوال عهد الرسول ﷺ بل وحتى بعد وفاته وامتداداً حتى آخر القرن الأول الهجري كان الاجتهاد يعني بذل الجهد عموماً واستفراغه، ولا يخفى على مثلكم أن عهد النبي الزاهر هو عهد التشريع فإذا كان الإمر كذلك فمن الذي جعل الاجتهاد فريضة؟! ولو تركنا التقليد جانباً لوجدنا أن الاجتهاد في اصطلاح المسلمين هو الذي فرض الاجتهاد، حيث صار لفظ الاجتهاد في عرف العلماء مخصوصاً ببذل المجتهد وسعة في طلب العلم بأحكام الشريعة كما ذكر أبو حامد الغزالي في المستصفى والآمدي في الأحكام ج٤ ص١٤١، وقد شاع هذا الاصطلاح لدى علماء مدرسة أهل البيت الكرام بعد القرن الخامس كما ورد في كتاب مبادىء الأصول للعلامة الحلي.

إنعدام الحاجة إلى الاجتهاد:

مثل أستاذي الكريم يعلم علم اليقين أن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن تبياناً لكل شيء على الإطلاق ﴿تبياناً لكل شيء﴾، وإذا كنا لم نلمس ذلك فلأن تغطية القرآن بالبيان لكل شيء عملية فنية تماماً، فبالرغم من تبحّرك في علوم معينة إلا أنك لا تستطيع أن تجري للعين جراحة. ومن هنا اقتضت حكمته تعالى وجود عبد ليبيّن للناس ما أنزل إليهم من ربهم ولينقل الكتاب من الكلمة ومن النظر إلى التطبيق نقلاً قائماً على الجزم واليقين لا على الفرض والتخمين، وبالفعل قام النبي ﷺ بهذه العملية عبر دعوة قادها بنفسه ومن خلال دولة ترأسها بنفسه وبعد أن تم ذلك أعلن الله كمال الدين وتمام النعمة، ولأن عملية البيان مستمرة إلى يوم القيامة عيّن الله مرجعية فردية ومرجعية جماعية تساعد المرجعية الفردية، وأمر الناس بإتباع المرجعية الفردية المختصة بالبيان وأمر المرجعية الجماعية بمساعدة المرجعية الفردية، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

ومن هنا يتبين لأستاذي الفاضل أن الإسلام يتلخص شكلاً ومضموناً بكلمتين: كتاب الله المنزل وبيان النبي لهذا الكتاب، والمقياس الموضوعي لمعرفة المتقيدين بالإسلام هو الموالاة فلو زعم زاعم أنه مؤمن بالقرآن ومتبع لبيان النبي ولكنه لا يريد أن يوالي النبي فزعمه مردود عليه.

والخلاصة:

إن عهد النبي عهد جزم ويقين لا فرض ولا تخمين وإن كتاب الله وبيان رسوله غطيا ساحة كل شيء والرسول نفسه لا ينطق عن الهوى وقد عصمه الله، بينما الاجتهاد قائم على الفرض والتخمين والمجتهد يخطىء ويصيب وهذا غير وارد في حقه ﷺ.

أسباب ظهور الاجتهاد:

والنبي على فراش الموت أراد أن يلخص الموقف لأصحابه وأن يؤمنهم ضد الضلالة تأميناً شاملاً، اجتهد بعض الصحابة وقالوا إن القرآن وحده يكفيهم وأنهم

ليسوا بحاجة لهذا التأمين، وهكذا فصل الكتاب عن البيان ولو كان هذا الفصل منتجاً لما كان هنالك داع لابتعاث الرسل ولسد مسدهم نسخ من الكتب السماوية ترسل بطريقة ما إلى المكلفين. هذا الفصل استدعى وجود مؤسسيه للبيان فكان الاجتهاد، والحاكم هو الذي ينظر للاجتهادات المطروحة أمامه فيختار منها ما يريد والحاكم على الغالب هو الغالب بغض النظر عن دينه أو علمه أو سابقته، وحادثة الحيلولة بين النبي وبين كتابة ما أراد من الوضوح والثبات والتواتر بحيث لا يقوى أستاذي الفاضل على إنكارها فضلاً عن الاعتذار عنها وقد رواها أصحاب الصحاح.

تعميق مؤسسة الاجتهاد:

وتعمقت مؤسسة الاجتهاد بعد أن أعلن رسمياً منع الحديث عن الرسول وأن القرآن وحده يكفي فقد ذكر الذهبي في مذكرة الحفّاظ بترجمة أبي بكر (رضي الله عنه) ج١ ص٢ ـ ٣ أن أبا بكر (رضي الله عنه) جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه.

وسار الفاروق (رضي الله عنه) على هذه السياسة فقد روى ابن سعد في طبقاته أن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه بها فلما أتوه بها أمر بتحريقها (راجع ج٥ ص١٤٠ من طبقات ابن سعد بترجمة القاسم بن محمد بن أبي بكر) وروى الذهبي في تذكرة الحفاظ ج١ ص٧ ترجمة عمر أن عمر (رضي الله عنه) حبس ثلاثة لأنهم أكثروا الحديث عن رسول الله. ويجدر بالذكر أن قريشاً كانت تنهى عن كتابة أحاديث رسول الله حتى وهو حي كما روى عبد الله بن عمرو بن العاص، وجاء عثمان (رضي الله عنه) فسلك نفس النهج حيث صعد على المنبر وقال: لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر، (راجع منتخب الكثير بهامش مسند الإمام أحمد ج٤ ص٦٤)، ولا يخفى على أستاذي الفاضل بأن أول من دوّن الحديث رسمياً هو ابن شهاب الزهري بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

التأويل هو الغطاء الذي أضفى على الاجتهاد وهو أبوه ثم اختفى التأويل وورثه الاجتهاد:

وحتى لا يطول بنا المقام أتمنى على أستاذي الكريم أن يقرأ في لسان العرب مادة أوّل في الصحاح ومادة أوّل في نهاية اللغة لابن الأثير، وأن يراجع صحيح بخاري كتاب الآداب باب من أكفر أخاه من غير تأويل على هامش فتح الباري ج١٣ ص١٢٩ ـ ١٣٠ وأن يطّلع على شرح باب ما جاء في المتأولين من فتح الباري، عندها سيتيقن أستاذي الكريم أن التأويل سابق بوجوده للاجتهاد وستلاحظ القاعدة التي وضعوها: «قال العلماء كل متأول معذور بتأويله وليس بآثم ما دام سائغاً في لسان العرب وكان له وجه في العلم».

النتائج المذهلة للاجتهاد:

القاتل في الجنة والمقتول في الجنة كلاهما على حق، قال ابن حزم في الفيصل ج٤ ص١٦١: عمار بن ياسر قتله أبو الغادية فأبو الغادية الذي قتل عماراً متأول مجتهد مأجور أجراً واحداً. وقال ابن حجر في الإصابة ج٤ ص١٥١ في ترجمة أبي الفيادية: قاتل عمار والظن بالصحابة في كل تلك الحروب أنهم كانوا متأولين وللمجتهد المخطىء أجر. وقال ابن حزم في المحلى وابن التركماني في الجوهر النقي: ولا خلاف بين أحد من الأمة في أن عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام علي لم يقتل علياً إلا متأولاً مجتهداً، مع أن ابن ملجم هذا ليس من الصحابة، ووفق هذا التخريج فإن قاتل الإمام علي مأجور أجراً واحداً. وفي هامش الصواعق المحرقة ص٢٠٦ قال الشيخ عبد اللطيف: المقاتل مع علي أو عليه أو المعتزل لا يخرج بما وقع منه عن العدالة، وقال ابن كثير في تاريخه ج٨ ص٢٢٨ ما ملخصه إن يزيد تأوّل فأخطأ مع أن يزيد هذا هدم الكعبة المشرفة وأباد الذرية المباركة، وقال ابن تيمية عن معاوية: إنه كعلي بن أبي طالب في ذلك، أي مجتهد (راجع منهاج السنة ج٣ ص٢٦١ و٢٧٥ و٣٦٦ و٢٨٤ و٢٨٦ و٢٩٠)؛ وقال ابن كثير: معاوية مجتهد مأجور إن شاء الله، (راجع تاريخ ابن كثير ج٧ ص٢٧٩) . . . إلخ. وغيرها من مئات الاجتهادات التي تضيق بها المجلدات.

لا يخفى على أستاذي الكريم أنه كان في تاريخ هذه الأمة حكم وحكام قد تغلبوا وطالت أزمان غلبتهم، وأصبحت الغلبة هي السند الشرعي لوجودهم ـ «بحكم الاجتهاد» ـ فشايعتهم أكثرية الأمة، وابتغت مرضاتهم رغبة أو رهبة، فبررت فعلهم بحكم الغلبة والتبعية وبحكم الاجتهاد. ونتيجة ذلك كله تكونت رؤى وتأويلات واجتهادات استقرت بحكم التكرار وزينة الإعلام وضغط الحادثات التاريخية، ولاحت تلك الرؤى والتأويلات كأنها جزء من المنظومة الحقوقية الإلهية، وقد سخر الحكام ومن شايعهم كل وسائل الإعلام الرسمية لترسيخها وتثبيتها فتقبلناها بعد مئات السنين بقبول حسن لأنها من تركة الغالب الذي قهر كل خصومه، وواكب ذلك بالضرورة وجود معارضة لهذا التيار الهادر بغض النظر عن قلتها أو كثرتها، وكانت محجمة بالضرورة لأن زورقها يجري ضد التيار العام والتلميح عن ذلك يغني أستاذي الفاضل عن التصريح. وأخطر ما يتعرض له الباحث عن الحقيقة هو الركون التام لأحد هذين الموردين، فلا بد من أخذ وجهة نظر كل منهما بحذر وعناية ودقة وموضوعية تامة في كل مسألة من المسائل تمهيداً لتكوين رؤية علمية عامة ودقيقة ومتكاملة، وبعد ذلك وزنهما بميزان الشرع الحنيف بمعناه الدقيق تمهيداً لاستجلاء كليات وتفاصيل تغطية البيان الإلهي «لكل شيء وعلى الإطلاق».

ما لا بد منه:

حتى لا نبحث عن الحلقة في صحراء، أو عن النجم في سماء، لا بد من البحث عن المرجعية لأنها توفر بتوجيهاتها عناء البحث عن هذه الحلقة وترشده مسيرة العقل البشري وتدلنا على أقصر الطرق للوقوف على الحقيقة المجردة وتقدم لنا كل ذلك أجوبة قائمة على الجزم واليقين، ويكفي مؤسسة المرجعية شرفاً أن محمداً ﷺ كان هو المرجعية الأولى في الإسلام، وقد لا يخفى على أستاذي الكريم أن أسباب فرقة الأمة تكمن في تعدد المرجعيات، وتعدد اجتهاداتها القائمة على الفرض والتخمين، وهذا الموضوع لطول غربته يتصوره العلماء العرب مع خطورته كأنه ضرب من الأوهام.

إستنفار:

وأستاذي الكريم بحكم تعدد شهاداته العلمية، وبحكم تفرغه للبحث والدراسة والتدريس، وبحكم إصراره على ذلك ومتابعته له مؤهل لبحث هذا الموضوع تفصيلاً بسلسلة من الحلقات يحدد إطارها العام، وتأخذ شكل المداخلات مع حوار متحضر منظم يستفيد منه العامة والخاصة، واللواء برئاستها الجلية المتبصرة لن تضيق بذلك بل ستفتح صدرها الرحيب له وترضعه من ثديها الدارة وتحشد لإنجاحه صفوة العلماء. وبالختام أعبر عن عاطر تقديري وأخفض جناحي لأستاذي الكريم والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الواحد والعشرون

حول الدعوة إلى اللقاء بين أهل السنة وأهل الشيعة

قرأت بكل الاهتمام والتقدر ما كتبه الأخ السيد محمد وليد يونس في جريدة اللواء الغرّاء حول ضرورة اللقاء بين أهل السنة والشيعة كخطوة ضرورية ومركزية لازمة لوحدة الأمة، على اعتبار أن وحدة الأمة الإسلامية قدر وقرار إلهي يتوجب على الأمة الإسلامية أن تنفذه، وكلية من كليات الدين لا تملك صلاحية تجاهله.

وقد صيغ القرار الإلهي بوحدة الأمة بكل صيغ التوكيد المتعارف عليها في اللغة «. . . هذه أمتكم أمة واحدة. . .» وإذا تحدثنا عن وحدة حقيقية فلا بد بالضرورة من أن تقفز إلى الأذهان كلمتان أهل السنة وأهل الشيعة على اعتبار أن السنة والشيعة رئتا هذه الأمة وجناحاها وعيناها المبصرتان، ويتعذر عليها أن تحلق في العلا بجناح واحد ولا مصلحة للأمة ولا لأي مسلم أن تعيش كشخص اعتباري بعين واحدة ورئة واحدة وجناح واحد فأمرها لا يستقيم بهذه الحالة ولا تعيش وإن عاشت فعيشتها عيشة معوق، وقد لاحظت بإكبار أن السيد الأخ لم ينطلق من فراغ إنما حشد لهذه الانطلاقة طاقته وحاول جاهداًأن يجسر كل طرف على سماع وجهة النظر الأخرى بدافع مشوب بأنبل العواطف نحو وحدة هذه الأمة.

الائتلاف رغم الخلاف:

الاختلاف بوجهات النظر والرؤية إحدى نواميس وقوانين العالم الثابتة ولكن برغم ذلك فإنّ العالم مؤتلف بحقيقته وجوهره بالرغم من ظاهرة الاختلاف ويقوم بوظائف متكاملة مؤتلفة بالنتيجة بالرغم من اختلافه مما يجعل الاختلاف مظهراً من

مظاهر الإثراء ودافعاً من دوافع ترشيد الحركة الإنسانية في سعيها المستمر نحو الأفضل. ومن هنا يقاس عظمة المجتمعات بقدرتها على الائتلاف بالرغم من وجود الخلاف ولمسايرة هذا التوجه شاعت مبادىء الحرية والديمقراطية وعرفت مصطلحات الأكثرية والأقلية والحكم المعرضة، وقرفت البشرية من مصادرة الرأي الآخر ونما عندها شوق لسماعه وصبت جام غضبها على القهر والاستبداد والحكم المطلق وعلى أولئك الذين يتلذذون بمصادرة الرأي الآخر ومنع أصحابه من التصريح به قولاً أو كتابة. وأصبح مفهوماً ومستساغاً أن يعيش في مجتمع واحد عرب مسلمون وعرب مشركون ويهود ونصارى... إلخ. وبالرغم من حداثة هذا الاكتشاف بالمفهوم الديمقراطي... فإن الإسلام حقق ذلك في دولته ولم يخرج الرسول اليهود من مجتمعه إنما اليهود هم الذين خرجوا عليه وتآمروا على قتله، وألّبوا عليه أعداءه فكانت مواجهتهم قدراً محتوماً لامفر منه فهم الذين بطروا نعمة الاتفاق، وقبل ذلك لم تتوقف مناظراتهم مع النبي نفسه فقد سمع منهم وأقام عليهم الحجة ولكنهم لّجوا وتعايش الجميع رغم الاختلاف وتفصيل هذا يخرجنا عن الغرض ولكن التلميح فيه يغني عن التصريح... إلخ.

الجهل المطبق:

إنتشرت العلوم والمعارف في العصر وشاعت الأفكار والمعتقدات شيوعاً لم تعرف البشرية له مثيلاً، وضاقت المسافات بين أقطار المعمورة بحيث تحولت الكرة الأرضية إلى مجرد قرية صغيرة يعلم سكانها بكل ما يقال فيها وشاعت مبادىء الحرية ونما عند الناس الشوق لمعرفة الرأي الآخر لعله يرشد إلى طريق أقصر تؤدي للمقصود فطالما جمعت موائد المفاوضات واللقاءات العالمية يهوداً ونصارى وبوذيين وهندوساً وشيوعيين ينكرون وجود الله ونشأت أشواق لدى كل طائفة وجماعة لمعرفة ما لدى الجماعات الأخرى ولكن الأكثرية الساحقة منا نحن أهل السنة لا يعرفون معنى التشيع ولا ما هي أهدافه أو حقيقة اعتقاده والعلماء وأساتذة الجامعات العربية يجهلون ذلك جهلاً مطبقاً ولعلّ معلوماتهم في هذا المجال أخذوها من حفر التاريخ وكهوفه ثم تولوا حشوها في أذهانهم حرفياً دون تعديل ولا تبديل وأخذوا يبشرون بها ويعممونها بين الناس بأسلوب النقل الجامد المتحيز

والتقليد الأعلى الذي يرقى إلى درجة التعبد بدون إعمال للعقل فكرسوا الخلاف بين الأمة الواحدة وجذَّوره وثبتوا أركانه وتواصله وفي نهاية كل جملة كتبوا كلمة: «هذا من عند الله ولمصلحة الإسلام» ووقعوا فأوردوا بجهلهم هذا أمتهم موارد الردى وأحلوا قومهم دار البوار وجاءت الجماعات الدينية العربية التي تتصرف بهذا الدين تصرف المالك فأقامت ستاراً حديدياً بين الناس وبين معرفة الحقائق، وبين العقل البشري وبين استغلاله واستثماره للفسحة التي أعطاها له وتصرف هذه الجماعات هو الحق المبين وما لا تعرفه هو الباطل الزاهق فقسمت نفسها نصفين: أجسادها تعيش في القرن العشرين وعقولها وأرواحها تعيش في القرون الوسطى، ثم وضعت بيدها منظومة حقوقية موازية للمنظومة الإلهية وحنّت منظومتها بالحناء الإسلامي ثم كتبت جملة هذا من عند الله ولمصلحة الإسلام ثم وقعت فحظروا على المسلم أن يسمع وجهة نظر أخيه المسلم.

«كوني كما تبغين لكن لن تكوني»:

كن يهودياً، كن نصرانياً، كن بوذياً، كن قومياً، كن شيوعياً كن ما تريد فأنت حر، أعرض وجهة نظرك كلمة وطباعة فلا حرج عليك لأنك حر في بلد الحرية وواحة الديمقراطية فالجماعات الإسلامية لا تخشى التعدد وترحب بكل الآراء لتدحضها بالتي هي أحسن، ، وبالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن لا يجوز حسب معتقدات هذه الجماعات أن تعرض وجهة نظر أهل البيت وبني هاشم لا بالكلمة المسموعة ولا بالكلمة المطبوعة، فقط يسمح لك أن تردد نفس كلماتهم وجملهم وأن تدور بالأفق الضيق الذي حشروا أنفسهم به، وإن خرجت من أفقهم إلى رحابة الإسلام، ومن كهفهم إلى نور الهداية الإلهية حملوا عليك بكل خيلهم ورجلهم وطاردوك وقالوا إنه يدعو للفتنة والفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها وبدأت أصابعهم تتحرك في الظلام لتعيد الفن الآبق من أرضهم والعبد الخارج عن طاعتهم. . . إلخ. ثم يكتبون جملتهم الشهيرة هذا من عند الله ويوقعون عن الله.

بهذه الأجواء المسمومة:

بهذه الأجواء تغدو الدعوة إلى توحيد الأمة عقدة من أكبر العقبات، ومن

يقتحم هذه العقبة فقد عرف درب الهدى، فقد نعت العرب محمداً ﷺ - حاشا له - بأسوأ النعوت فقالوا: شاعر، وقالو: مجنون، وقالوا: كاهن، وقالوا: مفتري. . . إلخ، وبعد ٢٣ عاماً من العذاب اعترفوا مكرهين بأنه نبي وأنهم كانوا ظالمين ولكن لم يحجر عليهم ولم يعاقبهم إنما قال لهم: إذهبوا فأنتم الطلقاء وأعطاهم المهلة الزمنية الكافية لمراجعة مواقفهم من الحقيقة بعد أن أقام الحجة عليهم.

تاريخ نشوء التشيع:

ذكر كاتب المقال أن التشيع عرف في عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام وخدمة للحقيقة المرجوة أرجو أن أبين لأخي الفاضل أن التشيع عرف في زمن الرسول ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾ (البينة الآية: ٧) وعندما تلاها رسول الله ﷺ قال: «يا علي هم أنت وشيعتك».

نفي الحرج والإثبات:

وحتى لا يكون في صدر أخي الكريم حرج (راجع شواهد التنزيل للحاكم الخفي ص٣٥٦ - ٣٦٦ حديث ١٢٥ و١١٢٦ و١١٢٧ و١١٢٨ و١١٢٩ و١١٣٠ و١١٣١ و١١٣٢ و١١٣٣ و١١٣٤ و١١٣٥ و١١٣٦ و١١٣٧ و١١٣٩ و١١٤٠ و١١٤٢ و١١٤٣ و١١٤٤ و١١٤٥ و١١٤٦ و١١٤٧ و١١٤٨ (وراجع مشكوراً كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص ٢٤٤ و٢٤٥ و٢٤٦ المطبعة الحيدرية وص١١٨ و١١٩ مطبعة القرى وراجع مشكوراً المناقب للخوارزمي الحنفي ص٦٢ و١٨٧ وراجع الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص١٠٧ وراجع درر السمطين للزرندي الحنفي ص٩٢ وراجع ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي ج٢ ص٤٤٢ الحديث رقم ٩٥١ وراجع ينابيع المودة للقندوزي ص٦٢ و٧٤ و٢٧٠ وراجع نور الأبصار للشبلنجي ص ٧١ و١٠٢ وراجع الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي ص٩٦ المطبعة الميمنية بمصر وص١٥٩ المطبعة المحمدية وراجع الدر المنثور للسيوطي تفسير الطبري ج ٣٠ ص١٤٦ المطبعة

الميمنية بمصر وراجع تذكرة الخواص للسبط الجوزي الحنفي ص١٨ وراجع فتح القدير للشوكاني ص ٤٧٧ وراجع روح المعاني للآلوسي ج٣٠ ص٢٠٧ وراجع إحقاق الحق للتستري ج٣ ص٢٨٧ والغدير للأميني ج٢ ص٥٧ وفضائل الخمسة ج١ ص٢٧٨ غاية المرام باب ٢٨ من المقعد الثاني ص٣٢٨ وفرائد السمطين ج١ ص١٥٦)... إلخ.

الخلاصة:

إن التشيع لأمير المؤمنين لم ينشأ في خلافته إنما نشأ في عهد رسول الله ﷺ وأنه ﷺ حثّ عليه في القول والفعل والتقرير.

الآراء التي تقول بها الشيعة:

المبادىء التي تنادي بها الشيعة والحجج التي تحتج بها ليست من بنات أذهان الشيعة كما يتصور العامة مصدرها الكتاب والسنة بفروعها الثلاثة القول والفعل والتقرير، وأعلنها قبل الشيعة عمداء أهل البيت طوال التاريخ واحتج بها الهاشميون على خصومهم. وأتحدى الجماعات الإسلامية في العالم العربي أن تنفي كلمة واحدة مما ذكرت وأن تدخل في حوار علمي متحضر حول هذا الموضوع، فإن لم تفعل كما لم تفعل من قبل ولن تفعل ـ بإذن الله ـ فلتتول كبر طمس الحقائق الشرعية ولتحافظ على ضيعتها وعلى وحدة إقناعها ولتمتن ستارها الحديدي فإن عهد الحرية قد أشرقت شمسه وعاجلاً أم آجلاً ستصبح ضعيتكم الخاصة بكم بدون إقنان، وليبارك الله كاتب المقالات وكل داعية إلى وحدة الأمة على أساس المنظومة الإلهية، والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الباب الثالث

من أجل الحق لا من أجل إيران
مهارة الأحزاب الدينية بقلب الحقائق ومصادرة الحريات

الفصل الأول

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال

١ ـ انتفاء الحاجة للاستفتاء:

قاد النبي ﷺ دعوة الإسلام فكان هو مرجعية الدعوة. ثم تمخضت الدعوة الإسلامية عن الدولة الإسلامية المثلى فترأسها بعد أن بايعته الجماعة المؤمنة بالإجماع فكان هو مرجعية الدولة أيضاً، وتفرده بالمرجعية أمر طبيعي في مرحلتي الدعوة والدولة، لأن الإسلام هو أساس الدعوة ونظامها، وقاعدة الدولة وقوامها، وقد تلقاه النبي عن ربه ليبينه وينقله من عالم النص والنظر إلى حقيقة التطبيق والعمل من خلال دعوة ودولة لأن الإسلام بطبيعته دين ودولة فغير وارد أن يستفتي النبي أحداً ليفهم منه موقف الإسلام وحكمه في أي مسألة من المسائل لأن محمداً هو الأعلم وهو الأفهم بالإسلام وهو الأخلص له وأي ادعاء يغاير هذه الحقيقة منقوض بالعقل والشرع معاً.

٢ ـ الحاجة إلى الاستفتاء:

رأينا أن النبي ﷺ كان هو المرجع «الأعلم والأفهم بالدين»، وبنفس الوقت كان هو الحاكم فتوحدت المرجعية مع الحكم وهذا هو الأصل، لكن بوقت يطول

يقصر تنفصل المرجعية عن الحكم فيحكم الغالب ويقبله الناس بحكم الحال والاضطرار، ـ كما عبر ذلك أبو حامد الغزالي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد. وتنزوي المرجعية الشرعية لأن الناس مع من غلب. والغالب ليس هو الأفهم والأعلم ـ لأن هذه الصفة ملازمة للمرجعية ولأن الغالب مسلم ويحكم جماعة مسلمة فإنه بحاجة إلى من يفتيه في أي مسألة لا يعرفها وهو بهذه الحالة مضطر لأن يستفتي المرجعية الشرعية أو يعين شخصاً آخر ليقوم بدور المرجعية لتجيب الحاكم عن أي سؤال ولتحدد له حكم الشرع في ما أشكل عليه من الأمور. ومع الأيام استقرت هذه المؤسسة واكتسبت فتاواها هيبة خاصة.

٣ ـ الإفتاء الرسمي والشعبي:

في غياب أو تغييب المرجعية الشرعية «الأفهم والأعلم» استقرت مؤسسة الإفتاء المرتبطة بالدولة ـ أي دولة مسلمة ـ حتى ولو لم تكن تحكم بالإسلام وهو ما يمكن أن نسميه بالإفتاء الرسمي وهي مؤسسة منظمة ومنضبطة تماماً. ورافق ظهور هذه المؤسسة تاريخياً نمط آخر من الإفتاء وهو ما نسميه بالإفتاء الشعبي فالأحزاب الدينية تفتي في أي مسألة ولو لم تستفت تحت شعار توعية المسلمين والجماعات الدينية تفتي والمشايخ يفتون بأي أمر من الأمور حتى أصبح العامة يفتون بأكثر الأمور دقة وأكثرها تعقيداً.

٤ ـ نماذج للاستفتاء والإفتاء الرسمي:

على سبيل المثال لا الحصر فقد وجهت الفئة المتغلبة على دولة الخلافة العثمانية «جمعية تركيا الفتاة» ثلاثة أسئلة، استفتاءات إلى شيخ الدولة العثمانية وأصدر هذا الشيخ ثلاث فتاوى جعلها المتغلبون «جمعية تركيا الفتاة» غطاء شرعياً لعمل غير شرعي تمثل بخلع ثلاثة خلفاء فاضلين.

أ ـ الفتوى الأولى:

وجه المتغلبون سؤالاً إلى شيخ الإسلام هذا نصه: زيدأمير المؤمنين مبذر ومسرف وعديم الأهلية لإدارة مهام الملك هل يجوز خلعه؟.

ودون أن يعرف الشيخ من هو أمير المؤمنين هذا، ودون أن يتيقن من إسرافه

وتبذيره وعدم أهليته لإدارة مهام الملك أجاب فوراً على السؤال بقوله: نعم يجوز التوقيع الفقير إلى الله فلان بن فلان (عفا الله عنه). واتخذت هذه الفتوى ذريعة وغطاء شرعياً لعزل السلطان عبد العزيز ، (راجع تاريخ الدولة العثمانية ص٥٧٥ ـ ٥٧٦ وص٧٦ السلطان عبد الحميد د. محمد قربان).

ب ـ الفتوى الثانية:

ولت الفئة المتغلبة السلطان مراد الخامس وبعد فترة وجيزة جننته ونسبت إليه الجنون فوجهت سؤالاً إلى شيخ الإسلام هذا نصه: «إذا جن إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة؟» ودون أن يتأكد هذا الشيخ من حقيقة الإمر ومن أهلية السائل ونوياه أجاب فوراً بقوله: «يصح والله أعلم كتبه الفقير إلى الله حسن خير الله (عفا الله عنه)، وكحالة الأولى اتخذت هذه الفتوى غطاء شرعياً لعمل غير شرعي وبموجبها تم خلع السلطان مراد الخامس»،(راجع التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العثمانية ص٧٢٨ وص٧٨ من كتاب السلطان عبد الحميد للدكتور محمد قربان).

ج ـ الفتوى الثالثة:

نفس الفئة المتغلبة «جمعية تركياالفتاة» عينت عبد الحميد سلطاناً للمسلمين وعندما اكتشفت إخلاصه للإسلام ووعيه لمجريات الأحداث وقدرته على قيادة سفينة دولة الإسلام على شاطىء الأمان صممت على خلعه ولكن تحت مظلة «الفتوى الشرعية»، فوجهت السؤال التالي إلي شيخ الإسلام آنذاك:

د ـ نص الاستفتاء بخلع السلطان عبد الحميد:

«إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل دينه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة وإحراقها والتبذير والإسراف من بيت مال المسلمين، وإنفاقه خلاف المسوغات الشرعية، ويقتل وحبس وتغريب الرعية، بلا سبب شرعي، وسائر المظالم الأخرى، ثم أقسم على الرجوع عن غيه، ثم عاد وحنث، وأصر على إحداث الفتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة، فورد من المسلمين من كافة الأقطار بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً فلوحظ أن بقاءه ضرراً محققاً وفي زواله إصلاح فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء

الأمور أن يفرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم؟».

هـ ـ نص الفتوى:

ودون أن يتأكد الشيخ من حقيقة هذه التهم ومن هو زيد المذكور هذا ومن هم أهل الحل والعقد أصدر الفتوى التالية«الجواب نعم»، كتبه الفقير محمد ضياء الدين (عفا الله عنه)، (راجع المراجع السابقة).

و ـ مفارقة محزنة:

كان هرتسل اليهودي قد أرسل وفداً إلى السلطان عبد الحميد وقد بيَّنا في الحلقة السابقة مطالب الوفد بخصوص فلسطين والجواب الحرفي لهذا السلطان، وكان من جملة أعضاء الوفد الأرمني «أرام أفندي واليهودي عمانوئيل قره صو» نائب سلافيك. وعندما أصدر شيخ الإسلام فتواه بجواز خلع أمير المؤمنين زيد أي السلطان عبد الحميد واتخذ القرار بالخلع، تم إبلاغ السلطان بهذا القرار بواسطة وفد ضم أرام أفندي، عمانوئيل قره صو، فربط السلطان عبد الحميد بين الواقعتين وعلق على ذلك بقوله: «ذلك تقدير العزيز الحكيم» لأن حلقات العزل تلك هي خطوات على طريق إنهاء الخلافة وتفكيك دولة الإسلام كخطوة لا بد منها لإقامة وطن قومي لليهود، وقد اتضح ذلك من مجموعة من الحقائق التاريخية أبرزها الرسالة التي أرسلها السلطان عبد الحميد بعد عزله إلى شيخ الطريقة الشاذلية في الشام محمد أبو الشامات (راجع تاريخ الدولة العثمانية آنف الذكر ص٣٠٢ ـ ٣٠٤ وراجع كتاب «الرجل الصنم»، ص١٢ وما فوق وكتاب السلطان عبد الحميد للدكتور محمد قربان ص٨٦ ـ ٩٠).

٥ ـ توضيح لاستيعاب الفتاوى الثلاثة:

قلنا في الحلقة السابقة إن هزيمة دولة الإسلام في حرب أمر مستحيل، وإيجاد وطن قومي لليهود أثناء قيام دولة الإسلام أمر مستحيل أيضاً وتنازل خليفة أو سلطان المسلمين عن فلسطين أمر مستحيل أيضاً وتراجع اليهود عن إقامة وطن

قومي لهم في فلسطين أمر مستحيل، إذاً فإن الحل الذي اهتدى إليه اليهود يكمن في تفكيك الدولة العثمانية «دولة الإسلام» من الداخل عبر تنظيم شعبي يرفع الشعارات الغربية البراقة وترتبط قيادته باليهود ولتحقيق هذه الغاية تم إنشاء جمعية الاتحاد والترقي أو جمعية تركيا الفتاة، وليس من مؤسسيها شخص واحد من أصل تركي وإنما هم جميعاً من عناصر دخلت الإسلام لغايات سياسية وبتعبير أدق هم من يهود الدونمة، فالجمعية يهودية أصلاً بثوب الترك وبثوب الإسلام، وتمولت من يهود سالونيك ومن الدول الغربية خاصة بريطانيا وفرنسا والشعار الذي ركزت عليه هذه الجمعية هو شعار القومية الطورانية فإذا كان العنصر الحاكم ينادي بالقومية فإنه بطريقة غير مباشرة يدعو كل الأقوام التي تتألف منهم دولة الإسلام بالمناداة بالقومية، فإذا نجحت الأقوام بدعواتها إلى قومياتها فقد انفرط آلياً عقد الأمة الإسلامية وانهار الأساس الذي قامت عليه، وهو أساس الإخوة الإيمانية وتبعاً لذلك ستسقط دولة الإسلام على اعتبار أنها التعبير السياسي عن وجود أمة الإسلام. ومن هنا نجحت جمعية تركيا الفتاة نجاحاً ساحقاً وما زالت تقوى ويشتد عودها حتى قبضت على مقاليد دولة الخلافة، وقزمت دور السلطان تماماًفهي التي تعينه وهي التي تعزله ثم قضت على دولة الخلافة تماماً وفككت كافة مؤسساتها. وهيأت الظروف الملائمة لإيجاد الدول القومية والوطنية المتعددة لتقوم على أنقاض الدولة الإسلامية الواحدة التي كانت تعبر عن وجود الأمة الإسلامية الواحدة.

٦ ـ الإفتاء الشعبي:

الإفتاء الديني السياسي الرسمي يصدر من جهة واحدة وهو الدولة ـ أي دولة ـ تعتبر الإسلام دينها الرسمي، وبتعبير أدق ينحصر إصرار الإفتاء بالجهاز الذي تعينه تلك الدولة لهذه الغاية وهذا الجهاز مضبوط تماماً ودوره محدود، ومحصور ضمن أمور معينة وهو بالتالي لا يؤذي كثيراً ولا يتسبب بأي بلبلة لأن مجاله محدود ولأن جهة واحدة هي التي تديره وتشرف عليه.

الأذى والبلبلة يأتيان من الإفتاء الديني السياسي الشعبي، فهو يصدر من جهات متعددة وغير مؤهلة، فما يستفتى فرد بأي أمر من أمور الحياة إلا ويفتي بغض النظر عن صحة أو فساد فتواه، وإن كنت في ريب من ذلك فاسأل أي شخص

من العامة لا يقرأ ولا يكتب عن أي أمر من الأمور فإنه سيجيبك قبل أن يرتد إليك طرفك ويفتيك مجاناً، كذلك فإنك لو سألت أي حزب أو جماعة عن أي أمر من الأمور فإن الفتوى ستصلك قبل أن تقوم من مقامك، ونتيجة لكثرة الفتاوى وتعدد مراكز الإفتاء الشعبية تضيع الحقيقة ويختلط الحابل بالنابل والحق بالباطل، فلا تكن أمامك أصناف كحق وحده وكباطل وحده كعسل في إناء، وكعلقم في إناء آخر إنما يكون العسل والعلقم بنفس الإناء والحق والباطل بنفس الجملة والخلف والأمام بنفس المكان والفوق والتحت بذات المستوى والعمى والإبصار بذات العين.

٧ ـ التعصب بالإفتاء الشعبي:

الأفراد والجماعات التي تتعاطى مهمة الإفتاء الشعبي وفية لما تفتي به، وهي مقتنعة أنه الحق المبين ومن يعارض هذه الفتاوى زنديق أثيم، خارج على الجماعة، شاق لعصا الطاعة، كافر، ومباح الدم أو فاسق يجب أن يعزل وينبذ من صفوف الفريق الذي يمتلك الحقيقة وينطق باسم الدين، وقد تصدر الفتوى بتكفير أو تفسيق عشرة ملايين مسلم أو مائة مليون مسلم دفعة واحدة لا لشيء إلا لمجرد الاختلاف بالرأي، قد تعتبرونني مبالغاً أو خيالياً لكن سترجعون عن اتهاماتكم لي عندما أضع بين أيديكم صوراً عن الفتاوى الصادرة عن جماعات محترمة وعن أشخاص محترمين ومضمونها تكفير ١٠ ملايين مسلم و١٠٠ مليون مسلم دفعة واحدة. . . إلخ.

٨ ـ الفتوى حكم وقرار قضائي:

إنه لا يخفى على مراكز الإفتاء الشعبية بأن الله تعالى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وأنه ما من قول يلفظه الإنسان إلا لديه رقيب عتيد. وتعلم هذه المراكز أيضاً بأنه محظور على الإنسان المسلم أن يقف ما ليس له به علم، وأن الإنسان ملزم دينياً كإلزامه بالصلاة بأن يعدل في قوله، وأن يتوخى الصدق في ما يقول فإذا أفتى حكم، وإذا حكم يجب أن يحكم بالعدل ولو على أعدائه. تلك أمور تتجاهلها مراكز الإفتاء الشعبي، وهي معروفة تماماً من قبلها وتدرك بأنها أحكام إلهية، ولكنها تتركها مع سبق الإصرار، لأن أحكام الله لا تحقق مقاصد

الهوى، وبالرغم من ذلك يزعمون أن فتاواهم تلك جاءت انتصاراً للإسلام وتبياناً لأحكامه. . . إلخ.

٩ ـ إن لكم في القضاء الأردني لعبرة:

لو أن «أ» من الناس رفع دعوى بمبلغ عشرين دينار على «ب» من الناس أمام أي محكمة من محاكم الأردن وحضر الطرفان. يكرر المدعي لائحة دعواه ويسأل القاضي المدعى عليه في ما يقوله المدعي فينكر المدعى عليه انشغال ذمته بمبلغ العشرين ديناراً موضوع الدعوى فيقول القاضي للمدعي إن الأصل براءة الذمة وإن المدعى عليه بريء حتى تثبت إدانته فيبدأ المدعي بتقديم بيناته ثم يختمها ويسأل القاضي المدعى عليه إذ كان يرغب بتقديم بينة فيقدم المدعى عليه بيناته ثم يختتمها. عندئذ يقول القاضي للطرفين: أتيحا لي فرصة لتدقيق البينات وإصدار الحكم على ضوء أحكام القانون، فيؤجل القاضي الجلسة لمدة أسبوع أو أسبوعين ليصدر قراره بمبلغ عشرين ديناراً.

١٠ ـ كيف تحكمون:

أنظروا إلى القاضي الأردني كيف يدقق وكيف يتأنى قبل أن يصدر حكمه بمبلغ عشرين ديناراً والقاضي الأردني يحكم وفق قواعد قانونية أوجدها العقل لتحقيق العدالة ألا تتعلمون الصبر والعدل من هذا القاضي!! بجرة قلم تكفّرون مائة مليون مسلم بسبب اختلافكم معهم بالرأي!! هل دققتم قبل إصدار حكمكم؟! هل أعرتم الموضوع من العناية ما يعيره قاضي الصلح الأردني لمبلغ عشرين ديناراً؟!.

وفي الحلقة القادمة سنتناول نموذجين للفتاوى الدينية السياسية الشعبية ونبدأ بتحليلها تماماً كما فعلنا بنماذج الفتاوى الدينية الرسمية قبل قليل لا نكاية ولا زراية بأحد إنما ببيان الحقائق الموضوعية المجردة في هذا المجال والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثاني

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال
«بين يدي الإفتاء الوهابي في الأردن»

١ ـ الربط للتوضيح:

في الحلقة الأولى عالجت موضوع الإفتاء الديني في الأمور السياسية، وحددت التقاطيع الأساسية لهذا الموضوع. وبالقدر الذي يساعد على تسهيل حركة النقلة النوعية لطريقة التفكير وطريقة التعامل مع الحقائق المجردة.

وقد وضحت أن الإفتاء الديني في الأمور السياسية قد انقسم ـ واقعياً ـ إلى قسمين رئيسين:

١ ـ القسم الرسمي: ويتمثل بالفتاوى التي تصدرها جهة رسمية تابعة للدولة ـ أية دولة ـ تعتبر الإسلام ديناً رسمياً لها.

٢ ـ القسم الشعبي: ويتمثل بالفتاوى الصادرة عن الأشخاص والجماعات والأحزاب الدينية بالأمور السياسية سراً وعلانية.

٢ ـ نماذج للتوضيح:

ولتوضيح الإفتاء الديني الرسمي في الأمور السياسية فقد استحضرت ثلاثة نماذج لفتاوى صدرت عن «شيخ الإسلام» في الدولة العثمانية وبينت في الحلقة السابقة أن هذه الفتاوى قد استخدمت كغطاء شرعي لتنفيذ عمل غير شرعي تمثل بخلع ثلاثة سلاطين أو خلفاء عثمانيين لا لشيء إلا لأنهم قاوموا المخططات

اليهودية وحاولوا أن يتصدوا لعملية تفكيك الدولة الإسلامية من الداخل. وقد حللنا هذه الفتاوى تحليلاً علمياً وتركنا لعشاق الحقيقة المجال ليحكموا ولتوضيح طبيعة الإفتاء الديني الشعبي في الأمور السياسية سنتبع نفس المنهج الذي اتبعناه لتوضيح طبيعة الإفتاء الديني الرسمي، حيث سنقوم باستحضار نماذج ثابتة من الفتاوى الدينية الشعبية الصادرة في الأمور السياسية ثم نبدأ بتحليلها. مع التزام جانب الحيطة والحذر. لأن (الورطة) مع الدولة ـ أي دولة ـ، هي أخف وأهون بسبعين مرة من «الورطة» مع فرد متشنج أو جماعة أوحزب.

٣ ـ بين يدي الفتاوى الدينية الشعبية:

التياران السياسيان: وهو على فراش الموت، وبوفاته ﷺ وقبل أن يوارى في ضريحه الأقدس، برزت السمات الأساسية لتيارين سياسيين رئيسيين إسلاميين:

التيار الأول: هو الذي يرى أن الله تعالى قد أكمل الدين وأتم النعمة وبين للمسلمين كل شيء على الإطلاق، وأتباعه يرون أن رئاسة الدولة، الإمامة أصل من أصول الدين وهي محصورة بمحمد وبآل محمد ما دام فيهم المتصف بصفاتها، وذلك لأنهم هم الأعلم والأتقى والأخلص والأفضل بالنص الشرعي، وتلك صفات خفية لا يعلمها إلا الله، وهم يحتجون بمئات الأدلة الشرعية والعقلية، ليس هذا هو المجال لعرضها. وهذا التيار هو الذي حمل لواء المعارضة طوال التاريخ السياسي الإسلامي.

التيار الثاني: لايختلف مع التيار الأول من حيث كمال الدين وتمام النعمة ولا من حيث تغطية البيان الإلهي لكل شيء ولا من حيث الأساسيات العامة للدين لكنهم يرون أن رئاسة الدولة الإسلامية شأن خاص بالمسلمين وبالتالي هي متروكة لاجتهاداتهم وضمن المبادىء العامة للدين فمن قاد المبادرة إلى الرئاسة أولاً وغلب وحصل على بيعة الأكثرية فهو الخليفة سواء أكان من الآل الكرام أو من غيرهم. ولم تستقر حجة هذا التيار على حال فيما يتعلق برئاسة الدولة وانتهت بهم الأمور إلى القول: إنه حقناً لدماء المسلمين وحرصاً على وحدتهم السياسية فيجب مبايعة المسلم الغالب كائناً من كان عملاً بمقولة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر الذي

قال يوم الحرة: نحن مع من غلب، وتحولت هذه المقوله إلى قاعدة دستورية طبقت بدقة متناهية طوال التاريخ السياسي لدولة الخلافة التاريخية، وهذا هو التيار الذي حكم طوال التاريخ السياسي دولة الإسلام.

٤ ـ الحكم والمعارضة:

طوال التاريخ السياسي الإسلامي والتيار الثاني يحكم ويقبض على مقاليد الأمور، وقد اتسع بالمعارضة حيناً من الدهر، ثم ضاق بها ذرعاً، فجفاها وشوه صورتها من خلال وسائل الإعلام التي يسيطر عليها وحرف حجتها فأعرضت الأكثرية عن المعارضة رغبة أو رهبة أو طلباً للسلامة. وطوال التاريخ والتيار الأول يدفع عقيدته، وينشر حجته ويعارض معارضة لا تشق عصا الطاعة، ولا تقصم عرى الوحدة بين هذين التيارين لإقناعه أن دولة الإسلام هي دولة الحكم والمعارضة وهي التعبير الشرعي عن وجود الأمة الإسلامية التي تتكون من هذين التيارين، وتحدد موقف الأكثرية من المعارضة وتبنت حجة الحكم وموقفه من المعارضة حتى أمسى هذا التبني كتقليد أعمى يسمو عن النقد ويخرج تماماً عن إطار المراجعة والتفكير فما نقوله اليوم عن المعارضة: التيار الأول هو عين ما قيل عنه قبل ألف وثلاثمائة عام بدون زيادة ولا نقصان.

٥ ـ الغلبة والانهيار الأعظم:

غلب الأمويون فحكموا، حتى غلبهم العباسيون فحكموا، حتى غلبهم الانفصاليون فحكموا، حتى غلبهم العثمانيون فحكموا، فالتغلب والغلبة هما الأساس الأول، غالبت دول الكفر الدولة العثمانية وجهاً لوجه إلا أن العثمانيين غلبوا. وأدركت دول الكفر ومعها اليهودية العالمية أن هزيمة المسلمين مستحيلة بدون تفتيت أمة الإسلام، وتفتيت الأمة الإسلامية مستحيل دون تدمير الدولة الإسلامية على اعتبار أن الدولة هي التعبير الشرعي عن وجود الأمة والطريقة المثلى لتدمير دولة الإسلام تتحقق عن طريق تفكيكها من الداخل ولتحقيق هذه الغايات قام الكفر العالمي بالتعاون مع اليهودية العالمية بإنشاء جمعية الاتحاد والترقي بقيادة يهودية وتأسيس يهودي وبتمويل وتخطيط على مستوى عالم الكفر كله. ورفعت

هذه الجمعية الشعارات البراقة وما زالت تستخف الغافلين، حتى قبضت على مقاليد الأمور في دولة الإسلام وأصبحت هي الحزب الوحيد الحاكم وهيجت وروعت كل الشعوب والأقوام الذين تتألف منهم دولة الإسلام ثم قطعت خيط السبحة الإسلامية فغدت كل حبة في واد وكل شاهد في بلاد، وتفككت دولة الإسلام ـ التي رغم كل خطاياها تعبر بوجودها عن وجود أمة الإسلام وتحمي بقوتها دار الإسلام. وحدث الانهيار الأعظم وقامت على أنقاضها عشرات الدول وتفتت أمة الإسلام، وتوجت جمعية الاتحاد والترقي عملها الجبار بشروط كروزون الأربعة ١٩٢٣: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، وإلغاء الخلافة، وإخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد، واتخاذ دستور مدني (راجع ص١١٩ من كتاب السلطان عبد الحميد للسيد (أنور الجندي). وكانت هذه الشروط بمثابة دعوة عملية ونموذج لكل الدولة التي قامت على أنقاض دولة الإسلام لتنسج على منوالها ولتقطع على المدى البعيد كل صلة لها بالإسلام حتى تنال رضى الدول المتحضرة.

٦ ـ الفزعـة:

من وسط الركام، ومن بين الأنقاض، نهضت كل الفئات المتنورة وهي في حالة صدمة وذهول من هول ما جرى، وقررت أن تفزع، للإسلام ولأمة الإسلام، فقام الأشخاص، وتكونت الجماعات، وتأسست الأحزاب كل يدعي حب الإسلام ويطالب بإعادته ليقود الحياة والأحياء فزعة، حقيقية كل جماعة تريد أن تنصر الإسلام وحدها، وبطريقتها الخاصة التي ارتجلتها على عجل، فتحصل وحدها على الفخر والشرف، وتحقق الغلبة فتنال الغنم كله، وهي من فرط غيرتها على الإسلام لاتقبل أن يشاركها عملياً بهذا الشرف أحد.

٧ ـ لوم أخوي وتقريع:

﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾، (الأنعام الآية:١٥٩) **﴿. . . ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾**، (٣١ و٣٢ من سورة الروم). عندما تنقسم الأمة الواحدة إلى شيع وأحزاب يتصيد كل حزب

للآخر، وتتربص كل شيعة بالأخرى والعدو يتربص بالجميع، فلسنا أمام اجتهاد أو اختلاف بوجهات النظر، إننا أمام خطر محدق بالأمة يريد أن يقتلعها من جذورها، إننا أمام صنف من أصناف العذاب الإلهي الذي توعد به الله أولئك الذين بدلوا نعمة الله كفراً وسلكوا سبيل أهل البطالة من الأمم السابقة: **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعضٍ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾**، (الأنعام الآية: ٦٥).

٨ ـ الوهابية إحدى الجماعات الإسلامية:

نسبة إلى الشيخ محمد عبد الوهاب (رحمه الله).

وهو يقول عن نفسه: «أنا لم آت بجهالة، ولست أدعو إلى مذهب، بل أدعو إلى الله وحده وإلى سنّة نبيه.. فالمرحوم ينادي بالتوحيد والعودة إلى أصول الإسلام الصحيحة، (راجع ص١١١ ـ ١١٣ من تاريخ العرب للدكتور عبد الكريم الغرايبة). ومع هذا عدت الوهابية صفة يوصف بها كل خارج على إجماع حتى وإن كان الإجماع خاطئاً(ص١١٤ نفس المرجع).

هذه هي الوهابية كما أرادها مؤسسها وهي بهذا المفهوم دعوة حق، والله تعالى هو المتوكل بالنوايا. لقد درس مؤسس هذه الحركة المذهب الحنبلي وأخذه عن أعلامه المعروفين آنذاك. لكنه استقل بتكوين قناعاته وبطريقته في التفكير. فهو لا يرى كما يرى أحد أستاذته ابن تيمية أن علياً عليه السلام كمعاوية وأن الحسين عليه السلام كيزيد وأن أبا بكر (رضي الله عنه) كمروان بن الحكم أو كأبيه الحكم بن العاص. وباختصار شديد فالرجل يريد نصرة الإسلام وإعلاء شأنه، وقد بحث عن المقصود الشرعي تماماً في حدود إمكانياته كبشر وهو على العموم مجتهد أصاب أم أخطأ وأجره على الله في الحالتين إن حسنت النية وهي حسنة إن شاء الله.

٩ ـ وهابيون في الأردن لهم منهج آخر:

حيث وقع هذا البعض بما وقع به غيرهم، وعلى عكس ما أراد مؤسس الوهابية فقد قصروا جل اهتمامهم على القبور، وزيارتها ومقدار علو البناء فوقها.

وعلى القباب والحركة المستمرة لأصبع الشاهد أثناء السجود. . .إلخ ولو اقتصر الأمر على هذه الأمور لقلنا إنهم إخوة لنا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في حدود مبلغهم من العلم، لكنهم تبنوا اجتهادات سياسية مبتسرة صدرت عن أصحابها قبل ألف وثلاثمائة عام وفي ظروف تختلف عن ظروفنا. فعادوا على أساس هذه الاجتهادات وصالحوا بوحيها، وأخذوا يصدرون فتاواهم كالبذار يكفرون عباد الله بالملايين، ويفسقون من آمن بالله وبالملايين كل ذلك بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. ويبدو أن حبهم للإسلام قد وصل إلى درجة أنهم لا يريدون أن يشاركهم بهذا الحب أحد، وأن غيرتهم على الإسلام قد وصلت إلى حد يستهجنون به على أي جماعة مسلمة أن تنصر الإسلام دون إذنهم أو دون علمهم أو طريقتهم. إن هذا الحب عجاب، وتلك غيرة عجيبة **﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾** (الكهف الآيتان: ١٠٣ و١٠٤) ذلك مبلغهم من العلم، (عفا الله عنا وعنهم) فدين الإسلام يربط أتباعه برابطة الولاء ورابطة الأخوة الإسلامية مهما اختلفت الاجتهادات وتعددت الآراء.

١٠ ـ قبل أن يحدث الزلزال:

قصر هؤلاء الإخوة جهودهم في الأردن على الدعوة لمذهبهم تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضمن الأطر السابقة وعلى التمكين لأتباعهم في مراكز التأثير.

١١ ـ أسباب الزلزال:

«شاهنشاه إيران» علا في الأرض، وبغى، وأمسى أعظم طاغوت عرفه الشرق الحديث على الإطلاق وآمن بمقولة لويس ملك فرنسا «الدولة أنا وأنا الدولة» وصمم نهائياً أن يقطع كل صلة لإيران بالإسلام ومن خلال منظومة أسياده العلمانية الخبيثة ومن خلال ثرائه الباذخ حاول أن يمجِّس شعب إيران المسلم وأن يرده عملياً عن دينه بحيث لا يترك له من دين الإسلام غير القشور تماماً كما فعل مصطفى أتاتورك بشعب تركيا المسلم.

١٢ ـ المواجهة:

وقف فرعون إيران ومعه عدته وعتاده وجنوده في جهة، ووقف علماء الإسلام في إيران بقيادة السيد آية الله الموسوي الخميني في جهة أخرى ومعهم القرآن ليدافعوا عن دين الإسلام. كانت أعظم مواجهة في التاريخ الحديث على الإطلاق. لم يصدق أحد وفق مقاييس العقل والمنطق أن الشاه سينهزم، وأن الإسلام سينتصر في إيران، لكن مقاييس الله غير مقاييس البشر وسقط الطاغية وانتصر شعب إيران المسلم.

١٣ ـ ثمرة المواجهة:

باختصار أزيل الكفر، وحل محله نظام الله، نظام دين الإسلام وأصبح قائد المواجهة أول نائب للإمام وأول قائم بأعمال رئيس الدولة الإسلامية في إيران.

١٤ ـ الجنون فنون:

جن جنون أعداء الإسلام في الغرب فأوحوا إلى أوليائهم، فصوروا الإمام غولاً، وخوفوا الحكام والشعوب منه ليمنعوا أي تعاون بين إيران المسلمة وبين الدول الإسلامية. فنادى الإمام بأعلى صوته: لو ملكت قوى الأرض كلها ما اعتديت على أحد، ولا ظلمت أحداً، لأن الإسلام لا يقر الظلم والاعتداء، وإنني أمد يد المحبة، والإخاء لكل مسلمي الأرض ولكن لم يصغ له أحد، وبينما كانت إيران تحيا ليالي عرسها الخالدة لاهية نشوى بانتصار دين الإسلام وقعت الحرب العراقية الإيرانية لتضرب الغول قبل أن يأكلها، وقد بينت الهيئات الدولية المحايدة من بدأ هذه الحرب وكيف وقعت. وعرفنا بعض آثارها المدمرة.

١٥ ـ مع قافلة الغضب:

ذهل إخواننا من الوهابيين في الأردن أن ما جرى في إيران يفوق التصور والتصديق، عجباً لم يستشرهم علماء الإسلام في إيران عندما أقاموا حكم الله لم تستأذن إيران منهم عندما أعلنت ولاءها لدين الله. وأن هذا الدين هو الوطن وهو الهوية، إذاً تلك مؤامرة على الحركة الوهابية في الأردن فتستروا بالمناخ الذي

أوجدته الحرب العراقية الإيرانية، وبجو الوهم والخوف قرروا مجموعة من القرارات منها نشر كتاب (سراب في إيران) فسموا الغيث الذي ساقه الله إلى بلد ميت فأحياه سموه سراباً وبالتعاون بينهم وبين إخواننا في بعث العراق اهتدوا إلى كتاب كشف الأسرار الذي ألفه الإمام عام ١٩٤١ معتقدين أنهم إذا ترجموا هذا الكتاب ونشروه سيهدمون حقيقة أن إيران تطبق شرع الله وإذا تهدمت هذه الحقيقة عندئذ تبقى الوهابية هي الأمل الوحيد لجماهير الأمة الإسلامية عفا الله عنا وعنهم وهدانا وإياهم فالإسلام الذي يتسع للعالم كله لن يضيق بأتباعه!!.

١٦ ـ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا..:

لقد نجحت الشيوعية في اليمن الجنوبي وأصبحت اللينينية الماركسية هي الحكم والحكم بنص الدستور هناك ـ ومازالت ـ على حد علمي القاصر وماركس يجهر علناً بأن الله تعالى مجرّد هو لا يقرّه علم فهل يثيركم تطبيق الإسلام في إيران ولا يثيركم تطبيق الماركسية الشيوعية في اليمن الجنوبي لعلكم تذكرون أن المشركين العرب قد سألوا اليهود: أيهما أقرب إلى الله نحن أم محمد؟ ومن هو الأصح ديننا أم دينه؟ فجاءتهم الفتوى اليهودية سريعاً. دين الشرك خير من دين الإسلام وأنتم أهدى من محمد وأتباعه سبيلاً. أرجوكم أن تتلوا مشكورين ومأجورين إن شاء الله الآية رقم ٥١ من سورة النساء وأن تطلعوا عن تفسيرها **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾**، (النساء الآية:٥١)، لعلّه الحقد الأسود، لعلّه الغلّ الدفين، اللّهم طهّر قلوبهم من الحقد والغلّ، ربنا لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، عفا الله عنكم.

في الأردن مثلاً يجلس الشيوعي والبعثي والقومي والنصراني والمسلم على طاولة واحدة يبحثون عن المنهج الأقوم والمسلك الأفضل وبروح رياضية، ثم يتصافحون ويتصافون رغم الاختلاف بالرأي، وهكذا الحال في أكثر دول الأرض. مع أن الديمقراطية التي هيأت ذلك هي من صنع البشر وهي ليست أكثر رحابة من الإسلام فالناس كانوا يختلفون مع النبي نفسه. إهنأ يابن عبد الوهاب في جنان ربك فلا علاقة لك بما يفعله إخواننا من أتباعك.

١٧ ـ ترجمة كشف الأسرار:

لم يكن الهدف من ترجمة هذا الكتاب نشر العلم والمعرفة، أو الوقوف على حقيقة الرأي الآخر، أو البحث عن الحقيقة المجردة من باب أن الحقيقة ضالّة المؤمن. إنما كان القصد من الترجمة هو التحريف والتشويه والانتحال لتكون النتائج المحرفة والمشوّهة والمنتحلة هي المبرر لإصدار سيل فتاواهم بتكفير مائة مليون مسلم بجرة قلم. أقول هذا وأمامي الترجمة العلمية الدقيقة التي قام بها أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب في جامعة القاهرة. وأمامي أيضاً مجموعة القوانين النافذة في الأردن والمتعلقة بهذا الموضوع وما يعنيني بالدرجة الأولى هو تبيان الحقيقة العملية المجردة ولتحقيق هذه الغاية سأعالج الموضوع تباعاً والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثالث

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال

لماذا تم تاليف كتاب كشف الأسرار؟

الوهابيون وكتاب كشف الأسرار

١ ـ الربط للتوضيح:

في الحلقة الأولى بيَّنا مفهوم وطبيعة الإفتاء الديني في الأمور السياسية، ووقفنا على قسميه الرسمي والشعبي وسقنا نماذج للإفتاء الديني الرسمي في الأمور السياسية من وقائع التاريخ السياسي الحديث، وفي الحلقة الثانية قدمنا بين يدي الإفتاء الديني الشعبي ووضحنا طبيعته ومفهومه وجذرناه حتى لاحت معالمه.

٢ ـ الوعد بالفتوى:

لقد وعدت عشاق الحقيقة باستحضار نماذج من الإفتاء الديني الشعبي في الأمور السياسية للوقوف على حقيقة هذا النمط من الإفتاء، ويقيني أن أفضل هذه النماذج الفتوى الصادرة بتكفير مائة مليون مسلم وبجرة قلم وبمدة لا تتجاوز نصف ساعة فحكموا على المائة مليون مسلم وبنفس ألفاظ الفتوى بالكفر البواح، والشرك الصراح، والضلال، والفساد في الأرض. . . إلخ.

٣ ـ ما هو سبب تكفير المائة مليون مسلم؟:

صدرت هذه الفتوى المشؤومة بحجة أن واحداً من المائة مليون مسلم قد ألَّف في عام ١٩٤١ كتاباً بعنوان «كشف الأسرار». فاهتدى إليه مصدور الفتوى

حديثاً وترجموه من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ترجمة مشوهة ومحرفة وبدون أن يستأذنوا من مؤلفه، خلافاً لأحكام الشرع الحنيف وخلافاً لأخلاق الإسلام، وخلافاً لقواعد القانون النافذ في الأردن وخلافاً للاتفاقيات الدولية، وللأعراف المرعية بين أرباب العلوم من مختلف الملل وعلى ضوء هذه الترجمة المشوهة والمحرفة والمنتحلة عمداً أصدروا فتواهم آنفة الذكر.

٤ ـ جهاز الإفتاء والترجمة:

ثبّت محرفو ومشوهو كتاب كشف الأسرار على أغلفته الجمل التالية:

«ترجمة الدكتور محمد البنداري»، «تقديم محمد أحمد الخطيب»، «تعليق سليم الهلالي»، «إفتاء ناصر الدين الألباني»، «استفتاء بشار عداد معروف»، هؤلاء هم جهاز الترجمة والتأليف وللحقيقة نسجل أن «المقدم والمعلق»، لم يكتفيا بالفتوى الألبانية إنما أصدرا عشرات الفتاوى.

للتعريف لا للإساءة:

أ ـ المترجم:

لا يوجد في الأردن بضفتيه الشرقية والغربية دكتور اسمه محمد البنداري ولا شخص بهذا الاسم وهذا تحد. والحقيقة أن الذي قام بالترجمة المشوهة هو الدكتور بشار عواد معروف الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي الشعبي العراقية وبمساعدة أحد عناصر مجاهدي خلق المناوئة للحكم الإسلامي في إيران وهو نفسه الذي وجه سؤال الفتوى إلى الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (عفا الله عنا وعنه) وبما أن اسم ابن الدكتور بشار هو محمد وبما أن أحد شيوخ الإمام البخاري (رحمه الله) كان اسمه محمد البنداري لذلك وتيمناً على حد تعبير جهاز الترجمة والإفتاء أطلق على المترجم اسماً مستعاراً وهو «محمد البنداري»، فذلك أكثر إحكاماً وموضوعية لصياغة الفتوى والثقة بها. ومرة ثانية أتحدى جهاز الترجمة والإفتاء أن ينفوا كلمة واحدة مما ذكرت. والدكتور بشار هذا يدعو بدعوة الإسلام جزاه الله خيراً ويعتقد الوهابيون أنه منهم ويتعرفون على هذا الأساس وبنفس الوقت يعتقد

البعثيون العراقيون أنه منهم ومتعاطف معهم. تلك حقيقة تعرفها الجهات التي أشرنا إليها.

ب ـ مقدم الكتاب المشوهة ترجمته:

لم يجد الدكتور بشار بين أهل العراق ـ وهم معدن العرب ـ من يقدم لهذا الكتاب مما اضطره الاستعانة بالسيد محمد أحمد الخطيب من كلية الشريعة الجامعة الأردنية فكلفه للقيام بدور (المقدم) ودور المفتي والسيد الخطيب خريج الجامعة الأردنية عام ١٩٧٤ وحصل على الماجستير عام ١٩٨٠ والدكتوراه عام ١٩٨٣ من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في السعودية وهو متخصص بالعقيدة ومن غلاة الوهابيين هدانا الله وإياه لكل خير.

ج ـ المعلق:

وهو السيد سليم الهلالي، لأنه صديق للمترجم والمقدم ولأنه وهابي أسندت إليه مهمة القيام بدور المعلق والمساعدة على إصدار الفتاوى وقد تلقى علومه عن شيوخ أجلاء.

٥ ـ ما علاقة الأردن بالترجمة المشوهة:

طالما أن الترجمة المشوهة والمحرفة تمت في العراق، وطالما أن المترجم عراقي ومتعاون إلى أبعد الحدود مع النظام العراقي الذي كان مشتبكاً بحرب دامية مع إيران لماذا لم يطبع الكتاب المشوهة ترجمته في العراق؟ لماذا طبع في الأردن بالذات؟ صحيح أن الأردن وبكل الفخر بلد ديمقراطي يتسع بالرأي المعارض ولكن وراء الأكمة ما وراءها.

٦ ـ رمتني بدائها وانسلت:

الحرب العراقية الإيرانية مشتعلة والعلاقات الأردنية الإيرانية فاترة ولكنها موجودة. كان المقصود أن تنقطع هذه العلاقات نهائياً وأن توضع السدود والعراقيل بوجه عودتها مستقبلاً، ولتحقيق هذه الغاية أشاع جهاز الترجمة والإفتاء أن المخابرات الأردنية هي التي قامت بالترجمة المشوهة وهي التي غطت تكاليف

الطباعة ولقد كذبوا في ما أشاعوا لأن رجال المخابرات جامعيون شرفاء ويحترمون الحقيقة ومهمتهم مقصورة على التصدي للجريمة قبل وقوعها.

٧ ـ صلة إيران بالأردن أبدية:

لأن الإسلام ـ وأنعم به من رابطة ـ يجمع الشعبين برابطة الولاية والأخوة الإسلامية، فالخلافات التي تنشأ بين شعوب الأمة الإسلامية هي بمثابة غيوم الصيف سرعان ما تزول فالأخوة هي الأصل وما عداها فروع يقول الملك عبد الله بن الحسين: «للشعب الإيراني في قلوبنا آل البيت منزلة خاصة، وما لنا في إيران من تذكارات وصلات روحية أبدية تجعل حبنا لهذا الوطن الإسلامي الشقيق طبيعياً جداً» (راجع ص٣٠٢ من الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين).

٨ ـ الخط المنهجي للقضاء والإفتاء:

الفتوى بوجه من وجوهها حكم حقيقي، والمفتي بشكل أو بآخر قاض، والعدل فريضة على كل مسلم بكل لفظ من ألفاظه وبنفس الوقت هو قيمة إنسانية خالدة وحتى يحقق القاضي العدالة يجب أن يكون حيادياً حتى يزن الوقائع والبينات بروح الحياد والتجرد وهذا من أبجديات العدالة والقضاء المسلم بها على صعيد كافة الديانات السماوية وكافة الشرائع الوضعية.

وبدون جهد يكتشف الباحث جهاز الترجمة والإفتاء ليس حيادياً إنما هو خصم حقيقي للمؤلف يسري الحقد الأسود في عروقهم عليه كما يسري السم الزعاف بالجسد السقيم. وبانتفاء ركن الحياد يزول الأساس الأول لشرعية القضاء والإفتاء.

ومن لوازم العدالة وضروراتها فهم الوقائع كما هي في الحق والحقيقة أسبابها وظروفها وملابسات وحجة صانعيها من أفواههم بالذات وإثبات هذه الوقائع بواسطة طرف محايد إثباتاً يقينياً لا يرقى إليه شك لأن الأصل بالشرع والقانون هو البراءة على الصعيدين المدني والجزائي، فإذا وجد الشك يتوجب على القاضي والمفتي شرعاً وقانوناً أن يحكم ببراءة المتهم جزائياً، وببراءة ذمته المالية مدنياً.

وتلك أمور يجهلها جهاز الترجمة والإفتاء جهلاً كاملاً ولا يعرفونها ولم يتحققوا منها. لأن حكمهم متكون سلفاً وهذا أبشع أنواع الظلم.

ومن جهة ثالثة فلا بد من وجود قواعد حقوقية محددة وواضحة يمكن تفصيلها على الواقع وتفصيل الوقائع عليها بحيث يكون الحكم أو الفتوى ثمرة لانطباق الحدث على النص. وفي حالة عدم وجود هذه القواعد فإن الفتوى أو الحكم هو ثمرة هوى تجاوزته الأديان السماوية وتجاوزه روح التشريع الوضعي المعاصر، وجهاز الترجمة والإفتاء أفتى وحكم وفق قواعد التاريخ لا وفق قواعد الشرع لأن هذا الجهاز يجهل أن حركة التاريخ البشري ما هي في حقيقتها إلا ثمرة حوار أو صراع الحكم مع المعارضة، وأن زمن خنق المعارضة وتلفيق رأيها وكيل التهم لها جزافاً دون أن تتاح لها فرصة الرد هذا الزمن ولى بإذن الله تعالى وإلى غير رجعة لكل هذه الأسباب فإن الفتوى عديمة القيمة.

٩ ـ قيمة الفتوى:

الذين أصدروا الفتوى مع الاحترام ليسوا مؤهلين للإفتاء من كل الوجوه، ولا مختصين به ولولا شماتة الآخرين وحق المسلم على المسلم لوضحنا ذلك، ومن جهة ثالثة فإن هذا الجهاز قد أفتى قبل أن يستفتى، وشوّه الترجمة وحرّفها ثم بنى فتواه على ترجمة محرفة ومشوّهة مما يجعل هذه الفتوى عديمة القيمة ولا تعادل شروى نقير.

١٠ ـ بين يدي كتاب كشف الأسرار:

أ ـ سيادة الفكر العلماني:

نجحت البرجوازية الغربية نجاحاً ساحقاً في صراعها المرير مع الحكم المطلق في الغرب وانهار هذا الحكم الذي كان قائماً في أساسه على تحالف هش بين ملوك الغرب وعلماء الكنيسة مع هيمنة ظاهرة للملوك وانهيار الحكم المطلق انهارت كافة بناة الحقوقية، وإمعاناً بكراهيته والحقد عليه استبعدت البرجوازية الغالبة كافة أساسيات هذا الحكم ولوازمه وأطره ونواميسه، وبشكل خاص الدين ـ أي دين على

الإطلاق ـ حيث اعتبرته شريكاً رئيسياً في جريمة الحكم المطلق ففصلت الدين عن الحياة فصلاً كاملاً وقصرت دوره على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه، وأهملت إلى حد التجاهل الجانب الروحي في الحياة وفي الإنسان حتى لا يكون للدين أي دور مستقبلي في الحياة العامة، وفصلت القانون عن الأخلاق على اعتبار أن الأخلاق أثر من آثار الدين ـ والدين برأيها حاجة ليست علمية ـ وانصب كل اهتمامها على الجانب المادي في الحياة متسلحة بالعقل والتجربة، وإبراز الحقوق المجردة، والشعارات المثيرة كالحرية، والمساواة، والديمقراطية، وسيادة الأمة، والحقوق الأساسية للإنسان. . . إلخ. وتكونت التقاطيع الأساسية للفكرة العلمانية في الغرب.

ب ـ البنتان:

وما زالت العلمانية الغربية ترسخ حتى استقرت نهائياً فأجاءها المخاض، فوضعت عقيدتين غربيتين إحداهما التحررية الرأسمالية وهي بنت الغرب الصالحة والمستورة والأخرى هي الماركسية الشيوعية وهي بنت الغرب البغي ولأن الغرب يكره البغي فقد ضيق عليها الخناق ووأدها فماتت تلك البغي كمداً بين يدي حبرها الأعظم غورباتشوف. بعد أن عاشت ٧٠ عاماً.

ج ـ شطر الشرق:

البرجوازية لم تكتف بنجاحها الساحق الذي حققته الفكرة العلمانية في الغرب بل تقدمت تحت مظلة بريقها اللماع مولية وجهها شطر الشرق وبالأخص شطر دار الإسلام بهدف معلن يتمثل بنشر الحرية والمساواة وإعطاء الحقوق الطبيعية للجميع وإنقاذهم من جور الحكم المطلق وعسفه.

د ـ الاجتياح:

الشرق غافل ومتعطش يريد أن يفهم هذه العلمانية التي طالما سمع عنها من البعثات التبشيرية، ومن أبنائه الذين درسوا في الغرب، ومن رسل العمانية الشرقيين وسمعوا عن قدرتها الهائلة على شفاء الأفراد والشعوب والحكومات. ولم يطل الانتظار فتكونت بمركز الخلافة تركيا جمعية الاتحاد والترقي أو جمعية تركيا الفتاة

وهي جمعية علمانية يهودية تمثل تحالف قوى الغرب العلماني، وما زالت هذه الجمعية تتحرك وفق مخطط خبيث حتى لم يبق من الخلافة إلا الاسم ثم ألغت هذا الاسم وأصبحت الحزب الوحيد الحاكم وألغيت في لوزان وبدون إكراه ورسمياً ثم قررت قطع كل صلة لتركيا بالدين، ومطاردة أنصاره وإلغاء كافة القوانين المستمدة منه وإزالة كافة المظاهر الدالة عليه وقصر دور الدين على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه تماماً كالعلمانية الغربية وهكذا أصبحت تركيا دولة حديثة ومثلاً أعلى لكل عشاق العلمانية الغربية في الشرق ودخلت تركيا الحديثة منظومة الدول «المتحضرة» واستفاق العالم الإسلامي ليرى دولة الإسلام قد فككت وأمة الإسلام وقد بعثرت، وأدرك أن العلمانية مقدمة لاجتياح دار الإسلام.

هـ ـ التركيز الخاص على إيران:

كانت العلمانية الغربية شراً اجتاح العالم الإسلامي كله لكنها كانت تركز على مفاصل أمة الإسلام، فأخرجت تركيا «مركز الخلافة» من صف الإسلام نهائياً ثم أجهضت الثورة الإسلامية، ومزقت العرب وهم مادة الإسلام، ولتدمير الإسلام نهائياً وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية إلى الأبد خافت من ثقل إيران الإسلامي والحضاري فركز الغرب العلماني عليها ليعطل دورها، وليحولها إلى دولة علمانية تقتدي بتركيا وساعدهم وشجعهم على ذلك وجود الشاه ليلعب دوراً مماثلاً لدور مصطفى أتاتورك. وكان للشاه أعوان، وللعلمانية رسلها في إيران يبشرون بها، وكان الإسلام وحب مسلمي إيران لأهل البيت، ووجود علماء الإسلام سدوداً منيعة تقف في طريق «علمنة» الشعب الإيراني المسلم.

١١ ـ أسباب تاليف كتاب كشف الأسرار:

شمَّر العلمانيون الأيرانيون عن سواعدهم من الغرب، ومن الشاه، وشنوا حملة صحفية على الدين والمتدينين على الإسلام كعقيدة وعلى أتباعه المتمسكين به في إيران ومن هؤلاء العلمانيين الباحث الإيراني أحمد كسروي والذي كان يدعو صراحة إلى العودة لغة وديناً إلى إيران قبل الإسلام، وكذلك شريعة سنكلجي الذي كان يناصرهم من خلال الدعوة للتجديد داخل المذهب، وأبو الفضل البهائي، ومن

تبعهم، وكان الهجوم ينصب على رجال الدين ومظاهر التشيع الاثنى عشري على الإسلام وصلاحيته لقيادة مسيرة الحياة. وباختصار «إنهم يدعون علناً للعودة إلى مذهب زرادتشت وترك التعاليم السماوية» ولم يجد العلمانيون حرجاً من أن يستعينوا ببعض الفرق الإسلامية على بعض فقد استعملوا حجة الوهابيين ضد القبور ومقامات أهل البيت الكرام. فالعلمانيون الإيرانيون توسلوا بالدين، بالمنطق، وبالفلسفة، بالتاريخ، بالعلمانية، بالقومية، بالوطنية وبكل المعارف الإنسانية بقصد فصل الجماهير المسلمة في إيران عن علماء الدين من جهة وعن الإسلام من جهة أخرى.

١٢ ـ الغاية من تأليف كتاب كشف الأسرار:

كان الهدف المحدد من تأليف كتاب كشف الأسرار هو الدفاع عن الإسلام كعقيدة في إيران، ودحض حجة العلمانيين الإيرانيين، ولقد استعان مؤلف كتاب «كشف الأسرار» بالدين، والمنطق، والفلسفة والتاريخ وكافة المعارف الإنسانية لدحض حجة هؤلاء العلمانيين ولإثبات فساد كافة مقولاتهم.

١٣ ـ من هو مؤلف كتاب كشف الأسرار؟:

مؤلف كتاب كشف الأسرار هو الإمام آية الله الخميني (رحمه الله) وجزاه عن الإسلام والمسلمين كل خير، وقد ولد في بلدة خمين في ١٩٠٢/٩/٢٤ في يوم وافق الذكرى السنوية لمولد سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام، والده الشهيد مصطفى الموسوي ابن العلامة أحمد الموسوي كان زعيماً دينياً لبلدة خمين وضواحيها ووالدته هي السيدة هاجر كريمة آية الله الميرزا أحد علماء كربلاء والنجف يعود نسبه إلى الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. وهذا هو السر بكلمة السيد لأنها لا تطلق في إيران إلا على هاشمي حيث يسمى الهاشميون بالسادات.

١٤ ـ علوم مؤلف كتاب كشف الأسرار:

درس المقدمات على أخيه، ودرس العلوم الدينية في أراك تحت إشراف

المرحوم عبد الكريم الحائري اليزدي بنفس الوقت الذي درس في الأدب على يد أساتذة آخرين، وبعد انتقال الحوزة العلمية من أراك إلى قم تمكن من إتمام درس الخارج عام ١٩٢٦ وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ عبد الكريم حائزاً على درجة الاجتهاد. وبادر إلى تدريس الفقه والفلسفة والعرفان مع درس الأخلاق وبوفاة آية الله البروجردي أعلن عن اختيار الإمام مرجعاً عاماً من قبل العموم ورجال الدين، وترك عشرات المؤلفات. وسنتابع التحليل في الحلقة القادمة. ولله الحمد أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الرابع

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال
الترجمة المزورة ساقطة علمياً

١ ـ ربط الموضع:

لغايات تجذير وتأصيل الوقائع طمعاً بالوقوف على الحقائق المجردة كما هي في الحق والحقيقة، عالجنا في الحلقات الثلاثة السابقة موضوع الإفتاء الديني في الأمور السياسية، ووقفنا على مفهومه، وطبيعته، ونوعيه وسقنا نماذج من وقائع التاريخ السياسي الحديث، وتوقفنا على مشارف الفتوى الدينية (الشعبية) التي تضمنت تكفير مائة مليون مسلم بجرة قلم وبمدة لا تتجاوز نصف ساعة، وبينا أسبابها وأساسها وحيثياتها وهي بمجملها تدور حول كتاب (كشف الأسرار) المترجم من اللغة الفارسية إلى االلغة العربية بطريقة مزورة ومحرفة ومشوهة من ذات الجهة التي استفتت وأفتت بالوقت نفسه.

٢ ـ التنوع والحدة:

كانت غاية العلمانيين الإيرانيين تتمثل بمحاولة إعادة إيران إلى ما قبل الإسلام وفي سبيل تحقيق هذه الغاية شنّوا حملاتهم الفكرية ضد علماء الدين، وضد مظاهر التدين، وضد الإسلام من خلال التشكيك بقدرته على إدارة دفة الحياة، وامتازت حملاتهم تلك بقوة الزخم، وضراوة الاندفاع، والحدة، سواء من حيث الأساليب أو من حيث الموضوعات، أو من حيث التساؤلات التي أثاروها مستعملين كل ما عثروا عليه من معارف، كالمنطق، وعلم الكلام، والفلسفة، والتحررية والشيوعية

والقومية والوطنية والدين ومطاعن الفرق الإسلامية الأخرى بمسلمي إيران وكتابات أحمد كسروي وسنكلجي وگلبايگاني وغيرهم شواهد على ذلك.

٣ ـ التنوع والحدة بالتقابل:

ومن هنا نقف على حقيقة قوة الزخم، وضراوة الاندفاع وحرارة الحدة وكثافة التنوع في كتاب كشف الأسرار الذي جاء بمثابة الرد الإسلامي على هجوم العلمانيين الإيرانيين، فكان الدين والمنطق والفلسفة والتاريخ... إلخ. كلها بمثابة أسلحة استعملها مؤلف كتاب كشف الأسرار بكفاءة عالية ليذود عن الإسلام.

٤ ـ التدخل الآثم:

ذلك صراع دار في إيران بين العلمانيين الإيرانيين وعقائدهم من جهة وبين علماء الإسلام وعقيدته من جهة أخرى فإما أن يتعاطف مسلمو العالم مع الإسلام ومع علمائه وهذا هو الحق أو أن يقفوا على الحياد بحكم التأويل. أما أن يتعاطف فريق من المسلمين مع أعداء الإسلام ويحاربوا حربهم ويعادوا عدوهم فهذا ما لم يخطر على بال. وهذا عين ما فعله «جهاز الترجمة والإفتاء»، الذي عرفناه في الحلقة السابقة إذ اختاروا التبرع بمواجهة مؤلف كتاب كشف الأسرار.

٥ ـ فاستخف قومه فأطاعوه:

«المقدم» للكتاب المزورة ترجمته و«المعلق» على هذا التزوير ساهيان، لاهيان فجاءهما السيد بشار عواد معروف وأخبرهما بأن مؤلف كتاب كشف الإسرار قد وصف الوهابيين الذين هاجموا كربلاء ونهبوا مقام الحسين بن علي عليه السلام بوحوش نجد ومازال يعدهما ويمنيهما ويستثير فيهما الحمية المذهبية حتى استخفهما بدون عناء فأطاعاه، وسلما له المقادة. وأقنعهما أن خير رد على هذه الإهانة «وحوش نجد» يتمثل بترجمة كتاب «كشف الأسرار» ترجمة محرّفة ومزوّرة ومشوّهة. فيقوم «المقدم» بتقديمه والمعلق بالتعليق عليه ويشهدان بصحته، وبعد إتمام الترجمة المشوهة التي ستتم على يد السيد «بشار» يضع بدلاً من اسمه اسماً مستعاراً «محمد البنداري» حتى يبعد الشك وبعد ذلك يتقدم السيد بشار باسم

وظيفته وكأنه لا علاقة له بالموضوع بسؤال أو «استفتاء» إلى الشيخ الألباني فتعد الفتوى التي يريدونها ويطبع الكتاب المشوّهة ترجمته ويوزّع على نطاق واسع ويقتسمون الأرباح وينتقمون من مؤلف كتاب كشف الأسرار، تلك هي الحقيقة وهم أعقل من أن ينفوها. وهكذا ألحقوا أبشع إهانة بالأمانة العلمية.

٦ - ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾:

يقول المعلق على الترجمة المزورة والمشوهة لكتاب كشف الأسرار مستغفلاً عباد الله ما يلي وبالحرف وكما هي واردة على الصفحة ٥ من الترجمة المزورة وحتى لا نتهم بأننا نبتعد عن الحقيقة في ترجمتنا للنصوص الفارسية فقد جئنا بصور للنص الفارسي. لكن المعلق لا يعرف اللغة الفارسية تلك حقيقة وأتحداه أن ينفيها فكيف يشهد على شيء لا يعرفه؟ فمترجم الكتاب هو نفس المستفتي «بشار عواد معروف»، والمقدم لم يترجم كلمة واحدة. والغاية من اختياره لتقديم الكتاب فقط من أجل التبرع بهذه الشهادة.

٧ ـ نماذج من احترام المقدم للحقيقة:

وردت في النص الفارسي «للكتاب المزورة والمشوهة ترجمته»، (الآيات القرآنية من ٢٩ ـ ٣٢ من سورة طه) **﴿واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * واشركه في أمري﴾**، أنظر بربك كيف أصبحت هذه الآيات بعد ترجمتها إلى اللغة العربية «واجعل معيني هارون أخي، أشدد به ساعدي واجعله شريكي» (راجع ص١٥٨ من الترجمة المحرّفة). ثم أنظر إلى ص١٦٠ من الترجمة المحرّفة وكيف يترجمون الآية٣٥ من سورة إبراهيم **﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾** فترجمها من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية على الشكل التالي «اللهم أبعدني وأولادي عن عبادة الأوثان»، هذه هي طريقة احترامهم للحقيقة وللأمانة بآيات القرآن الكريم نفسه، الله وحده يعلم كيف يكون احترامهم للحقيقة وللأمانة العلمية لكلام البشر!!.

٨ ـ ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾:

انتصاراً للأمانة العلمية وبعد صدور الطبعة الأولى من الترجمة المحرفة والمزورة قام الدكتور الأستاذ إبراهيم الدسوقي شتا أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب في جامعة القاهرة مشكوراً. ومع أنه كان قد قرأ الأصل الفارسي لكتاب «كشف الأسرار»، في طبعته الأولى منذ سنوات إلا أنه قد رأى أن يعود إلى الكتاب في طبعته تلك ثم قرأها صفحة صفحة بل سطراً سطراً وكلمة كلمة بالترجمة «الأردنية» «ظلماً لأن الأردن لا علاقة له بالموضوع»، وبعد ذلك كتب خبرته بهذا الموضوع، (راجع مقال الدكتور).

٩ ـ نتائج خبرة الخبير:

أـ ما يتعلق بالمترجم:

أكد رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب في جامعة القاهرة على ما يلي وبالحرف: هل سمعتم عن مترجم يقدم على ترجمة نص في فن ما، دون أي خلفية عن هذا النص أو العلم بمصطلحه بحيث يترجم الرواية وهي مصطلح فقهي بالحكاية (ص٩٣ من الترجمة)، أو يقدم على ترجمة نص خلفياته عصر كامل من الثقافة الشيعية والفلسفية والتصرف دون أن يكون لديه أدنى علم بها فيترجم خبط عشواء وكيفما اتفق، فيقلب التوحيد شركاً والتنزيه تجديفاً ولا يستطيع أن يفرق بين بقرة بني إسرائيل الواردة في القرآن الكريم: **﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾** (البقرة الآية: ٧٣) ورواية عجل السامري الواردة في القرآن الكريم: **﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾**، (طه الآية: ٩٦) ويترجم الرسول، «بالنبي»، مع أن الرسول هو جبريل ويخلط بين الروايتين!! (ص٦٢ من الترجمة) ويتجلى جهله الفاضح بترجمته للصفحات ١١٣ و١٣٥، وحينما يصادف قضية فقهية تقول: إن الماء يصبح نجساً ولو بمقدار رأس إبرة من النجاسة إذا كان أقل من كر، ولأنه يجهل معنى كر فلذلك يحذف القضية كلها، ومما يقوي الشك بأن علاقة المترجم باللغة الفارسية واهية جهله التام بتاريخ إيران فهو يحذف النص كاملاً عندما يرد ذكر أي شخصية تاريخية أو أية حادثة تاريخية، فالإشارة إلى معاهدة إيران مع الإنجليز محذوفة، والإشارة

إلى مختاري وأحمدي أحد جلادي الشعب في عهد رضا خان محذوفة مما اضطره أن يحذف الصفحة ٢٨٣ ولا يترجمها وفي ص٨٠ ولأنه لا يعرف مصطلح التسوية والتسنيم من مناقشة قضية القبور ص٨٥ وهو يحذف ستة سطور كاملة من الصفحة ٩٦ والمتن ص٨٠ لأنها تحتوي على مدح وتمجيد القرآن الكريم، لأنه خشي على المؤلف أن يبدو عاشقاً للقرآن الكريم، ولا تكاد توجد صفحة تخلو من حذف، والحذف عن كسل عندما يكون للنص خلفيات، وهنالك حذف عن قصد (راجع مجلة عالم الكتاب ومجلة التوحيد ص١٣٣ وما فوق العدد٥٥ لعام١٩٩١).

ب ـ الترجمات الخاطئة:

على سبيل المثال لا الحصر: قال المؤلف عن الشهيد ص٥٩ «وضحى بكل وجوده في سبيل الله» فترجمها المترجم و«خسر روحه من أجل الله تعالى»، فانبرى المعلق في سب مؤلف الكتاب الذي يرى في الشهيد أنه خسر روحه، ويترجم المترجم عبارة «مركز التشيع» الواردة بالنص الفارسي بعبارة» «مملكة الشيعة الكبرى ص٩٠».

ج ـ الحذف:

حذف المترجم كل نقد للحكومات، وكل ما يتناول الأمريكان الهجوم ومعظم الهجوم على رضا شاه وكل ما يدافع عن تطبيق الشريعة وعظمتها في مواجهة القانون الوضعي وكل ما يشير إلى العمالة ومصير السوء الذي ينتظر أولئك الذين يبيعون أقلامهم؟ والنماذج كثيرة ولا تكاد توجد صفحة نجت من الحذف ويتروواح الحذف بين عبارة أو كلمة لم يفهما المترجم إلى خمسة عشر سطراً أو صفحة كاملة كشطبه للصفحة ٢٥٩ من المتن الفارسي.

١٠ ـ سقوط الترجمة علمياً:

الترجمة المزورة والمشوهة والمحرفة لكتاب كشف الأسرار، ساقطة بكل المعايير العلمية، وهي تشكل بمجملها أبشع إهانة للأمانة العلمية لأن المترجم شاهد، ويكفي أن يثبت كذب الشاهد في جزئيه من شهادته لكي ترفض شهادته

ككل هذا هو حكم الشرع الإسلامي فما بالكم بشهادة مهلهلة من ألفها إلى يائها.

١١ ـ المقدم والمعلق:

بانهيار الترجمة وسقوطها علمياً، تنهار وتسقط علمياً المقدمة وكافة التعليقات التي بنيت على أساس هذه الترجمة المزورة والمحرفة والمشوهة ودور «التقديم والتعليق» لهذه المسرحية هو أصلاً دور مصطنع ولا ضرورة له. وقد أعطي هذا الدور للمقدم وللمعلق مقابل تبرعهما بالشهادة على الغيب بأن الترجمة المزورة حقيقية ولغايات إقناع الشيخ الإلباني (عفا الله عنا وعنه) بإصدار فتواه المثبتة في آخر الترجمة المشوهة والمزورة لكتاب كشف الأسرار. والأهم من ذلك ليقوما بطباعة الترجمة المشوهة والمزورة في الأردن على اعتبار أن الأردن بلد ثالث على أن يقوم الثلاثة باقتسام المال السحت الناتج عن عملية تشويه وتزوير وتحريف الترجمة ولغايات التبنش، بأنهم من القدرة بحيث إنهم نقدوا مؤلف الكتاب وللتنفيس من خلال التقديم والتعليق عن حقدهم الأسود الذي لا ضرورة له ولا ينبغي له أن يكون لأن الأصل حب المسلم للمسلم.

١٢ ـ سوق ليست لهم:

عفا الله عنا وعن المعلق وعن المقدم وعن المترجم، الذي ما زال مستتراً تحت اسم مستعار، فمؤلف كتاب كشف الأسرار شاؤوا أم أبوا مجتهد وقبل أن يولدوا كان أستاذاً للعلوم الدينية والأدب والفقه والفلسفة والعرفان ولمدة طويلة بأعلى المعاهد العلمية في إيران وهو المرجع الديني الذي ارتضاه مائة مليون مسلم ومع أجل الاحترام إلا أن معلوماتهم عن هذه المواضيع محدودة، وهم لا يغضبون إذا قلنا بأنهم لا يعرفون الطب البشري، ولا هندسة الطائرات أو علم الذرة، لأن عدم معرفتهم بهذه الأمور حقائق مجردة، كذلك فإنه لا ينبغي له بأن يغضبوا إذا قلنا وإنهم أيضاً: لا يعرفون التاريخ السياسي الإسلامي ويجهلون النظام السياسي الإسلامي، ويجهلون علم الكلام، والمنطق والفلسفة... إلخ. وإن جادلوا بالحق سنسمي لهم الكتب التي درسوها ونالوا على أساسها شهاداتهم العلمية. وهما يعيشان في عزلة كاملة عن العالم المحيط بهما فالمعلومات «المذهبية» المحدودة

التي تلقوها عن مشايخهم الكرام هي الميزان الحق للعالم كله، وما عداها من المعارف الإنسانية «كفر بواح، وشرك صراح وباطل وإلحاد وزندقة»، على حد تعبيرهم. وبما أن الباطل عدم وغير موجود من الناحية الشرعية فمحاولة الاطلاع عليه أو الإلمام به عبث لا طائل تحته ومضيعة للوقت وفتح باب الذرائع للإلحاد والزندقة. ومن هنا يسهل علينا أن نفهم تهمة الإلحاد والزندقة والباطنية التي ألصقها المعلق بالفيلسوف الإسلامي الشهير ابن سينا (راجع ص١٧ من الترجمة المزورة). وإخواننا الكرام لا يعرفون ولا يعترفون إلا برأي واحد هو رأيهم فلا وجود للرأي الآخر، ولا معنى للمعارضة لأن رأيهم «كما يتصورون» هو رأي السلف الصالح ومن يعارض رأي السلف الصالح هو ملحد وزنديق فالحوار والمواجهة العلمية بين جهاز «الترجمة والإفتاء» وبين مؤلف كتاب كشف الأسرار غير متكافئة وغير معقولة وبتعبير مؤلف كتاب كشف الأسرار «إن التخصيص يحتاج إلى أعوام طويلة وتدخلكم بالاجتهاد هو تماماً مثل تدخل الحلاق في الأمور الميكانيكية أو المقارعة في علم الاجتماع والمغناطيس». ومع أن التقديم والتعليق قد سقطا علمياً بسقوط الترجمة المزورة والمشوهة لكتاب كشف الأسرار إلا أنني سأبدأ بتناول الأمور الرئيسية التي أثاروها من خلال التقديم والتعليق والإفتاء لغاية واحدة وهي إبراز الحقائق المجردة. ولله الحمد أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الخامس

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال

جهل الذين ترجموا الكتاب

١ ـ ربط الموضوع:

في الحلقة الأولى عالجت مفهوم وطبيعة الإفتاء الديني في الأمور السياسية. ووقفنا على قسميه الرسمي والشعبي، ولغايات التوضيح سقنا نماذج بالإفتاء الديني الرسمي من وقائع التاريخ السياسي الحديث. وفي الحلقة الثانية قدمنا بين يدي الإفتاء الديني الشعبي، ووضحنا طبيعته وجذرناه حتى لاحت معالمه ومهدنا لعرض الفتوى الشعبية التي تتضمن تكفير مائة مليون مسلم دفعة واحدة وقد صدرت بمناسبة حادثة الترجمة المشوهة والمزورة لكتاب كشف الأسرار المترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية من قبل ما اصطلحنا على تسميتهم «بجهاز الترجمة والإفتاء» وهم المترجم والمقدم لهذه الترجمة والمعلق عليها. وقد عرفنا بهذا الجهاز وعرفنا بمؤلف كتاب كشف الأسرار ودواعي تأليفه لغاية محددة وهي الوقوف على الحقيقة العلمية المجردة. وفي الحلقة الرابعة اثبتنا وعن طريق أهل الخبرة والاختصاص أن الترجمة مشوهة ومزورة ومحرفة عمداً وأنها ساقطة بكل المقاييس العلمية ومخالفة للشرع الحنيف ولأخلاق الإسلام وللأعراف المرعية، والقوانين الوضعية والاتفاقيات الدولية.

٢ ـ التحالف العجيب:

الترجمة تمت في العراق الشقيق، والمترجم عراقي ومن البارزين في حزب

البعث العراقي، والمقدم لهذه الترجمة المشوهة والمزورة من الضفة الغربية ومن غلاة الوهابيين ومثله المعلق على هذه الترجمة. البعث حزب علماني قام على أساس فصل الدين عن الدولة كما أكد ذلك مؤسسه الأستاذ ميشيل عفلق. والوهابية حركة دينية سياسية هدفها المعلن إعادة نمط حياة الأمة ونظامها السياسي ليكون على شاكلة السلف الصالح. أما على الصعيد المالي فالتحالف يقوم على أساس أن يقوم المقدم والمعلق بطباعة الترجمة المزورة في الأردن ويشهدا بصحتها ويفتيا على أساسها ولهما ريع الكتاب.

٣ ـ حالة لا مثيل لها:

المقدم للترجمة المزورة لكتاب كشف الأسرار خصم حقود اختار الخصومة بغير ضرورة ولا مصلحة متوهماً أنها أقصر الطرق المؤدية للشهرة والمنفعة الشخصية والإثراء الحرام. مستغلاً ظروف الحرب التي جرت بين فريقين مسلمين فبدلاً من أن يدعو للإصلاح وحقن الدماء بحكم طبيعة شهادته أخذ يصب على النار لتزداد اشتعالاً ولتحرق في أتونها خيرة شباب الإسلام ومن هذا فالمقدم حر ولا تثريب عليه عرفاً لو أنه بقي خصماً وخاصم أو عرض ظلامته على قاض حيادي طالباً النصفة وإحقاق الحق. لكنه لم يكتف بالخصومة، إنما تبرع بالشهادة عن أمور تتعلق بذات الموضوع مع أنه لم يحضرها، ولم يشهدها ولا يعرف شيئاً عنها فجمع بين الخصومة والشهادة. ولم يكتف بذلك إنما نصب نفسه مفتياً وقاضياً ثم استفتاها ـ إن النفس لأمارة بالسوء ـ فقضى وأفتى على هواه وبغير علم ولا هدى ولا كتاب منير في أمور تتعلق بالنية ولا يعلمها إلا الله، وبعد أن أتم فعلته أخرج سبحته وبدأ يداعب حباتها وقبض على لحيته ملاعباً خصلاتها وردد قول الله تعالى: **﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى﴾** ثم أخرج منديله ومسح حبات العرق المتصببة فوق جبينه كأنه قد خرج لتوه من ساحة الجهاد في سبيل الله. فمقدم الترجمة المزورة لكتاب كشف الأسرار هو الخصم وهو الشاهد، وهو المفتي والقاضي بنفس الوقت وبذات القضية فهل عرفتم بربكم مثيلاً لهذه العدالة حتى في عصور ما قبل التاريخ؟!!.

٤ ـ الجهل المطبق:

مقدم الترجمة المزورة والمشوهة لكتاب كشف الأسرار يجهل جهلاً تاماً تاريخ إيران قبل الإسلام وبعده ولا يعرف شيئاً عنه ولم يدخلها قط ولم يختلط مع أي مسؤول فيها لا قبل الثورة ولا بعدها ولا يعرف شيئاً عن المذهب الجعفري ولا من هو الإمام جعفر عليه السلام وهو لا يدري لحد الآن أنه أول من فتح جامعة في مسجد جده رسول الله ﷺ وأنه قد تتلمذ على يديه أربعة آلاف محدث وفقيه، ويجهل أيضاً أن أئمة المذاهب الأربعة قد تتلمذوا على يديه، فأبو حنيفة قد أخذ منه ومالك قد أخذ من أبي حنيفة، والشافعي قد أخذ من مالك، وأحمد بن حنبل قد أخذ من الشافعي. هذه أمور يجهلها مقدم الترجمة ويجهل أيضاً أن أصحاب كتب الصحاح الستة جميعاً من إيران ويجهل أن أبا حنيفة وأحمد بن حنبل من خراسان مثلما يجهل أن أهل بيت النبوة الكرام هم أحد الثقلين ومستودع علم النبوة وأن الإيرانيين فهموا الإسلام وتعلموه من أئمة هذا البيت الطاهر. والمقدم يجهل أن قبائل العرب مجتمعة أجمعت وبغير استثناء على مقاطعة بني هاشم وحصروهم في شعاب أبي طالب ثلاث سنين. ولا إخاله يجهل أن قبائل مكة اختارت من كل قبيلة منها رجلاً حتى يضربوا النبي ضربة واحدة فيضيع دمه بين القبائل ولا يقوى الهاشميون والمطّلبيون على المطالبة بدمه. وكوفئوا بالقتل والمطاردة فآوتهم إيران ووضعهم الشعب الإيراني المسلم في قلبه وأعلن أنهم السادات.

٥ ـ «وكأنه حفي بها»:

بالرغم من هذا الجهل المطبق إلا مقدم الترجمة المزورة لكتاب كشف الأسرار يتكلم عن شعب إيران المسلم وعن إيران «وكأنه حفي بها» ويريد أن يقنعنا ضمناً وتأبط شراً بأن محمد عبد الوهاب (رحمه الله) والوهابية هما الثقل الذي أمرنا الله بالتمسك به وليس أهل البيت الكرام وأن الذين علمهم محمد عبد الوهاب هم أهدى سبيلاً من الذين علمهم أئمة أهل البيت الكرام وهذا أمر لا يصدقه ولا يقبله مؤسس الوهابية نفسه.

وفوق ذلك يريد مقدم الترجمة المزورة أن نصدق مزاعمه بأن أهل إيران كفار

مجرمون بالوقت الذي يشهدون فيه أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحكمون بكتاب الله ويتمسكون بعترة نبيهم!! فهل رأيتم بربكم استغفالاً لعقول المسلمين بل للعقل الإنساني بحجم هذا الاستغفال؟ وهل رأيتم تدخلاً بنوايا البشر وتسلطاً عليها بحجم هذا التدخل والتسلط ؟ ومن الذي أعطاه هذا السلطان على نوايا عباد الله طالما أن النبي نفسه له الظاهر والبواطن لله ؟ اللّهم اغفر لنا وله واهدنا وإياه.

٦ ـ العلم الدنيوي وحدود الدنيا:

يعتقد المقدم للترجمة المشوهة لكتاب كشف الأسرار أن تعاليم المرحوم محمد عبد الوهاب هي حدود الدنيا وهي مبلغ العلم الإنساني كله وهي الميزان الدقيق لمعرفة الحق من الباطل، ويتصور واهماً أنه لا يوجد في الدنيا علم إلا المعلومات التي تلقاها في الجامعة السعودية، وكل شيء لم يطلع عليه أو لا يعرفه ما هو إلا افتراء على الله والقرآن. والكارثة أن يزوج ما يستنتجه من النص بالنص ثم يوحد بينهما فيغدو استنتاجه أو فهمه للنص بمثابة النص نفسه الذي لا يقبل إلا تفسيره ويسمو عن المعارضة.

٧ ـ قراءة في تقديم المقدم:

بالرغم من أن الترجمة المشوهة والمزورة لكتاب كشف الأسرار ساقطة بكل المقاييس العلمية وتبعاً لذلك سقط البناء الذي أقيم فوقها بما فيه التقديم والتعليق. ومع هذا فإن أي باحث منصف بل وأي متعلم مهما كان مستواه العلمي إذا قرأ الترجمة المشوهة والمزورة نفسها فلن يخرج أبداً بالنتائج التي خرج بها المقدم مما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يقرأ حتى الترجمة المزورة نفسها، وإن ما ذكره في مقدمته مجرد تهم تاريخية قيلت قبل ١٣٧٠ عاماً فرددها المقدم دون عناء، والعلة تكمن في أن الحقيقة العلمية المجردة ليست غايته فلو أقام لها وزناً لما اشترك بالتزوير والتحريف وخيانة الأمانة العلمية، ولما تبرع بالشهادة عن أمور يجهلها تماماً ولا يعرف شيئاً عنها لكن غايته تنصب على إرضاء هواه، وإرواء حقده والترويج لمذهبه، ولإثبات أن الوهابية هي الثقل الأصغر وليس أهل البيت الكرام

والأهم الإثارة وجني المال الحرام الناتج عن بيع الترجمة المزورة.

٨ ـ افتراء على الله والقرآن:

ما ورد في المقدمة سقط علمياً مع سقوط الترجمة المزورة وهو غير جدير بالمناقشة لأن الساقط كما هو متفق عليه فقهاً وقانوناً ساقط، وللأمانة العلمية وخدمة للحقيقة المجردة ألفت نظر طلابها إلى البند العاشر من المقدمة حيث يتهم المقدم مؤلف كتاب كشف الأسرار بالافتراء على القرآن الكريم لأنه قد فسر آية **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾**، وآية **﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾**، ويعتقد المقدم أن هذا التفسير خاطىء وأن مؤلف كتاب كشف الأسرار هو أول من قال به لنفترض أن المفسر قد أخطأ بتفسير آية. فهذا الخطأ لا يجعله مفترياً على القرآن الكريم فلو كان كل تفسير صحيح لما كانت هنالك حاجة لتعدد التفاسير ولكن كل مفسر يلتمس المقصود الشرعي وهو مأجور إن حسنت نيته أخطأ أم أصاب.

يقول الشافعي وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم ـ كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل ـ (ويمكن مراجعة شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي ١ ص١٣٠ ح١٧٧ و١٧٨ و١٧٩ و١٨٠. وراجع الصواعق المحرقة ص١٤٩ ط. الممدية، وص٩٠ ط. الميمنية بمصر. وراجع ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص١٣٩ و٣٢٨ و٥٦ ط. الحيدرية، وص١١٩ و٢٧٤ و٢٩٧ ط. إسلامبولي. وراجع الإتحاف بحب الأشراف للشيرازي الشافعي ص٧٦. وراجع روح المعاني للألوسي ج٤ ص١٦. وراجع نور الأبصار للشبلنجي ص١٠٢ ط. السعيدية، وص١٠١ ط. العثمانية. وراجع إسعاف الراغبين للصبان الشافعي ص١٠٧ ط. السعيدية، وص١٠٠ ط. العثمانية). وكلهم قد فسروا الآية بنفس التفسير الذي فسره مؤلف كتاب كشف الأسرار وقبل أن يولد مؤلف هذا الكتاب. فلماذا لا يعتبر المقدم تفاسيرهم جميعاً افتراء على الله والقرآن؟ أن المقدم يسمع بهذه المؤلفات لأول مرة في حياته وأتحدى جهاز الترجمة والإفتاء مجتمعين ومنفردين أن ينفوا مصدراً واحداً من هذه المصادر التي ذكرتها أو صفحة واحدة من الصفحات التي أشرت إليها. وقد سهلت أموركم وبينت اسم المطبعة.

٩ ـ هل كان مؤلف كتاب كشف الأسرار هو أول من فسّر هاتين الآيتين؟:

يعتقد مقدم الكتاب المشوهة ترجمته أن مؤلف كتاب كشف الأسرار هو أول من فسّر آية ﴿واعتصموا بحبل الله...﴾ وآية ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ بهذا التفسير الذي يستغربه المقدم لضيق أفقه وقلّة اطّلاعه ويعتبره افتراء على القرآن الكريم على اعتبار أن حدود العلم هي معلوماته وخدمة للحقيقة المجردة وطمعاً بانتشال المقدم من عالم الهوى والأوهام إلى عالم البحث والحقائق نبين للمقدم ولطلاب الحقيقة بأن مؤلف كتاب كشف الأسرار ليس أول من فسّر هاتين الآيتين بذلك التفسير الذي اعتبره المقدم افتراء على القرآن.

١٠ ـ الذين فسّروا آية ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ مثل تفسير مؤلف كتاب كشف الأسرار:

ورد في تفسير الثعلبي وعدها ابن حجر من الآيات النازلة في أهل البيت (ويمكن مراجعة الفصل الأول من الباب ١١ من الصواعق المحرقة) وقال الإمام الشافعي كما في رشفة الصادي لأبي بن شهاب الدين:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم ... مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سنن النجا ... وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم ... .

١١ ـ آية ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾:

وهذه الآية أيضاً فُسّرت بنفس تفسير مؤلف كتاب كشف الأسرار وقبل أن يولد المؤلف وليس هو أول من فسّرها كما زعم المقدم. فقد أخرج الديلمي كما في تفسير هذه الآية عن أبي سعيد الخدري أن النبي قال: «وقفوهم إنهم مسؤولون عن ولاية علي»، وقال الواحدي كما في تفسيرها من الصواعق المحرقة أيضاً: روى في قوله تعالى: «وقفوهم إنهم مسؤولون عن ولاية علي وأهل البيت» قال: لأن الله أمره أن يعرف الخلق أنه لا يسألهم عن تبليغ الرسالة أجراً إلا المودة في القربى وقال: والمعنى أنهم يسألون هل والوهم حق الموالاة كما أوصاهم النبي أم

أضاعوها وأهملوها فيكون عليهم المطالبة والتبعة انتهى كلام الواحدي. وحسبك أن ابن حجر عدها في الباب ١١ من الصواعق في الآيات النازلة فيهم وقد أطال الكلام فراجعه إن شئت. ولتستيقن (راجع شواهد التنزيل للحاكم الحنفي ج٢ ص١٠٦ حديث ٧٨٥ و٧٨٦ و٧٨٧ و٧٨٨ و٧٨٩. وراجع كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص٢٤٧ ط. الحيدرية، وص٢٠ ط. الغربي. وراجع نظم درر السمطين للزرندي الحنفي ص١٠٩. وراجع تذكرة الخواص للسبط ابن الجوزي الحنفي ص١٧. وراجع ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص١١٢ وص١١٤ وص٢٧٠ و٢٩٥ ط. إسلامبول، وص١٣١ و٣٣٣ و٣٣٤ و٣٥٤ و٣٥٥ ط. الحيدرية. وراجع المناقب للخوارزمي الحنفي ص١٩٥. وراجع الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعيْ ص١٤٧ ط. المحمدية، وص٨٩ ط. الميمنية بمصر. وراجع روح المعاني للألوسي في تفسير هذه الآية. وراجع فرائد السمطين ج١ ص٧٩).

فهل هؤلاء جميعاً قد افتروا على القرآن الكريم كما افترى مؤلف كتاب كشف الأسرار كما زعم المقدم أم أنه لا يدري عن ذلك؟.

١٢ ـ دعوة للمراجعة وتحد:

إن جهاز الترجمة والإفتاء «المترجم والمقدم والمعلق» الذين اشتركوا في تشويه وتزوير وتحريف ترجمة كتاب كشف الأسرار لا يعرفون هذه المراجع وقد سمعوا بها ولأول مرة، وأتحداهم إن ينفوا نفياً علمياً كلمة واحدة مما ذكرت أو صفحة واحدة مما أشرت. فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا بإذن الله فقد آن الأوان ليتقوا الله وليراجعوا أنفسهم وليعلموا أن البحث العلمي أمانة وأن معرفة الحقيقة المجردة تحتاج إلى جهود مضنية وتجرد خالص لوجه الله وأن يتوقفوا عن استغفال عباد الله والاستهتار بالعقل البشري وعن اتخاذ الدين مطية للهوى، ولتحقيق منافع مذهبية ضيقة وكسب المال الحرام عن طريق الخيانة العلمية. والله أسأل أن يهدينا ويهديكم وأن يؤلف بين قلوبنا وأن يوفقنا لخدمة الإسلام.

١٣ ـ هل يفعلون؟:

ليس من المستبعد أن يجتمع جهاز الترجمة والإفتاء ويستندون إلى حيثيات

هذه المقالات فيصدرون فتوى شعبية بتكفيري أنا وكافة مؤلفي المراجع التي ذكرتها، فيلحقوننا بمؤلف كتاب كشف الأسرار وبأهل إيران وبالمائة مليون مسلم. أرجوكم لا تفعلوا هذا فأنا قروي مسالم أحب هذا الدين كما تحبونه وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل السادس

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال
أستاذ الجامعة يرد علينا

تفنيد مزاعم المحامي النزيه:

رغم أن المحامي اعتبر ما ورد في المقدمة قد سقط علمياً وأكد على ذلك، إلا أنه في نهاية الحلقة الخامسة أتى بأمثلة للدلالة على سقوط المقدمة باعتبار أن الترجمة قد سقطت، وللأمانة العلمية رأيت من واجبي أن أوضح للقارىء الكريم أن النزاهة والعدالة لم تكونا عند المحامي حتى أثناء استشهاده بالأمثلة التي جاء بها، بل جاءت مبتورة ناقصة فيها الكثير من التزوير والافتراء، وإليك ردي على ما جاء في مقالاته:

أولاً: ما ذكره المحامي الأمين في الحلقة الرابعة أن المترجم لم يستطع ترجمة الآية الكريمة ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري**﴾ بل استبدلها بهذه العبارات (واجعل معيني هارون أخي، اشدد به ساعدي واجعله شريكي).

والحقيقة في هذا الزعم، أن المحامي الأمين ـ كما يبدو ـ لم يطّلع على الترجمة (المزورة) لكشف الأسرار، بل نقل من غير علم ولا معرفة ما قاله شتا في مقالته، وكان الأولى به أن يفتح صفحات الطبعة المزورة فقرة ٢ ليرى أنه قد خان الأمانة العلمية التي تشدق بها هو وشتا الدكتور فلو راجعت أخي القارىء صفحة ١٨١ ستجد أن الآيات في هذه الترجمة قد وضعت بين قوسين، وما ذكره المحامي

الأمين فهو ترجمة كاملة لحديث يعتمد عليه الفكر الشيعي للدلالة على أحقية علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالإمامة، فالخميني يروي حديثاً طويلاً عن أبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ ومما جاء في الحديث قول النبي ﷺ: (رباه، إن موسى سألك، وقال: رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل معيني هارون أخي فاشدد ساعدي به واجعله شريكي).

فهل في هذا تزوير أو عدم معرفة بكتاب الله، أم أن أمثال هذا الحديث كثيرة وكثيرة في الكتب الشيعية، (والتي لم يطلع عليه ـ كما يظهر المحامي العالم ـ؟!) إذن فلا غرابة أن يستشهد بها آية الله الخميني؟! وهذا أيضاً ينطبق على النص الآخر وهو (اللّهم أبعدني وأولادي عن عبادة الأوثان) فالخميني يذكر الآية وقد وضعت في الترجمة بين قوسين، ثم يفسر ذلك بحديث يستشهد به عن النبي ﷺ (وهذا هو النقل الحرفي عن النص الأصلي الفارسي)؟!.

ثانياً: لم يجد المحامي الأمين ما يناقشه إلا القضية الأخيرة التي وردت في مقدمتي، وهي موضوع التفسير المغلوط الذي جاء به آية الله الخميني لبعض آيات القرآن الكريم، ولهذا عنون المحامي الأمين هذه الفقرة بـ(افتراء على الله والقرآن) ويأتي بمثال ذلك على ما بينته من تفسير خاطىء في كتاب كشف الأسرار بقوله تعالى: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾** وقوله تعالى: **﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾** التي استشهد بها الخميني للدلالة على أنها نزلت في إمامة علي فالاعتصام المقصود به إمامة علي (رضي الله عنه)، والوقوف للسؤال يوم القيامة أيضاً عن إمامة علي (رضي الله عنه).

ومن أجل الأمانة العلمية، والحقيقة العلمية المجردة ـ كما أرادها المحامي النزيه فقرة ١٢ رجعت إلى بعض المصادر التي استشهد بها وزعم أنها تفسر تفسير الخميني لهاتين الآيتين.

فرجعت إلى روح المعاني للعلامة الألوسي، والتي استشهد بها المحامي الأمين، ففسر قوله تعالى: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾** فقال: (أي القرآن وروى ذلك بسند صحيح عن ابن مسعود، وأخرج غير واحد عن أبي سعيد الخدري قال:

قال رسول الله ﷺ: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»، وأخرج أحمد عن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله عز وجل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي وأهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»، وقيل المراد بحبل الله الطاعة والجماعة) (أنظر ج٤ ص١٧ الطبعة المنيرية ـ القاهرة).

فانظر أخي القارىء إلى تفسير الألوسي لهذه الآية، وانظر لتفسير الخميني، ثم انظر لافتراء المحامي الأمين على الألوسي بادعائه أن الألوسي اعتبر (حبل الله) هو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

ثالثاً: ويستشهد المحامي الأمين كثيراً بكتاب الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة لابن حجر الهيثمي، ولكن لم يقل كل ما قاله الهيثمي (رحمه الله) ففي صفحة ٢٣٥ من طبعة دار العلم للملايين ١٩٨٥ ط٢ ص٢٣٥ قال ما يلي: (ولا تتوهم الرافضة والشيعة قبحهم الله من هذه الأحاديث أنهم محبون أهل البيت لأنهم أفرطوا في محبتهم حتى جرهم ذلك إلى تكفير الصحابة وتضليل الأمة).

بل إن الهيثمي عقد فصلاً هو الفصل الخامس عنونه بذكر شبه الشيعة والرافضة ونحوهما وبيان بطلانها، (أنظر ص٤٧) وألف رسالة عنونها بعنوان هو (تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبي سفيان).

وهذا يعني أن الهيثمي (رحمه الله) عندما استشهد بهاتين الآيتين لم يكن يرمي إلى ما رمى إليه آية الله الخميني ولا المحامي الأمين، لأن عنوان الفصل هو (الآيات الواردة فيهم ـ أي آل البيت ـ) أي أن استشهاده بالآيتين أراد منهما أن يبين فضائل آل البيت، لا أن يصل إلى ما وصل إليه الخميني في أفضلية إمامة علي على الخلفاء الثلاثة الأوائل (رضي الله عنهم أجمعين).

ولو قرأنا ما كتبه الهيثمي في مقدمة كتابه نجده يقول: (فإني سئلت قديماً في تأليف كتاب يبين أحقية خلافة الصديق وإمارة ابن الخطاب، فأجبت إلى ذلك مسارعة في خدمة هذا الجناب.. ثم سئلت قديماً في إقرائه في رمضان سنة خمسين

وتسعمائة بالمسجد الحرام لكثرة الشيعة والرافضة ونحوهما الآن بمكة المشرفة) (ص٩).

فماذا يعني هذا يا من تدافع عن الحقيقة العلمية؟!.

أما تفسير الثعلبي الذي استشهد به محامينا الأمين فإني أتحدى المحامي الأمين أن يأتي بالنسخة التي اعتمد عليها في استشهاده لما ذكره، وذلك أن هذا التفسير لم يطبع ولا يزال مخطوطاً، وما نقله المحامي الأمين عن الثعلبي كان افتراءً وتزويراً، لأنه نقل ذلك عن الصواعق للهيثمي، فهل هذا يعتبر أمانة علمية يا من تريد الوصول إلى الحقيقة العلمية، وما قاله العالم الكبير الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه القيم (التفسير والمفسرون) ج١ ط ١ ١٩٦١ عن الثعلبي ـ خير جواب عن محتويات هذا التفسير ورأي العلماء فيه ـ يقول في صفحة ٢٢٩: (عثرت على هذا التفسير بمكتبة الأزهر فوجدته مخطوطاً غير كامل، وجدت منه أربعة مجلدات ضخام، والرابع ينتهي عند أواخر سورة الفرقان، وباقي الكتاب مفقود لم أعثر عليه بحال)، ويقول في صفحة ٢٣١: (ثم إن هناك ناحية أخرى يمتاز بها هذا التفسير، هي التوسع إلى حد كبير في ذكر الإسرائيليات بدون أن يعقب شيئاً أو ينبه على ما فيه رغم استبعاده وغرابته، وقد قرأت قصصاً إسرائيلية نهاية في الغرابة)، ويقول في صفحة ٢٣٢، ٢٣٣: (ثم إن الثعلبي لم يتحر الصحة في كل ما ينقل من تفاسير السلف، بل نجده كما لاحظت عليه وكما قال السيوطي في الإتقان يكثر من الرواية عن السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بالأحاديث الموضوعة.. كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعة على ألسنة الشيعة فسود بها كتابه دون أن يشير إلى وضعها واختلافها، وفي هذا ما يدل على أن الثعلبي لم يكن له باع في معرفة صحيح الأخبار من سقيمها).

وأخيراً وليس آخراً فإنني لست من دعاة الفرقة والخلاف، وحاشا لله أن يدعو مسلم يؤمن بالله ورسوله للخلاف والفرقة، ولكن رسالتي إلى الإخوة في إيران أن يتبرأوا من هذه الأقوال حتى تعود اللحمة كاملة متكاملة إلى الأمة، وأعتقد أن خير دليل يدل على ذلك أن يقوم الإخوة في إيران بالتبرؤ مما ورد في كتاب الكافي

للكليني وغيره من الكتب المعتمدة عندهم حول القرآن الكريم والصحابة (رضوان الله عليهم) والتي طبعت ولا تزل تطبع في إيران وغيرها.

لأننا لا نزال نسمع أن كتاب الكليني وغيره من الكتب مليئة بالأحاديث الضعيفة ولكن في الوقت نفسه لا يزال كل من ينبري للكتابة في الفكر الشيعي من العلماء الشيعة يستشهد بهذه الكتب وبالنصوص التي تقدح في القرآن الكريم وفي الصحابة.

وما أردنا في كل هذا إلا الإصلاح ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً... ولكن يجب في الوقت نفسه أن يكون هدفنا الوصول إلى حقيقة واضحة ساطعة كعين الشمس بيد أن طريقة المحامي الأمين ومن قبله إبراهيم شتا لم تكن تريد الوصول إلى الحقيقة العلمية وإنما كانت هدفها القدح والتجريح والإفتراء على عباد الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ردّ الدكتور محمد أحمد الخطيب
كلية الشريعة الجامعة الأردنية

الفصل السابع

الإفتاء الديني السياسي بين السذاجة والارتجال

الحجة الناطقة والرد المسكت:

من المبادىء المكرسة بالفقه الإسلامي: أن التابع تابع ولا يفرد له حكم، وأنه إذا سقط الأصل سقط الفرع، وأن الساقط لا يعود، وأنه إذا بطل الشيء بطل ما في ضمنه ونظراً لأهمية هذه المبادىء فقد تبناها الشارع الأردني حرفياً وحولها إلى مواد قانونية مستقلة وهي ٢٢٨ ـ ٢٣١ من القانون المدني، وانطلاقاً من هذا التأصيل وحيث أن الترجمة العربية لكتاب كشف الأسرار سقطت علمياً بكل المقاييس والموازين العلمية فأصبحت باطلة ولأنها الأصل فمن الطبيعي أن تسقط علمياً وبالضرورة: مقدمة أستاذ الجامعة على هذه الترجمة المزورة، ٢ ـ التعليقات، ٣ ـ الفتاوى باعتبارها جميعاً فروعاً وأغصاناً يابسة لأصل ساقط وشجرة ميتة **﴿اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾**.

١ ـ إثبات السقوط والبطلان:

لقد أثبت سقوط الترجمة علمياً وبطلانها وأثبت الخيانة العلمية عن طريق أهل الخبرة ونقلت حرفياً خبرة السيد رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها في جامعة القاهرة في الحلقة الرابعة من هذا البحث تحت عنوان ولا ينبئك مثل خبير ولم أكتف برأي الخبير المختص كما توهم أستاذ الجامعة إنما كانت الترجمة المزورة والمحرفة موضوعاً لبحث جدي مستفيض بيني وبين أساتذة العلوم الأنسانية في الجامعات الإيرانية وذلك على هامش مؤتمر الفكر الإسلامي التاسع الذي انعقد في

طهران، وهؤلاء الأساتذة الكرام علماء يتقنون اللغة العربية لأنها لغة القرآن ويتقنون اللغة الفارسية لأنها لغتهم الأصلية وهم بفضل الله تعالى من الدين والعلم والتقوى والكثرة بحيث يتعذر عقلاً اجتماعهم على الكذب، ثم إن المقدم أستاذ الجامعة قد اعترف في رده علينا بأن المترجم لم يكن معصوماً عن الخطأ في ترجمته ثم إن المترجم نكرة مازال يختفي تحت اسم مستعار وقد وضحنا ذلك في الحلقات السابقة. وكل هذا يؤكد بأن الأصل وهو الترجمة ساقط علمياً، وستتبع سقوط هذا الأصل سقوط كافة فروعه وبطلان كل محتواه، وبالرغم من وجاهة ومنطقية حجتنا إلا أن أستاذ الجامعة المحترم يلح علي لأرد على ما سماها نقاطاً أوردها في مقدمته الساقطة علمياً.

٢ ـ لغة ومنطق البحث العلمي:

جهاز الترجمة والإفتاء وعلى رأسهم مقدم الترجمة المزورة الذي تولى مهمة الرد علي ـ لا يعرف ولا يعترف بوجود حق اسمه حق التأليف وهو «حق ملكية المؤلفين على جميع منتوجات أفكارهم وأقلامهم»، كما بين ذلك القانون ومن هنا فإن هذا الجهاز لا يجد حرجاً ولا غضاضة عندما يسطو ويعتدي على حقوق الآخرين ويتصرف بهذه الحقوق تصرف المالك بدون إذن أصحابها الشرعيين، وبعد عملية السطو والاعتداء تبدأ عملية تمزيق الحقوق وتشويه العمل الفني بطريقة مقرفة تعافها روح العصر، وينفر منها الذوق السليم، فيزورون، ويحرفون، ويشوهون، ويدرسون ويستنتجون ما يروق لهواهم من استنتاجات خرقاء لا يقرها عقل ولا منطق تماماً كما فعلوا بكتاب كشف الأسرار وبعد ذلك يلعنون صاحب الحق ويتهمونه بالضلال، والافتراء والزندقة. . . إلخ. تماماً كما فعلوا مع الإمام الخميني مؤلف كتاب كشف الأسرار، مع أن الإمام الخميني على الأقل هو مالك الكتاب شاؤوا أم أبوا هو عالم من أبرز علماء الإسلام في العصر الحديث وله أكثر من ٧٨ مؤلفاً باللغة العربية بين كتاب وبحث وهو باني دولة إسلامية وأول رئيس لها، وهو من فروع الشجرة المباركة وفوق هذا وذاك هو بسن جد أستاذ الجامعة فهل من الخلق والمنطق أن يوجه أستاذ جامعة مثل هذه الألفاظ النابية لرجل مسلم بعمر جده؟ وعندما قلت لأستاذ الجامعة اتق الله أقبل علي بخيله ورجله يهمز،

ويفخر، ويلمز ويتهددني بسوط من ورق وقال موجهاً كلامه لي: هذا افتراء، وهذا كذب صراح وهذا قذف، ونسي من معزوفته كلمة زندقة مع أنني بسن أبيه وهو بعمر أولادي ليت أستاذ الجامعة الفاضل يعرف أن هذا ليس من خلق الإسلام، ولا من أدب الحوار ولا من أساليب البحث العلمي يا ويحك هل الحوار شجار؟.

٣ ـ مقالات في اللواء وتقريع أخوي:

لقد تصديت للأحزاب العربية بشقيها العلماني والديني وشنيت عليها هجوماً علمياً ساحقاً٢٦ حلقة نشرتها جريدة اللواء الغراء ومع هذا ما تلفظت بكلمة واحدة تخدش الحياء والذوق والحشمة، وحتى مقالاتي التي رد عليها أستاذ الجامعة خلت من كل ما يعيب فما ذكرت أحداً إلا وألحقته بكلمة طيبة، وقد ناقشني حول هذه المقالات، شيوعيون، وقوميون، وبعثيون ونصارى ولكن بأسلوب شامخ متحضر يتوخى الحقيقة وفي أقسى صورة يشبه العتاب ألا يستطيع أستاذ الجامعة الذي يدرس أولادنا العقيدة الإسلامية أن يرتقي بحواره إلى مستوى هؤلاء الناس الذين لا يدّعون الإسلام؟ ألم يئن له أن يدرك أن فهمه للإسلام شيء، وأن الإسلام شيء آخر ليته يفهم أن الاختلاف بالرأي ظاهرة صحية إن حسنت النية.

٤ ـ إنكار الواضحات:

في رد أستاذ الجامعة الفاضل علينا أنكر أنه أو أي شخص من جهاز الترجمة والإفتاء قد كفر أحد وتحداني أن أبين متى وأين تم التكفير ونزولاً عند رغبته نورد قوله في المقدمة وبالحرف: «بعض المفكرين الإسلاميين يحاولون بكل أنواع التسويغ أن يجدوا الأعذار لما يجري في إيران. . .إلخ. وهم الذين عرفوا خطر الباطنية وأساليبها الماكرة الخبيثة التي تقوم على التقية. . .إلخ. والذي يعد عند هؤلاء القوم دين الآباء والأجداد. . .إلخ. ويرفعون شعار الإسلام وهم أعداؤه. . .إلخ» وعلى الصفحة١٣ من مقدمته الأئمة يقول بالحرف أيضاً: فهذه الأفكار أخي القارىء الكريم إنما هي أفكار الوثنية بثوبها الباطني القديم الجديد. . .إلخ وعلى الصفحة فقرة٩ من مقدمته للطبعة الثانية يقول بالحرف: ويتناول الأستاذ هويدي في كتابه فتوى الشيخ محمود شلتوت في صحة التعبد على

المذهب الجعفري ولكنني أرجو أن أصحح معلومات الأستاذ هويدي فأبين له أن الخلاف لم يكن أبداً في أمور الفقه والفروع وإنما في الأصول والعقائد، وعلى الصفحة ٣٣٣ من الترجمة المزورة يقول الشيخ المفتي وبالحرف: إن كل قول من تلك الأقوال كفر بواح وشرك صراح. . .إلخ ولذلك فكل من قال بها معتقداً ولو ببعض ما فيها فهو مشرك كافر وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم. . إلخ ونزيد أستاذنا الجامعي علماً فنقول: إن كل أهل إيران وكبار علماء أهل السنة يعتقدون أن التقية مبدأ إسلامي ورخصة إلهية ففتاوى أستاذ الجامعة وبقية جهازه أصابت ٢٠٠ مليون مسلم ولو أن لفتاواكم قيمة لخرجوا من دائرة الإسلام.

٥ ـ فن الدس والوقيعة مثال واحد:

عالج الإمام الخميني على الصفحات ١٠٩ ـ ١٢٣ من الجزء الأول من كتابه تحرير الوسيلة موضوع النجاسات وهو بحث فقهي وفي البند العاشر من هذا الموضوع قال وبالحرف الواحد وبالتحديد على الصفحة١٠٧ ج١: «الكافر هو من انتحل غير الإسلام، أو انتحله وجحد ما يعلم من الدين ضرورة بحيث يرجع جحوده إلى إنكار الرسالة أو تكذيب النبي ﷺ، أو تنقيص شريعته المطهرة أو صدر منه ما يقتضي كفره من قول أو فعل من غير فرق بين المرتد والكافر الأصلي، أما النواصب والخوارج (لعنهم الله) فهما نجسان من غير توقف وذلك على جحودهما الراجع إلى إنكار الرسالة» انتهى كلام الإمام.

٦ ـ فضيحة فن الدس والوقعية:

لأن أستاذ الجامعة رجل علم يحترم الحقيقة ويدرس العقيدة التي تتطرق للنوايا ولأنه يتحرى الأمانة العلمية فقد نقل النص السابق على الصورة التالية وبالحرف كما جاء برده على الصفحة ٢٤ عمود ٤ من جريدة اللواء الغراء، «وأما النواصب أي أهل السنة والخوارج (لعنهما الله) نجسان» كيف ينكر ذلك وهذا الدس منشور في جريدة!!.

٧ ـ تساؤل:

قولوا بربكم هل رأيتم دساً مثل هذا الدس، وهل سمعتم بوقيعة مثل هذه الوقيعة هل هذا سعي لوحدة الأمة أم هو أسفين يدق في قلبها، إن أي ملة في الأرض تترفع عن هذا المستوى الرخيص. لقد سقط صاحبنا بالفخ فكيف ينكر الواضحات.

٨ ـ أستاذ الجامعة وكلمة النواصب:

أستاذ الجامعة لا يعرف معنى كلمة النواصب ويفكر أن هذه الكلمة كانت من اختراع الإمام الخميني وهو يجهل أن هذه الكلمة موجودة في قواميس اللغة قبل أن يلد الخميني بألف عام، وأنه لو ذهب إلى مكتبة الجامعة الأردنية وتناول لسان العرب لابن منظور لوجد تحت مادة نصب ما يلي: النواصب قوم يتعبدون ببغض علي عليه السلام لأنهم نصبوا له العداء أي عادوه (راجع أيضاً مجمع البحرين ومطلع النيرين للطريحي ج٢ ص١٧٣).

٩ ـ فضائح الدس تتكرر:

إن الترجمة المزورة والمشوهة والمحرفة ساقطة علمياً إلا أنك لو رجعت إلى مقدمة أستاذ الجامعة وما يسميها بالنقاط التي عددها في مقدمته لما وجدت لها أصلاً في الترجمة المزورة فتناسخ الأرواح لا وجود له إلا في خيال المقدم، ووحي الزهراء من صنع أوهامه وهي تماماً كفكرة النواصب ومع هذا يسميها نقاطاً وكافة الاستنتاجات ما أنزل الله بها من سلطان ولا عناها صاحب كتاب كشف الأسرار ولو أعطينا الترجمة المزورة لطالب صف سادس ابتدائي فإنه لن يستنتج ما استنتجه أستاذ الجامعة ولو أعطيناها لعالم مسلم أو مسيحي أو يهودي أو وثني يحترم الأمانة العلمية لما استنتج أي شيء من الاستنتاجات التي يحلو لأستاذ الجامعة أن يسميها نقاطاً، مع أنها في الحقيقة هلوسة وأشباح يخلقها الحقد الأسود والرد على هذه الهلوسة مسخ حقيقي لفكرة البحث العلمي.

١٠ ـ كل ما لا يعرفه أستاذ الجامعة هو افتراء:

ومثال على ذلك البند العاشر من مقدمته لأنه لا يدري أن حبل الله وسفينة النجاة وباب حطة هم أهل البيت وموالاتهم اعتبر هذا افتراء على القرآن وعندما ذكرت له حوالي ٢٩ مرجعاً من مراجع أهل السنة يؤكدون ذلك بهت وتحديته أن ينفي مرجعاً واحداً من هذه المراجع فلم يجرؤ مع أنني سهلتِ أمره وبينت له أرقام الصفحات وأسماء المطابع.

١١ ـ التقية:

يتكلم أستاذ الجامعة عن التقية وكأنها ليست من الإسلام ويعتبرها من عقائد الوثنية. هذا مبلغه من العلم والتوسع بالموضوع والحوار معه بهكذا أمور مضيعة للوقت لأنه خالي الذهن تماماً ولا يعرف شيئاً عن التقية وأحكامها ومعلوماتها بهذا المجال تاريخية وراثية ولا تختلف عن معلومات جدتي وجدته (رحمهما الله).

ومساعدة لأخي الفاضل ولأوفر عليه عناء البحث أتمنى عليه أن يفتح ص١٣ ج٨ من تفسير فخر الرازي وص٢٢ ج١ من الكشاف للزمخشري وص ١٧٨ ج٣ من تفسير غرائب القرآن للنيسابوري بهامش تفسير الطبري وص٢٧٧ وج١ من تفسير الخازن وص٢٧٧ ج١ من تفسير النسفي على هامش تفسير الخازن وص٢٦٣ ج٢ من تفسير السراج المنير للخطيب وص١٧٨ ج٣ من تفسير النيسابوري على هامش تفسير الطبري وص ٤٣٠ ج٢ من الكشاف وص٨٤ ج٥ من روح المعاني لإسماعيل حقي وجامع البيان ج٣ ص ١٥٣ ج١ ص٥٣ من سنن ابن ماجة وج٤ ص٥٧ من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

روح المعاني ج٤ ص٨٢ من محاسن التأويل للقاسمي وج٣ ص١٣٦ ـ ١٣٧ من تفسير المراغي...إلخ هؤلاء العلماء العمالقة تحدثوا عن التقية ووضحوا أحكامها ومشروعيتها، وهم من أكابر علماء السنة، ومع هذا يأتي أستاذ الجامعة فيقرر دون بحث واعتباطاً وبغير علم ولا هدى أن التقية مبدأ وثني فهل يعقل أن يجمع هؤلاء العلماء على الخطأ وأن تصيب أنت وحدك وبالمناسبة فإنني أتحدى

أستاذ الجامعة وعلماء الأردن أن ينفوا صفحة واحدة من الصفحات التي ذكرتها أو مرجعاً واحداً من المراجع التي أشرت إليها فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا بإذن الله فلنترك التقليد الأعمى ولنفهم ديننا.

١٢ ـ أستاذ الجامعة والأئمة الكرام:

يتحدث أستاذ الجامعة الفاضل عن أئمة أهل البيت الكرام وكأنهم من ملة غير ملته وكأنه يدين بدين غير دينهم والحديث عن الأئمة الكرام يستتبع بالضرورة الحديث عن النظام السياسي، وأستاذ الجامعة شأنه شأن غيره موقن أن التاريخ السياسي الإسلامي هو عينه النظام السياسي الإسلامي مما يجعل البحث معه بهذا الموضوع عديم الجدوى خاصة وأنه يعتقد أن أهل البيت الكرام هم علي وحسن وحسين عليهم السلام ولا يوجد غيرهم مع أن أئمة أهل البيت هم الثقل الأصغر والقرآن هو الثقل الأكبر والهداية لا تدرك إلا بالتمسك بالثقلين معاً وإن جادلني بذلك سآتيه بـ ٣٨٨ مرجعاً من مراجع أهل السنّة وإنهم أمان لهذه الأمة وسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وإنهم باب حطة. . . إلخ.

وسأعالج هذا الموضوع بتوسع في مسلسلي الجديد الفكر السياسي الإسلامي بين التطرف والتفريط فلا يمنعك غضبك عليّ من أن تقرأ ما أكتب، إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على محمد وآله.

الفصل الثامن

رد على عائد من طهران

هل تعلم أن بعض مواد القانون المدني الأردني مأخوذ من المذهب الجعفري

كتب السيد أحمد سلامة في جريدة الرأي الغراء مجموعة من المقالات عن رحلته إلى طهران بمناسبة انعقاد المؤتمر المتعلق بالقضية الفلسطينية وقد فهمنا من مقاله الأول الذي أرسله من طهران وعداً منه بنقل صورة موضوعية ومجردة وشاملة لمشاهدته في طهران ليطلع عليها قراء جريدة الرأي. لأن من مصلحة الجميع أن يفهموا الأمور على حقيقتها في كل دول العالم بما فيه دولة إسرائيل فهذا الفهم يشكل الأساس الذي يبنى فوقه وينطلق منه. والخلاصة أنه عند عودة نشر سلسلة من المقالات آخرها كما يبدو المقال المنشور في جريدة الرأي الصادر بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٩١، حيث بلغ فيه مداه. ونقل الصورة كما أرادها هو لا كما هي في الحق والحقيقة ففرق ولم يوحد وشتت ولم يجمع وقلد ولم يبدع واجتر مواقف معروفة منذ ألف عام ووقع في مغالطات متعددة وخدمة للحقيقة الموضوعية المجردة رأينا أنه من المفيد كشف هذه المغالطات.

المغالطة الأولى:

يقول كاتب المقال بالحرف، إيران دولة يحكمها الإسلام لكنه إسلام الشيعة. . حكم الإسلام لدولة إيران حقيقة مكرسة بمقدمة الدستور الإيراني وبارزة من كل مادة من مواده ـ ويمكنك على سبيل المثال ـ قراءة المادة الرابعة من

الدستور وهذه الحقيقة منعكسة على الحياة العامة والخاصة في إيران، وتغطي كافة البنى الحقوقية السائدة هنالك، وهي من الوضوح بحيث لا تخفى على أي باحث موضوعي منصف. ولم يتأت هذا الحكم من فراغ إنما كان ثمرة للجهد الجبار الذي بذله علماء الإسلام في إيران واستطاعوا من خلال مواجهتهم للشاه أن يقنعوا الأكثرية الساحقة من شعب إيران بأن الإسلام هو الحل وهو الهوية الأبدية وهو المستقر والقرار في عالم سياسي قلق لا يقر على حال. ولم يكن حكم الإسلام في إيران نتيجة انقلاب عسكري يفرض قناعاته بالقوة الغاشمة إنما كان ثمرة قناعة واقتناع، وبالرضا وبدون إكراه، وحكم الإسلام لإيران خيار ارتضاه شعب إيران، والعالم ينادي بخيارات الشعوب مهما كان موضوع هذه الخيارات ولو كانت قائمة على الإلحاد كما كان الحال في دول المعسكر الشيوعي.

أما قول كاتب المقال «لكنه إسلام الشيعة»:

مع أنني وبغير ادعاء قد درست التاريخ السياسي الإسلامي، وغصت في أعماق الفكر السياسي الإسلامي ووعيت النظام السياسي الإسلامي وأعرف الأيديولوجيات المعاصرة كما يعرفها بناتها إلا أنني أعترف بأنني لأول مرة أسمع بالاصطلاح الذي ارتجله كاتب المقال «ولكنه إسلام الشيعة» وأتحدى كاتب المقال أن يبين متى استعمل هذا الاصطلاح فحتى الذين لا يؤمنون بالإسلام ولا يعرفونه يدركون أنه لا يوجد للسنة ولا للشيعة إلا الإسلام الواحد وهو الذي جاء به النبي الكريم محمد ﷺ والمرتكز على قاعدتين «القرآن الكريم والسنة المطهرة بفروعها الثلاثة القول والفعل والتقرير» ولو أن كاتب المقال صلّى الجمعة في طهران وأدى صلاة الجماعة في أوقاتها هنالك وسمع القرآن الكريم يتلى باللغة العربية أمام الملايين ربما كان له رأي آخر ويقيني أن هذا مبلغ كاتب المقال من العلم وأنه يجهل معنى السنة، ومعنى الشيعة ويجهل الفوارق بينهما أو لعل الهوى لا دَواء له.

يقول كاتب المقال: «والشيعة مذهب.. والمذاهب قد تتعاون ولكن لا يذعن أحدها للآخر...» ولو جارينا كاتب المقال بأن الشيعة مذهب فإن المذهب الرسمي في إيران هو المذهب الجعفري حسب المادة ١٢ من الدستور الإيراني ـ نسبة إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد تلقى علومه عن أبيه وأبوه تلقى هذه العلوم عن

جده وجده تلقى علومه عن رسول الله محمد ﷺ وأصحاب المذاهب الأربعة تلقوا علومهم من الإمام جعفر مباشرة أو غير مباشرة وتتلمذوا على يديه. بل وأزيدك علماً أن بعض مواد القانون المدني الأردني قد أخذت من المذهب الجعفري، وأن قواعد هذا المذهب مصانة ومحفوظة في مكتبة جامعة اليرموك والجامعة الأردنية وهي جزء من مراجع هاتين الجامعتين لا يجوز إعارتها، بل وأزيدك علماً بأن الجامعة الأردنية بصدد تخصيص كرسي لتدريس هذا المذهب، ولا غضاضة في ذلك ولا حرج فالجامعات العربية تدرس وتدرس كافة فروع القوانين السائدة في دول العالم.

يقول كاتب المقال: «المذاهب قد تتعاون ولكن التعاون لا يصل إلى درجة إذعان أحدهما للآخر...».

لقد صاغت الدولة العثمانية الفقه الحنفي على شكل قواعد قانونية وجمعتها في ماسمي فيما بعد بمجلة الأحكام العدلية، وهي ما زالت جزءاً من القانون النافذ في الأردن كذلك فإن قانون الأحوال الشخصية النافذ في الأردن مأخوذ بمجلة من فقه المذهب الحنفي وهو مطبق بالكامل على كل المسلمين في الأردن بالرغم من تعدد مذاهبهم، فلو حشرنا أنفسنا ضمن الدائرة الضيقة التي وضعتها لضيقت على الناس ولتعذر خضوع المسلمين لمذهب واحد، ولعلك تجهل أن مبدأ تعدد المذاهب في الإسلام كان ثمرة لتعدد الاجتهاد ولتعدد فهم النص وفيه فائدة وهو التيسير على الناس ورفع العسر والحرج، لكن الجميع يتحركون ضمن إطار الإسلام وينهلون من كوثره، ويبتغون مرضاة الله تعالى.

ومع هذا فإن المادة الثانية عشرة من الدستور الإيراني نصت بكل وضوح على ما يلي: «وأما المذاهب الإسلامية الأخرى والتي تضم المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزيدي فإنها تتمتع باحترام كامل وأتباع هذه المذاهب أحرار في أداء مراسمهم الإسلامية حسب فهمهم... ولهذه المذاهب الاعتبار الرسمي... وفي كل منطقة يتمتع أحد هذه المذاهب بالأكثرية فإن الأحكام المحلية لتلك المنطقة تكون وفق ذلك المذهب».

ولعل كاتب المقال لا يدري، بأن العقيدة الماركسية هي العقيدة الرسمية

السائدة في اليمن الجنوبي، وأن الاشتراكية هي مبدأ شيوعي ومع هذا مطبقة في الدول الثورية العربية، وأن الديمقراطية هي مبدأ تحرري رأسمالي ومع هذا هي مطبقة في العالم العربي، ألا يجوز للمسلم ما يجوز للشيوعي الملحد!! لماذا تتسع بكل الناس وتضيق بأخيك المسلم؟ يسكن بالأردن مختلف الملل والنحل ونراعي مشاعرهم جميعاً ليفترض كاتب المقال أن الشيعة يهود أليس من الحضارة وكرم الخلق أن تراعي مشاعرهم وتحترم رأيهم حتى وإن اختلفت معهم. لقد قسى كاتب المقال وظلم وحمل الأمور ما لا تحتمل ودخل منطقة يجهلها تماماً، وأفتى بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

المغالطة الثانية:

يستميت كاتب المقال لإبراز إخلاصه للنظرية الجديدة التي ترى أن حل المشكلة الفلسطينية يكمن في حضور مؤتمر السلام وفي إجراء مفاوضات مباشرة بين اليهود من جهة وبين الفلسطينيين والعرب من جهة أخرى وينعى على أولئك الذين لا يشاركونه هذا الإخلاص بلاهتهم. مع أن كاتب المقال وطوال حياته ولغاية شهرين فقط كان يتبنى النظرية القديمة التي تتعارض تعارضاً كاملاً مع النظرية الجديدة وكان يعتقد أن القوة هي الحل. فإذا كانت النظرية الجديدة هي الصحيحة فلماذا تجاهلتها الأمة العربية ٤٣ عاماً وحدثت حرب الأيام الستة وجاء مؤتمر الخرطوم ليسبح مع تيار العاطفة وإن نسيت فلن أنسى يوم أخرج الثوار رغبة ورهبة مجموعة كبيرة من سكان عمان وقد صوروا الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على صورة حمار وقاموا بمظاهرة صاخبة بحجة قبوله القرار ٢٤٢ ومشروع روجرز، وكيف أسقط المرحوم الشقيري بدعوى أنه رجل سياسة والحل لا يكمن في السياسة إنما في البندقية، وجاء السادات وأعلن إيمانه بالنظرية القائلة أن ٩٩٪ من أوراق الحل بيد أمريكا واندفع ولم يتوقف حتى حاز على شهادة خيانة ودفع حياته ثمناً لاندفاعه. وبعد حرب الخليج انقلبت الأطر تماماً وتداعت النظرية القديمة، وحلقت حمامة السلام.

ألم يئن لكاتب المقال أن يدرك أن القناعة ليست (روجاً) تضعه اليوم وتزيله غداً إنما هي عملية فكرية مضنية فقد تقتنع أنت سريعاً وتخونني الذاكرة فلا أقتنع

معك وتختلف بالرأي. فإذا اختلفت بالرأي مع المؤتمرين في طهران فلا تؤجج نار العداوة بيننا وبينهم لأنك إن فعلت ذلك فقد قدحت زناد الشر بينك وبين أخيك بالوقت الذي تريد فيه إقامة السلام بينك وبين عدوك. إن الطريق الوحيد بين الإخوة هو قرع الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة بهدف محدد وواضح وهو الوصول إلى الغاية الشرعية من أقصر الطرق وبأقل التكاليف، ألم تسمع خطاب سيد البلاد الذي خاطب العقل والقلب والروح معاً وأحدث انقلاباً بالرأي العام تعجز عن تحقيقه ملايين المقالات المترجمة؟!.

المغالطة الثالثة:

يقول كاتب المقال عن صواريخ العراق: «ولو ساند صواريخ إيران لما احتاجت إيران إلى مؤتمر لنصرة الشعب الفلسطيني».

الأمور على الطبيعة أعقد مما يتصور كاتب المقال، فلو كانت الصواريخ كل شيء لما كان هنالك داع لوجود الجيوش وآلات الحرب. . .إلخ جزء من عملية سياسية وفصل في هدف سياسي معقد وليس بالبساطة التي يتصورها كاتب المقال فمئات وآلاف الصواريخ العراقية والإيرانية لن تحسم الصراع العربي الإسرائيلي كما يسميه هذا على افتراض أن إسرائيل ستقف مكتوفة الأيدي وعلى افتراض أن الصواريخ ستصيب أهدافاً عسكرية ولا تقتل أطفالاً أو أبرياء والفرق بين العاقل وغيره أن العاقل يحكم ما يخرج من يديه ويسيطر عليه ويتحكم فيه بعملية عقلية تغطي كافة الاحتمالات وغير العاقل يستسلم لهواه وتحكمه يداه ويعطل عقله ويبقى رهينة لما جنت يداه ويورد رهطه موارد الردى، وأتمنى لو يتفق كاتب المقال معي بأن الأمر يخرج عن اختصاصنا وقدراتنا لأنه عملية معقدة وليس كتابه مقال.

المغالطة الرابعة:

لقد أسرف كاتب المقال بذكره لحرب الخليج ووقوف إيران على الحياد مع أنها تحكم بالإسلام الذي يوجب عليها النصرة إن كاتب المقال لا ينسى أن إيران والعراق قد دمرتهما حرب دامت ثماني سنين لا ناقة لنا بها ولا جمل وأنهما يحتاجان إلى عشرات السنين حتى يزيلا آثارها المدمرة فقد أحرقت بأتونها كل ما

بناه البلدان، ومن جرائها ماتت خيرة شباب الإسلام، ما إن وضعت الحرب الإيرانية العراقية أوزارها حتى فوجئنا بدخول الجيش العراقي دولة الكويت بحجة أن الكويت جزء من العراق وأن حكام الكويت يعملون على تخريب الاقتصاد العراقي ويتلاعبون بأسعار النفط ويطالبون بقروض قدموها للعراق مع أن العراق قد دفع ثمنها دماً. وأن العراق بحاجة إلى منفذ على البحر واحتلال الكويت يلبي كل هذه الحاجات. لم تتم استشارة أحد، ولم يؤخذ رأي أحد وقد تحرك سيد البلاد بكل طاقاته وخبراته ومعه زعماء العرب ولم يتمكنوا من إقناع العراق من سحب قواته وانقسم العرب إلى معسكرين ووقف العالم كله مع أحد هذين الفريقين. العالم كله في جهة والعراق في جهة أخرى. إن إيران لا تستطيع باختصار أن تحارب العالم كله، ولو دخلت الحرب مع العراق لأصابها ما أصاب العراق. لسقط بالفخ الذي نصبته إسرائيل وجنت وحدها ثمرته ولكن الأردن يدين بالدرجة الأولى لرحمة الله ولحكمة قائده وعبقرية ولي عهده. ثم انسحب العراق من الكويت بأسوأ الأوقات وتحت أقسى الظروف وكان بإمكانه أن يفعل ذلك في سعة ولكن الله غالب على أمره. ومع هذا فقد فعلت إيران ما فعله اليمن، وما فعله السودان، المظاهرات لم تتوقف والاحتجاجات لم تنقطع والإمدادات مستمرة، ولقد انتهت حرب الخليج، ولكن آثارها ستحتاج إلى سنين حتى تزول، وتحتاج إلى سنين حتى نستوعبها الاستيعاب العلمي المجرد الذي يخدم مستقبلنا لا هوانا.

المغالطة الخامسة:

يقول كاتب المقال: إن إيران تحلم أو تتوهم بصحوة إسلامية وتحلم وتتوهم بأنها قادرة على الضغط على «أبو عمار» بأسلحة الانتفاضة، وتحلم وتتوهم بأنها قادرة على لعب دور الموازنة بين معسكري الدول العربية. . . إلخ.

الحلم والوهم لا يعلمها إلا الحالم والمتوهم لست أدري كيف استطاع كاتب المقال أن يكتشف الأحلام والأوهام. إن كل حكام المسلمين يتمنون الصحوة الإسلامية التي لا تتبع لأحد إنما تتبع لله، وماذا يضر «أبو عمار» لو أن الانتفاضة كانت إسلامية لتقابل الغزوة اليهودية، هل يضره إن استعان بالإسلام والمسيحية لينتصر؟ ثم إن الأرض المباركة ليست للفلسطينيين وحدهم إنما هي لكل المسلمين

ففيها القدس قبلتهم ومسرى نبيهم وفوق ربوعها جرت كل ذكريات الهداية الإلهية فبأي حق يحتكر كاتب المقال حب الأرض المباركة ويحرم على المسلمين أن يعبّروا عن هذا الحب، أو أن يعرضوا المساعدة؟ بالوقت الذي ننادي العالم كله ليساعدنا بإقناع إسرائيل لترجع عن تعنتها. إن كاتب المقال يجهل أن أمة الإسلام أمة واحدة مهما تعددت ألوان وأعراق المسلمين ذلك قرار إلهي كل البشر غير قادرين على تبديله ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾. إن الأردن بقيادته الهاشمية التي أثبتت الحكمة وعمق التجربة تتطلع إلى علاقات مع كل دول الأرض وخاصة الدول الإسلامية ومن جملتها إيران، ومطمع إيران أن تتاح لها الفرصة لتضع نفسها تحت تصرف العرب وفي خدمة قضاياهم وإن الدستور الإيراني يشترط أن يكون الإمام عربياً ومن أهل البيت الكرام وإن الإيراني حسب نصوص الدستور ليس مؤهلاً ليقود دولة الإسلام وإن كنت في شك مما ذكرنا يمكنك مشكوراً أن تقرأ المادة الخامسة من الدستور الإيراني.

وقد نصت المادة ١٥٢ من الدستور الإيراني على ما يلي: تقوم السياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية على أساس الامتناع عن أي نوع من أنواع التسلط أو الخضوع.

ويقول الإمام الخميني في حديثه إلى السفراء المعتمدين لدى الجمهورية الإسلامية في إيران: إننا لا نظلم أحداً، ولا نرضخ للظلم، وإن ما يعلنونه في الأبواق من أننا نريد الهجوم على جميع الشعوب وجميع بلدان العالم كذب ومحض افتراء... وقد قلت مراراً إننا لسنا ظالمين ولا مظلومين ولا نستطيع الرضوخ للظلم ولا نظلم أحداً، ولا نطمع في شبر واحد من أراضي الآخرين ولو ملكنا القوة للسيطرة على جميع العالم، ولا يوجد أمر بالاعتداء وليس الاعتداء في النظام الإسلامي، ويقول الإمام أيضاً: إنني أمد يد الإخاء لجميع الشعوب الإسلامية ولكل مسلمي العالم في الشرق والغرب وأتحد معهم وأتجاوب على صعيد الأخوة الإسلامية. والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على محمد وآله.

الباب الرابع

دور الأحزاب العربية بإشعال الحرب العراقية الإيرانية

الفصل الأول

قبل أن يتألق الإمام الخميني

أ ـ على الصعيد الإيراني:

١ ـ على صعيد نظام الشاه.

٢ ـ على صعيد الشعب الإيراني.

على صعيد نظام الشاه:

آخت الولايات المتحدة الأمريكية بين نظام طهران برئاسة الشاه وبين نظام تل أبيب الصهيوني، وخلقت بين النظامين حالة من التكامل والتعاضد لغايات:

١ ـ كسر طوق العزلة المفروض على هذا الكيان الصهيوني الغريب عن هذه المنطقة وإقامة علاقات مميزة وكاملة ومتكاملة بين طهران وهذا الكيان وتشجيع وترغيب العرب بفضائل مثل هذه العلاقات، ومن هنا فإن شاه إيران كان من أبرز الذين أوجدوا بذهن السادات فكرة زيارة القدس ومن أكثر الزعماء إلحاحاً عليه للقيام برحلته المشؤومة إلى القدس، فالشاه من أبرز أسباب ترويض الحناد العربي وتهيئته لتقبل الكيان الصهيوني.

٢ ـ تعميق الهوة بين المسلمين العرب وبين المسلمين غير العرب ومنع أي اتحاد أو تضامن أو لقاء جاد بينهم، وإيران بثقلها الحضاري، وبقيادتها المتغطرسة والمتفرنجة والمستهزئة أصلاً بدينها مؤهلة للقيام بهذا الدور إذا استفادت من الخبرة اليهودية في هذا المجال.

٣ ـ تجريد الشعب الإيراني المسلم من دينه بحيث لا يبقى من هذا الدين غير القشور وقيام القيادة الإيرانية بالدور الذي قام به مصطفى أتاتورك في تركيا بحيث يتحول الدين في إيران إلى مجرد علاقة بين العبد وربه ولا علاقة له بالحياة لا من قريب ولا من بعيد وهو الدور المعلن رسمياً للدين في الغرب، وذلك تمهيداً لمجاراة تيار التمدين الغربي وبالطريقة الغربية، وهذا ما أطلقه عليه الشاه اسم الثورة البيضاء.

أمن الخليج:

ولتمكن الشاه من القيام بدوره هذا «فقد اندفعت السياسة الأمريكية في أواخر عصر نيكسون وبقية مدة رئاسته التي قضاها فورد في البيت الأبيض وطوال عهد جيمي كارتر إلى سياسة قضت بتنصيب شاه إيران رجلاً مسؤولاً عن أمن الخليج ومفوضاً عنها[١].

وأسلم الحلول لأكثرية زعماء المنطقة أن يباركوا هذا التنصيب وأن يخطبوا ود الشاه، ويمتنوا علاقتهم به وبكل الوسائل وذلك لأنه «رجل أمن المنطقة من الناحية الفعلية، ولأنه مفتاح رضى الإدارة الأمريكية خاصة والغرب عامة مع ما يجره هذا الرضى من فوائد ومنافع واستقرار لحكوماتهم».

على صعيد الشعب الإيراني:

ضاق الشعب الإيراني الأصيل المسلم ذرعاً بهذه العلاقة المشبوهة بين نظام الشاه في طهران وبين الكيان اليهودي، وأبدى قرفه واستياءه واستنكاره لتسلط

---

(١) حرب الخليج محمد حسنين هيكل.

اليهود، وتدخلهم السافر في شؤون حياته وشن الإمام الخميني (رحمه الله) حملة شعواء على الشاه مشهراً بعلاقته الآثمة مع اليهود وكشف تفاصيل خطة الشاه، وأقنع الشعب الإيراني أن أعمال الشاه تلك تشكل تحدياً صارخاً لمشاعر الشعب الإيراني، وإهانة بالغة بالإسلام وأن الطريق الوحيد للتخلص من الشاه هو طريق الإسلام وأن الحل لكل مشكلات الشعب الإيراني يكمن في الإسلام، وأن الإسلام هو الضمانة المؤكدة لمستقبل إيران.

واستمرت الثورة تعمل وتعتمل في النفوس حتى تمكن الشعب الإيراني المسلم بقيادة الإمام آية الله الخميني من إسقاط أعظم طاغية عرفه الشرق في العصر الحديث ومن استبدال نظامه الفاسد بالنظام الإسلامي.

وتكونت في إيران أول دولة في العصر الحديث تتبنى الإسلام نظاماً أمراً لحكمها.

ب ـ العرب:

أسفرت الحرب العالمية الثانية:

١ ـ **سياسياً**: ـ في ما يتعلق بنا ـ عن تحطيم دولة الخلافة الإسلامية وبعثرتها، تلك الدولة التي كانت تجمع تحت جناحها ولو إسمياً كل مسلمي الأرض فرئيس دولة الخلافة هو سلطان أو خليفة كل المسلمين.

ونتيجة لتحطيم دولة الخلافة قامت على أنقاضها ومن الشعوب والأقوام التي كانت ضمن سلطانها عشرات الدول ـ ومن هذه الدول ـ الدول العربية وارتبطت تلك الدول الوليدة ـ طوعاً أو كرهاً ـ بالقوة المنتصرة «الاستعمار الغربي» وهي نفس القوة التي خبصت بين المسلمين وألبت بعضهم على بعض.

ولأن هذه الوليدة ليست لها مقومات الدولة، ولأنها سجنت نفسها ضمن حدود سياسية مصطنعة فقد عاشت وستعيش طوال حياتها السياسية في سلسلة خانقة من الأزمات المتلاحقة كلما خلصت من أزمة أقبلت أختها مما يفرض عليها فرضاً

إذا أرادت لكيانها السياسي أن يستمر أن تكون معتمدة على قوة خارجية لتهرع لنجدتها وتخفف أزماتها المتلاحقة.

٢ ـ استراتيجياً: لم تكتف القوة المنتصرة «الاستعمار الغربي» بتحطيم دولة الخلافة وإقامة عشرات الدول على أنقاضها إنما اختارت الأرض التي بارك الله حولها، وأقامت عليه كياناً يهودياً وتطمع أن يضم هذا الكيان تحت جناحيه يوماً ما يهود العالم كلهم لمواجهة الإسلام والمسلمين نيابة عن الغرب، ويقوم الغرب المسيحي فيما بعد بدور المرجع والحكم بين الفريقين ويمثل دور المرجع والسيد للطرفين، والغرب يعمل دائماً على أن تبقى كل دولة عربية ضمن حدودها السياسية التي وضعها بنفسه، وأن تكون قوة الكيان اليهودي بحجم قوة كل العرب حتى لو اجتمعوا.

٣ ـ إيديولوجياً: ولقطع خط الرجعة أمام العرب والمسلمين، ولتجريدهم من سلاح الدين، قررت القوة المنتصرة أن عصر الدين وخاصة دين الإسلام بإدارة الحياة والأحياء قد ولى، وحتى تدخل الدولة نادى الدول المتحضرة يجب أن تقصر دور الدين على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه. وبالتالي فلا علاقة له بالحياة، ثم إن عصر اتحاد الأمم في ظلال الدين قد ولى إلى غير رجعة.

وإن القومية هي البديل، وبما أن القومية هي مجرد إطار فارغ وبلا مضمون فإن الرأسمالية التحررية هي المضمون العقائدي الأمثل للإطار القومي.

وعندما فشلت الرأسمالية التحررية في التطبيق قامت الماركسية الشيوعية كند لها بالرغم من اتفاقهما على استبعاد الدين، والشيوعية لم تعاد القومية إنما اعتقدتَ أن المضمون الأمثل لها هو الماركسية الشيوعية وفيما يتعلق بالعرب فقد عاشوا بحالة تبعية فكرية للغرب والشرق وحاولوا أن يزاوجوا بين الرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية على الأرض العربية ليكون المولود جامعاً لكل الصفات التحررية والشيوعية والعربية، وبالرغم من الهالة التي أحيط بها المولود العربي الجديد إلا أنه مع الأسف ولد معاقاً، وخصياً غير قادر على الإنجاب.

وجهان لعملة واحدة:

١ ـ الواقع.

٢ ـ الأمل.

١ ـ الواقع:

سلطة الدولة الوطنية: اكتشفت السلطة أن ليس لدولتها مقومات الدولة، ولكن وجود الدولة أعطى هوية خاصة لرعاياها، وأن هؤلاء الرعايا غير مستعدين للتخلي عن هذه الهوية، لأنها رمز انتمائهم، فهي بمثابة مؤسسة القبيلة العربية تمنح الانتماء والحماية والاهتمام بالإضافة إلى أن محيطهم العربي لن يتقبلهم بدون هذه الهوية، ثم إنهم بحاجة إلى سلطة تمنحهم الأمن وإلا أكل القوي الضعيف وهم بحاجة إلى من يقرب الفجوة الحضارية بينهم وبين غيرهم وإلى من ينسق جهودهم لتحقيق بعض آمالهم أو المحافظة عليها من الاندثار والنسيان.

٢ ـ الأمـل:

المعارضة: إذا كان الواقع مر فليس بالضرورة أن يكون المستقبل حلو، وإذا كانت السلطة على خطأ فليس بالضرورة أن الذين يعارضونها على صواب.

زعمت المعارضة العربية أن الواقع مر، وأن السلطة غارقة بالخطأ إلى منابت الشعر في رأسها، ولكن المعارضة لا تملك بديلاً عملياً من كل نواحي الأيديولوجية والسياسية والأقتصادية فضلاً عن مئات مرجعيات المعارضة.

هدف المعارضة العربية:

الهدف الحقيقي لكل فصيل من فصائل المعارضة العربية في أي دولة عربية هو الوصول إلى السلطة والاستحواذ عليها وحيازتها وحدها لا يشاركه فيها أي فصيل غيرها، وكخطوة تتبع خطوة فلا بأس من المشاركة لأنها ستؤدي في النهاية إلى تحقيق الهدف.

وسائل المعارضة العربية:

تعتقد فصائل المعارضة العربية أنها تستطيع تحقيق هدفها عن طريق الحزبية ومن هذا فقد غصّت الساحة العربية بالأحزاب وارتدت هذه الأحزاب لباسين:

١ ـ **اللباس الغربي**: الذي يحصر الدين بالعلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه والذي يؤمنَ بالقومية كإطار ويؤمن بالرأسمالية التحررية كمضمون لهذا الإطار أو الشيوعية كمضمون بديل أو يزاوج بين الرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية ويعتقد أن ثمرة هذا التزاوج يصلح كمضمون عقائدي للقومية، ومع أن هذا اللباس قد أوصل أصحابه إلى السلطة إلا أنه لم يقدم البديل ولم يغير الواقع وإنما أدى لتبديل الأشخاص بأشخاص. وهذا حال الأحزاب العلمانية.

٢ ـ **اللباس الديني**: وهم يرفعون شعار أن الدين هو الحل وينادون بالعودة إلى الإسلام ونظامه ويحركون العاطفة الدينية، ولكنهم ومع الاحترام لا يعرفون النظام السياسي الإسلامي ولا يملكون من الإسلام إلا عاطفتهم نحوه، والكارثة أنهم تعلموا الحزبية من الغرب وبالنتيجة فإنهم ينادون بأهداف الإسلام ويسعون لتحقيق هذه الأهداف الإلهية ولكن بالوسائل الوضعية التي تعلموها من الغرب.

التزاوج:

الأحزاب العلمانية العربية زاوجت بين الماركسية الشيوعية والرأسمالية للحصول على مضمون عقائدي للقومية العربية والأحزاب الدينية زاوجت بين الأهداف الإلهية وبين الوسائل الوضعية بهدف الوصول إلى السلطة وإقامة حكم الإسلام.

طبيعة الشركة:

كل حزب ديني أو علماني عربي له طبيعة الشركة المساهمة، فلا يقبلون في صفوفهم إلا من يتأكدون من ولائه لنظام الشركة، ومن إخلاصه لمديرها وجهاز إدارتها، فإذا تحققت المرابح اقتسمها الأعضاء كل بنسبة رأسماله ولا يستفيد من هذا الربح غيرهم، وإذا لم يتحقق الربح صبوا اللوم على السوق وحركاته وعلى

غباء الجموع التي لا تعرف البضاعة الجيدة من الرديئة.

الأمل بالربح:

إنه وإن كان هنالك كساد إلا أنه لا بد أن يأتي يوم تلوح فيه كل فرص النجاح، وحتى تأخذ الشركة نصيبها من هذا النجاح يجب أن تبقى قائمة.

الإحساس بالفراغ:

«ولقد ضاعف من الإحساس بالفراغ أن المؤسسات الدينية التقليدية راحت تترك نفسها للسلطة أو لغيرها تستغلها لأغراض ضيقة فنفس المؤسسات التي حضت على قتال إسرائيل كانت هي نفسها التي أخرجت فتوى الصلح معها، ونفس المؤسسات التي ساعدت في التبشير بفكرة العدل الاجتماعي هي نفسها التي راحت تحض الفقراء على القبول بالتمايز الطبقي الفادح الذي جاء به عصر الانفتاح.

وجاءت محاولة الاستقلال السياسي للمؤسسات الدينية التقليدية في وقت غير ملائم من كل الوجوه». وإذا بكل المعادلة الدولية تهتز[(١)].

كانت النظم السائدة في العالم تستقى من مصدرين لا ثالث لهما فإما من التحررية الرأسمالية وإما من الماركسية الشيوعية، فبرز الإسلام كنبع صاف ونقي لكل عشاق الهدى والحق، وإذا بالرجل ينادي بأن المسلمين أمة من دون الناس، توجهها المبادىء لا المصالح وتسعى لهداية الناس لا لاستغلالهم، وللتعاون معهم لا لسرقتهم، ولتحريرهم لا لاستعبادهم، ويعلن الإمام فساد الأساس الذي يقوم عليه النظام العالمي، وفساد المنطلقات التي ينطلق منها هذا النظام العالمي واستقرت دولة إيران الإسلامية نهائياً كحقيقة من حقائق العصر.

---

(١) حرب الخليج محمد حسنين هيكل ص ١١١.

تالـق نجم الإمـام

لكل نبأ مستقر

ثورة الشعب الإيراني المسلم ضد الشاه لم تتوقف، بل كانت تعمل وتعتمل داخل إيران، ولم تعطها وسائل الإعلام حجمها من الاهتمام حتى اعتلى الإمام الخميني (رحمه الله) المد الثوري، وأعطى المقادة، وسلمت له قيادة الثورة، فقاد سفينة الإسلام وسط عواصف هوجاء وواجه الشاه وتحداه، وأعلن فساد نظام الشاه، وفساد أنظمة الشرق والغرب معاً، وأن حكم الإسلام هو الحل الأمثل الذي يعطي الجميع ما يطلبون من عدل وحرية ومساواة. وكشر نظام الشاه عن أنيابه، وهيأ مخالبه. وانتشر النبأ والعالم في ذهول بين مصدق ومكذب.

الشاه ومعه أكبر قوة عسكرية عرفها الشرق الحديث تؤيده كل دول العالم من جهة!!!.

والإمام الخميني بأعوامه الثمانين ومعه الله والإيمان به والشعب الإيراني المسلم في جهة أخرى!!!.

واستقر النبأ وسقط الطاغية وانتصر الإمام، وانتصر الإسلام بانتصاره وسريعاً، اختار الشعب الإيراني نظام الإسلام، وثم اختار مجلس نيابي منتخب من الشعب «مجلس الشورى» ومجلس وزراء منتخب من مجلس الشورى. ورئيس جمهورية منتخب من قبل الشعب، ومجلس صيانة الدستور، وتمت مبايعة الإمام الخميني كأول نائب للإمام المنتظر وفاق العالم من ذهوله فإذا بدولة إيران تتبنى الإسلام كنظام حكم لها بموافقة الأغلبية الساحقة من شعب إيران.

الفصل الثاني

المبادىء الثابتة والعرض الإيراني

ما إن نجحت الثورة حتى أعلن الإمام وبأكثر من مناسبة:

١ ـ قطع كامل لكل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. . . بين طهران وبين الكيان الصهيوني وقبل الثورة كانت تل أبيب تقيم أوثق العلاقات مع نظام الشاه وكانت إيران مصدرها الوحيد للبترول.

٢ ـ إيران في حالة حرب مع إسرائيل، والجيش الإيراني تحت تصرف العرب، وكافة موارد إيران تحت تصرفهم حتى يتم القضاء على هذه الغدة السرطانية حسب تعبير الإمام.

٣ ـ الإعلان رسمياً: إن الإمام الرسمي لإيران هو المهدي المنتظر وهو عربي الدم واللسان، وأن الإمام الخميني نفسه ما هو أكثر من نائب لهذا الإمام العربي يصرف أمور الدولة حتى يظهر.

٤ ـ الإعلان: إن مذهب الإمام جعفر الصادق هو المذهب الرسمي للدولة وجعفر الصادق عليه السلام هو الإمام السادس من أئمة أهل البيت وغني عن البيان أنه عربي وهو ابن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

٥ ـ وهذا ليس جديداً ففي عام ١٩٦٣ وبمناسبة مرور ٤٠ يوماً على فاجعة قم أعلن الإمام: «إنني أعلن وبكل صراحة لرؤساء الدول الإسلامية والعربية والعالم أجمع أن علماء الإسلام وشعب إيران المؤمن والجيش الإيراني الأبي يرتبطون بوشائج الأخوة الحقة مع الشعوب العربية والدول الإسلامية المتحررة

يشاركونهم همومهم في السراء والضراء ويعلنون استنكارهم وشجبهم لتحالف السلطة الملكية مع إسرائيل عدوة الإسلام وإيران»[1].

وقد قال في كلمة له ألقاها في المسجد الأعظم في قم بعد إطلاق سراحه من السجن عام ١٩٦٣:

«يا شعوب العالم، إعلموا أن شعبنا يعارض التحالف مع إسرائيل وأن حلفاء إسرائيل ليسوا منا، وليسوا من شعبنا، وليسوا من علمائنا وأن ديننا يلزمنا بمعارضة أعداء الإسلام ومخالفتهم.

وقال مخاطباً الشاه: تعال نتحاسب لنعرف أي الفريقين أهدى، أنت الذي تدعي بأن دولتكم أصبحت أمدن دولة وتحتفل بمرور ٢٥٠٠ عام على تأسيسها، ولا تزال تتبجح وتفخر بعظام نخرة، ورفاة بالية قذرة، تريد إحياءها خلافاً للإسلام، وأنت الذي تفخر بإمبراطوريتك وقدمها، تتقهقر الآن في أواخر عمرك، فتعاهد إسرائيل وتتعاون معها ضد أحكام الإسلام والمسلمين، وإذا قلنا لا تعقد ميثاقاً مع إسرائيل قلت إنكم رجعيون تباً لهذا المنطق وسوّد الله وجوهكم» (راجع ص٢٠ من كتاب الإمام بمواجهة الصهيونية).

ومن هنا فلا عجب من أن يصرح الإمام فيما بعد لمراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط بتاريخ١٢/١١/٧٨ بما يلي:

«أحد أهم الإسباب لثورة الشعب الإيراني المسلم ضد الشاه هو حمايته اللامحدودة لإسرائيل وتأمينه لاحتياجاتها النفطية، ولأنه جعل إيران سوقاً للبضائع الإسرائيلية إضافة إلى دعم الشاه المعنوي لإسرائيل، مع أنه يتظاهر بإدانتها كي يخدع العالم، أما الشعب الإيراني المسلم، وأي مسلم وأي حر لا يفكر بشرعية إسرائيل ونحن سنبقى حماة لإخواننا الفلسطينيين والعرب. . . » (ص٧٦ من المرجع السابق).

---

(١) الإمام الخميني في مواجهة الصهيونية ص ٢٥.

الفصل الثالث

الرد العربي على مبادىء إيران الثابتة وعرضها

١ ـ الرد:

أ ـ رد الأحزاب العلمانية العربية:

نفرت الأحزاب العلمانية العربية نفوراً تاماً من المبادىء الإيرانية الثابتة، ومن هذا العرض الإيراني، واعتبرت أن نجاح إيران بالتحالف مع العرب سيقضي تماماً على فكرة القومية العربية الوليدة ويعيد العرب ثانية إلى إطار الإسلام، ويؤدي تجريد الأحزاب العلمانية العربية من كافة مكاسبها، ويعرض للهدم والتخريب كل ما بنته هذه الأحزاب، ويعيد قيادات وأعضاء هذه الأحزاب إلى مواقعهم الأولى قبل التحزب «مجرد أشخاص عاديين».

وكان أشد الأحزاب العلمانية العربية نفوراً حزب البعث العراقي، فأمينه العام السيد ميشيل عفلق نصرانياً متطرفاً، وقياداته المركزية الفاعلة من النصارى، الذين أثبتوا وجودهم فعلاً بالعمل لصالح الحزب، فإذا نجحت إيران بدعوتها للتحالف مع العرب فمعنى ذلك نسف بنية الحزب الأساسية القائمة على عدم التفريق بين المسلم والمسيحي واعتبارهم إخواناً في العروبة. ومعناه إعادة عجلة التاريخ للوراء وجعل المسيحي في أحسن الظروف مواطناً عربياً من الدرجة الثانية ووجدوا بغيتهم في السيد صدام حسين، وهو رجل طموح مندفع كالإعصار يسعى وراء المجدالشخصي ويريد أن يدخل التاريخ بأي صورة، وهو بفطرته مولع بالعنف، ويقتل بأعصاب هادئة وببرودة لامثيل له، ولديه إحساس عميق بالكبرياء والعظمة وما يقتنع به السيد

مشيل عفلق الذي لقنه تعاليم القومية هو برأيه حق لا مجال لمناقشة تلك القومية التي تعلموها من الغرب.

هذه الصفات لم تكن خافية على القيادات الفاعلة في حزب البعث العراقي، فأخذت بيد صدام وأجلسته على كرسي رئاسة الجمهورية، ووضعت تحت تصرفه موارد العراق كدولة بترولية وسهلت أمره بإجراء اتصالات معمقة مع البابا ومع الشرق والغرب باعتبار أن إيران المسلمة خطر ماحق على الجميع، ولم يكن من باب الصدفة أن تفتح خزائن الأسلحة في الشرق والغرب معاً أمام نظام البعث العفلقي العراقي بالوقت الذي يغلق بوجه إيران كل باب وباختصار كل شيء جاهز تحت تصرف السيد صدام، عندئذ ألقوا بروعه أن رئاسته للدولة في خطر لأن ٥٥٪ من سكان العراق شيعة، وأن حدود إيران متاخمة لحدود العراق وأن الثوار العراقيين يجدون لهم ملجأ في إيران، وأن الحرب الوقائية أمر مشروع، ثم تركوا له القرار، وأعلنوا أنهم خلفه أينما اتجه.

الشذوذ عن هذه القاعدة:

حزب البعث السوري هو الشقيق التوأم لحزب بعث العراق، فمؤسس الحزب أصلاً هو السيد ميشيل عفلق ولكن اختلف الشقيقان واختار والدهما ميشيل عفلق جانب الشقيق الصغير «العراق» وترك ابنه العاق في سوريا، وآلت الأمور إلى السيد حافظ الأسد،وهو بطبيعته رجل هادىء وعميق يفكر بالأمور من كل جوانبها ويستشير ويعمل ما يعتقد أنه الأسلم، فرحبت سوريا بالعرض الإيراني، وأكبرت مبادىء إيران الثابتة وأعلنت أنها نصراً للعرب وعقماً لهم، ومن هنا فقد ظلت علاقتها وطيدة مع إيران تتبادل معها الاحترام والمنافع.

ب - رد الأحزاب الدينية العربية:

ذهلت الأحزاب الدينية العربية من النجاح الساحق للثورة الإيرانية ومن القبول الشعبي التام للنظام السياسي الإسلامي في إيران، ومن سرعة انفتاح إيران على العالمين العربي والإسلامي، وفكرت في نفسها وهي تراوح مكانها ستين عاماً، فأضمرت الحسد لإيران ولقيادتها المسلمة ثم لاح لها أن تتصور أن إيران ستسرق

منها جهودها لبناء دولة إسلامية في العالم العربي. ثم أخذت هذه الأحزاب تبحث عن مساوىء تبرر معاداتها لإيران: .

١ ـ أصدر حزب التحرير كتاباً أسماه نقض الدستور الإيراني.

٢ ـ وأصدر مجموعة من النشرات مفادها أن وفداً منه قدم صورة عن الدستور الذي صاغه حزب التحرير لوزير الخارجية الإيراني وأن هذا الوزير لم يتبن دستور الحزب ولم يحفل به.

٣ ـ ثم إن النظام الإيراني نظام جمهوري وليس في الإسلام جمهورية «وحزب التحرير يتصور أن رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية هو رئيس الدولة» مع أن الإمام هو رئيس الدولة وليس رئيس الجمهورية.

٤ ـ ثم إن أهل إيران شيعة والعالم العربي سنّة ولا مجال للتعاون بين السنة والشيعة، ويبدو أن حزب التحرير يجهل معنى السنة ومعنى الشيعة ويجهل متى نشأ التشيع والتسنن وأن الفوارق بين الجماعتين الإسلاميتين هي فوارق سياسية.

٢ ـ رد الشعب العربي:

لم يفهم الشعب العربي سر عداء الأحزاب العلمانية والدينية لإيران فبالأمس كان شاه إيران حليفاً حقيقياً لإسرائيل، ومع هذا ظل الجميع يطلبون وده ويحرصون على صداقته، واليوم قد تبدلت الصورة فالإمام الخميني كرئيس لدولة إيران يعلن عداءه لإسرائيل وللغرب ويضع جيشه وإمكانات إيران تحت تصرف العرب، ومع هذا يرفضه العرب ويعادونه «إن هذا لشيء عجاب» ولا يمكن فهمه!!.

٣ ـ الرد الرسمي العربي:

الدول العربية بالضرورة على علم بآراء الأحزاب العربية بشقيها الديني والعلماني، وعلى علم كامل بحيرة الشعب وعدم ارتياحه لما يجري، وفوق ذلك هي على علم بتوجهات القوى العالمية الكبرى وموقف هذه القوى من النظام الإسلامي في إيران، وقد أحيطت علماً بوساوس الدول الغربية وحرصها على

الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط وخوفها من انجراف الشعوب وراء «التطرف الديني القادم من إيران» فإذا أتى التطرف وبرز رجل كالإمام الخميني فلا ينجو حاكم، لذلك فمن الحكمة أخذ الحيطة والحذر والتنسيق والتعاون بين الدول لمواجهة هذا الخطر الجديد الذي دهم الشرق بدون مقدمات.

الحيرة:

واحتار العرب في أمرهم كيف يردون على المبادىء الإيرانية الثابتة والعرض الإيراني، إن المبادىء موفوضة، والعرض مرفوض، شعبياً وحزبياً ورسمياً، ولكن هل يكفي هذا الرفض، ومن الذي يمنع إيران من أن تكرر العرض، وتحتكم إلى الشعوب وأخيراً جاء من ينقذهم من الحيرة.

فالشيعة يرون أن رئاسة الدولة محصورة بذرية محمد ﷺ والسنّة يقرون برئاسة من غلب ويتمنون لو يحكمهم رجل صالح من ذرية محمد، وباختصار فإن حزب التحرير وقف ضد الثورة الإسلامية في إيران وبدأ يبحث عن حلفاء ويتصدى وإياهم لهذا الخطر الزاحف على العالم العربي والإسلامي.

ج ـ رد الإخوان المسلمين:

الإخوان المسلمون طلبوا من القيادة الإيرانية أن «تتسنن» حتى يتوحد المسبلمون وبعدها فإن الإخوان يقفون دائماً بصف الإسلام كعادتهم ونظراً لتصادم الإخوان مع نظام البعث السوري وللعداء المتفاقم بين جناحي البعث في سوريا والعراق، فقد وجدت جماعة الإخوان المسلمين نفسها في خندق واحد مع البعث العراقي وأن أميرها المراقب العام هو أحد ولاة السيد ميشيل عفلق.

د الوهابية والسلفية:

نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية وتبينها للإسلام أشعل نيران الحقد والحسد والكراهية من جديد للشيعة، «فكفر الشاه خير من إيمان الخميني»، لذلك هم على استعداد أن يتعاونوا مع النصارى ومع الغرب وحتى مع الشيوعية في سبيل القضاء على ثورة إيران ونظام حكمها وتحجيم هذا الثورة وذلك النظام.

الفصل الرابع

نظام البعث في العراق يرد على مبادىء إيران وعرضها

إيران تعيش ليالي عرسها الخالدة، نشوى بانتصار الثورة وانتصار الإسلام، وهي تترقب رد العرب على مبادىء وعرضها بالتعاون بين إيران المسلمة والعرب لمواجهة عدو الله وعدو الجميع الكيان اليهودي.

وبينما تترقب الرد العربي وصباح ٢٣ إيلول١٩٨٠ قامت ١٥٤ طائرة عراقية بالضربة الجوية الأولى وتبعتها ١٠٠ طائرة للضربة الجوية الثانية ثم لحق بالضربات الجوية هجوم بري على جبهتين: جنوباً في اتجاه عبدان وعلى الجهة الوسطى في اتجاه قصر شيرين، وكانت صحف الغرب بما فيها لندن ونيويورك وواشنطن وحتى باريس تخصص صفحاتها الأولى ومكان الصدارة للجيش العراقي المنتصر وتكرر نعت البطل العربي مرات كثيرة في وصف الرئيس صدام حسين ولم تمض غير بضعة أسابيع حتى كان الجيش العراقي قد تمكن من احتلال مقاطعة خورستان بكاملها، وكان بادياً أن الإيرانيين قد أخذوا بالمفاجأة ولم يكن جيشهم مستعداً للحرب..»[1].

من نداء الإمام الموجه إلى شعبي إيران والعراق وجيشيهما:

«ما أريد قوله لجيش العراق هو أني آسف لهذا الجيش المسلم بأن حاله كالذين أحضروهم من إسرائيل، وأمر من يحضر من إسرائيل ليس مهماً عندي إنما

(١) حرب الخليج محمد حسنين هيكل ص ١٣٠.

الذي يهمني أمره هو الجيش العراقي لأن أفراده مسلمون قبلتهم الكعبة، وكتابهم القرآن والنبي الأكرم رسولهم. . . فلماذا يقاتلون؟ ومن يحاربون؟ وعلى أي أساس قامت حربهم»[1].

من نداء الإمام بمناسبة أسبوع الحرب:

«إن سبب تأسفنا من هذه الحرب المفروضة هو أن لا تصرف هذه القدرات الضخمة لطرد إسرائيل ولتحرير بيت المقدس بل صرفت في محاربة إيران العدو اللدود لإسرائيل. . .»[2].

قلب الحقائق:

ولقد صوّر الإعلام العربي الموالي لنظام البعث أن إيران قد شنت هجوماً على العراق واحتلت أراضيه وأن جيش العراق قام بالدفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي، وأن معركة القادسية قد بدأت بين الفرس والمجوس والعرب المسلمين، وأن الذي يخطط لحفظ الإسلام هو السيد ميشيل عفلق وطارق عزيز، وتمت المذبحة الكبرى فقتل وجرح ما لا يقل عن مليوني مسلم ومسلمة، والمسلمون يتفرجون أو يزيدون النار اشتعالاً.

التضليل والتحريف والاستعداء المنظم:

إنطلقت الموجة الأولى والثانية من الطائرات العراقية وألقت حمولة الدمار بدون سبب على المراكز الحيوية في إيران، أو لأسباب تافهة لا تستوجب هذه القسوة، وتوغلت الفيالق العراقية في داخل الأراضي الإيرانية، تدمر، وتضرب بغير رحمة وبدون ضرورة ولا عذر، أو بعذر لا يوجب هذا الدمار.

وبذات الوقت انطلقت حملة منظمة لاستعداد الشعوب العربية على إيران

---

(١) الإمام الخميني بمواجهة الصهيونية ص ١٢٠ ـ ١٢١ وقد أصدر الإمام هذا النداء بتاريخ ١٩٨٩/٩/٢٦.

(٢) نفس المرجع ص ١٢٥ وقد صدر هذا النداء بتاريخ ١٩٨١/٢/٤.

بقصد منع أي تقارب أو تعاون بين العرب المسلمين وبين النظام الإسلامي الإيراني وسلاح هذه الحملة التضليل، والتحريف وقلب الحقائق.

أطراف هذه الحملة:

الوهابيون، والسلفيون، والإخوان المسلمون، والتحرير أحزاب دينية تؤمن نظرياً بأن الإسلام عقيدة وشريعة، دين ودولة وأنه الحل لمشكلات العالم الإسلامي، وتنادي بتبنيه كنظام حكم وكقانون نافذ.

بينما حزب البعث العراقي حزب علماني أسسه النصراني السيد ميشيل عفلق وهذا الحزب يؤمن كالغرب أن الدين علاقة شخصية جداً بين العبد وربه ولا علاقة له بشؤون الحياة لا من قريب ولا بعيد، وهو يتبنى نظريات مناقضة تماماً من حيث الشكل والمضمون للنظريات التي تتبناها الأحزاب الدينية آنفة الذكر، فالبعث العراقي يؤمن بالقومية العربية كإطار، ويؤمن بالشيوعية كمضمون عقائدي لهذا الإطار.

البعثيون العراقيون أحرار باختيارهم، ولا سلطان لي عليهم وأحترم خيارهم.

لكن الملفت للنظر والمثير للدهشة حقيقة هو تعاون وتعاضد الأحزاب الدينية العربية مع حزب البعث العراقي في حربه ضد إيران التي تتبنى الإسلام كنظام حكم، وتحكم بما أنزل الله، ولو التمسنا لهذه الأحزاب الدينية عذراً بأنها وقفت مع العراق بدافع الحمية الجاهلية من باب «فما أنا إلا من غزية إن غوت غويت» فما هو عذر الأحزاب الدينية العربية عن التضليل والتحريف والاختلاق والتشويه لإقناع العرب أن المسلمين الإيرانيين كفار ومجرمون؟.

الأحزاب الدينية العربية تحاول أن تطمئن أهل الكتاب «اليهود والنصارى» بأنهم أهل الذمة ولهم حقوقهم المصانة حسب نظام الإسلام ولا داعي لخوفهم من الدعوة إلى الإسلام والأحزاب الدينية العربية لها حق بذلك، أفليس بوسع الأحزاب الدينية العربية أن تنظر للمسلمين الذي يختلفون معها بالرأي السياسي بنفس النظرة التي تنظرها هذه الأحزاب الدينية لليهود والنصارى؟ وهل يجوز للأحزاب الدينية العربية شرعاً أن تأتمر بأمرة السيد مشيل عفلق وشيعته وتتعاون معهم في حربهم ضد

الإمام الخميني وهو عربي من فروع الشجرة المباركة خلع نظام الشاه الطاغوتي الموالي لإسرائيل والمتعاضد معها وأحل محله نظام الإسلام!!! ما لكم كيف تحكمون؟.

فأيهما أولى بالدعم والمساندة رجل من آل محمد يؤمن بالله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحكم بما أنزل الله، ويضع تحت تصرفكم إمكانات دولة من أعظم دول الإسلام وهو الإمام الخميني.

أم رجل مسيحي كافر بالإسلام كالسيد مشيل عفلق!!! ما ضركم لو وقفتم على الحياد فلا آزرتم الكافر ولا نصرتم المؤمن؟! ما ضركم لو سمعتم من السيد ميشيل وشيعته، وسمعتم من الإمام الخميني وشيعته، ثم قاتلتم الفئة الباغية أو حجزتم بين الفئتين؟ بدلاً من تشجيع مشيل وشيعته على حرب إيران؟ لماذا لم تشجعوه عندما كان الشاه يقيم أوثق العلاقات مع الكيان الصهيوني؟ ويمده بكافة احتياجاته من البترول،؟ لماذا لم تختلقوا وتحرفوا وتشوهوا أقوال الشاه عندما كان يجهر بعداوته للعرب وللإسلام، وفجأة وبدون مقدمات تتجلى قدرتكم الهائلة على الاختلاق والتحريف والتشويه ضد الرجل الذي أعلن أنه مع الله ومعكم وعلى استعداد لأن يقاسمكم رغيف العيش، فهل تحبون من يكرهكم، وتصلون من يقطعكم وتكرهون من يحبكم وتقطعون من يصلكم!! «إن هذا لأمر عجاب» يا ويحكم، «ما لكم كيف تحكمون؟»؟.

مظاهر التضليل والتحريف والاختلاق:

تسمية الحرب:

أطلق حزب البعث العراقي الحاكم اسم «قادسية صدام» على الحرب التي شنها على إيران المسلمة «نسبة إلى معركة القادسية التي جرت بين فريق يؤمن بالله ويدعو بدعوة الإسلام وهو الفريق المسلم العربي، وبين فريق آخر لا يؤمن بالله ولم يعرف الإسلام بعد. وهو الفريق الفارسي وأسفرت المعركة عن هداية الفريق الفارسي ،ودخوله في الإسلام، فجمعت إخوة الإسلام مختلف الأقوام وأصبح الجميع بنعمة الله إخواناً.

وجه التحريف:

حزب البعث العراقي الحاكم حزب علماني من كل الوجوه، يؤمن بالدين على الطريقة الغربية على أنه«علاقة شخصية جداً بين العبد وربه ولا علاقة له بالحياة» ويؤمن بالقومية كإطار عام وبالشيوعية كمضمون عقائدي لهذا الإطار.

وعلى نقيضه نظام الإسلام في طهران، فرأس الدولة الإسلامية الإيرانية رجل من فروع الشجرة المباركة، والشعب الإيراني شعب مسلم ضحى بعشرات الألوف من أولاده لإقامة حكم الله واختار هذا الحكم الإلهي ونظام الحكم في إيران نظام إسلامي من كل الوجوه وهم يحكمون بما أنزل الله.

فلا وجه للشبه والمقارنة بين قادسية صدام وقادسية الإسلام، إلا إذا كان هدف السيد صدام هو رد الإيرانيين عن دينهم أو محاولة إدخالهم في عضوية حزب البعث عملاً بقول شاعر البعث:

آمن بالبعث رباً لا شريك له وبالعروبة ديناً ما له ثان

اللهم إني اعوذ بك من هذا الشطط.

البادىء بالعدوان:

قلنا إن يد إيران كانت مفتوحة تنتظر الرد العربي والإسلامي على مبادئها وعرضها يوم شن نظام البعث العراقي هجومه الجوي والبري الساحق على إيران بدون سبب يوجب ذلك إلا الوهم وبالرغم من تأكيدات الإمام القاطعة، بأنه ليس بنيته الاعتداء على أحد، وأنه لو ملك كل قوى الأرض ما اعتدى لأن الاعتداء ليس من الإسلام.

مع هذا كله راحت وسائل الإعلام العربية تصوّر أن إيران هي التي بدأت العدوان براً وجواً وكل ما فعله العراق أنه قد مارس حقه بالدفاع عن نفسه وعن أمته وأنه يقوم بواجب حفظ البوابة الشرقية للوطن العربي. واستمرت وسائل الإعلام الحزبية والرسمية في تضليلها حتى أصدرت الأمم المتحدة قرارها الواضح بإدانة

نظام البعث العراقي وتحميله مسؤولية البدء بالعدوان، وكان قرار الأمم المتحدة ثمرة تحقيق محايد ودقيق.

دور المؤسسات الدينية بقلب الحقائق:

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتاب حرب الخليج ص ١١١ ـ ١١٦:

«لم يكن مطلوباً من المؤسسات الدينية أن تدخل صدام مع قم أو طهران وإنما كان عليها أن تلاقي أفكار الثورة الإسلامية في إيران وأن تدخل في حوار ديني معها تستفيد منه الأمم الإسلامية في أزمتها الطاحنة لمساعدتها في وقت محنة امتحانها.

لكن الغريب أن المؤسسات الدينية التقليدية دخلت في معركة عداء مع الخميني لا مبرر لها إلا في ظروف سياسية جعلت الرئيس السادات يتصور ويتصرف على أن شاه إيران صديق للعرب وصديق له، وإذا الفتاوى تصدر من القاهرة بالجملة إلى الحد الذي دفعه وهو ما زال في باريس لم يذهب بعد منتصراً إلى طهران ـ إلى التساؤل: لماذا تقف المؤسسات الرسمية في مصر هذا الموقف العدائي من الثورة الإسلامية؟.

والغريب أن الحجج التي استعملت في مصر ضد الثورة الإيرانية قامت على أساس طاعة ولي الأمر، ولم يكن الشيوخ في القاهرة قد درسوا بالقدر الكافي ما إذا كانت طاعة الشاه فرضاً على المؤمنين، أم أن سياساته وتصرفاته أسقطت موجبات طاعته. كان هذا نموذجاً صارخاً لإستغلال الدين في السياسة.

ثم تكررت الصورة ذاتها مرة أخرى في قضية كتاب سلمان رشدي الذي صدر بعنوان «آيات شيطانية... وتلقى الخميني بعد ستة شهور من صدور الكتاب رسالة تطلب فتواه في شأن مسلم قال كذاوكذا وأفتى الخميني دون معرفة اسم الكتاب أو الكاتب فتوى بأن قائل مثل هذا القول لا يمكن أن يكون مسلماً، فإذا كان مسلماً فقد ارتد وإذا ارتد المسلم هدر دمه».

وفجأة بدأت مؤسسات دينية في القاهرة تدين فتوى الخميني في قضية سلمان

رشدي، وبدأ كلام رجال الدين عن حق المؤلف في الخيال وفي الإبداع، وأن الخميني رجل ضيق الأفق ومتخلف عن العصر وقد أساء إلى الإسلام ورسالته ولم يحسن إليهما كما يدعي.

ويتابع الأستاذ هيكل: وبجهد قليل من جانب الآخرين تحولت القضايا إلى صراع بين السنة والشيعة في الإسلام وأصيب الإسلام المعاصر بشرخ عميق في بنيانه.

والمحزن أن ذلك يحدث بعد سنوات قليلة من جهد عظيم قام به الشيخ الجليل محمود شلتوت الذي أنشأ في القاهرة مجمعاً خاصاً للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وكان هذا المجمع قد وصل إلى نتائج قيمة اعترف بها الخميني نفسه قائلاً: إن الإسلام اليوم بحاجة إلى رجل مثل إمامنا الشيخ شلتوت»...

الباب الخامس

الفصل الأول

الأحزاب العربية والعائلة الهاشمية

لا علم لي ولا أجد في الدنيا كلها من يدعي العلم بأن عائلة عربية قدمت للإسلام ما قدمته العائلة الهاشمية، فالهاشميون هم الذين حصرتهم كل قبائل العرب مجتمعة، وهم الذين صمدوا للحصار والمقاطعة العربية طوال ثلاث سنين، وهم الذين حموا النبي عندما بزغت شمس الهداية الإلهية ولم يتخلوا عنه حتى أعز الله دينه، ونصر نبيه وصمدوا وجاهدوا حتى تحقق ذلك بوفاة النبي الكريم أدار العرب للهاشميين ظهر المجن وحصروهم وقاطعوهم ثانية وسلبوهم حقهم الشرعي بقيادة هذا الأمة بدعوى مختلفة مثلما سلبوهم حتى الحقوق التي كرستها الصيغة السياسية الجاهلية قبل الإسلام، بل وقتلوا سادات الهاشميين وأئمتهم الأخيار كعلي والحسن والحسين. . . عليهم السلام الخ.

واحتسب الهاشميون، واضطروا مكرهين ليتأخروا وهم المتقدمون أصلاً بالشرع والعقل والمنطق، واضطروا أن يكونوا أتباعاً وهم المتبوعون أصلاً بالشرع والعقل والمنطق.

الهاشميون والخلافة العثمانية:

طوال التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وحتى سقوط آخر

سلاطين العثمانيين كانت رئاسة الدولة الإسلامية تؤول لمن غلب ووضعت قاعدة دستورية مآلها «نحن مع من غلب» واعتبرت جزءاً من الشريعة السياسية في الإسلام بحجة أن قائلها هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) وقد آلت الأمور إلى بني أمية لأنهم غلبوا، ثم آلت إلى بني العباس لأنهم غلبوا أيضاً.

وأخيراً آلت الأمور إلى بني عثمان، وهم ليسوا عرباً، وتمكن الغرب الحاقد من غزو بلاد الإسلام من الداخل عن طريق شعاراته البراقة وعملائه المتسترين بالدين أو بالوطنية أو بهما معاً وأثمر غزوه عن هز القناعة العامة بأسلوب الأمة الإسلامية بالحكم، وأثمر أيضاً عن غرس بذرة جمعية تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي، ذلك الحزب اللعين الذي أضمر الشر للإسلام وأهله وعزم على تقويض دولة الإسلام من الداخل وذلك بسياسة رعايا الدولة وفق الروح القومية، وحيث أن دولة الإسلام العثمانية تتكون من عدة قوميات فمعنى ذلك هو خلق بذرة الصراع بين هذه القوميات لتصب أخيراً لصالح فكرة تفكيك الدولة العثمانية، وبنفس الوقت رفع هذا الحزب شعارات الغرب البراقة، وأرسى هذا الحزب قواعده، وما زال يتمدد كالسرطان حتى قبض عملياً على مقاليد الأمور وأصبح منصب السلطنة العثماني «الخلافة» ألعوبة بيد هذا الحزب، ينقلونه من شخص إلى شخص، ويتلاعبون به تلاعب الولدان بالكرة، والأمة ساهية لاهية تنتظر من يغلب حتى تبايعه كما تعودت على ذلك عبر تاريخها الطويل بعد وفاة حبيبها ومنقذها محمد ﷺ وفي تغييب الآل الكرام.

الهاشميون والعثمانيون:

الحسين بن علي (رحمة الله عليه) شريف مكة وشيخ هاشمي بالإجماع من فروع الشجرة المباركة وقد أحيط علماً بحقيقة جمعية الاتحاد والترقي وممارستها القومية العنصرية المقصودة، وأحيط علماً بالخطر الذي يهدد دولة الإسلام الإسمية بل ويهدد الإسلام نفسه، وقد بلغه هذا العلم بعد فوات الأوان، وكان السلطان عبد الحميد يقاوم بكل قواه ليمنع وقوع قدر محتوم وإرهاصات تاريخية وصلت إلى درجة المنتهى، والتقى الشريف حسين مع السلطان عبد الحميد وبثه الأخير شكواه، وأطلعه على الأخطار التي تتربص بدولة الإسلام، وعلى الحجم الحقيقي لحزب

الاتحاد والترقي، وكاشفه بأنه لا يأمن أن يقبض هذا الحزب المتغلب على مقاليد الدولة، وببساطة البدوي، ونخوة الهاشمي عرض الشريف على السلطان عبد الحميد المجيء إلى المدينة المنورة لتكون مقراً له ولعائلته وعاصمة له ينطلق منها، وسيكون أهل الحجاز والجزيرة جنده الذين لا يعصون. فتأثر عبد الحميد وبكى، وبين للشريف أنه إن فعل ذلك فإنه يسهل مهمة حزب الشيطان للقبض على مقاليد الأمور، لكنه سيمسك بالأمر ما استمسك، ويقومه ما استقام، وودع الشريف السلطان ولم تمض مدة طويلة حتى استصدر حزب الشيطان فتوى من شيخ الإسلام بعزل السلطان عبد الحميد.

الأحزاب العربية:

أدرك الشريف حسين أن دولة الإسلام في خطر، وأن الإسلام نفسه في خطر، وأن الخطر الحقيقي يكمن في حزب الاتحاد والترقي الذي قبض فعلياً على مقاليد الأمور في دولة الإسلام، وآمن أن المواجهة مع هؤلاء القابضين عملياً على مقاليد الأمور قدر محتوم لا مفر منه، وأن مواجهتهم واجب ديني تحتمه مصلحة الإسلام والأمة الإسلامية، ولكن إمكانياته لا تؤهله لمواجهتهم.

دول الغرب التي أنشأت سراً حزب تركيا الفتاة والاتحاد والترقي لغايات تفكيك دولة الإسلام من الداخل على علم بما يجول بخاطر الشريف وهي متيقنة من أن الشريف لا يدري عن علاقاتها الوثقى بالحزب المتغلب، ودول الغرب تدرك أن فرصتها الذهبية قد لاحت لتفكيك دولة الإسلام بأقل الخسائر الممكنة، ثم بعد عملية التفكيك تقتسم الغنيمة فيما بينهما ومن هنا مدت دول الغرب شباكها للشريف من جهتين:

١ ـ أحاطت الشريف بهالة من الاحترام والتقديس وأظهرته بأنه الأمل ودفعته ليتصدر الثورة ووعدته بكل الدعم والتأييد، وذلك حتى يقوم الشريف بالتصدي لمعنوية الخلافة العثمانية التي لم يبق منها إلا الاسم.

٢ ـ أصدرت أوامرها سراً للأحزاب العربية التي ارتبطت مع الغرب أصلاً بل وأسسها الغرب أصلاً تحت دعاوى إحياء التراث العربي ثم تحولت إلى أحزاب

سياسية مرتبطة تنظيمياً وتنظيرياً وإيديولوجياً مع الغرب، وأصدرت دول الغرب أوامرها لقيادات هذه الأحزاب العربية بالاتصال مع الشريف والقيام بدور الوسوسة والإعلان الكاذب أنها معه، وتصويرها على أساس أنها رسل العرب الذين جاؤوا لمبايعته واستصراخه لإنقاذ العرب.

إجتهاد الشريف:

لأنه صادق ولم يكذب، فقد تصور أن دول الغرب صادقة ولا تكذب عليه، وأن الأحزاب العربية صادقة ولا تخدعه، وقرر أنه طالما أن العرب معه وهم معدن الإسلام، وأنهم متحدون خلف قيادته فلا يرى ما يمنع من التحالف مع الغرب لتخليص دولة الإسلام من قبضة صبية الاتحاد والترقي الذين قبضوا بالفعل على مقاليد الأمور في دولة الإسلام، وطالما أن العرب معه فسيواجه الغرب بهم إن حاول أن يغدر به.

إعلان الثورة:

وأعلن الشريف ثورته الإسلامية بأصلها وحقيقتها، وشكل على عجل جيشاً وأسند قيادته لأولاده، وتمكن الحلفاء من تحطيم دولة الخلافة وتفكيكها وبقيت جمعية الاتحاد والترقي في حدود تركيا لتشكل دولة علمانية تقتدي بها دول الشرق وتنسج على منوالها بوصفها مركز الخلافة السابق، وبمجرد تحقيق ذلك تنكر الحلفاء لوعودهم، وتقاسموا الغنيمة فيما بينهم، وتراجعت الأحزاب العربية التي طالما وسوست للشريف وأقسمت له أغلظ الأيمان أنها معه، ولم تكتف بالتراجع إنما وقفت ضده وضد أولاده وزعمت أنها الأكثر ولاءً وإخلاصاً للأمة منه، وتمادى الغرب فأمد الوهابيين بالسلاح وحثهم على طرد الهاشميين من الحجاز نفسه وهكذا كان.

وأسقط بيد الشريف، واقتنع أنه وقع ضحية مؤامرة. واستقر الأمر بفيصل ملكاً على العراق الذي وضع تحت الانتداب البريطاني، وبمؤامرة قام بها عسكر العراق بالتعاون مع حزب البعث العربي قتل ملك العراق وأنهى الحكم الهاشمي هنالك.

واستقر الأمر بعبد الله بن الحسين أميراً على شرق الأردن تحت الانتداب البريطاني وبالرغم من تبعية الملك عبدالله الإجبارية لبريطانيا إلا أنه بلباقة وكفاءة عالية وقام بدوره وقدم أثمن النصائح لأمته.

فلسطين:

حسب المخطط كان من المقرر أن يعطي الغرب فلسطين كلها لليهود ولتسهيل عملية الابتلاع أعطاهم جزءاً كبيراً منها أولاً، وبدهاء الملك عبدالله ولباقته وحنكته وذكائه أدرك الحقيقة واستطاع أن يحيد بريطانيا وأن يجعلها تؤيد ضم الضفة الغربية المقرر أصلاً إعطاؤها لليهود، ولو لا الملك عبد الله وضمه لهذا الجزء لضاع على أثر النكبة الأولى ولتغيرت معالمه وضاع التاريخ والجغرافيا بل والأهم من ذلك أن الملك أدرك بثاقب بصيرته، أن الكفة لصالح اليهود، وأن الغرب مع اليهود، وأي حرب بين العرب واليهود في ظلال هذه الحالة الراهنة مصيرها الفشل، وأن المفاوضات هي وحدها القادرة على إزالة حالة التوتر وسحب مشد الاستعداد من اليهود فيرتخوا ويضيعوا مع الأيام وسط بحر من العرب، ولا بد أن يتحد العرب يوماً من الأيام وعندها لكل حادثة حديث، ولم يتوان الأمير عن طرح أفكاره، وعن التنبيه على خطورة أولئك الذين يبيعون أراضيهم لليهود.

وفوجىءالملك الشيخ بأحد أبناء فلسطين ينقض عليه يوم جمعة وهو داخل لأداء الصلاة في المسجد الأقصى، ويطلق عليه النار ويرديه قتيلاً بحجة أنه مع المفاوضات، وبحجة أنه إن فاوض فكأنه اعترف بالكيان اليهودي، وبشرعية احتلاله لفلسطين.

وآلت الأمور إلى ابنه المرحوم طلال، الذي لم يطل بقاؤه في الحكم بسبب المرض، حيث اعتلى العرش ابنه الشاب الملك حسين، ولقد راهن الكثير من الناس أن الملك الشاب سينحني أمام المصاعب، وستقتلعه العواصف التي ستهب عليه من كل جهة، ولكن فشل الذين راهنوا على ذلك واندفع الملك الفتى يبني أركان دولته ويحافظ عليها، حتى تحولت إلى ركن حقيقي يتعذر على أية قوة أن تتجاهلها ولقد استفاد من حب جده عبدالله له وحد به عليه وعنايته به ورعايته له

فجمع بين اندفاع الشباب وحكمة الشيوخ، وثبت أركان عرشه حقيقة بل والأهم من ذلك أن حبه والولاء له توغل في قلوب الأكثرية الساحقة من أبناء الأردن الأصليين ويبدو أن آراءه لا تختلف كثيراً عن آراء جده.

فلسطين والثوار:

استقرت خطوط الهدنة نهائياً، وجاءت ثورة ٢٣ يوليو عام ٩٥٢ واستطاع المرحوم جمال عبد الناصر أن يستخف الهوى العربي، فتفتحت أبواب الأحلام، ونشأ ما يمكن أن نسميه بالحلم العربي، وكان الفلسطينيون قد انقسموا إلى فرقتين:

١ ـ فرقة مؤمنة صادقة محتسبة تشبثت بالأرض المباركة وانغرست بها فلا قوة في الدنيا تخرجها منها هؤلاء هم المؤمنون حقاً.

٢ ـ وفرقة تركت فلسطين واندفعت وراء ما نسميه بالحلم والجاه والثروة وبشكل أقل نضارة بالعودة إلى فلسطين عودة الفاتحين.

فلسطين والأردن:

الفلسطينيون الذين تركوا أرضهم استقر بهم المقام في الأردن المتاخم لفلسطين، وبدون مقدمات صاروا مهاجرين، وصار الأردنيون أنصاراً، وقاسمهم الأردنيون رغيف العيش، وتكون الجيش الأردني وأكثر أفراده من الأردنيين فقاتلوا قتال الأبطال في صراع غير متكافىء، ورووا أرض فلسطين بدمائهم الزكية، وتركوا كل شيء لإخوانهم، والأردن راض ولا مطمع له إلا بدوام الأخوة واستمرار الشراكة تحت قيادة هاشمية يرضى بها الجميع.

تحرير فلسطين:

تجمع المثقفون من النازحين الفلسطينيين بتجمعات سياسية همها الأول والأخير تحقيق الحلم بالوصول إلى السلطة في الأردن، ومن الطبيعي أن تخفي هذه التجمعات هدفها الحقيقي وهو الوصول إلى الحكم والانفراد به والقضاء على رمز وحدة الضفتين فأظهرت أنها تريد تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، واستطاعت

أن تحرك الأحداث وأن تجر العرب إلى حرب غير متكافئة فضاعت فلسطين كلها وسيناء والجولان وأجزاء من الأردن.

ثم ظهر ما سمي بالشخصية الفلسطينية، ووجدت منظمة التحرير للتعبير عن هذه الشخصية ولقيادة التحرير.

الهدف النهائي:

وأخيراً كشفت منظمة التحرير عن حقيقة أهدافها وأعلنت أنها على استعداد للصلح مع إسرائيل مقابل أن تتنازل لها إسرائيل عن الضفة الغربية التي كانت تحت حكم الأردن وبالمقابل فإن منظمة التحرير على استعداد للاعتراف بحدود إسرائيل وبوجودها، بل وإن المنظمة على استعداد لتحكم في ظلال إسرائيل «الحكم الذاتي».

فكأن الهدف الحقيقي والنهائي للثوار هو سلخ الضفة الغربية عن الأردن، وإبراز الشخصية الفلسطينية المستقلة ولو تحت ظل إسرائيل.

ويجدر بالذكر أن الأحزاب الدينية في الأردن ترفع شعار رفض المفاوضات والمناداة بتحرير كامل التراب الفلسطيني والسبب في ذلك يكمن أن منظمة التحرير منظمة علمانية ولا وجود للأحزاب الدينية فيها وبالتأكيد فإن الأحزاب الدينية ستتخلى عن هذا الشعار إذا ما ضمنت لنفسها وجوداً في منظمة التحرير يتلاءم مع حجم بعدها على الأرض، عندئذ يتبين للناس أن السلطة وحدها هي معبودة الأحزاب وغايتها.

الفصل الثاني

تحليل موضوعي للمفاوضات العربية الإسرائيلية

أ ـ الخروج من اللعبة السياسية:

بالمفهوم الديمقراطي الغربي الأصيل يقتصر دور الشعب سياسياً على انتخاب نوابه وممثليه فإذا مارس الشعب حقه بالانتخاب خرج تماماً من اللعبة السياسية وحرم عليه أن يتعاطى العمل السياسي ليترك المجال لنوابه وممثليه ليشتركوا باللعبة السياسية نيابة عنه، ولقد طبق هذا المبدأ بصرامة تامة حتى الجمهورية الخامسة في فرنسا حيث لطف وأخذت الشعوب تستفتي في بعض الأمور، ويكمن السبب في ذلك في مادية الفكر الديمقراطي وعلمانيته المفرطة ونظرته للفرد على أساس أنه في حقيقته عنصر من عناصر الإنتاج فمن هذه الناحية وحسب مرتكزات الفكر الديمقراطي الغربي لا علاقة لي كمواطن بأمور السياسة ومنها المفاوضات العربية الإسرائيلية.

ب ـ القناعات المتأصلة:

بالرغم من الانحرافات الهائلة في التاريخ السياسي الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ وحتى سقوط آخر سلاطين الدولة العثمانية إلا أن المسلم قد تربى عقائدياً على أساس أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة، وهي بمثابة الجسد الواحد ويشترك كل أعضائها بإنجاز العمل الواحد بالصورة المبسوطة في المنظومة الحقوقية الإسلامية، فعسير جداً على المسلم أن يتفرج بالفرح والترح

على السواء لأن الدين كله يقوم على النصيحة في كل شيء بما فيه المفاوضات العربية الإسرائيلية.

ج ـ وجوب النصيحة:

لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ولا يسقط هذا الوجوب إلا بأدائها فإذا أداها القادر عليها فقد قام بواجبه وإن تركها فهو المفرط بغض النظر عن قبولها أو رفضها، فلو قلت قبل سنة واحدة فقط، فاوضوا دولة إسرائيل لرميت بالخيانة والعمالة للاستعمار، ولو قلت الآن: توقفوا عن المفاوضات لما أصغى إليّ أحد ولرميت بالجنون وقصر النظر وابتغاء الفتنة، وكيفما يكون التقييم فإن علي حق النصيحة، لأنني عضو في هذه الأمة، وقطرة من دمها الزكي وشريك على الشيوع بأرضها الطاهرة ولا يملك أحد في الدنيا أن يمنعني من الانتفاع بحصتي التي ملكني الله إياها، ثم إني لست حجراً على رقعة الشطرنج يتحرك باتجاه واحد فقط، إن مال عنه أكل، وإن بقي في مكانه جمد، فالأمة فريق واحد هزيمتها هزيمة كل أفرادها وانتصارها انتصارهم، وهذا هو دافعي وهدفي من البحث.

القناعة ليست روجاً:

لقد خلق الله الإنسان ـ أي إنسان ـ وكرمه عندما علمه البيان، وخصه بالعقل الذي يميز به الصالح من الطالح والنافع من الضار ويلائم به بين الحال والمال، ويطور بواسطته واقعه إلى مستوى المثال، ثم أعطاه الحرية والسيادة على نفسه ومصيره، ليكوّن بنفسه قناعاته الواعية بحيث تسبق فكرته حركته، وتتحكم الفكرة بسير الحركة تماماً، توخياً للصواب، ومع أن الإنسان ـ أي إنسان ـ مزود فطرياً «برادار» لمعرفة المتناقضات كلها إلا أن الله تعالى لم يكله إلى نفسه طرفة عين إنما أخذ بيده ورعاه ولم تتوقف مشاريع الهداية الإلهية طوال أعصار التاريخ البشري وآخرها الإسلام الذي حوى ما مضى، وما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون بما فيه المفاوضات العربية الإسرائيلية ونتائج هذه المفاوضات، وغاية الإسلام أن يبني القناعة الإنسانية على أساس متين وبناء سليم لأن القناعة حصيلة فكرية وهي بأدواتها هبة إلهية، ضاربة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وهي صانعة التاريخ

ومحدثة مد الأفعال، فالقناعة ليست روجاً نضعه اليوم ونمسحه غداً، فثقيل على النفس - بغض النظر عن وجاهة أو عدم وجاهة هذا التثاقل - أن نرفض المفاوضات والصلح مع الإسرائيليين ٧٣ عاماً، وفجأة وبدون مقدمات نعلق كل آمالنا على تلك المفاوضات، فإذا كانت المفاوضات هي الطريقة المثلى فلماذا رفضناها بالإجماع طوال هذه المدة وسخرنا كل وسائل إعلامنا لإثبات صواب منهجنا بالرفض؟ إن هذا التساؤل يلقي ظلالاً كثيفة من الشك على منهجية طريقتنا بالتفكير وأسلوبنا بمواجهة الأمور، ومن هنا يلوح قبولنا بمبدأ المفاوضات ومبدأ الصلح بمثابة انقلاب فكري ومنهجي لا ينبغي أن يمر دون تحليل.

معنى المفاوضات لغة:

المفاوضة في أمر تعني المشاركة والمجاورة والمذاكرة والمحادثة فيه، والمفاوضة لغة لا تعني بالنتائج إنما ينصب معناها على مجرد المشاركة في مجلس والمجاورة في مقعد والمذاكرة في الشيء والمحادثة فيه. وهذا موضوع على جانب كبير من الأهمية حتى لا نحمل المفاوضات الإسرائيلية العربية فوق ما تحتمل فنتصور أن مجرد التفاوض يعني لغة حل الخلاف والوصول إلى حد الكفاف بالتفاهم.

معنى المفاوضات اصطلاحاً:

المفاوضات اصطلاحاً وسيلة من وسائل حل مشكلة وهي عبارة عن مذاكرة ومحادثة بين كيان سياسي وكيان سياسي آخر أو بين كيانات سياسية وكيانات سياسية أخرى لبحث مشكلة ما ومحاولة إيجاد حل لها بالتفاهم على ضوء قواعد حقوقية تعترف الأطراف المتفاوضة بشرعيتها وتقر لها بصفة الإلزام.

دواعي المفاوضة:

وجود مشكلة مستعصية، وإبقاؤها دون حل يؤدي لضياع حقوق أحد طرفي المفاوضة ويعكر صفو العلاقات بينهما ويمنع التعاون المثمر وقد يؤدي إلى العداوة والبغضاء والحرب مع ما تجره العداوة والبغضاء ومن آثار مدمرة على العلاقات بين

طرفي المفاوضة خاصة وتعكير أمن الجنس البشري عامة، ومن هنا تبرز المفاوضة شكلاً على الأقل كأسلوب متقدم وحضاري لتطويق المشكلة ومحاولة حلها بالتفاهم بالوسائل السلمية لمنع دورة العنف بين طرفي المفاوضة.

وسائل حل المشكلة:

أي مشكلة على الإطلاق لا بد لها من حل، لأنها إن لم تحل ستبقى قنبلة موقوتة لا تدري الجماعة البشرية متى تنفجر مع ما يجره هذا الانفجار من آثار مدمرة أو مؤذية للذوق العام على الأقل، وقد عرفت البشرية طوال تاريخها الطويل أربع طرائق لحل المشاكل:

١ ـ بالتراضي وتدخل المفاوضات ضمن هذه الطريقة لأن المفاوضات قد تؤدي إلى الحل بالتراضي.

٢ ـ التسكين أو التخدير وذلك يترك المشكلة دون حل مع الاعتراف بضرورة حلها ومع هذا تركها ساكنة أو مخدرة وهو ما عبر عنه العرب بحالة اللاسلم واللاحرب.

٣ ـ التقاضي ويتمثل بلجوء الطرفين إلى طرف ثالث ليضعا المشكلة بين يديه، ويقدم كل طرف حجته وبينته ثم يحكم الطرف الثالث بما يراه على ضوء قواعد حقوقية يعترف الطرفان بشرعيتها ويقران لها بقوة الإلزام.

٤ ـ فإذا فشلت الطرائق الثلاثة السابقة لا يبقى أمام صاحب الحق إلا طريقين:

١ ـ أن يسلم بضياع حقه وأن ينساه تماماً.

٢ ـ أو أن يلجأ إلى القوة والحرب كحل نهائي لا مفر منه، ويجب التأكيد على أن الحرب ليست لعبة إنما هي حسابات دقيقة ومعادلات متكاملة يتوجب على صانع القرار في الكيان السياسي المعني أن يفكر ٧٠ ألف مرة قبل أن يقدم عليه، لأن النار إن اشتعلت في الهشيم وفي مهب الريح يصعب إطفاؤها، ولأن الإنسان ـ أي إنسان ـ لم يخلق للقتل إنما خلق للحياة وإثرائها.

شرعية مبدأ المفاوضات:

المفاوضات مبدأ معروف على المستوى البشري، وقد لجأت إليه أكثر الكيانات السياسية عبر التاريخ البشري، ولأنه وسيلة من وسائل تجنب الحرب وحقن الدماء سلمت به البشرية كوسيلة من وسائل حل المشاكل بين الكيانات السياسية واعتبرته بمثابة عرف دستوري متاح أمام الراغبين بتطبيقه.

المفاوضات لدى العرب:

عرف العرب قبل الإسلام مبدأ المفاوضات وطبقوه فقد كانت مكة المكرمة هي نقطة ارتكاز العرب طوال تاريخهم وبوسيلة المفاوضات التي جرت بين كيانات سياسية مستقلة «قبائل مكة وبطونها» تم التوصل إلى صيغة الحكم الذي كان سائداً في مكة عند ظهور النبي، فقد اقتسمت الكيانات السياسية التي كانت قائمة في مكة مناصب الشرف من قيادة ورفادة وسقاية وسفارة. . . إلخ وحلف الفضول المعروف تاريخياً تم عقده نتيجة مفاوضات بين زعماء كيانات سياسية، إقامة دولة المناذرة وتتبيعها للأكاسرة ثم نتيجة مفاوضات، وكيان الغساسنة وتتبيعه للرومان تم نتيجة مفاوضات.

المفاوضات في الإسلام:

الإسلام دين السلام، وهو بطبيعته قائم على القناعة والاقتناع وينادي بإقامة القناعة على أساس متين وبناء سليم، فمن الطبيعي أن يقر مبدأ المفاوضة المشرفة كوسيلة من الوسائل التي يتجنب بها الحرب وسفك الدماء فالمحادثات التي جرت بين وفد زعامة الشرك في مكة من جهة وبين الرسول وأبي طالب من جهة أخرى هي مفاوضات حقيقية جرت بين كيانات سياسية، وعندما فشلت هذه المفاوضات وكأثر لذلك تمت مقاطعة المشركين لبني هاشم وبني المطلب وتم حصرهم في شعاب أبي طالب. وتمت الهجرة النبوية مع ما استتبعها من تحولات. والمحادثات التي جرت في منطقة الحديبية بين ممثلي زعامة الشرك في مكة وبين النبي وأصحابه هي

مفاوضات سياسية بما للكلمة من معنى وقد نجحت هذه المفاوضات في أمور كثيرة حتى اعتبرت فتحاً.

والمحادثات التي جرت بين النبي والمسلمين من جهة وبين الكيانات التي كانت قائمة في يثرب عند الهجرة النبوية هي مفاوضات سياسية أسفرت عن إيجاد الدستور النبوي وتحديد مرجعية التقاضي والحكم بالرسول ﷺ ويجدر بالذكر أن بعض هذه الكيانات كانوا من يهود بني قريظة، وبني النضير. . .إلخ، وكان هذا الدستور أول محاولة بشرية لتعايش كل الأديان والمعتقدات ضمن إطار سلطة واحدة بطريقة التعاقد والتراضي وثمرة من ثمرات التفاوض والمثير للانتباه أن اليهود هم الذين خربوا هذا المشروع ونقضوه.

أطراف المفاوضة:

قد تجري المفاوضة بين كيان سياسي وآخر أو بين كيانات سياسية وأخرى تعتنق عقيدة سياسية واحدة كالمفاوضات التي جرت بين دول المعسكر الشيوعي سابقاً وأسفرت عن حلف وارسو، فهذه الدول كلها تدين بالماركسية. ومثلها المفاوضات التي جرت بين دول المعسكر الغربي وأسفرت عن حلف الأطلسي، فكل دول الحلف تدين بالتحررية الرأسمالية.

وقد تجري المفاوضات بين كيانات سياسية تنتمي إلى عقائد مختلفة كالمفاوضات التي جرت بين دولة النبي ﷺ وبين كيان المشركين في مكة، فالنبي يؤمن بعقيدة الإسلام والمشركون يدينون بعقيدة الشرك، ومثل هذه المفاوضات تلك التي جرت بين الولايات المتحدة الأمريكية التي تدين بالعقيدة التحررية الرأسمالية وبين الاتحاد السوفياتي التي تدين بالماركسية الشيوعية.

التوغل برفق وبدون إثارة:

بعد أن استكملنا الدراسة التمهيدية للمفاوضات العربية الإسرائيلية سنتوغل برفق وبدون إثارة وبالأسلوب العلمي المجرد لدراسة المشكلة المستعصية التي ينوي المتفاوضون العرب والإسرائيليون حلها عن طريق المفاوضات وهو ما

اصطلح على تسميته بالقضية الفلسطينية، وسنكشف وبغير ادعاء ولأول مرة أن ما حدث لفلسطين كان معروفاً تماماً قبل أن يهاجر النبي إلى المدينة لمنورة وقبل أن تنشأ دولة الإسلام، وأن موضوع المفاوضات ونتائجها تماماً تحت السيطرة الإسلامية ومن مضامين العلم اليقيني الإسلامي، وهذا ما سأعالجه في الحلقات القادمة إن شاء الله والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثالث

تحليل موضوعي للمفاوضات العربية الإسرائيلية

أطراف المفاوضات ونواياها المعلنة:

في الحلقة السابقة بدأنا بحثاً وتحليلاً موضوعياً مجداً لحادث المفاوضات العربية الإسرائيلية. وهذا البحث ينصب بكليته على استجلاء حقيقة الحال كما هي باعتبارها المقدمة، وينصب أيضاً على الاستحضار التصوري الذهني لحادثات التاريخ، ومفاصل الأديان السماوية، وخلاصات الفكر السياسي البشري، وطمعاً باستقراء نتائج أو مآل هذه المفاوضات على اعتبار أنها ثمرة لتلك المقدمة، لا لشيء إلا طمعاً بالوقوف على الحقيقة المجردة لأنها بحد ذاتها بغية ومطلب، ولأن الفكرة بطبيعتها حاكمة للحركة وسابقة لها في التكوين والوجود. وضمن هذا التصور تناولت في الحلقة الأولى الإطار العام لفكرة أو مبدأ المفاوضات، من خلال بحث معناها اللغوي والاصطلاحي واستعراضها في الدين والتاريخ والعرف. . إلخ ويقيني أنني قد غطيت هذا الإطار العام، ولا مناص لنا بعد ذلك من تغطية خصوصية المفاوضات العربية الإسرائيلية، بنفس الموضوعية والتجرد، وهي مهمة ليست بيسيرة إنما هي شبيهة بالسير في حقل من الألغام، فكلمة واحدة قد تجر لي سخط معارضيها، وأخرى قد تصب عليّ جام غضب مؤيديها. عاجلاً أم آجلاً سيكتشف الفريقان أنني باحث عن الحقيقة فقط، وأن هذه المفاوضات ما شغفتني حباً، وما زرعت في قلبي حقداً، لأنني مؤمن أنها فصل في كتاب، ومساق من طريق، ونتيجة حتمية لمقدمة وأن الله غالب على أمره.

المفاوضات العربية الإسرائيلية: فصل في كتاب ومساق في طريق:

١ ـ أطراف المفاوضات العربية الإسرائيلية:

يمكنك القول إن هذه المفاوضات تجري بين الفلسطينيين والدول العربية من جهة وبين دولة إسرائيل من جهة أخرى تحت إشراف طرف ثالث محايد وهو الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي. وتفصيلاً يشترك بهذه المفاوضات ثلاث أطراف:

١ ـ **الطرف الأول**: الدولتان الأعظم وتعملان معاً كفريق واحد مهمته الرعاية والتشجيع والتوجيه والمساعدة على تخطي العقبات.

٢ ـ **الطرف الثاني**: الفريق الإسرائيلي ويمثل دولة إسرائيل ومن ورائها يهود العالم.

٣ ـ **الطرف الثالث**: الفريق العربي ويتألف من ثلاثة مجموعات:

أ ـ فريق فلسطيني ضمن الوفد الأردني: يمثل سكان المناطق المحتلة عام ١٩٧٣ (الضفة والقطاع) الوفد الفلسطيني وهو وحده المخول رسمياً بالدفاع عن فلسطين وهو الناطق الرسمي باسمها.

ب ـ فرقاء عرب يمثلون الدول العربية المحتلة أجزاء من أراضيها سوريا والأردن.

ج ـ فرقاء عرب يمثلون دولاً عربية ليست لها أراض محتلة وإنما جاءت إلى المؤتمر كمراقبة كمصر، أو كالسعودية، أو فزعة، وتعبيراً عن حبها للسلام وتطلعها للتعاون كالدول العربية الأخرى.

٢ ـ موضوع المفاوضات العربية الإسرائيلية:

تنصب هذه المفاوضات على أربعة محاور أو قضايا متداخلة ومتشابكة يتعذر الفصل بينها حسب رأي أطراف هذه المفاوضات:

١ ـ **المحور الأول**: الأرض التي بارك الله حولها (فلسطين) سواء ما احتل قبل عام

١٩٦٧ وعام ١٩٦٧ وهي محور اهتمام كل الأطراف.

٢ ـ **المحور الثاني**: الأجزاء التي احتلت من سوريا ـ الجولان ومن الأردن مساحات تابعة للأردن قبل وحدة الضفتين، وهي محور آخر لاهتمام سوريا والأردن.

٣ ـ **المحور الثالث**: إقامة السلام بين الدولة العربية ودولة إسرائيل بحيث تكون العلاقات طبيعية تماماً وهذا هو محور الاهتمام الإسرائيلي.

٤ ـ **المحور الرابع**: التعاون بين دول المنطقة (دولة إسرائيل والدول العربية وتركيا . . .إلخ في قضايا الأمن والمياه والبيئة والتجارة ومقاومة التطرف. . .إلخ وهو محور اهتمام إسرائيل والدول العربية.

٣ ـ النوايا المعلنة لأطراف المفاوضات العربية الإسرائيلية:

قبل أن تجلس الأطراف على مائدة المفاوضات أعلنت نواياها وبكل وضوح وهذه النوايا معروفة للعامة والخاصة على السواء وموقف كل طرف معروف تماماً من قبل الطرف الآخر، ولنكون على بينة منا لأمر سنستعرض النوايا المعلنة لكل طرف من هذه الأطراف الثلاثة المشاركة بالمفاوضات العربية الإسرائيلية.

أ ـ النوايا المعلنة للقيادة الفلسطينية:

لسهل الوقوف على الحقيقة المجردة فإن القيادة الفلسطينية تقسم رسمياً فلسطين إلى قسمين:

١ ـ القسم المحتل قبل عام ١٩٦٧.

٢ ـ القسم المحتل عام١٩٦٧.

١ ـ فيما يتعلق بالمناطق المحتلة من فلسطين قبل عام ١٩٦٧ فغاية ما تتمناه القيادة الفلسطينية، وغاية ما يتمناه الوفد الفلسطيني المفاوض هو أن يتمكن من إقناع إسرائيل بالسماح لأهل هذه المناطق بالعودة إليها والعيش في ظلال الدولة الإسرائيلية كمواطنين فيها أو التعويض على أولئك الذين لا يرغبون في العودة إلى تلك المناطق.

٢ ـ المناطق المحتلة من فلسطين عام ١٩٦٧ (الضفة والقطاع) فغاية ما تتمناه القيادة الفلسطينية ووفدها المفاوض هو التمكين من إقناع إسرائيل بالانسحاب من هذه المناطق والسماح بإقامة دولة فلسطينية فيها، ولا مانع من إجراء تعديلات على الحدود، ولا مانع من إقامة الدولة الفلسطينية على مراحل، ولا مانع من بقاء المستوطنين اليهود كمواطنين في الدولة الفلسطينية المرتقبة، والتي ستكون عاصمتها القدس الشريف، والجاهزة بعد ذلك فوراً للتوقيع على معاهدة سلام مع دولة إسرائيل، ويمكنك القول باختصار إن إقامة الدولة الفلسطينية هاجس وهدف بحد ذاته تنصب كافة جهود هذه القيادة على تحقيقه، وهي لا تتوقف عن الإعلان بأن هذه الدولة المرتقبة ستكون لها علاقات مميزة مع المملكة الأردنية الهاشمية.

ب ـ النوايا المعلنة لسوريا والأردن:

يتفق البلدان بالموافقة على الحل الذي يرتضيه الشعب الفلسطيني وقيادته الشرعية والمتفق مع قرارات الأمم المتحدة، وفوق ذلك لا بد من انسحاب إسرائيل من أراضي البلدين المحتلة عام ١٩٦٧، وبعد ذلك تكون أبواب السلام والتعاون قد فتحت تماماً.

ج ـ النوايا المعلنة لبقية الدول العربية:

مصر واقعياً خارجة من الإطار وتقيم علاقات طبيعية مع إسرائيل وبقية الدول العربية الأخرى تبارك ما يرتضيه الفلسطينيون والأردنيون وهي جاهزة للسلام والتعاون بعد ذلك.

د ـ النوايا المعلنة لدولة إسرائيل:

يعتقد حكام إسرائيل ـ سواء أكانوا أعضاء في الحكومة الحاكمة أو حكومة الظل أن فلسطين كلها وبحدودها الراهنة هي أرض إسرائيلية عادت لأهلها، وهي مقدسة لا يجوز التنازل عن شبر واحد منها أو التفريط في ذرة واحدة من ترابها وهم لا يجاملون بهذا الاعتقاد ولا يمزحون إنما يعلنون نواياهم بكل وضوح وبكافة

وسائل الإعلام وفي السر والعلن. ولكن ـ القول لهم ـ ولأن أعداداً كبيرة من العرب تقطن في يهودا والسامرة فلا مانع من إعطائهم حكماً ذاتياً ضمن دولة إسرائيل يتولون إدارة أنفسهم ضمن نظام كنظام البلديات، أما ما يتعلق بالقدس الشريف ـ قبلة المسلمين الأولى ومسرى نبيهم ـ فهي عاصمة أبدية لإسرائيل، وضمن هذه الأطر والمرتكزات فإن قلب إسرائيل مفتوح على مصراعيه لإقامة السلام والتعاون بينها وبين دول المنطقة وخاصة الدول العربية.

هـ ـ النوايا المعلنة للدولتين الأعظم:

الدولتان الأعظم تعملان معاً كفريق واحد، مع هيمنة ظاهرة للولايات المتحدة، ويعتقد هذا الفريق أن قراري مجلس الأمن ٢٤٢، ٣٣٨ يصلحان كأساس لسلام عادل وشامل، وهما يعتقدان أن حل مشاكل الشرق الأوسط تساعد على ترسيخ جو الانفراج العالمي، وبالتالي تحقيق السلام العالمي وتهيئة الظروف لميلاد نظام عالمي جديد. ومع هذا فهما يعتقدان أن السلام لا يمكن أن يفرض بالقوة إنما ينبغي أن يكون ثمرة رضى ومفاوضة وتفاهم وقناعة أطرافه.

٤ ـ استخلاص وتساؤل:

رب قائل إنه من خلال استعراضنا للنوايا المعلنة لأطراف المفاوضات العربية الإسرائيلية يبدو واضحاً أن العرب وحدهم هم الذين يريدون السلام، ومن أجل تحقيقه آمنوا بأن سلام العصر في جوهره أخذ وعطاء. وهم قد جهزوا أنفسهم للأخذ وللعطاء معاً.

ويبدو واضحاً أن إسرائيل لا تريد السلام، لأنها تريد أن تأخذ كل شيء وتأبى أن تعطي أي شيء ذا قيمة.

ويبدو واضحاً أن الطرف الوسيط له حدود لا يستطيع أن يتجاوزها فإذا كانت النوايا المعلنة لأطراف المفاوضات العربية الإسرائيلية صحيحة وحقيقية فإن تحقيق السلام مستحيل، وإن المفاوضات العربية الإسرائيلية عبث لا طائل تحته.

جواب المؤيدين على التساؤل:

إن النوايا المعلنة لدولة إسرائيل هي للاستهلاك المحلي ولغايات تحقيق مكاسب انتخابية ضمن إطار الصراع الحزبي داخل إسرائيل، ومن جهة فإن إسرائيل تعيش على فتات المساعدات الأمريكية، تدوم بداومها وتزول بزوالها، وإن الولايات المتحدة جادة في تحقيق السلام وفريقها حيادي ونزيه تماماً على حد تعبير السيد ياسر عرفات، ثم إن أوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي إلى جانبنا كل هذا سيشكل ضغطاً سياسياً واقتصادياً هائلاً على إسرائيل سيجبرها عاجلاً أم آجلاً على تغيير موقفها أو تلبيته إلى الحد الذي يحقق السلام، ويضيف هؤلاء المؤيدون بأننا قد جربنا الحرب ٧٠ سنة بكل المعاناة وعجزنا عن تحقيق ما نريد فلماذا لا نجرب المفاوضات بضع سنين، والمفاوضات معركة ومن مقومات انتصارنا فيها وحدة وتوحد الجبهات الداخلية خلف المفاوض العربي لتعزيز موقفه.

يقولون إنهم في سباق مع الزمن لأن إسرائيل من خلال حركة الاستيطان التي لم تتوقف ستغير معالم الأرض وتغير التاريخ والجغرافيا كما حدث للمناطق المحتلة قبل عام ٦٧ «اصطلاح تغيير التاريخ والجغرافيا استعمله الأستاذ محمد حسنين هيكل لتبرير قبول الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بمشروع روجرز والقرار٢٤٢ ويضيف هؤلاء المؤيدون: ثم إنها فرصة ذهبية لتكوين دولة فلسطينية برئاسة منظمة التحرير الفلسطينية لتكون عضواً جديداً في جامعة الدول العربية وتعبيراً قانونياً عن وجود الشعب الفلسطيني والذي تنكر إسرائيل وجوده وما يدريكم ـ والقول للمؤيدين ـ فقد يتحقق السلام مع ما يستتبع ذلك من إنماء الحياة والأحياء وطيّ صفحة مضمخة بالدم والدمع والألم. تلك هي حجة المؤيدين وبنفس الوقت هذا قراره صيغة النفاذ وهو إطار الشرعية والمشروعية الرسمية ومنطلق العمل السياسي على المدى المنظور.

٥ ـ من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين:

هنالك فارق بين من يرى بالمفاوضات وسيلة لحل الخلافات سلمياً وبالحوار

وبين المؤيدين المتطرفين اليوم للمفاوضات العربية الإسرائيلية، والذين سقنا فيضاً من وجهة نظرهم آنفاً.

المؤيدون المتطرفون للمفاوضات هم أنفسهم الذين عارضوا المفاوضات وعارضوا أي اتصال سياسي بين العرب وإسرائيل طوال فترة الصراع العربي الإسرائيلي ولغاية أقل من سنة. ومن فكر سابقاً بذلك نعتوه بالخيانة وأباحوا دمه حتى في الأشهر الحرم، والمسجد الحرام.

كان تحرير فلسطين من النهر إلى البحر مطلبهم، وعدم التنازل عن شبر واحد منها أو التفريط في ذرة واحدة من ترابها هو شعارهم كان مجرد الحديث عن الحلول السلمية كمقطع من مقاطع العملية السياسية فرق مشين في نظرهم يرقى إلى مستوى الجريمة التي لا ينبغي أن ينجو مقترفها من عقاب الجماهير، كانت البندقية والبندقية وحدها هي وسيلتهم الوحيدة بالتحرير، وأي نغم خارج عن سيمفونية البندقية هو مؤامرة على القضية يجب أن تبادر بالمنع والقمع... إلخ.

تلك قناعات نجحوا بترسيخها في النفوس رغبة ورهبة، ولم يأذنوا بتغييرها حتى بعد هزيمة العرب الساحقة في معركة الأيام الستة ١٩٦٧ وكان مؤتمر الخرطوم المعقود على آثارها تتويجاً لهذا النهج وأبرز دلالة على ذلك لاءاته الشهيرة... لاصلح... لا مفاوضات... ولا اعتراف... إلخ.

لقد حولوا ذلك إلى حمى يتعذر على أي كان أن يدنو منه فقد أعلن الراحل جمال عبد الناصر بتصريح صحفي وبالحرف «إن القرار٢٤٢ ومشروع روجرز يحتويان بعض العناصر الإيجابية ولكنها ليست كافية فجن جنون المؤيدين المتطرفين اليوم للمفاوضات ونعتوه بالخيانة والعمالة وعملوا مظاهرة صاخبة في عمان حملت صورته على هيئة حمار وأباحت دمه الحرام فقط من أجل هذا التصريح حتى أن المرحوم أحمد الشقيري قد أجبر على التنحي عن رئاسة منظمة التحرير بحجة أنه رجل سياسة ويخشون وقوعه بالأحابيل الأمريكية السلمية. وباختصار قد ركب الثوار أثناء وجودهم في المعارضة راحلة التطرف ورفعوا الشعارات المثيرة ونجحوا بالتشكيك بكل شيء بالعقائد وبالأهداف وبالوسائل

وبالحكام واستخفوا الشعوب وقامت حالة من الشك بين الحكام والشعوب وعجز الحكام عن إقناع شعوبهم بأن التطرف والشعارات هي مجرد راحلة للوصول إلى الحكم، أي حكم، وأن هناك مسافة كبيرة بين الشعارات وإمكانية تطبيقها وأن الثوار لو كانوا في موقع الحكم وفي ظل ذات الظروف ما فعلوا أكثر مما فعله الحكام لكن الشعوب انقادت لأحلامها وأمانيها وفلت الزمام من أيدي الحكام وانتقلوا إلى الدفاع ومهادنة الثوار وابتغوا مرضاة الرأي العام المتقلب الذي لا يدوم على حال.

وما يدرينا اليوم أن الذي سيعارضهم بتطرفهم نحو اليمين سينعت بالخيانة كما نعتوا المعارضين لهم عندما تطرفوا لأقصى اليسار.

لست أدري هل كانوا على صواب طوال ٧٠ عاماً فلم خرجوا منه اليوم؟ وإن كانوا على خطأ فلماذا حشروا أنفسهم وحشروا الناس معهم في حفرة ذلك الخطأ؟ ولولا أن يضيق بنا الحال، لرافقنا التطرف في مسيرته الصاخبة نحو الاعتدال يوماً بيوم ودعمنا ذلك بالوثائق التي يشيب منها الولدان، ولكنا نقول ما أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ونردد مع الإمام البليغ علي عليه السلام «لا رأي لمن لا يطاع».

٦ ـ جسد بلا رأس:

يقول المغفور له الملك عبد الله بن الحسين متفجعاً وبالحرف: «ونحن اليوم ـ أي الأمة العربية ـ كجسم بلا رأس، أو كجسم له رؤوس كثيرة فالجسم الذي لا رأس له حيران، لا يهتدي سبيلاً والجسم الذي له رؤوس كثيرة لا يدري أي رأس يتبع . . .» راجع مذكرات المغفور له ص٥٠ . بهذه الكلمات السهلة البسيطة يرسم هذا الملك الذكي صورة واقعنا العربي.

الفصل الرابع

تحليل موضوعي للمفاوضات العربية الإسرائيلية

طبيعة القضية الفلسطينية:

في الفصل الثاني غطيت بمشيئته تعالى بحث الإطار العام لفكرة أو مبدأ المفاوضات، وفي الفصل الثالث عرضت برفق وموضوعية خصوصية المفاوضات العربية الإسرائيلية من خلال بحث أطرافها، وموضوعها، والنوايا المعلنة للأطراف، وحجة المؤيدين المتطرفين للمفاوضات، وكيف ساروا من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين... إلخ، ووعدنا في أن نلقي ضوءاً كافياً على المحور الأساسي الذي تدور حوله المفاوضات وهو المشكلة الفلسطينية، والقصد من ذلك هو توضيح المشكلة كما هي في الحق والحقيقة، لا كما يتصورها المؤيدون المتطرفون للمفاوضات العربية الإسرائيلية، وتلك خدمة نقدمها للمتفاوضين ولعشاق الحقيقة المجردة معاً، أما عشاق الحقيقة فسيقبلونها لا محالة، وأما المتفاوضون فهم أحرار ولا سلطان لنا عليهم.

جوهر المشكلة الفلسطينية ديني ـ عقيدي وليس قومياً أو وطنياً أو مكانياً أو أقليمياً:

١ ـ أبعاد المشكلة الفلسطينية:

أ ـ الأبعاد الإسرائيلية:

من تابع كلمات وفود «مؤتمر السلام» أدرك بدون عناء أن فلسطين في نظر

الوفد الإسرائيلي مشكلة قائمة منذ أربعة آلاف عام ـ إذا اعتبرنا رئيس الوزراء الإسرائيلي مؤرخاً موثوقاً ـ وأن هذه المشكلة في نظر الوفد الإسرائيلي ذات أبعاد دينية، وتاريخية وروحية وعاطفية ووطنية وقومية كمكياج عصري لهذه الأبعاد مجتمعة. إنها مشكلة كل اليهود، فجسد اليهودي كان مرمياً في الغرب بينما كان قلبه طوال التاريخ يخفق في فلسطين، وروحه تجنح فوق رباها معاناة وشوقاً وحنيناً كما زعم ذلك رئيس الوزراء الإسرائيلي في كلمته أمام المؤتمر.

ب ـ أبعاد المشكلة الفلسطينية عند الفريق العربي:

كانت الجهود العربية عامة والفلسطينية خاصة منصبة بالدرجة الأولى والأخيرة على انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ وإقامة دولة فلسطينية في تلك المناطق ولو على مراحل لتكون التعبير القانوني لوجود الشعب الفلسطيني، فالبعد الزمني للمشكلة هو عام ١٩٦٧ أي ٢٤ سنة، يدعمه بعد وطني مفرط بالاستقلال ومتعال ـ وهو البعد الوطني الفلسطيني، بحيث إن هدف وتكتيك الوفد الفلسطيني المعلن هو تحقيق الانفصال والاستقلال نهائياً عن الوفد الأردني كما صرحت بذلك الناطقة الرسمية بلسان هذا الوفد ـ ربما لإثبات أن الفلسطينيين شعب متميز ومستقل عن غيره تماماً، مع أن هذا ثابت بدون إثبات. فالفرد نفسه متميز ومستقل عن غيره وبدون ضجة.

أما البعد الثالث الذي أبرزه العرب وعلى استحياء فهو البعد القومي بالمفهوم المعاصر للقومية وعمر البعد القومي على مستوى الشرق الأوسط كله لا يتجاوز ٧٣ عاماً. وعمره على مستوى العالم ١٧٦ عاماً ومع هذا فإن البعد القومي الذي لوح به الطرف العربي مقصور دوره على دعم ومساعدة وتأييد الوفد الفلسطيني ضمن الأطر التي يريدها هذا الوفد لا زيادة ولا نقصان.

٢ ـ استبعاد الأبعاد:

رئيس الوزراء الإسرائيلي يمثل يهود العالم، ويتباهى بأن المشكلة تتعلق بكل اليهود، واليهودية دين سماوي، وهو يتسلح بالتوراة والإنجيل ليسخّر البعد الديني لخدمة غايته وتقوية موقفه التفاوضي، ويتحدث بحرارة عن التاريخ الذي صنعته

الديانة اليهودية، ليميز وجوده، وليبرر مزاعمه، ثم يستعين بالفكرة الوطنية والفكرة القومية كمكياج عصري لكل أبعاده، الدينية والتاريخية والعاطفية والوطنية والقومية . . . إلخ ومقابل هذا كله يستبعد العرب كل الأبعاد الزمنية والروحية والتاريخية والعاطفية ويحشرون أنفسهم ضمن بعد وطني حديث، ضيق، وموغل بالتعالي، ومفرط بالاستقلال، وضمن بعد قومي يرضيه القليل، ولا يطمع بالكثير.

٣ ـ السر في استبعاد الأبعاد:

يكمن السر في استبعاد العرب للأبعاد الدينية والروحية والعاطفية والزمنية في العلمانية المفرطة، تلك العلمانية التي تعلمناها من الغرب وهي في جوهرها تقوم على استبعاد الدين وفصله عن الحياة عامة وعن الحياة السياسية خاصة وفصل الأخلاق عن القانون وقصر دور الدين على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربه، على اعتبار أن الدين حاجة غير علمية، ربما من هذا الباب استبعد العرب البعد الديني حتى لا يثيروا حفيظة الغرب والشرق وحتى يكسبوا تعاطف الجميع. وهذا إخلال بتكافؤ عناصر المفاوضة، وتأثير مخيف على نتائج هذه المفاوضات.

ويلوح لي أن مخاوف العرب أوهام، فلماذا لا يثير شامير الغرب عندما يتحدث عن الديانة اليهودية وعن ثمرات التاريخ اليهودي، ووحدة مطالب اليهود في العالم والحقوق التي أعطاها لهم رب اليهود؟ أليست هذه اصطلاحات دينية تتعارض تعارضاً كاملاً مع العلمانية التي يؤمن بها العرب؟ لماذا يباح لشامير بالتحدث عن البعد الديني والبعد التاريخي والبعد البشري المتمثل بيهود العالم، ونخجل من أن نتحدث بحرف واحد عن هذه الأبعاد، مع أن الأرض المباركة هي مشكلة مليار مسلم وليست كما يتوهمون مشكلة فلسطينية أو عربية فحسب.

٤ ـ قدم المشكلة الفلسطينية:

سورة الإسراء الواردة في القرآن الكريم توضح المقاطع الأساسية لصراعنا مع اليهود، وقد نزلت هذه السورة والنبي في مكة المكرمة، وبوقت اشتد فيه عنفوان ضغط العرب على النبي وعشيرته الهاشمية على اعتبار أن هذه العشيرة هي حاميته وهي السد المنيع الذي يحول بين العرب وبين قتله ﷺ ونزول هذه السورة بهذا

الوقت بالذات إيماءة عميقة الدلالة للعرب بأن الصراع مع النبي وعشيرته ومع الإسلام ليس قدرهم إنما القدر الحقيقي هو صراع الذين آمنوا مع اليهود، وإيماءة أخرى لا تقل عمقاً بأن الواقع المر مهما كان مظلماً لن يعيق حركة الحق ومجريات تاريخه.

٥ ـ ليست صدفة:

نزول سورة الإسراء بذلك الوقت بالذات ليس صدفة، وتجمع الأكثرية الساحقة من بني إسرائيل الموجودين في العالم آنذاك في يثرب وخيبر انتظاراً لقدوم النبي الموعود ليس صدفة، ثم نقض اليهود لهذه المعاهدة وخيانتهم لهذا التحالف ليس صدفة.

ثم حدوث المواجهة الكبرى الأولى بين النبي والمسلمين من جهة وبين كل التجمعات اليهودية الموجودة آنذاك من جهة أخرى ليس صدفة، إنما هي حلقات في مسلسل واحد وهو المواجهة الأولى.

٦ ـ من أسرار القدم:

سورة الإسراء بينت لنا قبل ١٤١٣سنة أن قدر المسلمين ـ كل المسلمين ـ أن يخوضوا غمار مواجهتين ضاربتين مع اليهود، وقدرهم أن ينتصروا في هاتين المواجهتين. والأطراف واحدة:

١ ـ طرف محق ومصلح ومتبع لشرع الله هو الطرف المسلم.

٢ ـ طرف مبطل ومفسد ومتبع للهوى وهو الطرف اليهودي.

٧ ـ المواجهة الأولى:

أما المواجهة الأولى فقد حدثت يوم تحرك جنود الله بقيادة النبي وجاست خلال ديار بني النضير، وبني قريضة وبني قينقاع ومن شايعهم، وأكملت جند الله مهمتها بقيادة علي يوم دك حصون خيبر حصناً بعد حصن، وحسمت المواجهة نهائياً لصالح الذين آمنوا يوم هزمت الأحزاب وهي أول تحالف عربي إسرائيلي

حقيقي ضد الإسلام، وانتهت أولاهما ﴿فإذا وعد أولاهما...﴾ (الإسراء: الآية٥).

٨ ـ المواجهة الثانية «الأخرى»:

فقد بينت لنا سورة الإسراء بأن اليهود سيتجمعون من كل بقاع الأرض في فلسطين «الأرض المباركة» وسترجح كفة المال وكفة البنين وكثرة النفير لصالحهم وستحدث المواجهة الأخرى وحتماً مقضياً بين نفس الفريقين:

الفريق المحق المتمسك بحبل الله والمصلح وهو الفريق المسلم والفريق الآخر هو المبطل المتمسك بأوهامه وهواه وهو الفريق اليهودي.

وقد بيّن لنا النبي الكريم ﷺ أن الفريق المؤمن سيكون شرق نهر الأردن، وأن الفريق المبطل سيكون غرب نهر الأردن، وقد وثق ذلك الأستاذ محمد يعقوب في بحثه المميز عن «فلسطين في القرآن والسنة» الذي نال به درجة الماجستير في العلوم السياسية.

٩ ـ مواساة وأسف:

الفقرات من ٤ـ٨ من هذا التحليل تتعارض تماماً مع العلمانية الغربية والعلماني أعقل من أن يقرأها حتى مجرد قراءة لأنها ثمرة فهم ديني وحاجة ليست علمية ويجب أن تعزل عزلاً تاماً عن الحياة السياسية وتلك حقائق مكرسة بالفكر العلماني وتقوم على أساسها كافة البنى الحقوقية في العقيدتين الرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية ولكنه من حقنا ، فكما اتسعت أسماع العالم بمعتقدات رئيس وزراء إسرائيل غير العلمانية، فإن من حقنا عليه أن يسمع معتقداتنا، غير العلمانية، بذات القضية.

فإذا صح فهمنا لهذا الاعتقاد فإن إسرائيل لن تنسحب من سنتميتر مربع واحد من الضفة الغربية، وإذا انسحبت ـ وهذا غير وارد ـ وفق المقاييس العلمانية ذاتها ـ وتكون كياناً سياسياً فعاجلاً أم آجلاً ستحتله إسرائيل وستقف نهائياً على الضفة

الغربية لنهر الأردن. لقد سمع العالم اعتقادات شامير ولم يعاتبه على اعتقاده، والعالم أعقل من أن يزن بميزانين.

١٠ ـ طبيعة المشكلة الفلسطينية:

قبل أن نبدأ عملية التحليل للوقوف على طبيعة المشكلة الفلسطينية لا بد من التفريق بين مصطلحين يراد من كل واحد منهما رديف خاص به وتلك أمور يجهلها المفاوض الفلسطيني جهلاً تاماً.

أ ـ اليهودية ورديفها اليهود:

المصطلح الأول: اليهودية ورديفها اليهود: فاليهودية دين سماوي تقاطيعه بارزة في كتاب الله التوراة الذي أنزله الله ألواحاً على موسى عليه السلام ويعرف معتنقو هذه الديانة السماوية باليهود، فقد يعتنقها عربي، أو فارسي، أو زنجي أو سكسوني أو إيطالي... إلخ. وبالتالي فإن اليهودية كدين باب يمكن أن يدخله أي راغب في الدخول بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو عرقه أو مصره.

ب ـ إسرائيل ويردفه الإسرائيليون:

المصطلح الثاني: إسرائيل ويردفه الإسرائيليون، وكلمة إسرائيل هي لقب للنبي يعقوب، ويعقوب هذا هو ابن النبي إسحاق، وإسحاق هو ابن النبي إبراهيم عليه السلام.

ج ـ أبناء عمومة:

والنبي إسحاق هو الجد الأول للنبي يعقوب «الإسرائيليين» والنبي إسماعيل هو الجد الأول لذؤابة العرب. وهذان الجدان هما ابنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومن هنا فليس كل يهودي من بني إسرائيل، فلا توجد صلة قربى بين يهودي أمريكي أو روسي، أو فرنسي، أو زنجي أو إيطالي... إلخ. وبين النبي يعقوب عليه السلام حتى يقال إنهم من بني إسرائيل والصلة التي تربطهم ببني إسرائيل هي صلة الدين أو أن شئت فقل صلة العقيدة، تماماً كالصلة التي تربط أقارب النبي

العربي بمن أسلم من غير العرب، إنها صلة أخوة الدين، وأخوة العقيدة.

د ـ ابتلاع الطعم:

الصهيونية العالمية تنعت كل معتنقي الديانة اليهودية بالإسرائيليين لتوحي بخبث أن كل معتنقي الديانة اليهودية هم من سلالة يعقوب بن إسحاق الذي سكن في فلسطين ودعا أهلها إلى الهدى، وآلت إلى ذريته السلطة والنفوذ بعد رحيلها من مصر في عهد الوليد بن مصعب فرعون مصر آنذاك. وبهذه الضربة الفنية تخلق قناعة لدى معتنقي الديانة اليهودية أنهم إخوة على مستوى الدم ومستوى العقيدة وتجذر تميزهم عن غيرهم.

١١ ـ المشكلة الفلسطينية ليست مشكلة قومية:

ليست مشكلة قومية بالمفهوم القومي الأصيل الذي اخترعه «مونتيلز» في فرنسا عام ١٨١٥. فالإسرائيليون الأقحاح على المستوى القومي هم أبناء عمومتنا فهم أولاد إسحاق ونحن أولاد إسماعيل حسب النظرية الألمانية التي آمن به حيل القوميين العرب ثم ارتد عنها واعتنق النظرية الفرنسية المرتكزة على الإرادة فمن هذه الناحية فإن المشكلة ليست مشكلة قومية، هذا إذا جارينا وسائل الإعلام العالمية ومنها العربية بإطلاقها، لفظ «المفاوضات العربية الإسرائيلية».

١٢ ـ وليست مشكلة وطنية:

بمعنى أن المشكلة لم تنشأ عن خلاف بين فرد وفرد أو عائلة وعائلة أو مجموعة بشرية ومجموعة أخرى يعيشون ضمن وطن واحد، ويخضعون لسلطة واحدة، حتى يقال إنها مشكلة وطنية، إنما نشأت نتيجة طرد مالكي هذا الوطن من وطنهم وإعطائه لأجنبي بالتغلب وبالقوة الغاشمة، والقوة قد تمكن من الحيازة ولكنها لا تصلح أن تكون سنداً للحق، فهي لا تصنع الحق، وشتان ما بين الحيازة والحق.

١٣ ـ وليست مشكلة إقليمية:

أي أن المشكلة الفلسطينية لم تنشأ بين سكان إقليميين متجاورين بسبب

تجاوز أحدهما على الحدود المتاخمة له، إنما ينصب الخلاف بجوهره إلى الوجود ذاته، بكل مقوماته، فالصهيونية العالمية وبمساعدة الدول الإستعمارية وبالقوة الغاشمة، اقتلعتنا من جذورنا ووجودنا ووضعت بدلاً منا وجوداً آخر على ذات الجذور.

١٤ ـ وليست مشكلة سكانية:

فهي ليست مشكلة بشر لا مسكن لهم، جاؤوا إلى الشرق طمعاً بسماحته وحسن ضيافته، فما كان اليهود ولا بأي وقت من الأوقات، مخلوقات معلقة بين السماء والأرض لا تجد مكاناً تستقر فوقه وتسكن فيه، إنما تركوا بلادهم وبيوتهم ومزارعهم ومقامهم الكريم في بلادهم وبالقوة الغاشمة وتأبط شراً، وبمساعدة أوليائهم طردونا من بيوتنا، وأبعدونا من مقامنا، لا لشيء إلا لأنهم مدعمون بالقوة ونحن ضعفاء، فقط لأنهم يهود ولأننا مسلمون. تلك هي الحقيقة فقد طال تجاهلنا لها بالرغم من مقولة اللورد اللنبي الشهيرة: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

١٥ ـ جوهر المشكلة الفلسطينية:

إنها مشكلة عقائدية، ومن كل الوجوه أو إن شئت فقل إنها مشكلة دينية أولاً وآخراً، لأن الزحف اليهودي هو زحف ديني، وأن مبررات الاحتلال اليهودي للأرض المباركة هي مبررات دينية، وأن التاريخ الذي يحتج به اليهودي، هو ثمرة تطبيق نظام سياسي ديني، ولأن الأرض المباركة هي بمحتواها ومعناها جزء من عقيدة الإسلام. فالقبلة التي يتوجه المسلمون صوبها هي صلب العقيدة، والمسجد الأقصى المبارك من حوله هو قبلة المسلمين الأولى وليس قبلة العرب وحدهم، كذلك فإن مسرى النبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى هو جزء من الإيمان إن أنكره المسلم فهو كافر وهذا المسرى موجود في المسجد الأقصى وبالتالي فهو جزء من العقيدة، والأرض المباركة تجسد صراع الأنبياء مع الكفر، كل الأنبياء، والإيمان بالأنبياء كلهم تماماً كالإيمان بخاتمهم محمد، وهذا الإيمان جزء من عقيدة كل المسلمين مع مشارق الأرض ومغاربها. . .إلخ، ورئيس الوزراء الإسرائيلي يجاهر بقناعاته الدينية تلك ـ ليقوى مركزه التفاوضي، مع أنه مبطل

ومزور للدين وللحقيقة وللتاريخ، فلماذا لا نجاهر بقناعاتنا الدينية وبتاريخنا، لأن الدين لا يفله إلا دين، وأن التاريخ لا يدحضه إلا تاريخ، ونحن نتحدث عن الدين لا نتحدث عن التعصب، فقد عاشت في ظلال الإسلام الصحيح كل الملل، وموررست كل المعتقدات، وعاشت وأصحابها بأمان وحرية وكرامة في نعيم ذمة الله وذمة رسوله، بحيث كان بوسع أي يهودي أن يقاضي النبي نفسه، وأن يأخذ حقه حتى من النبي نفسه، دون أن يتعرض لأي لوم أو تقريع، مع أن النبي هو رئيس دولة الإسلام.

الفصل الخامس

تحليل موضوعي للمفاوضات العربية الإسرائيلية

تكييف الأطراف المفاوضة للمشكلة:

١ ـ ربط الموضوع:

في الفصل الأول ـ وبغير ادعاء ـ غطيت بالبحث العلمي الموضوعي المفاوضات كفكرة أو كمبدأ إنساني عام. وفي الفصل الثاني عالجت خصوصية المفاوضات العربية الإسرائيلية حتى لاحت مميزة تماماً. أما في الفصل الثالث فقد استقرأت فيها ـ استقراءً علمياً ـ طبيعة المشكلات التي عقدت المفاوضات أصلاً تحت دعوى إيجاد الحلول المناسبة لها. ولاح واضحاً أن أم المشكلات كلها ومرضعتها هي مشكلة الأرض المباركة أو كما يسميها العالم ومنه العالم العربي بالمشكلة الفلسطينية أو مشكلة الشرق الأوسط. وتبين لي بوضوح من خلال الاستقراء الدقيق أن المشكلة الفلسطينية ليست مشكلة قومية، وليست مشكلة وطنية وليست مشكلة إقليمية، وليست مشكلة سكانية إنما هي مشكلة عقائدية من كل الوجوه، وبكافة المعايير المنهجية والموضوعية.

٢ ـ غضب وتهدئة:

سيثور العلمانيون العرب عامة، والعلمانيون الفلسطينيون خاصة على هذه «الليسات» ليست وليست... الخ ويتهمونني بتقزيم المشكلة، وتجريد طبيعتها من سلاحها الفتّاك وطابعها القومي والوطني والإقليمي والسكاني وحصر هذه الطبيعة فيما أسميه «بالمشكلة العقائدية». وأنا بدوري أحترم غضبهم، وأتسع بهم، وأخفض

جناحي لهم. وأقول لهم مداعباً، في وقت لا تحلو فيه الخفة: إن مسدس البرشوت سلاح فعّال حقيقة. ولكن استعماله للردّ على القصف المدفعي والصاروخي جنون. فإذا استعمل رئيس وزراء العقيدة لدحض حجتكم، فمن الجنون أن تقابلوا سلاحه العقائدي بالفن الشعبي. فالفن الشعبي سطر مشرق فيما تسمونه تراثاً لكنه ليس الند الملائم للعقيدة، ومن نافلة القول أن نذكركم أن القومية ليست عقيدة، ومثلها الوطنية، ومثلها الإقليمية، ومثلها السكانية، أنا أعلم أنكم تكابرون مكابرتي بعادة التدخين فأنا متيقن أن التدخين مدمر، ولكني لا أقوى على تركه لكثرة ممارستي لهذه العادة، وتلذذي الآثم بها.

٣ ـ حكم ترضونه:

يلوح لي أنكم مازلتم على إصراركم من أن المشكلة الفلسطينية هي مشكلة قومية ووطنية وإقليمية من كل الوجوه وليست مشكلة عقائدية كما هي في الحق والحقيقة. وفي حالة إصرار كل فريق على رأيه فلا بد من حكم يرضاه الفريقان ويقبلان سلفاً بحكمه. فإذا اقترحت عليكم أن يكون كتاب الله حكماً بيننا وبينكم، فلن تقبلوا، لأنّ العلمانية تعتبر الدين حاجة ليست علمانية ويجب أن يعزل عن الحياة تماماً ويوضع في مكان مقدس على حدّ تعبير (فرح أنطون) وهو واحد من روّاد العلمانية العربية. وأمام حرصي على مجاراتكم، وتوحيد جهدي مع جهودكم فإنني أقترح أن يحكم بيننا أولئك الذين اخترعوا مصطلحات القومية والوطنية والإقليمية والسكانية. فأنا أقبلهم حكماً وأقبل حكمهم لتحديد طبيعة المشكلة الفلسطينية، وإنها مشكلة عقائدية ومن كل الوجوه. وحاشا لكم أن لا تقبلوا بذلك فتتجردوا من قوميتكم ووطنيتكم... الخ وتنزعوا عنكم لباس تقوى هذه المفاهيم وتظهروا كعراة في عصر ما زلنا نمجد فيه قيمة الستر والحشمة.

٤ ـ ٧٠ مـرة:

باستقراء ما كتبه أولئك الذين اخترعوا مصطلحات ومفاهيم القومية والوطنية والإقليمية والسكانية، وما كتبه أولياؤهم من العرب تجدون أنهم لا يوافقونكم على ما ذهبتم إليه، وأنهم يجزمون مثلي ومثل رئيس الوزراء الإسرائيلي، ومثل كافة يهود العالم بأن المشكلة الفلسطينية هي مشكلة عقائدية، وأن صراعنا مع اليهود هو

صراع عقائدي ومن كل الوجوه. وأتحدى إخواننا العلمانيين العرب ٧٠ مرة ليرجعوا إلى ما كتبه أولئك المخترعون وأوليائهم من العرب، ليثبتوا عكس ذلك، ولينفوا ذلك ولو بكلمة واحدة.

٥ ـ رفـع الحـرج:

وإن كنتم في شك من يقيننا، وتسهيلاً لأمركم، وتشريفاً لنعمة الحوار الإنسانية، فإننا نرشدكم إلى مخترعي هذه المصطلحات وإلى أوليائهم من العرب الذين آمنوا بها، وكافحوا حتى عمموها وهم:

١ ـ مونتيلر. ٢ ـ جابينوا. ٣ ـ فيشر. ٤ ـ وليام غاي كار.. الخ.

أما العرب فهم:

١ ـ بطرس البستاني. ٢ ـ ناصيف اليازجي. ٣ ـ شبلي الشميل. ٤ ـ فرح أنطون. ٥ ـ إلياس حبالين. ٦ ـ قسطنطين زريق. ٧ ـ أنطون سعادة. ٨ ـ ميشيل عفلق. ٩ ـ جورج أنطونيوس. ١٠ ـ ساطع الحصري... الخ.

بل إنني على استعداد لأسمي لكم كتبهم وفي أي سنة صدرت، وأحدد لكم الصفحات التي عالجوا بها هذا الموضوع إن تلطفتم وأشعرتموني بحاجتكم لذلك.

٦ ـ الحـوار والجـدل:

عندما يتحول الحوار إلى جدل، يفقد وظيفته الحياتية، وعندما يجادل القوم بالباطل ليدحضوا به الحق، عندئذ يصبح الجدل نذر لعنة وعذاب. فقد قالت الأكثرية الساحقة من مجتمع نوح لهَ وهو يطرح الحقيقة أمامها ويحذرها من مغبة التمادي بالباطل ﴿**يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾ (هود: الآية ٣٢) ويجيبهم نوح مشفقاً: ﴿**إنما يأتيكم به الله... وما أنتم بمعجزين**﴾ (هود: الآية ٣٣).

وتكرر الموقف مع النبي شعيب، فقالت له الأكثرية: ﴿**يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز**﴾ (هود: الآية ٩١).

وعندما تتمادى الأكثرية بزعمها لامتلاك الحقيقة وتوقف الحوار أو تحولها إلى جدل فلا يبقى أمام القلة المعارضة والتي ترى الأمور من وجه آخر إلاّ أن تصبح متفجعة ومتوجعة ويقول كل فرد منهم كما قال النبي موسى: ﴿**رب إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم...**﴾ (المائدة: الآية ٢٥) وطالما أن الأمور لم تصل إلى هذا الحد ولن تصل بإذن الله، وطالما أن اللعبة الديمقراطية ترتكز بجوهرها على وجود فريقين: أكثرية تحكم وتتخذ القرار، وأقلية تعارض ضمن القانون فلا حرج من المعارضة ولا تثريب علينا إن خالفنا الأكثرية وقلنا إن المشكلة الفلسطينية هي مشكلة عقائدية من كل الوجوه بالرغم من أن الأكثرية لا ترى ما ترى فإذا زعمت الأكثرية أن قولنا غثاء وأن الحكمة والحقيقة يكمنان فيما تقوله الأكثرية فهنا تقع الكارثة وتهان الحقيقة وتتلاشى الديمقراطية ولعلّ هذا هو السرّ الذي أوحى لسيد البلاد بأن يصرّ على التأكيد في خطاب العرش على ما يلي وبالحرف: «والديمقراطية لا تعطي الحق لأي فئة بادعاء احتكار الحكمة والحقيقة».

٧ ـ نمطا التكييف ونمطا الحل:

كالنجوم كثرة مواقف واجتهادات وآراء العرب، وهي أجل وأكبر من أن تحصى، وستبقى مجرد مواقف واجتهادات وآراء في غياب المرجعية التي يعترف العرب جميعاً بأهليتها وشرعيتها ودورها في تقييم المواقف والاجتهادات والآراء وتوظيفها وتنفيذ الموقف والرأي والاجتهاد الأوحد والأنسب، ومع هذا فإننا لو قمنا بعملية خض وتجميع وتكثيف لهذه المواقف والآراء والاجتهادات لتمخضت تلك العملية عن نمطين أو أسلوبين لتكييف طبيعة المشكلة الفلسطينية، ولانبثق عن كل واحد منهما مشروع حل وهما:

١ ـ **النمط العلماني الغربي**: وينبثق عنه مشروع الحل العلماني.

٢ ـ **النمط الديني العقائدي**: وينبثق عنه مشروع الحل الديني العقائدي ولكل واحد من هذين الأسلوبين أو النمطين أنصاره ومؤيدوه، ويتربص كل فريق بالآخر، والعدوّ يتربص بالفريقين، وستبقى حالة التربص قائمة حتى يفصل الله بالحق وهو خير الفاصلين، وكلا الفريقين كما قال الشاعر وبتصرف:

هذا على الخسف معكوس برمته وذا يصيح فلا يصغي له أحد

٨ ـ موقف الحكم أو النظام العربي:

النظام أو الحكم العربي مغلوب على أمره، إن ترك الفريقين بدون سلطة أصبح بأسهما بينهما شديداً وأكل أحدهما الآخر وفي ذلك مفسدة كبرى، وإذا جاء بأسلوب ثالث عصاه الفريقان ولعناه وهدداه بالزوال، فالنظام أو الحكم العربي محكوم حكماً أن يتبنى رأي الفريق الغالب وأن يضرب على نفس الدف وبنفس الوقت يجامل الفريق المغلوب ويعده ويمنيه ويحميه من سطوة الغالب، الحكم العربي للجميع، لكن سمة الغالب هي التي تحدد حركته الفعلية مع إصراره على البقاء كشخص معنوي مستقل يمثل شعرة معاوية التي ترمز إلى وحدة الفريقين.

٩ ـ توضيح النمطين وعرض المشروعين:

النمط العلماني الغربي وينبثق عنه مشروع الحل العلماني: ولا مناص لنا من التأكيد بأن العلمانية فكرة غربية نشأت في أوروبا في أواخر القرن ١٨ واستوردناها مع كافة لوازمها وهي تدور شكلاً ومضموناً على ثلاثة محاور:

أ ـ فصل الدين ـ أي دين ـ عن الحياة عامة وعن السياسة خاصة وقصر دوره على العلاقة الشخصية جداً بين العبد وربّه.

ب ـ فصل الأخلاق عن القانون. على اعتبار أن الدين والأخلاق حاجات ليست علمانية كما يقولون.

ج ـ تحفل العلمانية بالعلم والمختبر والتجربة، وتأخذ الحقيقة المجردة من أي مصدر باستثناء الدين والأخلاق.

١٠ ـ التكييف العلماني للمشكلة الفلسطينية:

أصحاب هذا التكييف يرون أن المشكلة الفلسطينية هي مشكلة وطنية وإقليمية وسكانية وقومية تتعلق بفلسطين كوطن خاص بالفلسطينيين ضمن الوطن العربي الكبير، وتتعلق بالشعب الفلسطيني كشعب مميز ضمن الأسرة القومية العربية،

وتتعلق بالدولة الفلسطينية كتعبير قانوني عن وجود هذا الشعب أسوة بالشعوب العربية الأخرى.

وأنت تلاحظ أن كلمات: شعب ووطنية وقومية وإقليمية... الخ هي مصطلحات حديثة عمرها لا يتجاوز ٧٣ عاماً في الشرق الأوسط ولا يتجاوز عمر أكبرها على مستوى العلم ١٧٦ عاماً وهي مواليد شرعية للفكرة العلمانية الأوروبية، ولست أدري إذا كان أنصار هذا التكييف يعرفون ذلك.

١١ ـ مشروع الحل العلماني:

للحق والحقيقة فإنه ليس بذهن أنصار التكييف العلماني خطة مبرمجة ومفهومة لحل المشكلة الفلسطينية. فهم كالعلمانية يعتمدون على فكرة التجربة والمختبر، فقد يجربون حلاً بضع سنين ثم يكتشفون أنه غير صحيح ويجربون آخر... الخ.

١ ـ فقبل نكسة حزيران لاح للعلمانيين أن الحلّ يكمن بانفصال الضفة الغربية عن الأردن تتولى قيادة ثورية مسؤولية المواجهة مع إسرائيل.

٢ ـ وبعد النكسة قيل إن الحل يكمن في البندقية والبندقية وحدها من خلال الكفاح المسلّح، والثورة الشعبية.

٣ ـ ثم بدا أن الكفاح المسلّح يحتاج إلى واجهة سياسية لتقطف ثمرة لعلعة الرصاص وهكذا تسير البندقية والسياسة جنباً إلى جنب.

٤ ـ ثم اكتشفنا أن من ضرورات السياسة وجود شعب مميز له تمثيله الشرعي الخاص به على شاكلة حركة ديغول.

٥ ـ ثم اكتشف العلمانيون أنهم حملوا البندقية وهذا ما لا يحتمل وأنها للأسف عاجزة، وذخيرتها في طريقها إلى النفاذ.

٦ ـ ثم قامت انتفاضة مباركة من ضمائر الرجال الذين صمدوا فوق الأرض المباركة واستصرخوا... ثم اكتشف العلمانيون أنهم لا يقوون على القيام بدور المعتصم، فألقوا البندقية ويمموا شطر العدالة الدولية والقانون الدولي...

تطرف بالحل من أقصى أقاصي اليسار إلى أقصى أقاصي اليمين ولله عاقبة الأمور.

ونخلص إلى القول إلى أن مشروع الحل العلماني لم يقر على حال طوال النكبة الفلسطينية حتى الآن.

١٢ ـ العلمانية الفلسطينية الرسمية:

القيادة الفلسطينية بطبيعتها هي عبارة عن تحالف أحزاب وهي في غالبيتها أحزاب علمانية وهي تؤمن بالعلمانية منهجاً ووسيلة وهدفاً. وعندما كان السيد ياسر عرفات يطالب بتحرير كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر نادى بدولة علمانية يعيش في ظلالها اليهود والعرب كمواطنين متساويين في الحقوق في ظل نظام ديمقراطي وعلى مشاكلة الدولة اللبنانية ولم تتغير نظرته العلمانية حتى عندما عدل عن المطالبة بكامل فلسطين وقصر المطالبة على الضفة والقطاع، وتتجلى العلمانية القيادة الفلسطينية بوضوح باختيارها لأعضاء الوفد المفاوض ولمستشاريهم، ونخلص إلى القول بأن القيادة الفلسطينية تتبنى النمط العلماني بتكييف المشكلة الفلسطينية والمشروع العلماني لحلها.

١٣ ـ النمط العقائدي الديني ومشروع حله:

كما بحثنا النمط العلماني ومشروعه للحل نبحث النمط العقائدي الديني ومشروعه للحل بروح الحياد والموضوعية. وعلى حدّ تعبير حجة الإسلام أبي حامد الغزالي فإن خاصة الخاصة منّا هم الذين يعرفون معنى العقيدة لغة واصطلاحاً، وبغير ادعاء فقد وضحت حتى الواضحات من هذه الناحية في معرض سياقي بمواجهة تيار الأحزاب العربية ويمكن لمن أحب الوقوف على الحقيقة أن يراجع ما كتبته عن العقيدة ليسهل معرفة ما نعنيه بالنمط العقائدي.

١٤ ـ عقائدية المشكلة الفلسطينية من وجهة نظر اليهود:

من وجهة نظر اليهود سواء على صعيد الدولة اليهودية أو على صعيد معتنقي الديانة اليهودية فإن المشكلة الفلسطينية هي مشكلة عقائدية من كل الوجوه، وإنّ صراعهم معنا هو صراع عقائدي من كل الوجوه، وإن هذه المرحلة من الصراع هي فصل من كتاب كبير بدأت أول صفحة فيه يوم تجمع اليهود في يثرب وخيبر

لاستقبال النبي الموعود وما جرى بينه وبينهم بعد ذلك فصول من ذات الكتاب، ولتبيين الحقيقة من أيسر الطرق نذكر بالأغنية التي رددتها الجموع اليهودية يوم دخل «جيش الدفاع الإسرائيلي» مدينة القدس حيث رددوا بنشوة عارمة (حط المشمش عالتفاح، دين محمد ولى وراح، محمد مات، خلف بنات، يالثارات يثرب. . .) ونحن أعقل من أن ننكر ذلك.

١٥ ـ مظاهر النظرة اليهودية العقائدية للمشكلة:

١ ـ إصطلاح «اليهود» جاء من الديانة اليهودية والديانة اليهودية بمعناها النقي ديانة سماوية وهي عقيدة من كل الوجوه، كذلك فإن اصطلاح الإسرائيليين مشتق من كلمة إسرائيل «أي النبي يعقوب» وإسرائيل هذا هو المرجعية الأولى للعقيدة اليهودية.

٢ ـ إن الصلة بين يهود العالم مع بعضهم وبينهم وبين الدولة اليهودية ليست صلة قرابة ولا صلة دم إنما هي صلة عقائدية دينية بالدرجة الأولى والأخيرة فإن لم تكن كذلك فما علاقة يعقوب بالأمريكان والروس وأفريقيا. . . الخ.

٣ ـ إن التاريخ الذي يتغنى به اليهود هو تاريخ نظام سياسي ديني والنظام السياسي هو نظام عقائدي.

٤ ـ وهم يزعمون أن ربّ اليهود هو الذي ملكهم الأرض المباركة، وفكرة تمليكه لهم هي فكرة عقائدية دينية لا تقوى القومية على مواجهتها.

وفي الفصل القادم سننصف أصحاب النمط العقائدي الديني ونبسط وجهة نظرهم بنفس الموضوعية ونقدم مشروع حلهم، ولله الأمر أولاً وآخراً وأحمده تعالى وأصلي على النبي وآله.

الفصل السادس

تحليل موضوعي للمفاوضات العربية الإسرائيلية

النمط الديني لحل المشكلة الفلسطينية:

عالجت في الفصل الثاني المفاوضات كفكرة أو كمفهوم إنساني عام، وفي الفصل الثالث بحثت بدقة فائقة خصوصية المفاوضات العربية الإسرائيلية، أما في الفصل الرابع فقد استقرأت طبيعة أو جوهر المشكلة الفلسطينية على اعتبار أنها قطب الرحى في هذه المفاوضات وذلك من خلال:

١ ـ كلمات الوفود في مؤتمر السلام.
٢ ـ تصريحات الأطراف المشاركة.
٣ ـ الاستقراء الأمين للواقع.
٤ ـ الاستحضار النزيه لو دق التاريخ.
٥ ـ الآراء والأفكار والمواقف الرسمية والشعبية لأطراف المفاوضات.

وتبين أن طبيعة أو جوهر المشكلة الفلسطينية ومن وجهة النظر اليهودية محسومة ومكيفة أصلاً ونهائياً على أنها مشكلة عقائدية دينية ومن كل الوجوه وأنها قائمة منذ أربعة آلاف سنة، وقد استقر بعودة الحقوق إلى أصحابها حسب زعمهم، وأن الحل يكمن بقبول الأمر الواقع وإقامة السلام على هذا الأساس بين الدولة اليهودية والدول العربية ورعاياها، بحيث تكون العلاقات طبيعية جداً وفي الفصل الخامس تابعت عملية الاستقراء والتوضيح وانتقلت إلى الجانب العربي وذكرت أن آراء العرب ومواقفهم وأفكارهم في مجمل تكييف طبيعة المشكلة وإيجاد الحل

المناسب لها كالنجوم كثرة، وهي أكبر من أن تحصى في غياب المرجعية الواحدة، ومع ذلك ولغايات التبسيط والتوضيح فإن هذه الآراء والمواقف والأفكار العربية من حيث تكييف طبيعة المشكلة الفلسطينية وإيجاد الحل المناسب لها يمكن أن تحصر في نمطين أو عائلتين وهما:

١ ـ **النمط العلماني**: الذي يكيف طبيعة أو جوهر المشكلة الفلسطينية تكييفاً علمانياً، ويقدم مشروعاً علمانياً للحل مستوحى من الفكرة العلمانية القائمة على اعتماد التجربة والمختبر واستبعاد الدين وقد عالجت هذا النمط ووضحت حجة أنصاره ومؤيديه في الفصل السابق.

٢ ـ **النمط الديني أو العقائدي**: وهو الذي يكيف طبيعة أو جوهر المشكلة الفلسطينية تكييفاً دينياً أو عقائدياً، ويقدم مشروعاً للحل مستوحى من الدين والعقيدة ونحن بصدد بحث هذا النمط وبيان حجة مؤيديه وأنصاره.

مناقشة لأصحاب الرأي القائل بالحل العقائدي أو الديني لقضية فلسطين:

١ ـ حجة أنصار التكييف الديني أو العقائدي:

هم يقولون: إن الأرض المباركة (فلسطين) ترتبط ارتباطاً عضوياً بدين الإسلام، والاعتقاد بذلك جزء من الدين، ففيها قبلة المسلمين، وفيها مسرى نبيهم، وعليها درجت الأكثرية الساحقة من الأنبياء، وتكونت فيها سيرهم، والقبلة، والمسرى ومحبة الأنبياء والإيمان بهم تماماً كالإيمان بخاتمهم محمد ﷺ، وكل ذلك جزء لا يتجزأ من الدين، ثم إنها جزء من دار الإسلام، وحكمتها دولة الإسلام ١٤٠٠ عام بلا انقطاع، وروّاها المسلمون بدمائهم، وهنالك ارتباط عضوي حسب نظام الولاية الإسلامي بين المسلمين وبين دار الإسلام، والأرض المباركة كغيرها من أمصار الإسلام مملوكة على الشيوع لكل المسلمين، ومن المسلَّم به فقهاً بأن كل شريك على الشيوع هو شريك بكل ذرة من تراب الأرض الشائعة. وبالتالي هي موقوفة لمنفعة المسلمين ومخصصة إلهياً لهم جميعاً. وهي غير قابلة للقسمة بطبيعتها تماماً كالمسجد الحرام، فلا تملك أي قوة في الأرض أن تمنع المسلمين ـ كل المسلمين ـ من الانتفاع الشرعي به ولا تملك أية قوة أن تتنازل عنه أو عن

أجزاء منه لأجنبي ولا يملك أي شعب ذلك، وحتى ولو أجمع عليه، لأن فيه حق الله وحق الغير ومخصص لمنفعة الأمة الإسلامية. صحيح أن العرب مادة الإسلام ولكنهم حقوقياً شركاء على الشيوع في أرض الأمة الإسلامية كغيرهم من المسلمين ولا يشكلون أكثر من نسبة قليلة من كل المسلمين. وبالتالي هم لا يملكون بكل المعايير الحقوقية الصلاحيات المطلقة للتصرف بالأرض المباركة أو بأي جزء من بلاد الإسلام. والخلاصة فإن أنصار التكييف الديني يعتبرون المشكلة الفلسطينية مشكلة دينية وعقائدية من كل الوجوه.

٢ ـ مشروع الحل العقائدي:

هم يعتقدون أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، وأن هذه الوحدة أمر إلهي لا يقل أهمية وقداسة عن التوحيد وعن الصلاة، وأنها نعمة إلهية تستوجب الحمد والشكر لله ووسيلة ذلك تتمثل بالمحافظة عليه وبقائها. والتعبير الشرعي عن وجود الأمة الإسلامية ووحدتها يتمثل بإقامة دولة إسلامية تطبق شرع الله وتضم تحت جوانحها كافة المسلمين في العالم وتحمي بقوتها دار الإسلام. وتقوم بواجبها الشرعي المتمثل بإنقاذ العالم كله من الظلمات إلى النور ويستدلون على صحة رأيهم واقعياً بأن كل المحن والمصائب التي ابتلي بها المسلمون حدثت تماماً بعد انهيار دولة الإسلام، وأن اليهود حاولوا بكل السبل تحقيق حلمهم أثناء وجود الدولة الإسلامية إلا أنهم فشلوا واكتشفوا أن حلمهم بالأرض المباركة لن يتحقق إلا بعد تفكيك الدولة الإسلامية، ولأنه يتعذر تفكيك الدولة الإسلامية بحرب عملوا على تفكيكها من الداخل، ولتحقيق ذلك أنشأوا جمعية الاتحاد والترقي وجمعية تركيا بتمويل يهودي وتأسيس يهودي وتخطيط يهودي كما هو ثابت ونادت هاتان الجمعيتان بالقومية الطورانية وما زالت هذه الجمعية الموحدة تعمل حتى قبضت على كل الأمور، وجرد الخليفة من كل سلطاته كما سنوضح ذلك. وباختصار فإن مشروعهم بالحل يتمثل بتوحيد الأمة الإسلامية لتعبر عن هذه الأمة الواحدة وتطبق شرع الله. . . الخ.

٣ ـ أمة تقابل أمة ودولة تواجه دولة:

ويدعمون حلمهم بواقع اليهود فيقولون: إن الدولة الإسرائيلية هي التعبير

القانوني المعاصر عن وجود اليهود في العالم بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العرق. وتجميع اليهود في الأرض المباركة وعلى مراحل هي الغاية الكبرى لتلك الدولة وهجرة ثلاثة أرباع المليون يهودي من العالم العربي الإسرائيلي وهجرة الفلاشا والأحباش واليهود السوفيات شواهد على ذلك، وما يتبقى من اليهود في أصقاع الأرض له صفة وظيفية ترتبط طبيعتها أولاً وآخراً بالدولة اليهودية، والهدف أن تكون الدولة الإسرائيلية بالنتيجة هي الأم الرؤوم لكل معتنقي الديانة اليهودية والرمز لوجود هذه الديانة فتقر عين الدولة بأبنائها اليهود ومواليهم. وليعلم رب اليهود أن شعبه المختار هو أهل للثقة وأن الأمة اليهودية تحولت من الحلم إلى الواقع، وهم يقولون: إنه من يتتبع تصريحات بيغن وشامير وغلاة اليمين الإسرائيلي الحاكم يتيقن من حقيقة قولنا، واليسار الإسرائيلي المعارض لا يختلف مع اليمين بالغاية ولكنه يطالب بالترشيد حتى تتحقق تلك الغاية بأقل التكاليف ومن أقصر الطرق، وإن لم تصدقوا ذلك فتذكروا أن حرب الأيام الستة قادها اليسار الإسرائيلي ـ المعتدل الآن ـ وأن هذا اليسار هو الذي احتل ما احتل من أراضينا عام ١٩٦٧ «إن في ذلك لعبرة لأولي النهى».

ويخلصون إلى القول إن الأمة اليهودية اتحدت بالدين وبالدين وحده وعلى أساس الدين، وتكونت الدولة الإسرائيلية لتكون التعبير القانوني عن وجودها واليهود لا يستحون من ذلك ولا ينكرونه بل يصرحون به علناً وعلى رؤوس الأشهاد وبلسان رئيس وزرائهم ويتباهون بأن صراعهم معنا هو صراع عقائدي ديني.

على ضوء ذلك ما الذي يمنع من أن نفكر على الأقل مجرد تفكير بالأمة الإسلامية الواحدة والدولة الإسلامية التي تعبر عن وجوده هذه الأمة، فتتواجه الأمة مع الأمة، والدولة مع الدولة وبما أن الأمة الإسلامية هي الأكثر فإن اليهود سيتركون غلواءهم وقد لا تقع المواجهة.

٤ ـ الأحلام والحقائق:

الأمة اليهودية كانت مجرد حلم، والعالم الغربي الحديث هو عالم الأحلام كان على علم كامل بالحلم اليهودي، فحنى عليه ورباه وحباه، وهيأ له ظروف

الحياة بدافع من حقده على الإسلام والمسلمين وبدافع من عنصريته ومن ذكريات تاريخه الملطخ بالسواد ولو لم يكن في هذا التاريخ إلا الحروب الصليبية لكفاه إثماً وعهراً، وما زال هذا العالم الغربي يحتضن الحلم اليهودي، فقد كان الخصم طوال التاريخ ـ بالرغم من أنه قد انقلب بقدرة قادر إلى حكم ـ ويقيناً أنه لولا دعم العالم الغربي لبقي الحلم الإسرائيلي كما كان سابقاً في دائرة الأوهام.

٥ ـ حلم الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية:

أنصار النمط العقائدي الديني ومشروع الحل المنبثق عنه ينادون بوحدة الأمة الإسلامية وبإقامة الدولة الإسلامية على أساس ديني كرد على وحدة اليهود الدينية ودولتهم الدينية، فإذا توحدت الأمة الإسلامية وقامت دولتهم حلت المشكلة الفلسطينية آلياً، هكذا يتصوّرون، أما كيف تتحقق هذا الوحدة؟ وما هي خطتهم لتحقيقها؟ وكيف تقوم الدولة الإسلامية؟ ومن هو رئيسها؟ وكيف تنتقل هذه الرئاسة؟ بالغلبة «نحن مع من غلب»؟ بالنص الشرعي؟ كيف نتجنب الانحرافات الهائلة في التاريخ السياسي الإسلامي؟ كيف نواجه الواقع العلماني السائد على المستويات الوطنية والقومية والعالمية؟ كيف نفهم الإسلام؟ كيف نحول النص من عالم النظر إلى عالم التطبيق؟ كيف نفصل بين المطامع الشخصية بالحكم وبين التوجهات العقائدية؟ من هو المرجع الذي يضع خطة التحول الكبرى ممّا هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون ويتأكد من أن الخطوات في إطار الشرعية بحيث تكون الوسيلة شرعية والغاية شرعية أيضاً؟... الخ هذا الذي لا يعرفونه مع الاحترام يعملون بهدي صدق العاطفة ثم يفكرون فيما عملوا لغايات التبرير والإشادة تماماً كالعلمانيين تحكمهم فكرة التجربة والمختبر، والفكرة عندهم لاحقة للحركة ومبررة لها، مع أن الفكرة بطبيعتها سابقة للحركة وحاكمة لها ولله عاقبة الأمور.

٦ ـ الخلل بالمسلمين لا بالإسلام:

لو أن اليهود والنصارى وأتباع أي ملة في الأرض قد فهموا الإسلام ونظامه السياسي على حقيقته، لما اختاروا غيره ولقاتلوا قتالاً في سبيل تطبيقه ولكن كيف يفهمه اليهود والنصارى وأصحاب الملل الأخرى إذا كان دعاته لا يفهمونه؟ إنه

النظام الذي يعطي الحرية للجميع ويمنح العدل للجميع ويحقق المساواة بمستوى المعيشة وأمام الشريعة وبالكرامة الإنسانية للجميع، إنه النظام الذي ينظر لأبناء الجنس البشري جميعاً على أنهم أخوة ويقودهم في مسيرة سلمية منظمة لمعرفة كنه الحقائق المجردة، وإشباع حاجاتهم الروحية والجسدية وخلق الانسجام الكامل بينهم، وبينهم وبين الكون المحيط بهم والمسخر لخدمتهم، وبينهم وبين الله تعالى.

٧ ـ خطوة أساسية على طريق الوحدة الإسلامية:

إن لأنصار النمط العقائدي الديني أن يتيقنوا بأن الوحدة الإسلامية تحتاج إلى خطة ـ لأن زمن الارتجال قد ولى ـ وأن هذه الخطة تحتاج إلى مرجعية تفهم أدق تفاصيل تلك الخطة وتتولى الإشراف على ترجمتها بنداً بنداً من عالم النص والنظر إلى عالم الواقع والعمل، وإن هذه المرجعية ليست متروكة لأهوائنا، إنما هي محددة بالشرع الحنيف ومكثفة بركنين أساسيين وهما وكما يسميهما النبي ﷺ بالثقلين.

١ ـ كتاب الله.

٢ ـ آل محمد.

وأنصار النمط العقائدي يجعلون الأمر «عضين» فيأخذون بكتاب الله ويريدون أن ينوبوا عن آل محمد بالقيادة وتلك هي الأباطيل التي عناها النبي بقوله: «أيها الناس إن الفخر والشرف والرئاسة لمحمد وآله فلا تذهبن بكم الأباطيل» فإذا توصلتم إلى قناعة بأن المرجعية من آل محمد فما عليكم إلا أن تعطوهم المفادة، وتسلموهم القيادة، وتكونوا خاصتهم. عندئذ يوحدون لكم هذه الأمة، ويقطعون دابر الهوى، وتسود الشرعية السياسية.

وسأعالج في الفصل القادم أسباب المشكلة الفلسطينية من وجهة النظر العقائدية والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة على النبي وآله.

الفصل السابع

تحليل موضوعي للمفاوضات العربية الإسرائيلية

أسباب المشكلة الفلسطينية:

غطيت بالبحث والتحليل المفاوضات كمبدأ أو كمفهوم إنساني عام، وعالجت خصوصية حادث المفاوضات العربية الإسرائيلية. ثم وضعت تحت تصرف عشاق الحقيقة تكييف أطراف هذه المفاوضات لطبيعة أو جوهر المشكلة الفلسطينية على اعتبار أنها المحور الأساسي الذي ستدور المفاوضات حوله. وعلى ضوء هذا التكييف عرضنا الوسائل أو الصيغ المطروحة لحل هذه المشكلة ومن وجهات النظر الدولية واليهودية والفلسطينية والعربية وكضرورة منهجية سنعالج في هذا الفصل أسباب المشكلة الفلسطينية من وجهة النظر الإسلامية.

تأصيل وتجذير على الصعيد العربي:

قبل أن تشرق شمس الهداية الإلهية، ويتألق نور قمر النبوة المحمدية في أرض الجزيرة العربية، كانت الكلمة العليا والقول الفصل للهوى الجاهلية. كانت القبيلة هي الكيان السياسي المقدس الذي يهب الإنتماء ويضفي الحماية على أفراده، لها صنمها الخاص وهو بمثابة الإله ولها مرعاها الخاص وهو بمثابة الوطن، كان الموالي وكان العرب وكان السادة، وكان العبيد، كان الفقر وكان الغنى، والقبائل التي نمت وارتقت إلى مستوى الدولة ارتبطت عضوياً بالدولتين الأعظم آنذاك. فارتبط المناذرة مع الفرس والغساسنة مع الروم وعاشت تلك القبائل على هامش التاريخ وخارج دائرة الحدث السياسي العالمي لا يقام لها وزن ولا

يحسب لها حساب. وفكرة وحدة تلك القبائل أو وحدة العرب لم تكن موجودة في الأذهان أصلاً ومجرد التفكير بها وهماً ومن أكثر الأحلام جنوناً.

تأصيل وتجذير على الصعيد العالمي:

انذاك كانت تتنازع السيادة على الصعيد العالمي الدولتان الأعظم فارس في الشرق وروما في الغرب مع رجحان ظاهر لروما «عباد الله خول، وأموالهم دول»، كانت العلاقات الإنسانية تقوم على المصالح. كان الهوى هو النظام، وكانت القوة هي الحكم، وكان الناس مع من غلب، كان همّ الأكثرية الساحقة من أبناء العائلة البشرية منصب بالدرجة الأولى والأخيرة على إدراك رغيف العيش وحفظ الحياة، وباختصار كان العالم يغط في ظلمات «متراكم بعضها فوق بعض إذا أخرجت يدك لم تكد تراها».

التداوي بالإسلام:

الحالة التي كان يحياها العرب ويحياها العالم قبل الإسلام حالة مرضية خطيرة أخفقت كافة العلاجات المطروحة آنذاك بشفائها، ولو تركت هذه الحالة المرضية وشأنها، لجرت العائلة البشرية إلى شفا جرف هار، وغني عن البيان أن تلك الحالة المرضية كانت ثمرة طبيعية لتطبيق وسيادة العقائد الجاهلية، لأن الواقع الحقوقي والسياسي والاقتصادي... إلخ. لمجتمع ما هو في حقيقته وجوهره إلا ترجمة عملية للخطة النظرية للعقيدة السائدة فيه، ورحمة من الله تعالى بالعائلة البشرية جميعاً أرسل لها محمداً ومعه دين الإسلام يتداوى به خلق الله من أمراضهم ويدلهم جميعاً على التي هي أقوم، فأعلن النبي أن الإسلام هو الحل، وهو المرجعية الفكرية لإثبات فساد العقائد الجاهلية وعجزها عن تنظيم وإدارة وحكم مسيرة الحياة البشرية تمهيداً لإلغائها واستبدالها بعقيدة الإسلام ـ دين الله ودين كل الأنبياء ـ لتنظم وتدير وتحكم مسيرة الحياة والأحياء وتكون المصدر الوحيد للشرعية والمشروعية والميزان الحق لأي عمل ينبثق عن الفرد أو الجماعة أو السلطة.

بساطة التداوي بالإسلام:

التداوي بالإسلام ليس معقداً كالتداوي بالعلاجات الوضعية، كل ما في الأمر

أن الله وبواسطة كتابه الكريم يشخص المرض ويحدد العلاج، وأن المرجع أو النبي أو القائم الشرعي مقامه يتولى بيان كيفية تناول العلاج، فالعلاج الإسلامي يقوم على ركنين أساسيين:

أ ـ ركن إلهي: يتمثل بكتاب الله ـ ولله المثل الأعلى ـ وهو بمثابة صيدلية كبرى تحتوي على العلاجات اللازمة لكل داء وبأي أمر من أمور الحياة على الإطلاق.

ب ـ ركن بشري: يتمثل بالنبي أو القائم الشرعي مقامه وهو بمثابة الصيدلاني الذي يبين كيفية تناول العلاج ويشرف على تناوله.

وهذان الركنان هما إطار الشرعية والمشروعية وضمانة سيادتهما وبدون اجتماعهما تنهدم الشرعية والمشروعية، وتتفتح أبواب الهوى والاختلاف وما تزال تتفاعل حتى تقتلع الحياة الإسلامية وقد بينت الترابط الوثيق بين الرسالة والرسول وبين الشرع والمرجعية في معرض سباحتي بمواجهة تيار الأحزاب العربية.

المهمة العسيرة:

كانت مهمة مداواة العرب والعالم وتغيير ما بهم بالإسلام ومنهجه مهمة عسيرة يعجز عن تحقيقها مئات الأنبياء من أولي العزم فوسط بحر من الظلمات والإحباط والألم والمقاومة وقف النبي كداعية ووقف الهاشميون كحماة للداعية في جهة ووقفت كل قبائل قريش وبدون استثناء تؤازرها قبائل العرب في الجبهة الأخرى لتصد عن سبيل الله وتعيق حركة النبي وآله، وينشب صراع مرير بين الفريقين تشيب من هوله الولدان، ما ضر النبي بأبي هو وأمي لو دعا على قومه كما دعا الأنبياء أولو العزم من قبله، ما ضر الهاشميون لو استسلموا وأسلموا محمداً، لما لامهم منصف بعد كل تلك الأهوال التي تعرضوا لها، لكن تلك طبيعة محمد وطبيعة آله الكرام، طبيعة لا تعرف الاستسلام إلا لله.

النجاح الساحق:

والخلاصة أنه عبر دعوة استمرت ١٣ عاماً ثم تمخضت عن دولة ترأسها النبي

عشر سنوات استطاع الإسلام أن يثبت فساد العقائد الجاهلية، وأن يحلّ محلها واستطاع أن يقلص ويلغي آلاف الكيانات السياسية العربية وأن يوحد العرب في كيان سياسي واحد تحكمه وتحدد مساره عقيدة إلهية ولأول مرة في التاريخ وبمدة لا تتجاوز عشر سنين وبكلفة بشرية لا تزيد عن ٣٨٩ قتيلاً وتكون النموذج الأمثل للمجتمع الأمثل.

النموذج الأمثل والدولة المثلى:

تكوّن النموذج الأمثل للمجتمع الأمثل الذي تقوم الروابط بين أفراده على أساس الإيمان بالله وعلى أساس الأخوة الإيمانية وتكونت الدولة المثلى التي تلتزم بالشرعية والمشروعية الإلهية في كل خطوة من خطواتها، وكل حركة من حركاتها، تعطي الحرية للجميع وتقدم الأمن للجميع، وتصرف العدل للجميع، وتحقق المساواة للجميع، فيتساوى في ظلالها الحاكم والمحكوم بمستوى المعيشة وبالتكاليف والكرامة والإنسانية وأمام الشريعة... ويتعاون في ظلالها الجميع بروح الفريق.

الرئاسة لمن غلب:

كان هنالك اقتناع لدى العرب أن الأمر «رئاسة الدولة» إن آل إلى بني هاشم فلن يخرج منهم، وإن كان غيرهم تداولوه فرفعوا شعار: «عدم جواز أن يجمع الهاشميون الملك والنبوة» وهو شعار جاهلي من كل الوجوه ومخالف للنصوص الشرعية القاطعة ولمجريات الدعوة والدولة وللتضحيات الجسام التي قدمها الآل الكرام. وما زالت هذه القاعدة تلد حتى حلت قاعدة دستورية جديدة وهي «نحن مع من غلب» فغلب الأمويون. فكان الناس معهم، وغلب العباسيون فكان الناس معهم، وهؤلاء عرب، ثم خرجت الرئاسة من العرب عندما غلب العثمانيون والسند الوحيد الذي قام عليه الحق بالرئاسة فعلياً هو الغلبة.

حسن النية وسلامة الطوية:

يقول الملك عبد الله بن الحسين في مذكراته ص٢٣٨ وبالحرف: «فإذا سادت

تعاليم القرآن وعمل بالسنة فالعربي حينئذ سواء عنده أكان سلطانه عربياً أم كان ينتمي إلى غير العرب من المسلمين لذلك كانت الأمة العربية تنظر إلى سلاطين الإسلام بما أعطاها الله من شرف خص به النبي العربي. . .».

الانقلاب الجمهوري:

«نتيجة الانقلاب الجمهوري تحولت الحاكمية السلطانية إلى حاكمية ملية محصورة في العنصر الذي منه السلطان وغدت سائر العناصر والأقاليم تبعاً للعنصر الحاكم، وشرع في تتريك العناصر الأخرى. . . وبدأت الأحزاب المختلفة والأندية المتعددة لكل أمة «قومية» تتشكل وتناضل عن حقها. . . وأخذت فرقة الاتحاد والترقي التركية تضغط في الانتخابات للبرلمان العثماني كي لا ينجح في عضوية البرلمان إلاّ من كان تركياً أو اتحادياً. عند ذلك شعر العرب وشعر معهم بقية الأقوام الكبرى ممن تتكون منهم الامبرطورية أنهم على خطر الزوال» (ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ من المذكرات).

لقد كذب الناس والله لم يكن بالظالم:

«قد زعم الناس أن السلطان عبد الحميد كان ظالماً، لقد كذب الناس والله لم يكن ظالماً ولكنه الحذر المتحوط» (ص٢٣ من المذكرات).

«فإذا كان عثمان هو الباب الذي كسر بين الفتنة والناس فإن عبد الحميد كان الباب الثاني الذي كسر في العصر الأخير بين الفتنة والناس أيضاً» (ص٢٥ المذكرات).

عبد الحميد والمشكلة الفلسطينية:

كلف الدكتور اليهودي هرتسل وفداً لزيارة السلطان عبد الحميد والاستئذان منه بأن يسمح لليهود بالإقامة في جزء من فلسطين، ووعده الوفد ومناه وأغراه بالملايين فأجابه السلطان عبد الحميد.

«انصحوا الدكتور هرتسل بألاّ يتخذ خطوات جدية من هذا الموضوع فإني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين. . . فهي ليست ملك يميني. . .

بل هي ملك الأمة الإسلامية. . . لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض بغير ثمن. أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة. وهذا أمر لا يكون، إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة».

الطريق إلى فلسطين يمر من خلال تمزيق دولة الإسلام:

أدرك اليهود استحالة تحقيق حلمهم ودولة الإسلام موجودة، وتيقنوا بأن الطريق الوحيد المؤدي لاحتلال فلسطين يتمثل بتمزيق دولة الإسلام وتمزيق دولة الإسلام عن طريق الحرب غير وارد، إذاً لا بد من تمزيقها من الداخل، ومن أجل هذا أوجد اليهود جمعية الاتحاد والترقي وجمعية تركيا الفتاة وقد تحولتا مع الأيام إلى كيان واحد، تحرك كالداء الخبيث في صدر دولة الإسلام وما زال ينهشها حتى قضى عليها.

حقيقة جمعية الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة:

«إنهم ليسوا أتراكاً ولا مخلصين للأتراك كما زعموا ولم يكونوا مسلمين أو مخلصين للإسلام وهم يكفرون به ويحاربونه كما يذكر اليهودي «ستون وتسون» والحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير إسلامية. فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف فأنور باشا ابن رجل بولندي مرتد، وكان (جاويد) من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونمة، وكراسو من اليهود الإسبان القاطنين في مدينة سالونيك و(طلعت باشا) بلغاري من أصل غجري اعتنق الإسلام، أما (أحمد رضا) أحد زعمائها فقد كان نصفه شركسياً والنصف الآخر مجرياً. وأما أصحاب العقول المحركة وراء هذه الحركة فقد كانوا من اليهود أو المسلمين من أصل يهودي وأما العون المالي فقد كان يأتيهم عن طريق الدونمة ويهود سالونيكا، وكان يهود سالونيكا ويعرفون بالدونمة أو المرتدين شركاء الثورة التركية الحقيقية» (راجع زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية ص٣٠٧، وراجع فكرة القومية العربية ص١٠٨ ـ ١٠٩).

وجمعية الاتحاد والترقي التي تسلحت بالشعارات الأوروبية البراقة وخلعت

السلطان عبد الحميد بحجة أنه مستبد هي نفسها التي أرست الاستبداد في الشرق ورسمت معالمه، وأثارت كافة الأقوام والشعوب على الدولة الإسلامية.

نفس الوفد:

نفس الوفد الذي أرسله هرتسل إلى السلطان عبد الحميد بشأن فلسطين هو الذي بلّغ عبد الحميد فيما بعد قرار عزله من السلطنة أو الخلافة وتكلفت جمعية الاتحاد والترقي بتمزيق جسد الدولة الإسلامية من الداخل وتفككت أجزاؤها وأصبحت بدون حام فانقض اليهود بمساعدة أوليائهم من الغرب، واستولوا على الأرض المباركة. أما كيف تفككت الدولة الإسلامية فهذا موضوع آخر.

فاغرورقت عيناه:

يروي الملك عبد الله بن الحسين في مذكراته ص٧ عن أبيه (رحمهما الله) أن السلطان عبد الحميد شكا له قائلاً: «إني لست بالأمين على الدولة والملك من هذه الفئة المتغلبة» وأن الحسين بن علي قد عرض عليه القدوم إلى المدينة المنورة فاغرورقت عيناه وقال: «إن الوقت لم يحن بعد».

والخلاصة:

فإن أي مفاوضات لن تنجح إلا إذا كان هناك تكافؤ بين أطرافها وتساو في إمكانياتها بحيث لا يكون هنالك غالب ومغلوب قبل الجلوس على مائدة المفاوضات. وبغير ذلك وفي غياب القوة التي تركع الطرف القوي للحق وتجبره على الانصياع له، فإن الأمر أشبه ما يكون بجلوس السائل والمعطي على مائدة واحدة، فالسائل يشكو ما به للمعطي، والمعطي يسمعه من باب الذوق والأدب. لكن لا أحد في الدنيا يمنع المعطي من أن يقول للسائل في النهاية «الله كريم يبعث الله» فينفض السامر وتنتهي المفاوضات. والله أسأل أن لا تصل الأمور إلى هذا الحد، وأسأله أن يؤلف بين قلوبنا وأن يهدينا مسالك الرشاد والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله.

الباب السادس

الفصل الأول

الإسلاميون ومفاهيم الحرية والديمقراطية

١ ـ المقاس الضيق:

لقد بالغ «الإسلاميون الحزبيون العرب» وأشياعهم وأسرفوا أيما إسراف بإصرارهم المتعنت على تلبيس الإسلام طقم «السموكن» الغربي المفصل أصلاً على مقاسات الحرية والديمقراطية الوضعية ولأنهم يظنون ـ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ـ أن فهمهم للإسلام هو الإسلام بعينه وأنهم الأوصياء عليه من دون الناس. لذلك لم يصغوا لصوت الإسلام نفسه يناديهم مشفقاً: وفروا على أنفسهم عناء التلبيس الإجباري فإن «السموكن» ضيقة جداً عليّ.

٢ ـ الارتجال والتهافت:

ولا يروق هذا التهافت لحزبين إسلاميين آخرين وبعصبية ظاهرة يرتجلون حكماً مبستراً فيقولون إن الديمقراطية «كفر بواح وشرك صراح... إلخ» وهم كإخوانهم الذين سبقوهم يتوهمون أيضاً أن فهمهم للإسلام هو عين حكم الإسلام.

٣ ـ الإسلام والظل:

ولكثرة ممارسة الأحزاب الدينية العربية لأوهامها وظنونها فرحت بها وركنت إليها «كل حزب بما لديهم فرحون» وحسبت أن فهمها للإسلام هو الإسلام مع

يقينها إن الفهم يتفاوت من فرد إلى فرد، وأن الفهم شيء والمفهوم شيء آخر وموضوع الفهم حاجة ثالثة. ومن هنا فهم لا يصدقون أنفسهم ولا يصدقهم الإسلام على ما يزعمون. فالشجرة شيء وظلها شيء آخر. وفهم الأحزاب الدينية العربية للإسلام شيء والإسلام شيء آخر. ومن المثير للدهشة حقاً أن العلمانيين العرب قد توهموا أن فهم الأحزاب الدينية العربية للإسلام هو عين الإسلام وبنوا قناعاتهم على شفا هذه الحفرة من الوهم، فظلموا أنفسهم وألحقوا ضرراً بالغاً بالفكر الإنساني نتيجة خلطهم المريع بين الشيء وظله، وبين الفهم والمفهوم. والمثير أنهم جميعاً يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ولكن الله غالب على أمره.

٤ ـ انتشال الحقيقة من تحت الأنقاض:

أ ـ تسمية الأشياء بأسمائها:

لقد شوهت الأحزاب العربية بشقيها العلماني والديني الفكر الإنساني في هذه المنطقة وقلبت الحقائق رأساً على عقب، وسمّت الأشياء بغير أسمائها، وهدمت عالم الفكر على ساكنيه، وضيعت الحقائق بين الأنقاض بعد أن خلطت الوهم بالحقيقة، واليقين بالشك، والحق بالهوى، فلو عاد اليقين لما تعرف عليه أحد، ولو تألقت الحقيقة الخالصة لتنكر لها الناس لإقتناعهم المتولد عن التكرار والعادة بأن الشك هو اليقين وأن الوهم هو الحقيقة.

ب ـ خدمة للجميع:

ومن هنا فإن بيان حقيقة الحرية والديمقراطية، وموقف الإسلام مهمّاً بحد ذاته خدمة للأحزاب الدينية العربية التي تركت البحث وركنت إلى التقليد وأدارت ظهرها للمنظومة الحقوقية الإلهية وأقبلت على التاريخ ليتغذى بالطيِّب من طعامه ولتتنكر لما خبث.

وبيان هذه الحقائق خدمة للأحزاب العربية التي ترجمت الفكرين الغربي الديمقراطي والشرقي الاشتراكي واقتصر همها على التقليد أيضاً، ثم إن هذا البيان يشكل تقييماً وتجذيراً وربطاً للعقائد بالأفكار ربطاً علمياً تمهيداً للحكم والتصحيح أو الركون. وأبرز نتائج هذا البيان إثراء الفكر السياسي لصالح الإنسان.

ج ـ ما بعد الحرية والديمقراطية:

ومع التأكيد على بالغ التقدير والاحترام لهذين المفهومين وللأخوة العرب الذين ينادون بتطبيقها بمفهومها الغربي وتعميمهما في العالم العربي فإنني وبكل الرفق والاحترام ألوّح بما هو أعظم وأهدى من هذين المفهومين، ألوّح بالإسلام، وبمنظومته الحقوقية التي تشكل بحد ذاتها خطة إلهية متكاملة للرقي الفردي والأسروي والشعبي والدولي والبشري كله، بغض النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو الإقليم، أو الدين. فمن غير الجائز لأي مسلم على الإطلاق حتى ولو كان نبياً حسب أحكام هذه المنظومة ظلم أي إنسان على الإطلاق مهما كان جنسه أو لونه أو عرقه أو إقليمه أو دينه حتى ولو كان يعبد الأصنام.

د ـ مزايا الإسلام:

إنه يعطي الحرية للجميع، ويحقق العدالة للجميع، ويضفي الحماية على الجميع، ويحقق المساواة بين الجميع بمستوى المعيشة وأمام القانون، ويملك السلطة عملياً للجميع، وينشد السعادة للجميع، ويعتبر أبناء الجنس البشري جميعاً إخوة أبوهم واحد وهو آدم وأمهم واحدة وهي حواء، ويعتبر الكرة الأرضية مجرد إقليم واحد تغذي ساكنيها، فتأخذ من كل واحد طاقته وتعطي كل واحد كفايته وتلك أماني ـ مع عميق الاحترام ـ تقف الديمقرطية على أبوابها عاجزة قاصرة وحسيرة. هذا هو الإسلام ـ وليس كما تفهمه الأحزاب ـ وسأثبت ذلك بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

الدخول بالموضوع:

أ ـ الصلة العضوية

صلة الديمقراطية بالحرية صلة عضوية، فهي تدور معها وجوداً وعدماً فإذا انتفت الحرية تنتفي الديمقراطية، وحيث توجد الحرية تكون الديمقراطية، فكأن الحرية والديمقراطية وجهان لعملة واحدة. أو كأن الديمقراطية هي المؤشر على وجود الحرية، ويمكنك القول إن الحرية هي الأصل وإن الديمقراطية ثمرة من

ثمراتها وفرع من فروعها، ثم أشير للأصل بالفرع، ورمز للشجرة بالثمرة.

ب ـ دوران الفرع مع الأصل:

في يوم من الأيام عنت الحرية استقلال الفرد بنفسه وماله ومصيره فجاءت الديمقراطية لتقوم بدور الدرع الذي يحمي هذا الاستقلال وكانت مهمة الدولة الديمقراطية وقتذاك هي حراسة هذا الاستقلال «الدولة الحارسة»، ثم تبين أن الفرد غير قادر على حماية حريته واستقلاله ومصيره فجاءت الديمقراطية لتعني أن هذه الحرية بمعناها الآنف الذكر يجب أن تضمن من قبل الدولة، فأصبحت الدولة الديمقراطية هي الحارسة للحرية وهي الحامية لها بنفس الوقت.

ثم أصبحت الديمقراطية تعني فن التوفيق بين الحرية وبين السلطة، ونتيجة لانتصار الشيوعية والمناداة بفكرة المساواة ظهرت الديمقراطية الاجتماعية التي لا تكتفي بالحق الطبيعي بالحرية إنما تركز على إشباع هذا الحق وتمكين صاحبه من ممارسته.

وأخيراً أصبحت الديمقراطية عنوان نظام يقوم على أساس تمليك السلطة للرعية عن طريق الانتخاب ويتمخض هذا النظام عن أكثرية تحكم وأقلية تتمتع بحق المخالفة والمعارضة وتتناوب الأكثرية والأقلية على الحكم مع التسليم بوجود حقوق وحريات للأفراد هي بمثابة قيود أو كوابح لحركة الأكثرية والأقلية في المجتمع، وكل هذا يؤدي لتوزع الحقيقة وتعدد الاجتهادات بفهمها وإتاحة الفرصة أمام الأفراد ليعرضوا هذه الأفهام.

معشوقة الجميع:

نظراً لارتباط مفهوم الديمقراطية بمفهوم الحرية ولارتباط الحرية بالإنسان ـ أي إنسان ـ وحاجته إليها، وشغفه بها، أصبحت الديمقراطية معشوقة جميع البشر وزينة لكل العقائد والأنظمة والدول، فالدول الغربية تزعم أنها ديمقراطية، كيف لا وهي نفسها التي أنشأت النظام الديمقراطي، وكارل ماركس نفسه الذي نادى بدكتاتورية البروليتاريا لغاية سحق الطبقات الأخرى لم يجد غضاضة من أن يزين هذه

الديكتاتورية بالديمقراطية فلذلك نجده يقول عن دولة البروليتاريا «إنها ديكتاتورية ديمقراطية» ودول العالم الثالث تقول بملء أشداقها إنها دول ديمقراطية، وإذا أراد حزب أن يروج بضاعته وأن يستقطب الناس إلى جانبه يتغنى بالديمقراطية ويزعم أنه ديمقراطي، والسر في ذلك أن الديمقراطية اختلطت مع الحرية وأن الحرية لصيقة بالإنسان ـ أي إنسان ـ ومن يعاديها يعادي ذاته، ومعاداة الذات جنون بالإجماع.

ماهية الحرية في الفكر العالمي:

عرفت البشرية نوعين من العقائد السياسية:

١ ـ العقائد الإلهية والإسلام آخرها.

٢ ـ العقائد الوضعية بفروعها الثلاثة.

أ ـ الحكم المطلق.

ب ـ التحررية الرأسمالية.

ج ـ الماركسية الشيوعية.

وسنبين ماهية الحرية في كافة هذه العقائد بالكيفية التي يفهمها الخاص ولا تستعصي على العامة.

ماهية الحريات في الوضعية:

أ ـ ماهية الحريات في عقيدة الحكم المطلق:

الحريات بمختلف أنواعها هي مجرد هبات يهبها الحاكم لرعيته أو لبعض أفرادها متى شاء لأن الهبة غير ملزمة للواهب وبالتالي فلا معقب لحكمه ولا سلطان عليه إلا لضميره من الناحية العملية.

ب ـ ماهية الحريات في العقيدة التحررية السياسية:

الحريات بمختلف أنواعها هي مجرد حقوق طبيعية لصيقة بالإنسان حسب نظرية الحقوق الطبيعية التي نادى بها جون لوك والقائلة بوجود حقوق طبيعية

ملاصقة للإنسان وسابقة لوجود السلطة والسلطة نفسها ما هي إلا ثمرة من ثمرات ممارسة الأفراد لحقوقهم، هذه حسب نظرية العقد الاجتماعي التي قالها «روسو»، وباختصار إن الحريات مجرد حقوق.

ج ـ ماهية الحريات في العقيدة الشيوعية:

الحريات، بمختلف أنواعها، ليست مجرد حقوق وأفكار ومفاهيم مجردة وليس منبعها الطبيعة إنما هي حاجات تلبي ورغبات تشبع وهي نابعة من قلب المجتمع وتشبع هذه الحاجات بانتقال السلطة إلى البوليتاريا ونقل ملكية وسائل الإنتاج إليها وتعاون الدولة مع الطبقة الحاكمة لقهر الطبيعة حتى تلبي هذه الحاجات على حد تعبير (كارل ماركس).

ماهية الحريات في الإسلام:

الحرية ليست هبة من الحاكم لرعيته، ولا مجرد حقوق طبيعية، أو حاجات تلبي وتنبع من المجتمع كما تزعم العقائد الوضعية، إنما هي جزء من طبيعة الإنسان وذاته وركن من أركان وجوده، وعنصر من عناصر الغاية من هذا الوجود، فلا تتحقق الغاية إلا بها، ولا تستقيم الحياة إلا بها وهي سابقة لوجود الحاكم، ولوجود المجتمع نفسه وهي جزء من الإنسان نفسه ـ أي إنسان على الإطلاق ـ وهي عماد الدين، وموضع الثواب والعقاب، فإذا انتفت الحرية فقد انتفت الإنسانية نفسها، واختفت فكرة الثواب والعقاب، فهو تبارك وتعالى لا يثيب ولا يعاقب إلا في حدود الحرية والطاقة.

تفصيل ذلك وآياته:

إن الله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة أصلاً لغاية ابتلاء الإنسان أي امتحانه خلال فترة الحياة الدنيا كما أكدت على ذلك ١٩ آية من القرآن الكريم أبرزها الآية ٧ من سورة الكهف والآية ٢ من سورة الملك، وكضرورة من ضرورات عملية الابتلاء فقد زود الله الإنسان الذي سيخضع للثواب والعقاب بالقدرة على إتباع أمر الله ونظامه أو مخالفة هذا الأمر وذاك النظام، والآيات الواردة في القرآن

والتي تؤكد هذه القاعدة تربو على ألف آية وبعد ذلك جعل التكليف بحدود الوسع والطاقة، وبعد ذلك أعطى الإنسان الحرية ليفصل أو يمتنع عن الفعل، لأنه لو كان مكرهاً على فعل الخير لما استحق ثواباً، ولو أكره على فعل الشر لما استحق عقاباً، وهذا جوهر ما نريده، فالحرية عنصر من عناصر المسؤولية، فإذا انتفت الحرية انتفت المسؤولية، وهنا ربط الله الفعل بالمشيئة والإرادة الإنسانية ويمكن تلاوة الآية ١٧ من سورة الكهف والآية ٥٧ من سورة الفرقان والآية ١٩ من سورة المزمل والآية ٣٧ من سورة المدثر والآية ٥٥ من سورة المدثر أيضاً والآية ٢٩ من سورة الإنسان، والآية ٢٨ من سورة التكوير والآية ١٥ من سورة الزمر والآية ٤٠ من سورة فصلت وكلها ناطقة بالمعنى الذي أشرنا إليه.

تقييم تجذير فكرة الحرية والديمقراطية:

الحكم المطلق يعتبر الحريات هبات والتحررية الرأسمالية تعتبر هذه الحريات حقوقاً طبيعية، والماركسية تعتبرها حاجات نابعة من المجتمع بمعنى أن العقائد الوضعية تربط الحريات برباط خارجي غير متين وأفضلها التحررية الرأسمالية القائلة بأن الحريات حقوق طبيعية «لصيقة» بالإنسان بينما الإسلام يعتبر الحرية جزءاً لا يتجزأ من ذاتية الإنسان أي يفسح لها مقراً في أعماق الذات الإنسانية ويجعلها عنصراً من عناصر الوجود الإنساني وركناً من أركان غايات هذا الوجود. وهذا قمة الإكبار للحريات الإنسانية. ومن تتبع السيرة النبوية في الدعوة والدولة النبوية يتيقن أن دولة النبوة هي الروضة التي ازدهرت فيها الحرية الإنسانية وأخذت مداها كاملاً.

وسنعالج ترشيد الحريات ومجالاتها، وآفاقها ضمن آلية حركة المجتمعات السياسية. والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثاني

بين يدي وزارة الأوقاف

﴿لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾.

(النساء: الآية ١٤٨)

تدخل وزارة الأوقاف بنشر المطبوعات الإسلامية عمل مخالف للدستور:

سعادة الأخ الأستاذ حسن التل أدامه الله:

أُكبر فيك حبك للأردن، وإخلاصك لعميد أهل البيت فيه، وتفهمك القويم لدين الإسلام، وتفهمك لظروف عصرك وتبحرك في علم مهنتك، وإدراكك أن الصحافة سلطة رابعة تساهم مساهمة فعّالة في تقويم المسيرة الديمقراطية ثم أضع تحت تصرفك شكواي وشكوى المئات المظلومين من أمثالي، والبث يريح النفس، «وما أشكو بثي وحزني إلا إلى الله».

المحامي أحمد حسين يعقوب:

١ ـ لا جهراً بالسوء ولكن توجعاً:

قال تبارك وتعالى في الآية ١٤٨ من سورة النساء: **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾** والله وحده يعلم أن هنالك المئات من الضحايا والمظلومين الذين ألحقت بهم وزارة الأوقاف النصب والعذاب من صدها، وأنا واحد من هؤلاء وشاهد عيان، ولذلك فإنه لا تثريب عليّ لو جهرت بالسوء من القول لأنني ظلمت. ولكن رغم إحساسي العميق بفداحة الظلم الذي لحق بي إلا

أنني كما يقول الأمام علي عليه السلام: «أغضيت على القذى، وشربت على الشجى، وصبرت على أخذ الكظم، وعلى أمر من طعم العلقم» وذلك تحت شعار أن ظالمي وأمثالي هم أرباب لحى، ودعاة إسلام، ومن ملاك وزارة الأوقاف ولسوء حظي وأمثالي، إن الذين يتلذذون بظلمنا طاقم متكامل، أصله ثابت في الوزارة وفروعه وأصابعه تتواجد في كل مكان، ورغم أن لي لحية مثلهم ولحيتي لا تقل تنسيقاً وجمالاً عن لحاهم، ورغم زعمي أني مثلهم من دعاة الإسلام، وأنني ما زلت رسمياً أحد خطباء المساجد في وزارة الأوقاف، إلا أنهم نقموا مني، وسولت أنفسهم أمراً، وطاردوني براً وبحراً وجواً حتى على مستوى مهنتي لأنني فقط أختلف معهم بالرأي ضمن دائرة الإسلام الكبرى، وبسبب مقالاتي التي نشرتها في جريدة اللواء الغراء عن الحزبية الدينية والأحزاب، ومع أنه قد عيل صبري وفاض قدري، وأثقل كاهلي ظلم أشياخي أرباب اللحى إلا أنه لم يخطر ببالي أن أجهر بالسوء من القول رغم هذه الرخصة الاستثنائية التي أعطاها الله تعالى لي ولأمثالي من المظلومين، كل ما في الأمر أنني قررت هذه المرة أن أتوجع وأتابع أنيني ولكن بصوت مسموع، فهل يعقل أن الديمقراطية التي تتسع بالرأي والرأي المخالف لا تتسع بتوجع المتوجعين؟

٢ ـ «فزعة» وزارة الأوقاف:

سألت عن نفسي بعد طول معاناة من أين استمدت وزارة الأوقاف وجهاز وعظها الكريم الصلاحية بمراقبة وإجازة المطبوعات والمؤلفات المتعلقة بدين الإسلام؟ وهي أعمال إضافية خارجة تماماً عن قدرتها واختصاصها فلم أجد نصاً يبرر تدخلها وممارستها لهذه الأعمال، إلا من باب التأويل وكيف يمكن تأويل الواضحات وممارسة وزارة الأوقاف لهذه الأمور هي من قبيل «الفزعة» المعروفة عشائرياً.

٣ ـ إثبات عدم قانونية تدخل وزارة الأوقاف:

تصفحت قانون التأليف العثماني وقانون حق التأليف، وقانون الطبع لشرق الأردن لسنة ١٩٤٣، ونظام مراقبة المطبوعات نظام دفاع رقم ٥ لسنة ١٩٤٨ ونظام الدفاع رقم لسنة ١٩٥٣، ونظام دائرة المطبوعات رقم ٦ لسنة ١٩٥٣، والاتفاقيات الدولية المتعلقة بالمطبوعات والأوامر الصادرة عن الحاكم العسكري العام

والمتعلقة بالمطبوعات لسنة ١٩٦٧ والقانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٣ ولم أجد في هذه الموسوعة القانونية أي نص يعطي وزارة الأوقاف صلاحية إجازة أو مراقبة المطبوعات والمؤلفات المتعلقة بدين الإسلام، كل هذا يجرد تدخل وزارة الأوقاف من أي وصف قانوني، ويخرج هذا التدخل من إطار الشرعية والمشروعية.

٤ ـ الجهة المختصة بهذه الأمور:

دائرة المطبوعات هي الجهة المختصة قانونياً بإجازة ومراقبة كافة المطبوعات والمؤلفات، ومن المفترض أن لدى هذه الدائرة الجهاز الفني الكامل والمؤهل للإجازة والمراقبة، وصلاحيتها شاملة لكل المطبوعات والمؤلفات ومن المفترض في ضوء الدستور والقوانين السائدة، والحياة الديمقراطية الفريدة التي تنعم بها هذه المملكة أن ينحصر دور هذه الدائرة بالتأكد من عدم مخالفة المطبوعات والمؤلفات للنظام العام والسلامة العامة، والأخلاق العامة والمنظومة الحقوقية السائدة.

٥ـ مبررات تدخل وزارة الأوقاف وإدخالها:

يبدو أن دائرة المطبوعات تعتقد أن الدين اختصاص، وأن وزارة الأوقاف هي المختصة قانونياً بمراقبة كل ما يتعلق بدين الإسلام، ومن هذا الاعتقاد نشأت فكرة إحالة المطبوعات والمؤلفات المتعلقة بالدين الإسلامي إلى وزارة الأوقاف لتتأكد هذه الوزارة من خلال من تنبيه أن هذا المطبوع أو المؤلف أو ذاك يتفق مع دين الإسلام كما يفهمه هذا الذي اختارته وزارة الأوقاف، وغني عن البيان أن فكرة الإحالة على وزارة الأوقاف وإشراكها بما هو خارج عن اختصاصها قد بنيت على افتراض، وافتراض شيء لا يعني وجوده.

٦ ـ هل تملك دائرة المطبوعات حق تفويض اختصاصها؟:

لا تملك دائرة المطبوعات التي خولها القانون الصلاحية والاختصاص لإجازة ومراقبة المطبوعات والمؤلفات، لا تملك أبداً صلاحية تفويض صلاحيتها واختصاصها لوزارة الأوقاف، وقيام وزارة أو دائرة بإعطاء صلاحيتها واختصاصها لوزارة أو دائرة أخرى باطل بكل المعايير والمقاييس القانونية، ستقول دائرة المطبوعات إن رأي وزارة الأوقاف لا يلزمها وهو مجرد استشارة ولكن عملياً فإن

دائرة المطبوعات تعتبر رأي وزارة الأوقاف ملزماً ولا معقب عليه والشواهد على ذلك لا تحصى.

وزارة الأوقاف مجرد واسطة:

بالرغم من إصرار دائرة المطبوعات على إحالة كافة المطبوعات والمؤلفات المتعلقة بالدين لوزارة الأوقاف إلا أن الوزارة لا تراقب بنفسها ولا تدقق بواسطة جهازها، إنما تستعين بأصحاب الحظوة عندها من حملة شهادات الدكتوراه وأساتذة الجامعات مقابل إكراميات تلزم المؤلف أو صاحب المطبوع بدفعها، وبعد شهور من العذاب والمعاناة والمراجعة يقدم صديق وزارة الأوقاف تقريره العتيد، فتسطر الوزارة كتاباً إلى دائرة المطبوعات يتضمن إجازة أو عدم إجازة المطبوع تماماً بالصورة والكيفية التي قررها المدقق صديق الوزارة وضيفها، طالما أن الوزارة وسيط خير فما الذي يمنع دائرة المطبوعات من أن تختار هي بنفسها دون توسط وزارة الأوقاف؟ خاصة وأن أصحاب الحظوة عند الوزارة من الحزبيين الدينيين، وكل حزب ديني أردني له مفهومه الخاص عن الإسلام، وهذا المفهوم هو حدود الدنيا، ومن يعارضه يعارض الإسلام نفسه، ومن هنا ضاقت صدورهم بالرأي المخالف وحاولوا بكل وسيلة أن يخنقوه ولكن باسم وزارة الأوقاف. فالذي يجيز عملياً ويراقب المؤلفات الدينية ليست دائرة المطبوعات، وليست وزارة الأوقاف، إنما الأحزاب الدينية.

آية على ذلك:

وضعت كتابي (النظام السياسي في الأسلام) وأجازته دائرة المطبوعات لحسن حظي بدون علم وموافقة وزارة الأوقاف، واقتنت كل وزارات الدولة ومؤسساتها نسخاً من هذا الكتاب، وأعيد طبعه اثني عشر مرة ووزع في ٥٠ دولة عدا الطبعات التي زورت، فاستاءت الأحزاب الدينية وجن جنونها من مقالاتي في جريدة اللواء الغراء ومن هجومي العلمي الساحق عليها وسحبي البساط من تحت أقدامها وبدلاً من أن ترد وتقرع الحجة مدت أصابعها وتربصت.

سنة وكتاب تحت المراقبة والتدقيق:

وعندما وضعت كتابي (مرتكزات الفكر السياسي) وهو بحث دستوري قدمته لدائرة المطبوعات فأحالته تحت تأثير زوبعة الكتاب الأول لوزارة الأوقاف، قامت الوزارة بإحالته إلى الدكتور في الجامعة الأردنية لا يعرف شيئاً عن الدساتير ولا هي من اختصاصه، وبيني وبينه خلافات حادة، ودفعت عشرين ديناراً، ثم أحيل الكتاب إلى أخ كريم آخر وما زال الكتاب يترنح للآن ينتظر التدقيق والإجازة، بالرغم من طباعة عشرين الف نسخة منه في بيروت. ووزارة الأوقاف أعقل من أن تنفي ذلك.

أربعون ديناراً عقوبة لمن يقابل أمين عام وزارة الأقاف:

قدمت كتاباً لي «المرجعية السياسية» لدائرة المطبوعات، فحولته إلى وزارة الأوقاف وهو يقع على ٢٧٠ صفحة من الحجم المتوسط بعد شهر ونصف كلفني مساعد مدير الوعظ والإرشاد بدفع مبلغ ٢٠ ديناراً وقال إنه سيحيله إلى الأستاذ العتيد فقلت إن بيني وبينه خصومة، ومن المفترض أن يكون المدقق حيادياً فغضب مني، وتشرفت بمقابلة الأمين العام شاكياً ومتظلماً فسطر الأمين ورقة جاء فيها بالحرف: «أرجو الاهتمام وعدم التعطيل» وخرجت من مكتب الأمين العام راضياً سعيداً وكأنني قد حزت الدنيا بيدي فأعطيت التوصية لمساعد مدير الوعظ، وتوقعت أن يهتم بأمر وتوصية رئيسه ولشد ما ذهلت عندما عدل قرار الأول وقرر إلزامي بدفع مبلغ أربعين ديناراً إكرامية تدقيق ٢٧٢ صفحة من الحجم الوسط، واحتججت فانتهرني ودفعت المبلغ بالفعل صاغراً وحصلت على وصول.

سر المهنة:

قلت له: يا صاحب الفضيلة لمن سترسل الكتاب؟ فأجاب بوقار: هذا سر المهنة، قلت: يا سيدي من يدقق الكتاب يصدر حكماً ومن حقي أن أتعرف على حاكمي، قال فضيلته: تجاوزت حدك، قلت له: أسأله تعالى أن لا يحكمك بأحد.

قال فضيلته: آمين. قلت: يا صاحب الفضيلة إن الشيوعي لا يفعل بي ما تفعل أنت يا ويحك أنا ملتح مثلك!! قال فضيلته: إحلق لحيتك قلت: سأفكر يا

مولاي، وخرجت مهزوماً وسطرت ورقة لعطوفة الأمين العام أخبرته ببعض ما جرى، وعدت أدراجي كسير الخاطر.

شركة المشرق:

وفي عنفوان ألمي وحزني، جاءني مندوب شركة المشرق في لبنان ووقع معي اتفاقاً لطباعة الف نسخة من هذا الكتاب وأستأذنني لجمع مقالاتي وطرحها في كتاب.

أمنيـة:

أتمنى على وزارة الأوقاف الموقرة لو تريح الناس وتستريح، والمخفي أعظم ولله عاقبة الأمور والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على النبي وآله.

الفصل الثالث

وزارة الأوقاف ترد على المحامي يعقوب

سعادة الأستاذ حسن التل المحترم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أُكبر فيك اهتمامك بقضايا الآخرين وجهدك الواضح في حمل همومهم وهذا إنما يدلّ على حبك للخير ومساعدة أصحاب المظالم كما يرد في صحيفتكم الغراء من خلال ما تتبنون من قضايا.

ولكني أود أن أذكر الأستاذ الكريم بأن من يزعم أنه مظلوم قد يكون في بعض الأحيان ظالماً وذلك على رأي من يقول: «ضربني وبكى وسبقني واشتكى».

وبودي لو أن الأستاذ حسن كصحفي ناجح لا يطرح على صفحات جريدته قضية ما إلا بعد التأكد من صحتها دون تجن على الآخرين وكان الأولى أن يسمع رأي الطرف الآخر قبل التشهير به حتى تتضح الرؤية وتعرف الحقيقة عملاً بقول الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾** (الحجرات: الآية ٦).

فلا بد من التريث والتأكد من الطرف الآخر ومعرفة حجته فلربما يكون هو المظلوم والمشتكي هو الظالم، وهذه المعاني لا تخفى على صحفي مثلك.

ونود أن نرد على ما جاء في صحيفتكم الغراء حول مقال «بين يدي وزارة الأوقاف» وذلك في عددها الصادر يوم الأربعاء ١٩٩٢/٨/٢٦ والذي كتبه المحامي

السيد أحمد حسين يعقوب فادعى أموراً فيها تجن على وزارة الأقاف ودخل في هذا التعسف تحت ظلال آية كريمة ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ (النساء الآية: ١٤٨) فصور الكاتب للقارئين بأن وزارة الأوقاف وزارة نهب وسلب تستغل أصحاب الحاجات وذوي الأفكار وجرمها في ذلك من وجهة نظر المحامي أنها تتدخل فيما لا يعنيها فكان مما قاله الكاتب:

١ - إن وزارة الأوقاف ليست مخولة شرعاً ولا دستوراً بالتدخل في أي طرح يكتب عن الدين وإن في متابعة ومراقبة ما يكتب حول الإسلام والمسلمين لمعرفة مدى شرعيته وموافقته لقواعد الإسلام تطفل وتدخل في غير مجال اختصاصها، بل فزعة عشائرية كما يدعي الكاتب، ولا أدري من أين انطلق السيد المحامي بأن مراقبة ومتابعة الكتب الدينية ليست من اختصاص وزارة الأوقاف مع العلم بأن وزارات الأوقاف في سائر البلاد الإسلامية بما فيها هذا البلد مسؤولة مباشرة عن كل ما يتعلق بالشؤون الدينية وذلك على المستوى الرسمي والشعبي، وإذا لم تكن وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية مسؤولة عن ذلك فمن يكون إذن؟

٢ - يعتب الكاتب المحامي على وزارة الأوقاف وتوافقه الصحيفة الغراء أن الوزارة تتقاضى مبلغاً من المال من مؤلف الكتاب يدفع بموجب وصول رسمية لمن يقوم بقراءة الكتاب وتدقيقه مع تقديم تقرير واضح يبين ما للكتاب وما عليه وعلى ضوء ذلك تتم إجازته أو منعه.

إن وزارة الأوقاف ليس لديها موظفون متفرغون لهذه الغاية، بل إنها تحيل كل ما يأتيها من مخطوطات لأساتذة متخصصين في موضوع المخطوط المقدم إليها وربما يكونون من خارج ملاك الوزارة أحياناً عند تعذر وجود متخصص من موظفي الوزارة.

ولا أعتقد أن أحداً يوافقه على إنكار حقوق الآخرين وحرمانهم من كسب زهيد حلال يتقاضونه مقابل جهد كبير وسهر متواصل يعصرون أفكارهم بل ويمضون وقتاً يستغرق أياماً يبحثون وينقبون للتأكد من صحة ما كتب أو بطلانه، ولا أظن

أن هناك من يستطيع القول إن من يقوم بجهد مثل هذا تحرم عليه مثل هذه المكافأة الرمزية، بل على الكاتب الذي يعز عليه دفع مبلغ قليل من المال أن يسأل كيف يسيغ لنفسه أكل جهد غيره، أضف إلى ذلك أنه ليس في القانون ما يمنع من أخذ الأجرة على مثل هذا العمل.

٣ ـ أما بخصوص ما يدعي الكاتب أن من حقه معرفة من سيصدر حكمه على مؤلفه أو مخطوطه فإن هذا ليس بالضرورة وإن من حق المدقق الذي يختار بعد تحري ودقة أن يقرأ بروية وتمعن من غير استعجال من أحد أو إحراج. وإننا على ثقة بأن من يحول إليه الكتاب المراد تدقيقه إنما هو على درجة عالية من العلم والثقافة ونحسبه عند الله من المتقين ولا نزكي على الله أحداً وثقتنا أنه لن ينقص الكاتب حقه كما نؤكد أن كل تقرير يرد إلينا نقوم بقراءته مرة أخرى ويتم التأكد من صحة كل ما جاء في التقرير وأحياناً كثيرة تتم مناقشة المدقق ليؤيد وجهة نظره بالأدلة والحجج الواضحة في حالة عدم إجازة المخطوط، يتم بعد ذلك إصدار الحكم على الكتاب بالإجازة أو المنع. وليس الأمر جزافاً كما ادعى صاحب المقال وليعلم أن وزارة الأوقاف لم تمنع كتاباً إلا بعد التأكد من مخالفته لما جاء في الشريعة الإسلامية وقواعدها العامة أو أن فيه ما يثير فتنة نحن في غنى عنها أو تجريح لهيئات لا تستحق التجريح.

٤ ـ إن ما يقوله السيد صاحب الشكوى بخصوص تأخر الكتب لدى الوزارة فليعلم السيد المحامي أن أي كتاب يرد إلينا لإجازته يتم فوراً اختيار مدقق له ثم يحدد له مدة لا تزيد عن أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر إلا أن يكون المخطوط يتجاوز ال (٤٠٠) صفحة فلربما أعطي لفترة خمسة عشر يوماً، ولدينا الشواهد على ذلك.

٥ ـ إن ما يزعمه الكاتب من هيمنة الأحزاب الدينية الأردنية على وزارة الأوقاف وقد اتخذ الكاتب حكمه هذا بحجة أن المخطوط التي تقدم للوزارة إنما تحال لأصحاب الحظوة من الحزبيين الدينيين لدى الوزارة فهذا وهم وظن ليس في مكانه وليعلم الكاتب وغيره ممن يهمهم الأمر أن الوزارة ليست تحت هيمنة أحد ولا تسيطر عليها جهة ما كما يدعي وأؤكد لكل من يهمه الأمر أنه عند

اختيار المدقق لا تنظر الوزارة مطلقاً بهذا المنظار المزعوم، وإنما تتحرى صاحب الاختصاص في موضوع الكتاب أياً كان والشواهد على ذلك كثيرة ومسجلة لدينا. أما إن كان الأخ المحامي يعتبر أن كل من يخالفه في الرأي حزبي فهذا شأنه هو.

٦ ـ وأود أن أؤكد للسيد المحامي ولغيره إن وزارة الأوقاف حريصة كل الحرص على القيام بواجباتها على أكمل وجه ما أمكن ذلك كما أنها تستقبل مراجعيها بكل ترحاب وسعة صدر ولم تتوان عن مساعدة أحد ولن تتأخر عن إنجاز معاملة أي مواطن حسب الأصول وشاهد ذلك مراجعة السيد المحامي لعطوفة أمين عام الوزارة بسهولة ويسر واهتمام عطوفته بطلبه وتوصيته للموظف المسؤول الأهتمام بالمعاملة وسرعة إنجازها حسب شهادة سعادة الأستاذ المحامي نفسه في مقاله المنشور.

كما نؤكد على أن الوزارة ستبقى حريصة كل الحرص على إحقاق الحق وإقراره مهما كان مصدره وأنها ستبقى بإذن الله حصناً منيعاً تصادر كل رأي يخالف شرع الله أو يثير فتنة تعمل على تصدع بناء هذا البلد ووحدته الوطنية مهما كان مصدر ذلك الرأي.

وأخيراً فإن الوزارة ترحب بكل نقد بنّاء هادف...

والسلام عليكم...

مدير الوعظ والإرشاد
الدكتور عيسى العمري

الفصل الرابع

في الرد على وزارة الأوقاف

١ ـ وجاء رد وزارة الأوقاف:

كثيرون جداً هم أولئك الذين سمعوا أنيني وتوجعي بالصوت المسموع وأحيطوا علماً بظلامتي وعبروا عن دهشتهم وذهولهم فكيف تمارس هواية ظلم العباد ومصادرة آرائهم وتكميم أفواههم باسم وزارة الأوقاف وتحت مظلتها لذلك ترقبوا الرد ليعلموا كيف تضع الوزارة حداً لأنين المظلومين وتوجعهم وكيف تدفع الظلم عن المظلوم وتسترد مظلتها وتحمي اسمها من الشبهات ولم يطل الانتظار وجاء رد الوزارة الموقرة على لسان فضيلة مدير الوعظ والإرشاد فيها.

٢ ـ واقعة الظلم مجرد نبأ:

لم تتأثر الوزارة الكريمة بأنين المتظلم ولا بتوجعه بل واجهت محنته بأعصاب هادئة واعتبرت واقعة الظلم بكل أبعادها مجرد نبأ تلقفته جريدة اللواء الغراء من فاسق ونعت على رئاسة التحرير الجليلة عدم تثبتها من هذا النبأ قبل نشره ولتضفي الوزارة الكمال على هذا التكييف استشهد فضيلته بالآية الكريمة: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق...**﴾ (الحجرات الآية: ٦).

٣ ـ الهجوم لغايات دفاعية:

يبدو أن فضيلة مدير الوعظ والإرشاد قد أدرك بثاقب بصيرته وطول تمرسه الإداري أن أفضل وضع دفاعي للوزارة لتبرئة ساحتها من الظلم هو الانتقال من

الدفاع إلى الهجوم ـ الحرب الوقائية ـ والخروج من ضيق التخصيص وموضوعيته إلى رحابة العموم وقابليته لاستيعاب الزائد عن الحاجة عندئذ تضيع الظلامة في شعاب العموم ووديانه وتتحول إلى نبأ فاسق وكتتويج لهذا الهجوم تقدم الوزارة تصوراً نظرياً مثالياً بعيداً عن الواقع عن أسلوبها الأوحد بقطع دابر الظلم وإشاعة العدل وهكذا تنتصر الوزارة ويواجه المظلوم الخذلان ثانية فيتأدب ولا يقوى حتى التوجع والأنين ثانية مع أن الجهد الذي ستبذله وزارة الأوقاف برفع الظلم هو أقل بكثير من تكاليف الهجوم المعاكس.

٤ ـ دخل مؤمناً وخرج فاسقاً:

عندما بسط المظلوم ظلامته بين يدي وزارة الأوقاف الموقرة كان يتصور أن الوزارة قد ألحقت به الظلم بدون قصد وأنها ستنصفه فوراً كما تفعل بقية الوزارات في المملكة وكان يتصور أيضاً أنه يستأنف قراراً جائراً أمام محكمة استئناف مختصة وأن ليس بينه وبين الحق إلا قاب قوسين أو أدنى وفوجىء المظلوم فإذا قضاة البداية هم قضاة الاستئناف وإذا بالحكم يعلن لا وجود لواقعة الظلم وحيث أنك ادعيت ما ليس واقعاً وحيث إنك قد دخلت مؤمناً فاخرج فاسقاً صدر وأفهم بتاريخ.

٥ ـ ندامـة:

ليتني لم أتوجع ليتني تحملت الظلم وقبلت المصادرة ليتني وفرت على نفسي الجهد والعناء ونفقات الاستئناف إذا لبقيت مؤمناً ولما تحولت لفاسق.

ندمت ما ندمت وضل حلمي ... ولهفي ثم لهف أبي وأمي
ندمت ندامة الكسعي لما ... طلبت رضى بني جرم بزعمي

٦ ـ وعظ لفضيلة مدير الوعظ:

فضيلة مدير الوعظ يعتبر واقعة الظلم مجرد نبأ هذا حقه ولا تثريب عليه ويمكنه محاولة إثبات ذلك لكنه ليس من حق فضيلته أن يعتبر ناقل النبأ المظلوم فاسقاً لعل فضيلته ولكثرة مشاغله الإدارية قد طش التهمة طشاً وأرسلها وهو في حالة غضب دون التأكد من صحة تصوره الشرعي للتهمة أو من دقة تكييفه للوقائع

فيغدو من المفيد أن نضع بين يدي صاحب الفضيلة الخطوط العريضة الكلية لإصطلاح فاسق يقول تعالى: **﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون☆ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون☆ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾** (السجدة الآيات: ١٨ ـ ٢٠).

وفي الآية ٦٧ من سورة التوبة يبين الله لنا أن الفاسقين هم المنافقين وفي الآية ٤ من النور شرع تعالى عدم جواز شهادة الفاسق وفي الآية ١٠٨ من المائدة و٢٤ و٨٠ من الصف قطع الله وعداً مفاده **﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** وفي ٥٣ من التوبة أكد تعالى بأنه لن يقبل منهم عملاً وفي الآية ٩٦ يبين أنه لن يرضى عنهم وفي الآية ١٢ من النمل و٣٢ من القصص و٥ من الأعراف يبين أن فرعون وجنوده وقومه كانوا فاسقين وقوم نوح كانوا فاسقين.

عفواً يا صاحب الفضيلة:

فبأي صنف من هذه الأصناف المطرودة من رحمة الله وصفتني؟ لأنني فقط أشكو إليك ظلامتي دعك من صلاتي ونسكي وحجاتي وعمراتي وأي مزايا أدعيها وينسبها إليّ الآخرون بل لأني على الأقل كنت أحد خطباء المساجد في وزارة الأوقاف ووقفتُ على عشرات من منابرها وأصغى إلي عشرات الألوف من المسلمين من أجل هذا ما كان ينبغي لفضيلة مدير الوعظ أن يخرجني من ديني وأن يطردني من رحمة الله ويطلق عليّ لفظ فاسق لأنني فقط تظلمت ولكن لا تثريب على فضيلته لأنه يتصور أن قرار الطرد من الرحمة الإلهية والإخراج من دين الإسلام شأناً دينياً ومن اختصاص وزارة الأوقاف.

تلخيص الموقف والدخول بالموضوع:

وزارة الأوقاف الموقرة جزء من دولة المملكة الأردنية الهاشمية وهي تعتقد بحكم التأويل أنها مختصة بمراقبة وإجازة كافة المؤلفات والمطبوعات التي ينتجها المسلمون في الأردن والمتعلقة بدين الإسلام على اعتبار أن هذه المؤلفات والمطبوعات شؤون دينية متعلقة بالإسلام، والشؤون الدينية المتعلقة بالإسلام والمسلمين في الأردن من اختصاصاتها ووزارة الأوقاف اعترفت بلسان فضيلة مدير

الوعظ بأمرين أولهما أنه لا يوجد نص قانوني يعطيها حق مراقبة المؤلفات وإجازتها ولكنها تفعل ذلك قياساً على وزارات الأوقاف في العالم الإسلامي على حد تعبير فضيلة مدير الوعظ وثانيهما وباعتراف فضيلة المدير أنه لا يوجد لدى الوزارة جهاز من الموظفين متفرغ لغايات المراقبة والإجازة مما يضطرها للاستعانة بمن تسميهم بذوي الاختصاص من خارج الوزارة.

أصحاب الاختصاص:

لا يوجد تعريف علمي محدد لصاحب الاختصاص فإحالة المؤلف له سر ومعنى الاختصاص سر وقرار صاحب الاختصاص سر وغير قابل لأي طريق من طرق الطعن القانونية فهو حاكم عرفي حقيقي فصاحب المؤلف أو المطبوع لا يمكنه معرفة المدقق ولا توضيح وجهة نظره لصاحب الاختصاص هذا ثم يفاجىء بقرار كالقدر لا مفر مما يقوله صاحب الأختصاص هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما يراه صاحب الاختصاص باطلاً فهو عدم لا معنى له وبقدرة قادر يتحول قرار صاحب الاختصاص من قرار صنعه فرد إلى قرار وزارة تدافع عنه بكل إمكانيات الوزارة ومن يطعن بالقرار الدعي المنسوب ظلماً إليها فكأنما يطعن بالإسلام نفسه وهكذا يلبسون الظلم رداء الإسلام وصاحب المؤلف أو المطبوع يترنح ويصيح فلا يصغي له أحد.

أصحاب الاختصاص عند وزارة الأوقاف:

أصحاب الاختصاص عند وزارة الأوقاف هم أعضاء وقادة الأحزاب الدينية هم علماء العصر وأحباره والإسلام نفسه، ولله المثل الأعلى ليس أكثر من قطعة أرض مسجلة باسم هذه الأحزاب ومفروزة لصالحهم ومملوك لهم على سبيل التفرد يتصرفون بها تصرف المالك ويحرمون على كل الناس الدخول إلى ممتلكاتهم الخاصة إلا بإذنهم أو أن لهم ملكية أدبية على الإسلام ومع هذا لا يكلفون أنفسهم عناء إبراز سندات تسجيل صادرة عن دائرة الأراضي والمساحة ولا وثائق تسجيل الملكية الأدبية في وزارة التجارة والصناعة.

مثال على تكييف وزارة الأوقاف لذوي الاختصاص:

من سنة ونصف أحالت دائرة المطبوعات كتاباً لي اسمه (مرتكزات الفكر السياسي) وهو بحث دستوري يعالج أساس السلطة الدستورية في الإسلام والرأسمالية التحررية والماركسية الشيوعية فأرسلته وزارة الأوقاف إلى دكتور لا يعرف معنى الدستورية ولم يدرس الدساتير ولا يعرف شيئاً عن القوانين فأوصى بعدم إجازته ودبرت واسطة وأحيل لشخص آخر لا يعرف شيئاً عن الدستورية أيضاً وما زال المؤلف يترنح بوزارة الأوقاف بالرغم من مضي سنة ونصف وبالرغم من تأكيدات فضيلة مدير الوعظ بأن أكبر كتاب لا يبقى عندهم أكثر من ١٥ يوماً وأستشهد بدائرة المطبوعات على واقعة مدة السنة والنصف.

كل ما لا يعرفه صاحب الاختصاص هو باطل:

وكتابي موضوع هذه المداخلة المرجعية السياسية بحث جديد بشكله ومضمونه حولته الوزارة إلى دكتور تحريري فرز الحق عن الباطل واستوعب الإسلام كما استوعبه أساتذته في حزب التحرير وكل ما هو خارج عن دائرة هذا الحزب هو باطل وفوق ذلك هو لا يعرف معنى المرجعية ولا يفرق بين التاريخ السياسي ولا بين النظام السياسي ولا يفرق بين فهم الحزب للإسلام وبين الإسلام نفسه فالفهم عنده كالمفهوم والأصل كالفرع وما يقول المخلوق تماماً مثلما يقوله الخالق وبالرغم من أنني وثقت كتابي بمئات المراجع منها عشرات المراجع لا يعرفها أخو التحرير هذا ولم يسمع بها وغير موجودة في الأردن إلا أنه وبشهادة شاهدين قرأ الكتاب بساعتين وأصدر قرار خلال الساعتين وصرح لقريب له أنه لن يجيز هذا الكتاب وهكذا يمكن لتحريري أن يصادر حريتي باسم وزارة الأوقاف.

دعوة للأسد:

ليخرج هذا الأسد من عرينه وليبين للناس معنى المرجعية والفوارق بين المنظومة الحقوقية الأهلية وبين الفكر الإسلامي بين التاريخ وبين النظام أو ليعلن على رؤوس الأشهاد أنه ليس من أصحاب الاختصاص أو ليعترف أن جسده يعيش

في الأردن واحة الديمقراطية وأن فكره يحيا في العصور الوسطى.

الشؤون الدينية:

مناهج الدين في المدارس شأن ديني وما تكتبه الصحف الأردنية عن الإسلام شأن ديني وتوزيع التركات شأن ديني والعلاقة بين الزوجين وفض المنازعات بينهما شأن ديني... إلخ هذا على مستوى القانون أما على مستوى الشرع الحنيف فإن كل ما في الحياة شأن ديني ودنيوي معاً وإذا أخذنا بتأويل وزارة الأوقاف فمعنى ذلك أن هذه الوزارة ستأخذ اختصاصات كل وزارات الدولة وعلى الصحف الأردنية أن تعرض سلفاً صحفها على الأوقاف وهذا أمر غير معقول.

جواب على تعجب فضيلة مدير الوعظ:

يقول فضيلة مدير الوعظ إذا لم تكن وزارة الأوقاف مسؤولة فمن المسؤول إذن؟ ببساطة. دائرة المطبوعات والنشر هي المسؤولة وهي المؤهلة واقعياً وقانونياً لذلك وهي تعرف القانون ومقاصده وفهمها للإسلام مع عميق الاحترام والتقدير، أعمق وأوسع من فهم وزارة الأوقاف والأحزاب الدينية لأن الدولة زودتها بجهاز متخصص وبإمكان وزارة الأوقاف الرجوع لمستشارها القانوني الفاضل للتأكد من صحة ما ذكرناه.

المؤلف والفتنة:

يقول فضيلته إن وزارة الأوقاف ستوافق على نشر أي كتاب لا يثير فتنة. سيدي صاحب الفضيلة كأنك لا تدري أن الأردن بفضل الله أصبح حقيقة واحة الحرية في الشرق يمكنك بعد انتهاء الدوام أن تشتري مذكرات بن غوريون والبيان الشيوعي وكافة مؤلفات كارل ماركس وأنجلز وكانت ولوك وروسو ومنتسكو... إلخ يمكنك أن تطلع على آراء الجميع كل الآراء تطرح أرجوك إن مفاوضات السلام ما زالت جارية. الأردن يتسع بالرأي وبالرأي المعارض هكذا الدستور وهكذا الميثاق وهذا روح العصر يا فضيلة الأخ وهذا هو جانب من الإسلام لو عرفتموه على حقيقته فالفتنة لا تحصل من نشر الرأي لكنها عاجلاً أم آجلاً هي

نتيجة مصادرة الرأي الآخر ثم أن التصدي للفتن خارج اختصاص وزارة الأوقاف.

وزارة الأوقاف والدفاع عن الإسلام:

يقول فضيلته ستبقى الوزارة حصناً يصادر كل رأي يخالف شرع الله... إلخ إن إبليس خالف الله تعالى ولم يصادر الله رأيه الخاطىء إنما أعطاه الفرصة لطرح رأيه المخالف للشرع الإلهي وللمنطق ثم دحضه فهل لي أن أسأل فضيلتكم أين هو النص الذي يصادر الرأي الآخر أمامك القرآن الكريم الذي يبين كل شيء وأمامك السنة بفروعها الثلاثة القول والفعل والتقرير فإن لم تجد فمن أين جئت بهذا الاختصاص وألصقته بوزارة الأوقاف؟ وفي حالة إصرار الوزارة فإن محكمة العدل العليا لن تقر الوزارة على هذا الاختصاص بل ستعلن بطلانه هذا على فرض أن رأي هذا المؤلف أو ذلك يخالف شرع الله مع أن هذا غير وارد فمن يصل إلى درجة البحث في الإسلام يترفع عن السقوط بمخالفة شرع الله ثم إن الشيوعي في الأردن يخالف بآرائه شرع الله لماذا لا تتفضل وزارة الأوقاف فتصادر رأيه بدلاً من مصادرة رأي الإسلام.

الرد بالتلقين:

وزارة الأوقاف كشخص معنوي وجهازها كأفراد لهم أن يفهموا الإسلام لكن فهم الوزارة الموقرة وجهازها الكريم للإسلام ليس هو الإسلام فالإسلام شيء متميز وهو من عند الله وفهمكم للإسلام شيء آخر متميز وهو من عند أنفسكم وما ينطبق على الوزارة وجهازها الفاضل ينطبق على من تسميهم الوزارة بأصحاب الاختصاص فالمفهوم شيء والفهم شيء آخر وشرع الله شيء وفكركم شيء آخر لأن هذا الفكر يختلف من فرد إلى فرد فاختلافي مع الوزارة أو الأحزاب الدينية لا يعني أنني مختلف مع شرع الله بل إن حرصي على شرع الله لا يقل عن حرصكم كل ما في الأمر أنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك وأنتم لا تقسمون رحمة الله وليس معكم ما يثبت أن الإسلام ولله المثل الأعلى قطعة أرض مسجلة باسمكم أو أن لكم عليه حقاً أدبياً مسجل في دائرة الصناعة والتجارة. الإسلام دين الدولة ودين الأغلبية الساحقة

من شعبها وحاميته هي الدولة بكل مؤسساتها وليست وزارة الأوقاف ولا أصحاب الاختصاص.

ارفعوا أيديكم:

لا يوجد نص قانوني يخول الوزارة حق مراقبة وإجازة المؤلفات وليس لديها الجهاز المتفرغ لذلك وممارسة وزارة الأوقاف لمهمة المراقبة والإجازة يجري على الغالب وباعتراف الوزارة بواسطة أشخاص من خارج ملاك الوزارة حيث يصدرون قرار الإجازة أو المنع عملياً وتأتي الوزارة لتعلن هذا القرار وتتبناه رسمياً وهو تصرف باطل وغير قانوني بكل المقاييس.

الفصل الخامس

بين يدي وزارة الأوقاف
والأحزاب الدينية في الأردن

١ ـ وباحت الأسرار:

إدارة جهاز الوعظ الموقرة في وزارة الأوقاف حريصة كل الحرص على إبقاء اسم مدقق المطبوع أو المؤلف سرياً. لأن هذا سر المهنة وأقرب لتحقيق العدالة، وبعد نصب وعذاب، وعشرين يوماً من الحل والترحال عرفت أن كتابي قد أحيل للسيد عبد الحليم الرمحي والسيد الرمحي هذا من الأعضاء المؤسسين لحزب التحرير الإسلامي ومن قياداته البارزة في الأردن، هو يفخر بذلك في مجالسه الخاصة ولا تثريب عليه طالما أن بإمكان الناطق الرسمي باسم هذا الحزب أن يقول ما يشاء في الأردن واحة الديمقراطية في الشرق العربي.

وقد صعقت من هول نبأ الإحالة، واحتجيت، لكن ما قيمة الاحتجاج أمام قرار محصن سلفاً من كل أشكال الطعون القانونية، فكتابي شئت أنا أم أبيت سيقيم على ضوء آراء ومعارف ومعتقدات وفهم حزب التحرير للإسلام لا على ضوء الإسلام ولا على ضوء أحكامه ولا على ضوء المنظومة الحقوقية التي تحكم هذا البلد ومما يعقد الأمور أن مؤسس الحزب وواضع نظامه قد انتقل إلى رحمة الله تعالى، مما يستوجب العمل بالقياس ليعرف الحزب المقصود الحقيقي للمؤسس الراحل في كل مسألة من المسائل والقياس يستدعي الاجتهاد وهذا يفتح شهية الهوى والغرض.

٢ ـ الرأي والرأي المخالف في الديمقراطية وفي الإسلام ولدى الأحزاب الدينية:

وأول ما تعني الديمقراطية العقلية بصيغتها النهائية، حق الأكثرية بالحكم، وحق الأقلية بالمعارضة، وضمانة الحقين معاً، وتعني وجود رأي ووجود رأي مخالف وضمانة التواجد لهذين الرأيين معاً والحرية هي الأساس الأوحد للديمقراطية وأختها التوأم والحقوق الأساسية للإنسان هي محور الديمقراطية ومبرر وجودها، فإذا تمت مصادرة الرأي الآخر، ومنع صاحبه من التصريح به عندئذ تنهار كافة هذه الأسس وبانهيارها يعلن ضمناً انتهاء اللعبة الديمقراطية.

٣ ـ الإسلام يحرم مصادرة الرأي الآخر:

الإسلام يعطي الحرية لصاحب كل رأي بأن يقول رأيه كاملاً غير منقوص ثم بعد ذلك يقدم له الجواب الأمثل والحكم اليقيني، ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة بفروعها الثلاثة القول والفعل والتقرير ولو حالة واحدة تشير إلى أن الإسلام يصادر حق الإنسان ورأي الإنسان على الإطلاق بأن يقول رأيه في كل أمر من الأمور. بل وبإمكان المخلوق أن يقول رأيه حتى لله عز وجل ويسمع الله الحليم رأي هذا المخلوق كاملاً ثم يرد عليه إبليس نفسه عندما رفض السجود لآدم فسأله تعالى عن سبب رفضه، وصرح إبليس رأيه كاملاً ويمكن للأحزاب الدينية في الأردن وخاصة حزب التحرير أن تتفضل مشكورة ومأجورة إن شاء الله بتلاوة سورة البقرة آية ٣٤ و١١ الأعراف و٣١ الحجر وما فوق و٦١ الإسراء و٥٠ الكهف و١١٦ طه و٦٥ الشعراء و٢٠ سبأ و٧٤ ص و٧٥. والله تعالى سمع رأي الذين قالوا بتعدد الآلهة وأجابهم عليه، وسمع رأي الذين استبعدوا إمكانية إحياء الإنسان بعد موته وتحلله إلى تراب وأجابهم عليه، وسمع حجة أهل الكتاب، والأمم القبلية وأجاب الجميع جواباً يقينياً، بل وإن القرآن نفسه أخبرنا بأن المخلوقات ستتنكر لأفعالها وتلصق التهم بغيرها ومع هذا يسمع الله تعالى، ويقيم الأدلة القاطعة على كذب هذا الادعاء، فتشهد الأبدان والأيدي والأرجل والجلود... إلخ.

٤ ـ على صعيد السنة المطهرة:

أتحدى الأحزاب الدينية في الأردن وحزب التحرير بشكل خاص أن يدلوني

على حادثة واحدة تبين أن الرسول الكريم إبان دعوته الراشدة ودولته الماجدة قد منع أي مخلوق من أن يصرح برأيه وهل تتفضل هذه الأحزاب وتخبرني بماذا عوقب ابن الخويصرة عندما قال لمحمد النبي ومحمد الولي ومحمد رئيس الدولة: «إعدل يا محمد والله ما أردت بهذه القسمة وجه الله، لم يزد النبي على القول: ويحك من يعدل إن لم أعدل أنا، وعاش الخويصرة حتى قاد الخوارج في زمن الإمام عليه السلام، والأحزاب الدينية تتذكر أن الإسلام بحقيقته ومحتواه ينبع من نبعين صافيين هما القرآن الكريم والسنة المطهرة. فهل تتفضل الأحزاب الدينية في الأردن وحزب التحرير بشكل خاص فتبين لنا مشكورة من الذي أعطاها صلاحية التحرك بالظلام ومصادرة الرأي الإسلامي المخالف لها؟ إذا كانت تصادر الرأي الإسلامي المخالف لها وهي ما زالت في صفوف المعارضة فكيف تعمل بمعارضيها لو وصلت إلى الحكم؟ وما هو مصير أهل الكتاب؟ ليكن الله بعوننا وعونهم.

٥ ـ حزب التحرير والرأي المخالف:

حزب التحرير يعلن على رؤوس الأشهاد أن الديمقراطية كفر، وعلل أمير الحزب رأيه بكتيب ويهاجم بكتيبه هذا الأردن، ولا ينجو من هجومه أحد على الإطلاق، نفس الأردن الذي أعطاه الحرية، وأذن له بأن يقول ما يشاء ولم يتعرض أمير الحزب لأي عقوبة على تجديفه لسبب بسيط إن الأردن يعطي الحق لصاحب الرأي المعارض بأن يقول رأيه، لأن الأردن بلد ديمقراطي ومتمسك بتقاليده الإسلامية. ومع ذلك فإن حزب التحرير يصادر الرأي الإسلامي المخالف له إعمالاً للمقولة الشهيرة التي وضعها الشيخ تقي الدين النبهاني (رحمه الله) ومفادها (الحزب على الحق وغيره على الباطل) وعلى من يدعي العكس أن يثبت ذلك ولكن بوسائل الإثبات التي وضعها الحزب. هذا هو رأي الإسلام عند حزب التحرير ومن يعارض ذلك فكأنما يعارض الإسلام، ومن يعارض الإسلام هو كافر.

٦ ـ استئذان بترداد بيت شعر:

بكل السكينة والوقار أقف أمام جدث أمير الشعراء أحمد شوقي وأستأذنه لأردد:

أحــــرام علـــى بـــلابلـــه الـــدوح حـــلال للطيـــر مـــن كـــل جنـــس

يقول أمير حزب التحرير السيد زلموم ما يحلو له، ويردد أتباعه اللازمة، ويروجون لكل ما يقول حقاً كان أم باطلاً ويصفقون له مخطئاً كان أم مصيباً ما يقوله هو الإسلام والذين يعارضونه هم أعوان الشيطان، ونفس الهالة من القداسة يخلعها الإخوان المسلمون على إمامهم الشهيد (رحمه الله) وجزاه عن الإسلام وأهله كل خير، والوهابيون لا يقلون ولاء لعبد الوهاب (رحمه الله) عن ولاء الإخوان والتحرير لأمرائهم هؤلاء فرسان الأسلام ولا فرسان غيرهم، هؤلاء مفكرون وفكرهم ووجهة نظرهم هي وحدها التي تستحق العناية والبحث وهم وحدهم الناطقون الرسميون باسم الإسلام. ولا ينال رضى المشاة إلا من يسلم بوحدانيتهم ويجر على نفس الفاطر، ويضرب على ذات الدف.

٧ ـ ويحكم خلوا على رأسها:

تقول الأحزاب الدينية إنها تكن كل الاحترام والتقدير لأهل بيت النبوة خاصة ولبني هاشم عامة، ولكنها تخرجهم تماماً من الحياة الفكرية عامة مع أنهم الثقل الأصغر بالنص الشرعي وخيرة الخلق بعد النبي بالنص الشرعي وهم المطهرون بالنص الشرعي، وهم نجوم الهدى بالنص الشرعي، وهم سفينة النجاة بالنص الشرعي، وهم فرسان الورى بالنص الشرعي وهم أهل العلم والحجى بالنص الشرعي وأتحدى الأحزاب الدينية في الأردن مجتمعة ومنفردة أن تنفي أي صفة من هذه الأوصاف حتى أغراقها في بحار من المراجع فإن لم تفعل ولن تفعل بإذن الله فبأي حق تحرمون على الباحث أن يتناول فكرهم ووجهة نظرهم في الحكم والعلم والسياسة والدين، مع أنهم هم الذين علموكم الحكم والعلم والسياسة والدين، ألا تتاح الفرصة لباحث عن فكرهم ووجهة نظرهم كما تتاح الفرصة لمن يبحث عن فكر كارل ماركس وأنجلز ولينين وستالين وجيفارا ولنكولن، وغولدا مائير وبن غوريون وجون لوك، ورسو ومنتسكيو. . . إلخ؟.

إن هذا الأمر عجاب!!! ولكن العجاب يزول إذا عرفنا أن هناك إدغام بغنة بين الدين والإحزاب الدينية في الأردن فقد أشاعت الأحزاب الدينية أن رأيها وفهمها للإسلام هو عينه الإسلام.

كيف تسمح الأحزاب الدينية لفكر حسن البنا، وتقي الدين النبهاني وابن عبد الوهاب (رحمهم الله) بأن يُعرض. وتحرّم على الباحث أن يعرض وجهة نظر أهل البيت الكرام وبني هاشم!! ولا تعارض هذه الأحزاب طرح أي فكر على الإطلاق إلا فكر أهل البيت ووجهة نظرهم.

٨ ـ جهالة في التاريخ:

هل فرسانكم (رحمهم الله) هم الذين حوصروا في شعاب أبي طالب ثلاث سنين حتى اضطروا أن يأكلوا ورق الشجر من الجوع واضطر أطفالهم أن يمصوا الرمال من العطش؟.

هل خوفاً من فرسانكم (رحمهم الله) اضطرت قبائل قريش أن تختار من كل قبيلة رجلاً حتى يضرب المختارون النبي ضربة واحدة فيضيع دمه بين القبائل ولا يقوى فرسانكم على المطالبة بدمه؟.

هل فرسانكم هم الذين حموا النبي حتى أعز الله الإسلام؟ وهل خلع الله على فرسانكم من الصفات ما خلعها على أهل بيت النبوة وبني هاشم فإن أجبتم بالإيجاب كذبكم فرسانكم أنفسهم وقالوا لكم أيها المشاة وبصوت واحد تلك مزايا هاشمية وفضائل لدنية خص الله بها الهاشميين، وفوق ذلك أيها المشاة فإن الصلاة عليهم ركن من أركان الصلاة المفروضة.

إذا كانت الحالة هكذا فلماذا لا تأذنون بطرح فكرهم ووجهة نظرهم أسوة بغيرهم من أصحاب الفكر ووجهات النظر، ولماذا يصفهم أمير حزب التحرير هامشاً لهم بالفساد؟.

٩ ـ البحث العلمي والرمحي:

كتبت بحثاً علمياً وموضوعياً عن فكر آل البيت في الشؤون السياسية ووثقته بمئات المراجع المعتبرة، والمأخذ الحقيقي للسيد الرمحي هو ولائي العميق لبني هاشم ولكنه لا يقوى على الجهر بهذا المأخذ، فتجده يتمحك الأسباب ويختلق المأخذ ويستنجد حتى بالتاريخ لسبب واحد هو أن الحقائق الشرعية الدامغة لا تتفق

مع ما فهمه حزب التحرير، ولأن السيد الرمحي الفاضل يجهل جهلاً فاضحاً فكر أهل البيت ووجهة نظرهم في الموضوع وكلما يجهله الأخ الكريم ويتعارض مع وجهة نظر حزب التحرير هو خطأ، تلك أمور تخصه وحده وتخص حزب التحرير ولا علاقة لي بها.

والذي يعنيني أنني حر في بلد حر، يدين بالولاء لقيادة هاشمية آمنت بالحرية وجعلتها مسلكاً وخط حياة وإذا آلت الأمور لا سمح الله إلى الأحزاب الدينية في الأردن عندها الخيار بأيدينا فإما أن نترك هذا البلد الحبيب لهم مع أننا بنيناه حجراً فوق حجر قبل أن يلد مؤسس حزب التحرير وقبل أن يلد الرمحي، وقبل أن تطأ أقدامهم هذه الأرض الطيبة أو أن نقبل بأن نكون خولاً لهم.

١٠ ـ بيد وزارة الأوقاف:

إما أن تتفضل الوزارة بإحالة الكتاب لعالم يحترم نفسه كسمو الأمير الحسن أو الأستاذ ناصر الدين الأسد، أو الأستاذ علي محافظة... إلخ. وإما أن تعيده لدائرة المطبوعات وتترك لها الحرية بالإجازة أو عدم الإجازة، فأنا مواطن في الأردن الدولة والوطن وخاضع لقوانينها ولست واحداً من رعايا الأحزاب الدينية.

١١ ـ أما الأحزاب الدينية في الأردن:

فقد نقدناكم نقداً علمياً، وهذا حقنا وتلك طبيعة العصر، وترفعتم عن الرد وهذا حقكم وتلك طبيعة من يزعم امتلاكه لكل الحقيقة، يمكنكم قراءة البحث، وكشف عيوبه، وإبداء الرأي، وإتاحة الفرصة أمامي للإثبات، وستكشفون مع عميق الاحترام لرأيكم أن الإسلام العظيم شيء وأن فهمكم المبجل له شيء آخر وجربوا مجتمعين ومنفردين أن تفتحوا باب الحوار في أي أمر من أمور الإسلام السياسي ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة.

منع الإجازة وإعطائها:

امتنعت وزارة الأوقاف عن إعطاء إجازة لطباعة «مؤلف» السيد محمد أبو فارس النائب في مجلس النواب والأخ المسلم البارز بحجة أن مؤلفه يرى أن

الاشتراك في مجلس النواب خطيئة، وأخذ النائب مؤلفه من المطبعة وأرسله لمطبعة أخرى ليطبعه بدون إجازة، ثم حدثت معجزة ورجعت الوزارة عن قرارها وأجازت مؤلف النائب الكريم.

هل يعقل لست أدري؟:

ذلك نائب وأخ بارز فهل تعامل وزارة الأوقاف المحامي كالنائب؟ لست أدري؟ فتلك أمور تخرج تماماً عن دائرة التوقعات.

عزيز علي:

يعز عليّ أن أباهي الدنيا ببلدي، وأن أحن إليه حتى وأنا أطوف حول البيت الحرام، وعندما عدت إليه تناولت حفنة من ترابه الطاهر ولثمتها وبللتها بأدمعي، ومع هذا ولأسباب غير منطقية أحرم من طباعة بحثي فيه، مع أنني لا أعرض فكر ماركس أو أنجلز أو لوك أو روسو أو وجهات نظرهم إنما أعرض فكر آل محمد ووجهات نظرهم.

مسك الختام دعاء:

إلهي ومولاي العالم بسري وعلانيتي أتوسل إليك بمحمد وآله الأكرمين أن تتوفاني قبل أن يحكمني حزب عربي ديني. إلهي لا تحكمهم بأحد، ولا تمكنهم من أن يذلوا أحداً، فقد عدوا طورهم، وتجاوزوا حدهم، وألحقوا أفدح الأضرار بدينهم، إلهي إليك أشكوهم، وإليك وحدك أشكو حزني وبثي كما شكا عبدك ونبيك يعقوب، إلهي أعلن بين يديك ضعفي وهواني على هذه الأحزاب وقلة حيلتي كما أعلنها عبدك ونبيك محمد. يا إلهي أصرفهم من دربي، وجنبني شرهم ومكرهم واغفر لنا ولهم واهدنا وإياهم إلى صراطك المستقيم، يا إلهي ومولاي صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد، والحمد لله أولاً وآخراً.

تم الجزء الأول

المحتويات

الفصل الحادي عشر

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الباب الرابع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الخامس